زَادُ الحَاضِرِ وَالمُسَافِرِ



الشّيخُ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّد بْنِ مُهَلْهِل اليَاسِين

زاد الحاضر والمسافر

الطبعة
الأولى
١٤٣٣ هـ
٢٠١٢م

الموضوع: سلسلة بيت الدعوة
اسم الكتاب: زاد الحاضر والمسافر.
المؤلـــــف: الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الصف والإخراج الفنى: مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحـــات: ٤٦٨ صفحة
عدد الملازم: ٢٩,٢٥ ملزمة
قياس الصفحـــة: ١٧×٢٤
رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٥٤٤

شركة السماحة للنشر والتوزيع

الكويت

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/٩٩٥٥٧٤٧١

زاد الحاضر والمسافر

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ـ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصر من : مؤسسة شروق للترجمة والتوزيع

المنصورة - شارع جيهان - أمام مستشفى الطوارئ - ت ٠٥٠/٢٣٦٦٧٦٦

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (٩) الرقم الفني (٩)

الإهـداءُ نــثرًا

إلَى وَالِدَتِي مُنيرَةَ الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ ربِّي، وسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّد بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنَّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وفَاتِهَا -رَحِمَهَا اللهُ- بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاسًا بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ -فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ- خَيْرًا يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي -رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ-. وَأَسْأَلُ اللهَ -سُبْحَانَهُ- أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا تُؤْذِي أَحَدًا وَلَا شَيْئًا حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلَا يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إلى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِل ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي .

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ .

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي .

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلَادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً .

وَأَهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ فِي المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ .

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ .

الشَّيْخُ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهَل الْيَاسِين



الإهــداء شـعـرًا

أُمَّـــــاهُ كُنْت مُـنيــرَةً وَمَنَـارَةً عُلْيَــا وَصَــرْحًـا ثَابِتَ الأَرْكَــانِ
قَـدْ كُنْت مَـدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُـوسَنَـا لِصَنَائِعِ الـمَعْـرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَـــدْ كُنْت لِلأَيْتَـــامِ أُمًّـــا بَـــرَّةً وَالجَـارِ وَالْـمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ
أَرْضَعْـتِنَا الأَخْلاقَ شَـهْدًا سَلْسَلاً تَدْنُو ثِـمَارُ قُطُـوفِـهَـا لِلْجَـانِي
عَلَّمْـتِنَا الصَّـبْـرَ الجَـمِيلَ خَلِيقَـةً وَالقَــوْلَ لِلحُـسْنَىٰ وَكَفَّ لِسَانِ

أَبَتَـــاهُ قَــدْ رَبَّيْــتَنِي وَأَحَطْتَنِي بِرِعَـايَـةٍ فِـي غِـــبْطَــةٍ وَأَمَـانِ
وَفَّـرْتَ أَسْـبَـابَ السَّـعَادَةِ وَالهَنَا فَـجَـعَلْتَنِي أَسْــمُـو عَلَىٰ الأَقْـرَانِ
فَـجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْـرَ جَـزَائِهِ وَأُسْكِنْتَ فِـي رَوْحٍ وَفِـي رَيْـحَانِ

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَـا سُـبُلَ العُــلا بِالفَـــضْـلِ لا فَـظٌ وَلا مَنَّــانِ
كَمْ ذَا تُقَـــابِلُ بِالسُّـــرورِ تَدَلُّلِي بِمَـــحَــبَّـةٍ وَبِرَأْفَــةٍ وَحَنَـــانِ
أَحْـبَـبْـتَنِـي قَـرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي بِالعِزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِـي اطْمِــئْنَانِ

أَرَفِـيـقَـتِـي كُنْت الشُّـعَاعَ إِذَا دَجَـا لَيْلُ الحَـــيَــاةِ بِـمُظْـلِـمِ الحِـدْثَانِ
قَـدْ كُنْت خَـيْـرَ شَـرِيكَـةٍ وَمُـعِـينَةٍ فِي البِـرِّ عِنْدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الصَّـبْـرُ فِـيكِ مَعَ الوَفَـاءِ سَجِـيَّـةٌ بِتَـــعَـــاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

يَا حَـــبَّـذَا **أَفْـلاذُ أَكْــــبَـادٍ** بِهَـا كَـــمُلَ الـمُـرَادُ وَقَـرَّتِ العَـــيْنَانِ
فَاحْفَظْ **مُعَـاذًا** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** أَمَـدَ الزَّمَـانِ **وَعَـــابِدَ الرَّحْـــمَنِ**
لاَ زَالَ **عَـــبْدُ اللهِ** فِي حِــفْظٍ وَلاَ زَالُـوا جَـمِـيـعًـا غُـرَّةَ الفِـتْـيَـانِ

وَلْـتَـحْظَ **عَـائِشَـةُ وَفَـاطِمَـةُ** بِمَـا قَـــدْ شَـاءَتَا مِنْ بُغْـــيَـةٍ وَأَمَـانِ
وَاحْـــفَظْ **هَيَـا وَمُنِيـرَةً** يَا رَبَّنَا مِنْ مُـــبْطِنِ الْبَــغْـضَـاءِ وَالشَّنَآنِ

يَا رَبِّ لاَ زَالَ **الْجَــمِـيعُ** بِنِعْـمَــةٍ وَقِـهِمْ شُـرُورَ الْحَـاسِدِ الْمِعْـيَـانِ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُـحَـمَّـدٍ وَالآلِ وَالأَصْـــحَـــابِ كُلَّ أَوَانِ

الشَّيْخُ الدُّكْتُور
جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

مقدمة

الحمد لله حــمدًا كثيراً مبــاركاً فيه كما يحــب ربنا ويرضى، اللهم لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهمــا وملء ما شئت من شيء بعد، فكل الحمد لك، نحمدك على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن، ونحمدك على أن جعلتنا من أمة خير الأنام صلوات الله وسلامه عليه.

نشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن مــحمدا عبدك ورسولك صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد..

فمن المؤكد أن الداعــية إلى الله حين يملك عقلا يفكر، وبيــانا يصور، ولسانا يعــبر يكون قــد وصل إلى أوج النجاح، وقــمة التــوفيق في دروســه ومقــالاته، وخطبه، ومحاضراته، وأحاديثه ومحاوراته.

ومن المعلوم يقــيناً أن الداعيــة إذا اختار من المواضــيع التي لها اتــصال بواقع المجــتمع، ومــشاكل الناس، وقــضــايا المسلمين.. فإنه يــستطيع في كل مــوقف دعوي، وحــديث إرشادي، وخطبــة منبرية أن يأتي بشــيء جديد يثيــر في الناس نشاطهم، ويحــرك فيهم انتبــاههم، وما أكثر المواضــيع التي تتصل بروح الواقع، وتعالج مشاكل المجتمع، وتتصل بقضايا المسلمين.

وهذا الكتاب كــما يظهــر من اسمه جــعلناه زادا يتبلغ به الحــاضر في وطنه، ويتزود بــه المسافر في أسـفاره، فـيغنيــه عن الكثيــر من المؤلفات، لما يحــويه من موضوعات متنوعة، تثري عــقله، وتشبع عاطفته، يطوي به المراحل، ولا يتسرب الملل إلى نفسه.

وقد حــرصنا في هذا الكتاب أن يــكون وافيا باحــتيــاجات القــارئ أيًا كانت مشاربه، وأنى سارت به ركائبه، وجعلناه على خمسة فصول:

فكان **الفصل الأول** عن الدعــوة والدعاة من حــيث حــاجة البــشرية لرســول الإنسانية ﷺ، والدعوة والدعاة في منهج القــرآن الكريم، والدعوة بين منابر الحق

ومدرسة الميدان، والمعايير المنهجية في الدعوة الإسلامية ومستلزماتها . . . والدعوة النسائية: واقع ومتطلبات . . إلخ.

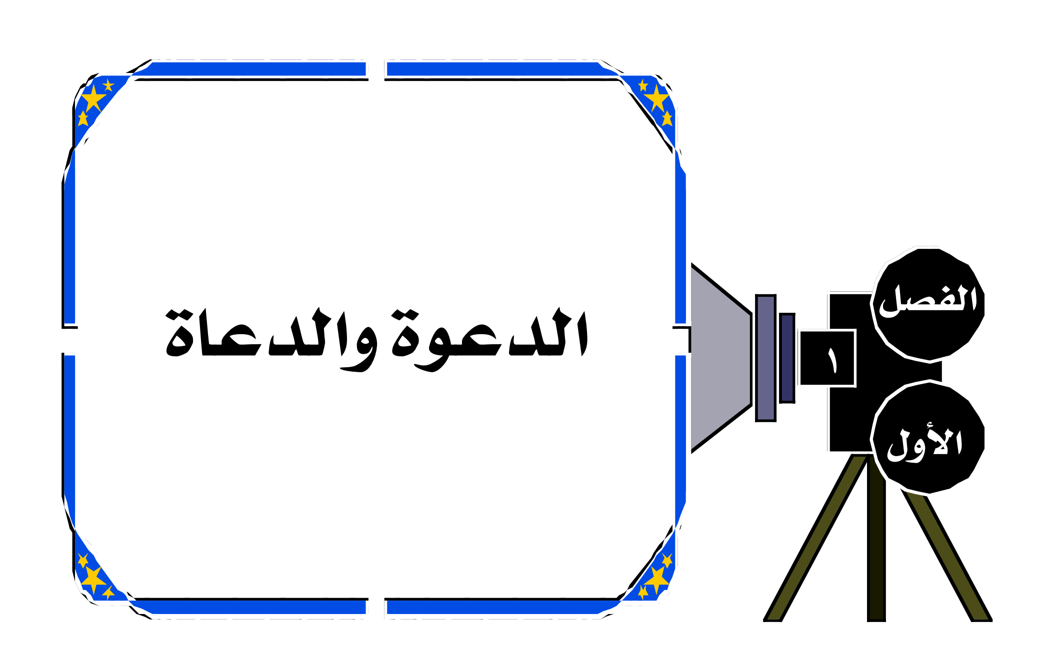
وعشنا في **الفصل الثاني** في مدرسة العبادة؛ حيث الصلاة والزكاة والصوم والصدقة والأعياد الإسلامية.

وتحدثنا في **الفصل الثالث** عن جملة من الأخلاق مثل: الأخوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة، وغض البصر، ومحاسبة النفس، والمجاهدة، والتوبة، والثبات، والثقة بالله تعالى.

وعرضنا في **الفصل الرابع** لقضايا ودروس في المواجهة التي تعرض على الساحة بين الحين والآخر، مثل: تطبيق الشريعة والمجتمع الأمثل، وأثر شريعة الله في الحياة، والوقاية من السهام، وخلاف الفرعيات وتفرق الأمة . . . ، والأسرة المسلمة في مواجهة التحديات . . . إلخ.

وكان **الفصل الخامس** عن الرقاق مثل محبة الله تعالى، والخوف، والدعاء، والبكاء من خشية الله . . . إلخ.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب، ويجعله زادا للسالكين، والله نعم المولى ونعم النصير.


الدعوة والدعاة
الفصل
١
الأول

١ ـ حاجة البشرية لرسول الإنسانية ﷺ في ماضيها وحاضرها

حاجة البشرية إلى الرسالة لا غنى عنها، فالرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال تعالى: ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(١)، فهذا وصف المؤمن، كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

والناظر لحال البشرية وقت مولد رسول الإنسانية وحين بعثته ﷺ، والمتأمل واقع البشرية اليوم في كل مجالاتها، وعلى شتى الأصعدة، يدرك شدة احتياجها للسير على نهج الرسول ﷺ واتباع سنته، ولم لا وهي لا تسعد إلا باتباعها؛ لأن محمدَ بن عبد الله ﷺ إذا ذكر، ذكرت معه الفضيلة في أجمل صورها، وذكر معه الطهر في أرقى مشاهده، وذكر معه العدل في أسمى معانيه.

وقبل الحديث عن حاجة البشرية له ﷺ في ماضيها وحاضرها، نستهل حديثنا بتذكر المعاني الكامنة في الهدف من بعثته ﷺ والتي خاطب المولى جل وعلا فيها رسوله مبينا له وللناس أجمعين الهدف من رسالته بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢).

والعالم يعلم أن الرحمة وقت مولد المصطفى ﷺ وبعثته كانت بعيدةً كل البعد عن واقع البشرية، وإن وجدت ففي بعض صور وحالات منها، فهي أشبه بالحالات الفردية، ودون الأخذ بجميع جوانبها وشتى صورها، ودون أن تكون

---

(١) الأنعام: ١٢٢ . (٢) الأنبياء: ١٠٧ .

صفة مبرزة في واقع معاش للبشر.

وعلى هذا فلنتأمل في الآيــة الكريمة، وتعال نعش معــها من خلال معــايشتنا واقع البشر حين ولد سيد ولد آدم ﷺ؛ والآية توضح للبشرية جمعاء أن رسالة النبي ﷺ رحمة لعالم زمانه ومكانه حين ولد، ورحمة لهم حين بعث، مؤمنهم وكافرهم؛ أما المؤمن فإيمانه رحمة له فــي الدنيا من شرورها ونصبها، وفي الآخرة رحمة له من عذاب جهنم، وأمــا غير المسلم فلقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

وبهذا تدرك البشرية حــاجتها لرسول الله ﷺ؛ لأنها كانت تعيش حالة من الفوضى كما قال شوقي ـ رحمه الله :

أتيت والـناس فــوضى لا تمـر بهم ... إلا على صـنم قــد هام في صـنـم
والأرض مملوءة جـورا مـسـخــرة ... لكل طاغـيـة في الخـلق مـحـتكـم
مسـيطر الفرس يبغـي فـي رعـيـته ... وقيـصر الروم من كـبر أصم عـمي
يعــذبان عـــباد الله فـي شـــبـــه ... ويذبحـان كمـا ضـحـيت بالغنـــم
والخلق يفـتك أقـواهم بأضـعفـهـم ... كالليـث بالبهم أو كالحـوت بالبلم

وقد أتى الرسول ﷺ بكل ما فيــه مصلحة للبشر، وصــار تحقيق ذلك من أهم معالم شريعــته وقواعد الدين وأصول الفتيا، واقــرأ ما سطره الإمام الشاطبي حيث يقول: «والشريعة ما وضعت إلا لتحــقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفاسد عنهم».

ويقول الإمــام ابن القيم: «والشريعــة مبناها وأســاسها على الحكم ومــصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحــمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها».

وقد وضع الفــقهاء شــروطا يجب استيــفاؤها قبل الإذن بالعــمل بالمصلحة، وهي:

(١) الأنفال: ٣٣ .

١ ـ أن تكون منسجمة مع مقاصد الشرع غير معارضة لنص قطعي، ولا أصل من الأصول.

٢ ـ أن يرفع بها مشقة أو حرجا لازما.

٣ ـ أن تكون عامة للأمة، وليست خاصة لأفراد معدودين.

٤ ـ ألا تتعارض مع مصلحة أكبر أو تتسبب في مفسدة أخطر.

وبهذه الضوابط وهذا الحرص تنسجم الشريعة الإسلامية مع أحوال الناس في كل مكان وزمان.

وإليك أخي المسلم، بعض نواحي الاحتياج لرسول الإنسانية ﷺ ولا غرو أن نقول: احتاج لرسول الله ﷺ في القديم والحديث كل البشر: العرب والعجم، والذكر والأنثى، الغني والفقير، الصغير والكبير، العبيد والسادة. وإليك البيان من خلال معايشة ما يلي من نماذج وعناصر.

كان الاحتياج الأول: احتياج العبيد والموالي له ﷺ:

جاء الرسول ﷺ ليلغي عبودية البشر للبشر في كل صورة من الصور، وليوحد العبودية لله في الأرض، كما أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾(١).

واحتاج العبيد لرسول الإنسانية في الجاهلية؛ لأنه لما ولد ﷺ وأرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب، أعتقت بسبب إرضاعها هذا، وبعد بعثته كان من شريعته تحرير العبيد من مرارة الرق إلى التنعم بالحرية، وجاء الدستور القرآني بقوله تعالى: ﴿**فَكُّ رَقَبَةٍ**﴾(٢)، وقوله: ﴿**تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ**﴾(٣).

ولا تزال البشرية اليوم تحتاج إليه ﷺ ليحرر أرقاءها من جاهلية القرن العشرين في تفرقتها العنصرية، بين البيض والسود، والسيد والمسود، كما في جنوب أفريقيا وأمريكا وغيرها من دول تنادي بالتفرقة العنصرية، فتقيم من أجلها دورا للعبادة منفصلة، وتعقد من أجلها مؤتمرات، تقام على أسس من اللون أو

---

(١) آل عمران: ٨٣ . (٢) البلد: ١٣ .
(٣) المائدة: ٨٩ .

الجنس، أو الدين، وتحتاج البشـرية ولن تستغني عنه ﷺ ليحررها من غـزو غير المسلمين لبلاد الإسلام، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

نحن نحـتاجك يا رسـول الله لتحررنا مـن شهوات أنفـسنا، ونحتـاج إليك لتحررنا من ربقة ذنوبنا ومعاصينا، ونحتـاج إليك لتحرير شعوب العالم قاطبة من عبـادة الشيـطان، ومن نهب الغني ثروات الفقـير، ومن إذلال القـوي للضعـيف وابتلاع حـقوقه، ولازال المسلمـون يحتاجـون إلى رسول الله ﷺ ليحررهم من تبعيتهم للغـرب في أفكارهم وسلوكهم، أو ليحرر أوطانهم ومعه كتـيبة من عباد الله المخلصين، في فلسطين والشيشان والعـراق والفلبين . . وغيرها من سائر بلاد المسلمين، الكل يحلم بيـوم الخلاص وانتـصار الإسـلام، والجميع يتـمنى لو يرى كتـيبة الإسـلام التي رباها محـمد ﷺ على سنته ومنهـاجه، تلكم الكتيـبة بل الكتائب التي تقول لليـهود: لستم بشعب الله المختار، ولسـتم بأبناء الله وأحبائه، ولكنكم فئة كسائر الفئات، وأمة كغيركم من الأمم، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها.

وبهذا نعمل، وإليه ندعو ونقول بملء الفخار والاعتزاز ما قاله محمد ﷺ: **«ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمـر إلا بالتقوى»**[(١)]، نقول: لا فضل لأبيـض على أحمر ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ثانيا: احتـاجت البشـرية رسول الله في جـاهليتـها الأولى ليطهرها من ربقة الوثنية، وفـساد المجـتمع في شتى الاتجـاهات، وحسب تنوع المجـالات وحسْب المسلم أن يتأمل حال البـشرية حين ولد رسول الله ﷺ فيجـد فسادا اجتمـاعيا تعددت صوره، من زواج للمحارم وانتـشار للزنى وشرب الخمر . . .إلخ، ودليل ذلك ما روته أم المؤمنين عـائشة رضي الله عنها عن أنكحـة الجاهلية وأنهـا كانت عدة أنواع، وعلى الرغم من كثرتها فلم يكن فيها سوى نوع واحد يصلح أن تقبله الفطر السليمة فـأقره الإسلام وهو نكاح اليوم[(٢)]، أما غيره فـأنكحة كانت الفطرة

---

(١) أخرجه أحـمد (٥ / ٤١١)، وقال الهيـثمي في مجمع الزوائد (٥٦٢٢): «رواه أحـمد ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الأرناؤوط.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٢٧) عن عروة بن الزبير، أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النكاح في=

السوية ولا تزال تنكرها.

وتحتاج إليه البشرية في حاضرها ليقول لتجار أسواق النخاسة اليوم في هوليوود الغرب والشرق: قفوا فليس الوقت وقت رذيلة، ولا الزمان زمان فاحشة، بل زمن الطهر والعفاف، وانتشار الفضائل والبعد عن حمأة الرذائل، وحسب المسلم أن ينظر لحالات الزنى وما ينجم عنها من شرور وآثام، في أي دولة تروقه من دول الغرب أو الدول التي تطبق شريعة غير شريعة الله، وقانونا غير قانون السماء، هذا عن جريمة كالزنى، فكيف بغيرها من جرائم وإتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكيف بعدد حالات السرقة، والغصب، والنهب للمال العام، والسطو على المال الخاص، وأكل لحق الغير، بغير وجه حق في وضح النهار، وخذ مثالا لهذا دولة كأمريكا تجد أهلها لا ينعمون بنعمة الأمن والأمان، وانظر لتقريراتهم في أي عام من الأعوام عن جريمة كالسرقة أو الغصب وسرقات البنوك والشركات . . . إلخ، ستجد والله ما يروعك.

وعلى النقيض تماما تجد فضائل الإسلام، في موقف عبر عنه ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أمام رأس من رؤوس النصارى، وحاكم من حكام دول العالم القديم ـ زمن محمد ﷺ ـ النجاشي حيث قال له جعفر رضي الله عنه:

= الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر يجمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر عليها ليالي بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم.

«أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا . . .» .

بالله ما أروعك يا رسول الله وما أروع ابن عمك؛ إذ أراح البلاغيين والمتحدثين من بعده عناء العرض الموجز لفضائل الإسلام، ألا تحتاج البشرية إلى هذه الفضائل اليوم، إي وربي إنها لتحتاج.

ثالثا: احتاج الضعفاء وذوو الحاجات الخاصة له ﷺ، فلقد كان مولده بداية للاهتمام باليتيم الذي طرده أغنياء العرب وغير العرب من على موائدهم، وأكلوا حقه، ونهبوا ماله وسرقوه، فقبل بعثة محمد ﷺ تجد قول الله حكاية عن حال اليتيم في المجتمع: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾(١)، فلما بعث محمد ﷺ نزل عليه أمر ربه له: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾(٢)، وقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**﴾(٣).

ألا فلتدرك المنظمات الحقوقية في هذه الأيام مدى احتياجها لما أرسل به محمد ﷺ، حتى تعلم الفارق بين ما تنادي به الآن وما كان عليه حال البشر حين ولد محمد ﷺ وما توصلت إليه في القرن العشرين، ولتعلم أن أول من نادى بحقوق الإنسان هو رسول الإنسانية في سورة البقرة وغيرها من سور القرآن الكريم.

رابعاً: احتاجت المرأة لبعثته ﷺ؛ فقبل البعث كانت توأد صغيرة، وتمتهن كبيرة، وتعامل كسقط المتاع؛ فتحرم من الميراث، بل ويرثها الابن الأكبر للمتوفى.

---

(١) الماعون: ١ـ٣ . (٢) الضحى: ٩ـ١١ .
(٣) البقرة: ٢٢٠ .

ورسول الله ﷺ أرسل رحمة للمرأة؛ إذ أنصفها في عالم الظلم، وحفظ حقها في دنيا الجور، وصان جانبها في مهرجان الحياة، وحفظ لها عفافها وشرفها ومستقبلها، فعاش أبا لها وزوجا وأخا ومربيا.

فاعتبري أيتها الأخت المسلمة، واعتبري أيتها المرأة غير المسلمة بما نادى به ﷺ من رعاية حقيقية لك، حيث قال: «**استوصوا بالنساء خيرا**»(١)، ونادى باحترامك واعتبار كرامتك؛ فجعل الإسلام لك نصيبا في الميراث، بل وصل الحال في بعض الصور أن يكون نصيبك في الميراث أكبر من نصيب الرجل، وجعل لك ذمة مالية مستقلة، وخاطبك بما خوطب به الرجل في أكثر من موضع، من مثل قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...** ﴾(٢)، ولتعتزي أيتها المرأة أن الآية رقم (١٩٥) من سورة آل عمران كان سبب نزولها امرأة، هي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنهما، وهي قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾.

وبهذا فعليك في هذه الأيام الكثير والكثير من الواجبات نحو رسولك ﷺ، وقولي بملء الفخار والاعتزاز إن الإسلام أعلى من شأني وجعلني ذات قيمة عند ربي وعند نفسي وعند الناس.

فاتق الله أيتها المرأة وقولي: أنا مسلمة لا أبغي سوى الإسلام بديلا، أمي خديجة، وأختي سمية، وخالتي خولة بنت الأزور، وخالاتي وعماتي نساء شاركن في الجهاد مع رسول الله ﷺ ومع صحابته وكان لهن شهود حضاري في شتى الميادين.

خامساً: احتاج لبعثة الرسول ﷺ غير المسلمين في زمانه، إذ لم يجدوا مبادئ التسامح الديني إلا في الإسلام. وحسب الجميع أن يعلم أنه لما جاء وفد من نصارى الحبشة أنزلهم رسول الله ﷺ في المسجد وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم، ومن وصاياه للمسلمين: «**استوصوا بالقبط خيرا**»(٣)، والمسلم يعلم

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٨) . (٢) الأحزاب: ٣٥ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٦٠٣)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٤).

أن أهل الكتاب لهم في شـريعة الإسلام مـا للمسلمين وعليهـم ما على المسلمين وبخاصة في جانب حق المواطنة، وكل هذا وغيره من تعاليم النبي الأمين ﷺ .

ومن بعد زمانه ﷺ طلب أهل دمشق من المسلمين أن يأتوا ليخلصوهم من ظلم إخوانهم النصارى؛ لأنهم رأوا العدل عند المسلمين، والمطلع في كتب التاريخ يجد ضروبا من التـسامح الديني في ظل حضارة الإسلام، لا يجد لهـا مثيلا في تاريخ العصـور كلها، وحتى العـصر الحديث، ففي مـصر كانت طائفـة الملكانية مضطهدة في عـهد الرومان ويسلبونهم كنائسـهم، فلما فتحت مـصر رد المسلمون إلى الأقباط كنائسهم وأنصفوهم؟ وتاريخ مصر حين فتحها عمرو بن العاص # خير شاهد على ذلك.

سادساً: تحتاج البشرية كلها إليه ﷺ لتمارس عملية الإصلاح ولتغير حالها كله من سيئ لحسن ومن حسن لأحسن، ولنتذكـر ما أورده صاحب السيرة الحلبية عن عمرو بن معد يكرب رضي الله عنه حين قال:

والله لقد علمت أن محمدا رسول الله قبل أن يبعث، فقيل: وكيف ذاك؟

قال فزعنا إلى كـاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال الكاهن: أقـسم بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الأدراج، والريح ذات العـجـاج، إن هذا إلا آج، ولقـاح ذي نتاج.

قالوا: وما نتاجه؟ قال: نتاجـه ظهور نبي صادق بكتاب ناطق وحسام فالق. قالوا: وأين يظهر، وإلى ماذا يدعو؟

قال: يظهـر بصلاح، ويدعـو إلى فلاح، ويعطل القـداح، وينهى عن الراح والسفاح وعن كل أمر قباح.

قالـوا: من هو؟ قال: من ولد الشـيخ الأكرم حـافر زمـزم، وعزه سـرمد، وخصمه مكمد[1] .

وتحتاج إليه البشرية في زماننا هذا حتى تكتمل عملية الإصلاح، وترتفع راية الإسلام خفاقة في ربوع العالمين، ويعلو بنا نداء الحق ويعلينا فتتحقق عالمية الدعوة

---

(١) السيرة الحلبية ١ / ١٨٧، ١٨٨ .

والرسالة، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١)، ويمكن الله لعباده ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾(٢).

وأخيرا وليس آخرا: فمحمد بن عبد الله . . . اسم كتب بحروف من نور في قلوب الموحدين، فلو شققت كل قلب لرأيته محفورا في النياط مكتوبا في السويداء، مرسوما في العروق، فكلامه شريعة، ولفظه دين، وسنته وحي: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾(٣).

سجاياه ﷺ طاهرة، وطبيعته فاضلة، وخصاله نبيلة، ومواقفه ـ كما قال ربه ـ جليلة ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾(٤).

وتواضعه ﷺ جمّ، وجوده عمّ، ونوره تمّ، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرضي الفعال، صادق الأقوال، شريف الخصال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٥).

كما أنه ليّن الجانب، سهل الخليقة، يسير الطبع ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾(٦).

فهو إذاً الصالح المصلح الذي عَمَّر الله به القلوب، وأسعد به الشعوب، وأعتق به الرقاب من عبودية الطاغوت، وحرّر به الإنسان من رقّ الوثنية: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٧).

وهو ﷺ الذي أعفى البشرية من التكاليف الشاقة، وأراحها من المصاعب، وأبعدها عن المعاطب، وسهل لها ـ بإذن الله ـ أمر الحياة، وبصّرها بسنن الفطرة، كما قال الله: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾(٨).

وهو رحمة للشاب؛ إذ هداه إلى أجمل أعمال الفتوة وأكمل خصال الصبا، فوجّه طاقته لأنبل السجايا وأجلّ الأخلاق . . . كما أنه رحمة للطفل، إذ سقاه مع

---

(١) الحج: ٤ . (٢) الحج: ٤١ .
(٣) النجم: ٤ . (٤) النمل: ٧٩ .
(٥) القلم: ٤ . (٦) آل عمران: ١٥٩ .
(٧) الشورى: ٥٢ . (٨) الأعراف: ١٥٧ .

لبن أمه دين الفطرة، وأسمعه ساعة المولد أذان التـوحيد، وألبسه في عهد الطفولة حلة الإيمان . . .

وهو ﷺ رحمة للولاة والحكام، إذ وضع لهم ميزان العدالة، وحذرهم من متالف الجور والتعسف، وحد لهم حدود التبجيل والاحترام والطاعة في طاعة الله ورسوله . .

وهو رحمة للرعية، إذ وقف مدافعا عن حـقوقها، محرما الحيف، ناهيا عن السلب والنهب والسفك والابتزاز والاضطهاد والاستبداد.

ألا تحتاج البشرية إذا لمن هذه صفاته وتلك فعاله؟ والله إنها لتحتاج. وصفوة القول فيه:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

٢ ـ الدعوة والدعاة في منهج القرآن الكريم

وجوب الدعوة إلى الله:

الدعاة ورثة الأنبياء، وقد جمع القرآن الكريم هذا الميراث كله، ليخاطب به الناس كلهم، يخاطب فيهم أصل الفطرة التي لا تتغير، وبين للدعاة أن عملهم الدعوي من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾(١)، وقد كانت الدعوة إلى الله وظيفة الرسل، ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾(٢)، وحمل أتباع خاتم المرسلين محمد ﷺ الدعوة من بعده ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾(٣).

منهج الدعوة في القرآن:

يقوم هذا المنهج على الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾(٤)، فالدعوة إلى سبيل ربك لا لشخص الداعية ولا لقومه، ولذا فلا ينبغي له تجاوز الحكمة والموعظة الحسنة إلى تأنيب الناس وفضح أخطائهم التي قد تحدث عن جهل أو عن غير قصد، ولا ينبغي له تجاوز المجادلة بالتي هي أحسن إلى الترذيل والتقبيح والتحامل.

وأول ما يجب التوجه إليه في الدعوة أن الله واحد لا شريك له ولا ندّ له، ومن ثمَّ فلا خضوع إلا له، وقد دعا جميع المرسلين إلى ذلك ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ ولا تكون العبادة مقبولة إلا بالإخلاص لله وحده ﴿ **فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾(٥).

وقد التزمت البشرية ـ في أول أمرها ـ بالتوحيد: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾(٦)

---

(١) فصلت: ٣٣. (٢) النحل: ٣٦.
(٣) يوسف: ١٠٨. (٤) النحل: ١٢٥.
(٥) غافر: ٤١. (٦) البقرة: ٢١٣.

أي على التوحيد، ثم اختلفوا: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(١).

أول انحراف:

كان تعظيم الصالحين ورفعهم إلى مرتبة الألوهية أول انحراف عن منهج التوحيد، وقد ورد عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾(٢) أنهم أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم (نُسِي) عبدت.

دروس من الدعوة الأولى:

مكث نوح يدعو إلى ربه ألف سنة إلا خمسين عاما، امتلأت بالدروس والعبر التي منها:

١ ـ **الدعوة إلى الأصول قبل الفروع**، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(٣).

٢ ـ **صدود المتكبرين وإعراضهم**، فالمتكبرون أول من يصدم الدعوة بالإنكار والإعراض، والفقراء من الجاه والمال أول المستجيبين، والطغاة هم المشوِّهون للدعوة والداعية ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾(٤).

٣ ـ **سماحة الداعية**، وأن دوره هو التبليغ وتربية من آمن وأن أجره على الله: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) البقرة: ٢١٣.
(٢) نوح: ٢٣.
(٣) هود: ٢٥، ٢٦.
(٤) هود: ٢٧.
(٥) هود: ٢٨، ٢٩.

٤ ـ **التنويع في أسلوب الدعوة**، فالداعية الناجح هو الذي ينفذ إلى قلوب قومه وأرواحهم، ولا يتم له ذلك إلا إذا نوّع في أساليب دعوته، كما فعل نوح فاستخدم:

أ ـ أسلوب الترغيب: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(١).

ب ـ أسلوب الترهيب: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ﴾(٢).

جـ ـ أسلوب الإلحاح والاستمرار: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾(٣).

د ـ وأسلوب الجهر: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾(٤).

هـ ـ أسلوب الإعلان: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾(٥).

و ـ وأسلوب السر: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾(٦).

ز ـ وأسلوب المنافع المادية: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(٧).

حـ ـ وأسلوب تحريك العاطفة والوجدان: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾(٨).

ط ـ وأسلوب التأمل في الكون: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾(٩).

ي ـ وأسلوب التذكير بالنعم: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾(١٠).

٥ ـ **التحدي البغيض:**

يوم يشعر الطغاة باتساع أتباع الدعاة يبدأ التحدي والإعراض بالأشكال الآتية:

أ ـ الإعراض عن الدعاة: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾(١١).

(١، ٢) نوح: ٤ .
(٣) نوح: ٥ .
(٤) نوح: ٨ .
(٥، ٦) نوح: ٩.
(٧) نوح: ١٠-١٢ .
(٨) نوح: ١٣ .
(٩) نوح: ١٥-١٧ .
(١٠) نوح: ١٩، ٢٠
(١١) هود: ٣٢ .

ب ـ تلفيق التهم للداعية: ﴿ **كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ** ﴾(١) .

جـ ـ التهديد والإرهاب: ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ** ﴾(٢)، وهذا التدرج في مواجهة الدعاة هو شأن الطغاة في كل عصر.

٦ ـ النهاية المؤلمة: دعا نوح قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فما آمن معه إلا قليل، قال تعالى: ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾(٣)، وأما كثرة قومه فقد أصرت على الكفر والعناد، وأصبح من الظلم وضع الهداية في غير موضعها ﴿ **وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾(٤)، وهنا أطلق نوح صيحته: ﴿ **أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾(٥)، فجاء الدمار للمكذبين ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ** ﴾(٦)، فكانت بذلك نهاية الطغاة المتكبرين.

أهل الداعية:

قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾(٧)، وهؤلاء القلة من المؤمنين كثيرون بالحق الذي يحملونه، وبالرب الذي يعبدونه، وبالرفقة الطيبة التي تصاحبهم على الصراط المستقيم.

يقول ابن القيم: «ولما كان طالب الصراط المستقيم يطلب أمرا أكثر الناس عنه ناكبون، فإن عليه ألاَّ يكترث بمخالفة الناكبين، فإنهم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددا».

وقال بعض السلف: عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك

---

(١) القمر: ٩ .
(٢) الشعراء: ١١٦ .
(٣) هود: ٤٠ .
(٤) هود: ٣٤ .
(٥) القمر: ١٠ .
(٦) القمر: ١١ـ١٤ .
(٧) هود: ٤٠ .

وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١)؛ وصدق من قال: إنك بفضل الله بإخوانك، فإن لم تكن بهم فلن تكون بغيرهم أبدا.

فأهل الداعية في الحقيقة هم أهل العقيدة قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(٢)، وجاءه الرد يبين أن أهل الداعية هم حَمَلَةُ عقيدته، وابن نوح لم يكن مؤمنا فكيف يكون من أهل هذا النبي المؤمن: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

الدعوة في السجن:

الداعية يبلغ دعوة الله حيثما وُجِدَ، لا يمنعه من ذلك مكان ولا سلطان، ولا يعنيه أن يلقى من الناس جحودا أو نكرانا، ويوم سُجِنَ ابن تيمية قال: «إن سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة»، وقد سُجن يوسف عليه السلام مظلوما: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(٤)، وقد تحولت حتى حين إلى بضع سنين في سجن موحش أليم، ولكن يوسف عليه السلام كان من الصابرين المتقين، وشهد له صاحبا السجن بذلك: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٥)، والغريب أن يشهد ليوسف بالإحسان من ليس على دينه، وما ذاك إلا لأن إحسانه غمر القريب والبعيد، وما كان ليوسف أن يترك الناس في ضلالتهم حتى ولو كانوا في السجن، ولذا بلغهم الدعوة ودعاهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(٦)، فلم يَحُلْ السجن بينه وبين دعوته، ولم يمنعه من نشر عقيدته، وهكذا يكون الدعاة الذين ينتظرون الأجر من الله.

---

(١) يوسف: ١٠٣.
(٢) هود: ٤٥.
(٣) هود: ٤٦، ٤٧.
(٤) يوسف: ٣٥.
(٥) يوسف: ٣٦.
(٦) يوسف: ٣٧، ٣٨.

قدوة في الطريق:

يقص علينا القرآن الكريم قصص بعض الحكام العادلين ليكونوا نموذجا يُحتذَى في نشر العدل والمرحمة، ومن هؤلاء ذو القرنين، الذي ذكره الله في قوله: ﴿ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا** ﴾(١) لقد أعلن ذو القرنين دستوره في معاملة البلاد المفتوحة بعد أن دان له أهلها، أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابهم الدنيوي، وأن للمؤمنين الصالحين التكريم والتيسير والجزاء الحسن، وكان عمله نموذجا للحاكم الصالح الذي يجد المحسن عنده جزاء إحسانه، ويجد المسيء عنده عقوبة إساءته، لقد وجد هذا الحاكم الصالح ﴿ **قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** ﴾(٢)، لقد رأى هؤلاء القوم فيه قوة، وتوسموا فيه صلاحا وقدرة، فعرضوا عليه أن يقيم لهم سدا يحول بينهم وبين مهاجميهم مقابل أن يدفعوا له خراجا من المال، وتبعا لمنهج الداعي الذي يأبى إلا أن يكون أجره على الله وحده رد عليهم عرضهم المالي، وتطوع بإقامة السد بعد أن علمهم أن القدرة عندهم والقوة معهم إن اتحدوا وتعاونوا وأبرزوا طاقتهم المخزونة، وهكذا كان الحاكم الداعية الذي مكنه الله في الأرض لا يطغى ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم المادي، وإنما هو ينشر العدل ويساعد الضعفاء، ويسخر القوة التي أعطاه الله إياها في التعمير والإصلاح، ولا ينسى ـ في أي لحظة ـ أنه راجع إلى مولاه الذي يرجو منه ـ وحده ـ الأجر والجزاء.

ابتلاءات تحتاج إلى الصبر:

إثارة الشبهات: يثير أعداء الدعوة الشكوك والريبة حول الدعاة والدعوة، يرجون بذلك صرف الناس عن الدعوة، وتثبيط الدعاة، وتتعلق شبهات هؤلاء الأعداء بالدعوة أو بالدعاة أو بعموم المدعوين، وينبغي على الداعية ألا تستفزه

---

(١) الكهف: ٨٦ ـ ٨٨.	(٢) الكهف: ٩٣ ـ ٩٥.

أكاذيب المفترين، فينتصر لنفسه ويغضب لها، وقد ينطق بما لا يجوز، فكيف يتصرف الداعية؟ إن عليه أن يتعرف على ما جاء في القرآن من شبهات الأعداء وكيف رد عليها القرآن، وقد واجه الأنبياء كثيرا من الشبهات ووقفوا منها مواقف جيدة، وسنذكر أمثلة لشبهات الأعداء مع الرسل في القرآن الكريم:

أولا: الطعن في الدعاة واتهامهم بالسحر والجنون: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾(١)، وكان الرسل ـ عليهم السلام ـ يردون هذا الافتراء بنفيه عن أنفسهم بأسلوب رفيع واضح، نلمس ذلك في رد نوح على قومه : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾(٢).

ثانيا: يتهم الأعداء الدعاة بأنهم يريدون العلو في الأرض يطلبون الرئاسة، وقديما اتهم نوح بذلك: ﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ** ﴾(٣).

ثالثا: إشاعة اتصال الدعاة بجهات خارجية مشبوهة، وهذا ما اتهمت به قريش الرسول ﷺ: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا** ﴾(٤).

رابعا: اتهام الداعية بأنه مغمور وأن أتباعه مغمورون غير معروفين. حدث ذلك مع نوح: ﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** ﴾(٥)، وحدث مع الرسول محمد ﷺ: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾(٦).

خامسا: رمي الدعاة بنشر الفساد والتضليل: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ**

(١) الذاريات: ٥٢ .
(٢) الأعراف: ٦٠ ـ٦٢ .
(٣) المؤمنون: ٢٤ .
(٤) الفرقان: ٤ .
(٥) هود: ٢٧ .
(٦) الزخرف: ٣١ .

مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾(١)، والداعية مطالب بالابتعاد عن مواطن الشبهات، بل بالابتعاد عن كثير من المباحات التي قد يجعلها أهل الباطل مثارا لشبهاتهم وهدفا للصد عن سبيل الله.

عيش الغرباء:

قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾(٢)، الغرباء هم الذين ينهون عن الفساد في الأرض وهم الذين قال الرسول ﷺ في حقهم: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»(٣) وفي حديث آخر: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها**»(٤).

وهم الذين تحدث عنهم معاذ بن جبل رضي الله عنه في قوله: «إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة».

ويقول عنهم الإمام ابن القيم: «هؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبوطون «والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء»، ولقلتهم في الناس جدا سمُّوا غرباء فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع غرباء، والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين هم أشد هؤلاء غربة، ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا، فلا غربة عليهم وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذي قال الله عز وجل فيهم: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾(٥)، فأولئك الضالون هم الغرباء من الله ورسوله، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. فأهل الغربة هم أهل الله حقا، وهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل

---

(١) الأعراف: ١٢٧ . (٢) هود : ١١٦ .

(٣) أخرجه مسلم (١٤٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٧٧٧)، ومسلم (١٤٧) واللفظ له.

(٥) الأنعام: ١١٦ .

هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما يكون وحشة إذا استأنسوا، فعن النبي ﷺ: «**كم من أشعث أغبر ذي طِمْرين لا يُؤْبَهُ له لو أقسم على الله لأبره**»(١).

وقال الحسن: «المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها ولا ينافس في عزها، للناس مال وله مال، الناس منه في راحة وهو من نفسه في تعب».

وهؤلاء هم القابضون على الجمر، الذين ينجيهم الله من كل مهلكة قال سبحانه: ﴿**وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾(٢)، ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾(٣).

عيون قد لا ترى النصر:

سنقف الآن أمام حقيقة ثابتة وهي أن النصر قد يأتي بعد موت الداعية وتمكن أعدائه منه، وذلك لحكمة يريدها الله تعالى، وسنرى ذلك في مثالين قررهما القرآن الكريم، أحدهما على مستوى الفرد، وثانيهما على مستوى الجماعة.

ونجد المثال الفردي: في قول الله تعالى: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾(٤)، لقد دفعت العقيدة الحية في قلب هذا الرجل إلى أن يأتي من أقصى المدينة يسعى لدعوة قومه الذين قتلوه، ويذكر القرآن طرفا من حياته الآخرة ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾(٥) إنه نبل الداعية، فها هو ذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٥٤)، وصححه الألباني.

(٢) النمل: ٥٣. (٣) الأعراف: ١٦٤، ١٦٥.

(٤) يس: ٢٠ ـ ٢٥. (٥) يس: ٢٦، ٢٧.

يدعو لـقومه بعـد موته بنفس الحـماس الذي كـان يدعوهم به قـبل الموت إنه لم يهزَمْ، بل إنه انتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الجنة، ومن دار الفناء إلى دار البقاء، وهذا جزاء أهل الإيمان، وأما جزاء الطغاة فهو: ﴿ **إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾(١).

أما على المستوى الجماعي، فإنه مذكور في سورة البروج ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾(٢)، لقد كـان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحـياتهم مقـابل هزيمة إيمانهم ولكنهم أبوا ذلك، أبوا أن يعيـشوا بلا عقـيدة، وأبوا إلا أن يقدموا أنفسهم رخيصة في سـبيل إيمانهم، وهم يعلمون أن الله مجازيهم ومجازي أعدائهم: ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾(٣) .

زاد الطريق:

١ ـ الصبر: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾(٤) فالصبر يحطم كل عائق، وهو وسيلة المؤمنـين في مواجهـة الآخرين حين يكذبون الحق وينحـرفون عن الطريق، والإيمان واليـقين هما دافعـا المؤمن للصبـر: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾(٥)، والصبـر هو الوصيـة التي تتكرر بعد كل تـكليف، فعندمـا أمر الله رسوله بالدعـوة في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ**﴾(٦)، أوصاه بزاد الطريق فقال: ﴿**وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ**﴾(٧).

٢ ـ التسـبيح والاستغـفار: بالتسبيح يتـعرف المؤمن على عظمة الله وقدرته، وبالاستغفار يتعرف على ذنبـه وحقارة أمره، فيلجأ إلى الله يطلب منه العون على ما كلف به من أمر الدعوة والتبليغ، والرسول ﷺ، وهو الأسوة الحسنة أمره ربه بقوله: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾(٨) وبهذا الذكر والاستغفار تتجدد الطاقة والعزيمة.

---

(١) يس: ٢٨ .
(٢) البروج: ٨ .
(٣) البروج: ١٢ .
(٤) الطور: ٤٨ .
(٥) الأحقاف: ٣٥
(٦) المدثر: ١، ٢ .
(٧) المدثر: ٧ .
(٨) محمد: ١٩ .

٣ ـ **الاتصال الوثيق بالله**: بحيث يعتمد الداعية في كل أموره على الله، ولا يخشى شيئا في ذات الله، وتتضح هذه الثقة في قول موسى بعد أن اتبعه فرعون بجنوده وقال صحبه: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾(١)، قال موسى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾(٢)، فهداه الله ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾(٣).

إن على الداعية أن يعلم أن استقامته على الطريق فيه مصلحة الدعوة، وأن نتائج دعوته غيب لا يعلمه إلا الله، وما على الداعية حساب النتائج وإنما عليه الدعوة والبلاغ، وعليّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾(٤).

---

(١) الشعراء: ٦١. (٢) الشعراء: ٦٢.
(٣) الشعراء: ٦٣. (٤) يوسف: ٢١.

٣ـ الدعوة بين منابر الحق ومدرسة الميدان

الدعوة بين الأمس واليوم:

إن الدعوة بالأمس والدعوة اليوم والدعوة غدا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من حيث الأصول والثوابت فهي لا تتغير، إنها الدعوة التي انتهجها الرسول ﷺ ومن جاء بعده في فترة خير القرون، وهذه الدعوة قائمة أساسا على أصول الدين: لا إله إلا الله محمد رسول الله. أي لا معبود بحق إلا الله، ولا تكون هذه الدعوة إلا وفق منهج الله من خلال الكتاب والسنة، فليس الأمر معلقا بالاجتهادات البشرية، بل هو خط مستقيم بينه الرسول ﷺ كما في الحديث عن عبد الله، قال: خط النبي ﷺ لنا خطا وعن يمينه خطوطا وعن يساره خطوطا، قال: «**على كل درب من هذه شيطان يدعو له**»، وقال عن الخط الأول: «**هذا صراط الله المستقيم**»، وتلا: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(١).

والتحدي في حياة الداعية هو الاستقامة على منهج الله. قال الصحابي: قلت: يا رسول الله، أوصني، فقال ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»(٢)، وعقبى هذه الاستقامة نصر من الله، وتوفيق، قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**﴾(٣)، وهذه الدعوة محفوظة بحفظ الله لها والمراد بالحفظ هو حفظ المنهج، قال ﷺ: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي**»(٤)، وفهم الكتاب والسنة الأصل فيه ما كان عليه سلف هذه الأمة في القرون .... ووفق المنهج العلمي الصحيح.

قال الإمام حسن البنا: «ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير

---

(١) الأنعام: ١٥٣، والحديث أخرجه النسائي في الكبري (١١١٧٤) وابن ماجه (١١) وأحمد (١/ ٤٦٥)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٣٨/ ٦٢). (٣) الجن: ١٦ .

(٤) أخرجه ابن حبان (٧) بمعناه، وحسنه الأرناؤوط.

تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات»، فهو منهج التلقي والتقييد، وهو منهج الاستنباط الذي كان عليه أئمة الهدى كالأئمة الأربعة ومن جاء على نهجهم من الأئمة الكبار إلى عصرنا هذا.

هذا هو الأصل، ثم بعد ذلك بدأت التشعبات والانحرافات، وكانت مع بداية ظهور الخوارج، ثم جاء في أواخر القرن الثاني الهجري انحراف في الأخذ من الكتاب والسنة، فخرجت الجهمية والجبرية والقدرية ثم المعترلة والذين عاثوا في الأمة فسادا وفي أصل منهجها، ولكنه محفوظ بحفظ الله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(١) فتصدى علماء الأمة لأولئك المنحرفين عن منهج الله والذين يأخذون بما يوافق هواهم، وترى صورة هؤلاء تتكرر على مر العصور، فنرى أن أصحاب البدع الذين يعيشون بيننا والمستشرقين يقلبون في النصوص وينتقون منها ما يوافق أهواءهم .

قال ابن تيمية: «ما أراد متأول أن يتأول ولا معتزلي أن يعتزل إلا وجد في كتاب الله ما يعينه على ذلك، يخدع نفسه ويخدع الناس بما في كتاب الله»، وقد حفظ الله منهجه بالرجال، فسخر ابن عباس للخوارج، وسخر الإمام أحمد للمعتزلة، وسخر ابن تيمية لدحض أفراخهم، وسخر من علماء أهل السنة والجماعة من يميتون كل بدعة، ويخرسون كل ناعق، فهو دين الله ظاهر في كل لحظة.

إذن فالقديم والحديث هو من يستقيم على أمر الله، فتكون دعوته بالأمس هي دعوته اليوم، وهناك من ينحرف فيكون انحرافه بالأمس هو انحرافه اليوم، أما ما يتعلق بالأساليب ففيها سعة ومرونة، على أن تكون الأساليب شرعية في أصلها وإن اختلفت في أشكالها وألوانها فالمنبر الذي كان يوصل الكلمة للناس قديما كان منبر الجمعة، واليوم أصبح الإعلام منبرا والصحافة وغيرها، واستخدام التقنية الحديثة بكل صورها الشرعية أمر فيه سعة، بل نحن مطالبون بأن نستخدم النواميس الكونية ولا نصادمها، ولكن يظل المنهج خاضع للكتاب والسنة وقواعد الاستنباط المتفق عليها، والمنهج لا يخرج عن هذا من حيث الأصل، فلا نتعسف

---

(١) الحجر: ٩.

الطريقة ولا نستخدم الوسائل المحرمة في الغايات الطاهرة، فالوسائل تأخذ حكم المقاصد، فالمقصد رباني طاهر، والوسيلة كذلك ربانية طاهرة، فما ينبغي على سبيل المثال: أن نستخدم الموسيقى كوسيلة من وسائل الترفيه والوصول إلى الناس، ولا نصدر صاحب بدعة لأن له قبولا بين الناس ولا نرد أماكن الشبهات لتواجد الناس فيها، ولا نتخلى عن الواجبات لتسهيل قبول الناس لنا ولخطابنا، فالداعية كما هو مطلوب منه أن يدعو الناس إلى الله مطلوب منه كذلك أن يتقي الله في نفسه، قبل أن يتقي الله في الناس فكل سيقف أمام ربه فردا: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(١).

هذا على وجه الإجمال، أما فيما يخص الدعوات الموجودة حاليا فهي صورة للماضي؛ فمنها ما يوافق السلف في الشمولية والمنهجية والالتزام، ومنها ما هو مخالف لذلك المنهج وهي مجاميع منتشرة وكثيرة في ساحة الدعوة والذي ينظر إلى العالم الإسلامي من خلال المواقع المسماة إسلامية على شبكة الإنترنت يجد كماً هائلاً من الدعوات. وهذه تنقسم إلى قسمين: قسم على الهدى والسنة وعددهم ليس بالقليل واختلافاتهم اختلافات تنوع لا تضاد، والقسم الآخر على البدعة والضلال، والاختلاف بينهم وبين القسم الأول اختلاف تضاد، وهكذا طبيعة البشر، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٢).

منابر الحق صور لا تنتهي:

لاشك أن المشاركة في وسائل الإعلام المعاصرة وسيلة لتبليغ الدعوة، وقد فرض الله ـ تبارك وتعالى ـ تبليغ الدين والدعوة إليه، وهذا أمر واجب لا خيار فيه، ولئن كان النبي ﷺ اتبع الوسائل المتاحة في عصره، فالواجب على الدعاة اليوم أن يسعوا لتبليغ الدعوة بالوسائل الأنفع، والأكثر والأقدر تأثيرا وإيصالا للناس.

ووسائل الإعلام المتنوعة تملك من التأثير ما لا تملكه غيرها، فمع أن جمهور المتعاملين معها أكثر من جمهور سائر الوسائل، فهي تتفوق على كثير من الوسائل المتاحة في تأثيرها على الناس وجذبها لهم، فالتلفاز مثلا يجمع بين الصورة

(١) مريم: ٩٥. (٢) البقرة: ٢٥١.

والصوت والحركة، وأساليب الإخراج التي تدفع المشاهد إلى الاستمرار والإقبال، والمذياع يستمع الناس إليه وهم في سياراتهم، أو في متاجرهم وأعمالهم، والصحيفة يجدها الإنسان في أي مكان، ويقرؤها في جميع أحواله.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل متول ولايات، ومُقطَع إقطاعات، وعليها من الكلف السلطانية ما جرت به العادة، وهو يختار أن يسقط الظلم كله، ويجتهد في ذلك بحسب ما قدر عليه، وهو يعلم أنه إذا ترك ذلك وأقطعها غيره وولى غيره فإن الظلم لا يترك منه شيء، بل ربما يزداد . . .

فأجاب الشيخ ـ رحمه الله: «إذا كان مجتهدا في العدل ورفع الظلم بحسب إمكانه، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره . . .»[1].

والمنابر الدعوية المتعددة روافد تصب كلها في النهاية في النهر الكبير الذي يرده المسلمون ليستقوا منه، وإن من ظلم الدعاة لأنفسهم أولا، ولغيرهم ثانيا، أن يغلقوا بابا من أبواب الخير، وأن يحولوا بينهم وبين الناس بموانع وقيود وشروط، هي في النهاية ليست في صالح أحد ممن يخشون ربهم، وذلك أن منابر الدعوة اليوم أشبه بالمساجد التي قال الله فيها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾[2].

إن من واجبنا أن نكثر من مراكز الدعوة، ونحافظ على منابر الدعوة مفتحة أبوابها غير مغلقة في وجه أحد من المسلمين؛ لتظل تسمع الناس تعاليم الدين، وتدعوهم لأن يكونوا من المهتدين الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[3].

وهنا يحسن بنا أن نتذكر قصة الحسن البصري لنتبين كيف نتعامل مع الخطأ عندما يكون في عمل صحيح، فالإمام قد خرج مع أصحابه في جنازة فأراد أحدهم الرجوع، وسأله الحسن: لماذا؟ قال: إنه رأى البعض يلطم الخدود ويشق الجيوب، قال له الحسن: إن كنت رأيت منكرا تركت من أجله معروفا أسرع ذلك في دينك.

(١) الفتاوى ٣٠ / ٣٥٦، ٣٥٧.
(٢) البقرة: ١١٤.
(٣) محمد: ١٧.

وهذا يصدق على واقعنا، الذي لا ينبغي أن نترك فيه معروفا من أجل منكر حدث أو متوقع حدوثه، وإلا لتخلينا بأنفسنا عن الساحة، وتركناها لغيرنا ممن لا يسرهم أن يعلو صوت الحق.

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، فقد كان يدعو إلى عبادة الله وحده والأصنام حول الكعبة، وقد كان يدعو إلى الله ومنكرات الجاهلية كلها قائمة من حوله، بارزة لا تتوارى، ظاهرة لا تختفي، ولم يجعله ذلك يغلق بابا من أبواب الدعوة.

الدعوة في مدرسة الميدان:

إذا قلنا: إن المنبر نشر وإعلام، فالميدان حركة واقتحام، ومن داخل الميدان ينهض البعث الإسلامي فتيا قويا، وتظهر أجيال وأبطال في لحظة لم يكن يحسب لها العدو حسابا.

والميدان حين يربي بالمعاناة والأحداث، فهو مدرسة تعطي تلاميذها كل صفات المؤمن التي يحبها الله ويرضاها، وتملأ جوانب نفسه قوة مركزة في جميع مجالات الدين والحياة، ولست أبالغ حين أقول: إن رجلا ميدانيا واحدا أعظم على الباطل من عشرات الرجال خارج الميدان.

وما كان للدعوة أن تقوم لو اعتمد الرسول ﷺ فيها على المنابر في مكة وأسواقها ونواديها، وإن كان قد أفاد منها كثيرا إلا أنه كان يركز في دعوته على ميدان ينطلق منه بعيدا عن مكة وأهلها؛ لأن ميدان مكة لم يعد صالحا للدعوة حينها، فكان يلتقي بالقبائل في المواسم ليعرض عليها حماية الدعوة والمساندة له بالنفس والمال والأرض.

وعاش في مكة ثلاثة عشر عاما يربي أصحابه سرا، وينادي قريشا من على المنابر أن يقولوا: لا إله إلا الله، أضف إلى ذلك أنه لم يفرط في ميدان العمل الذي أنشأ فيه الزمرة المهاجرة والطائفة التي قادت العالم كله بعد ذلك بسنين قليلة.

يقول الأستاذ فتحي يكن في مشكلات الدعوة والداعية:

«الحركة الإسلامية ينبغي أن تكون ثكنة لتخريج المجاهدين والأبطال قبل أن

تكون معهدا فكريا لنشر الثقافة والمفاهيم الإسلامية المجردة بين الناس، إننا بحاجة إلى الوعي والعمق والحكمة مثل ما نحن بحاجة إلى الجرأة والتضحية والإقدام، وإن طغيان مبدأ تحري السلامة والمبالغة فيه، واتخاذه سياسة مضطردة في كل الأحوال والظروف وعلى كل صعيد لن تكون نتائجه إلا قتل روح التضحية في الأفراد وتحويل الحركة الإسلامية إلى مدرسة نظرية أو اتجاه فكري مجرد».

والحركة الميدانية لا تقف إلى حد الدعوة والتعليم والتربية وحسب، بل إنها تقوم بخدمات إنسانية، ومشاريع إسلامية لجميع الناس الذين يعيشون بجوارها، وتستطيع أن تصل إليهم، فتطبب المريض، وتمسح على رأس اليتيم، وتعلم الجاهل، وتعين المحتاج، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الأمور، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١) إذ كيف ينصر الناس الدعوة مع من لا يعرفهم إلا حين تحتويه المصائب وتزلزله الشدائد، وهو يطلب أموالهم، وينهك أجسادهم، ثم لا يقف معهم في حياة ملئت بالطغيان والظلم والاستبداد، والدعوة رحمة للعالمين، كما كان صاحبها ﷺ، وحَمَلَتُها من بعده أبر الناس بالناس، وأرحم الخلق بالخلق، والذي يعيش مع سيرة رسول الله ﷺ ومراحلها وكيف أنشأ قاعدة الإسلام، حينئذ يتضح له جيدا كيف تعامل ﷺ مع المنبر والميدان معا.

---

(١) الأنبياء: ١٠٧ .

٤ ـ معايير منهجية في الدعوة الإسلامية

دين الإسلام دين دعوة مستمرة، لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض، تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

وقد امتثل رسول الله ﷺ للأمر، وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملك الروم، فقيل: إنهم لا يقرؤون كتابا إلا إذا كان مختوما، فاتخذ خاتما من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتبا ورسلا إلى ملوك فارس والروم والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن. . . وغيرهم.

وفي طريق الدعوة ينبغي أن توضع المعايير المنهجية لتكون عونا للداعية ونبراسا مضيئا لأصحابها، وأداء لحق الأمانة العلمية، واتباعا لسنة رسول الله ﷺ في كيفية دعوته الناس، وأول هذه المعايير هو:

١ ـ تقييد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمصلحة: قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٢).

يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: «جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فارقا بين المؤمنين والمنافقين» ودل ذلك على أن من أخص صفات المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي اكتسبت به الأمة الإسلامية الخيرية، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣)، ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي وظيفة المرسلين، ولا يستطيعها إلا الفطن الذي يملك القدرة على التبليغ والتأثير بعد فقهه لعملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) المائدة: ٦٧ . (٢) التوبة: ٧١ . (٣) آل عمران: ١١٠ .

يقـول القاضي أبو يعـلى: «لا يأمر بالمعـروف وينهى عن المنكر إلا من كـان فقيهـا فيما يأمر به، فقيـها فيما ينهى عنه، رفيقـا فيما يأمر به، رفيقـا فيما ينهى عنه، حليما فيـما يأمر به، حليما فيمـا ينهى عنه»، والنظر إلى المصلحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غنى عنه، فـإن تعارضت المصالح مع المفاسـد، فما غلبت مصلحته وجب اتبـاعه، والواجبات والمستحبات يكثـر صلاحها ولذا يجب الأمر بهـا والنهي عن أضدادها، وما غلب عليـه الفساد ينظر فـيه فلو ترتب على النهي عنه مفسدة أكـبر ترك من غير نهي، فلو كان قوم على بدعـة وفجور بحيث لو نهوا عن ذلك وقـعت فتنة أعظم لم ينهـوا، ومن جمع بين مـعروف ومنكر لا يمكن التفريق بينهما لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر إن غلب جانب المعروف، وأمـا إن غلب جانب المنكر نهي عـنه، وإن استلزم فـوات ما دونه من المعـروف، والمهم النظر إلى المصلحة؛ فتارة يصلح الأمر بالمعروف، وأخرى يصلح النهي عن المنكر، وثالثـة لا يصلح أمـر ولا نهي حـيث كـان المنكر والمعـروف متـلازمين، والواجب ألا يتضمن الأمـر بالمعروف فوات أكثر منه أو حصـول منكر فوقه، وألا يتضـمن النهي عن المنكر حصول مـا هو أشد منه نكرا، أو فوات مـعروف أرجح منه. . . والمصـالح هنا تقـدر بميزان الشـريعـة، فمـتى قـدر الإنسان على اتبـاع النصوص لم يعـدل عنها وإن اشـتبه عليـه الأمر فعليـه أن يتريث حـتى يتبين له الحق. . . وينبغي على الداعية أن يكون عارفا بمراتب الأعمال، وما اشتملت عليه من المصالح أو المفاسد، بحيث يقدم الأهم منها فالمهم عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يقـدم أهمها عند المزاحمـة. وعلى كل داعية أن يفقـه هذه الأمور حتى يكون دوره مؤثرا فيمن حوله، وتكون نتائج عمله بارزة في المجتمع .

٢ ـ الحكم بالأظهـر واتبـاع النسـبيـة: يقول ابـن القيم في إعلام المـوقعين: «وهديه ﷺ تولية الأنفع للمسلمين، وإن كان غيره أفضل منه، **والحكم** بما يُظْهِرُ الحق ويوضحه إذا لم يكن هنـاك أقوى منه يعارضه، فسيـرته تولية الأنفع والحكم بالأظهر».

فعـلى من ولي أمرا من أمـور المسلمين أن يأخذ بالحكم بما يـظهر له أن فـيه مصلحـة للمسلمين، فـعلى ولي أمر المسلمين أن يولي على كل عـمل أصلح من

يجده لذلك العمل، وفي الحديث: «**من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولَّى رجلا وهو يجد من هو أصلح له منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**»(١).

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين»، ويجب على ولي أمر المسلمين أن يستعمل الأصلح فالأصلح، فإذا لم يتيسر ذلك فعليه اختيار الأمثل فالأمثل في كل منصب بحسبه، وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وإعطائه الولاية حقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب، وصار في هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله.

ركنا الولاية: وللولاية ركنان رئيسان هما: القوة والأمانة، والقوة في كل ولاية بحسبها، فهي في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب والخبر، والأمانة ترجع إلى خشية الله والمحافظ على ما أؤتمن عليه. ونادرا ما تجتمع في رجل واحد القوة والأمانة.

ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة»، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضررا، فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وظهور البغاة كان الأشجع أحق بالولاية، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم لظهور البدع كان الأعلم أحق، ولهذا كان النبي ﷺ يستعمل خالد بن الوليد على الحرب، مع أنه أحيانا كان يفعل ما ينكره النبي ﷺ حتى إنه رفع يديه ذات مرة وقال: «**اللهم إني أبرأُ إليكَ ممَّا صنع خَالدٌ**»(٢)، ولم يول رسول الله أبا ذر مع أنه قال له: «**مَا أَظَلَّتْ الخَضْراءُ ولاَ أَقلَّتْ الغَبْرَاءُ أَصْدَقَ مِنْ أَبي ذَر**»(٣)، وأَمَّرَ الرسول ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل على من همٍ أفضل منه، فإن كانت الحاجة إلى حفظ الأموال واستخراجها وحفظها كان

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١ / ١١٤) (١١٢٣٨)، والحاكم في المستدرك (٧٠٢٣)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٤٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨١١)، وقال: حسن، وابن ماجه (١٥٦)، وصححه الألباني.

الأمين أولى بالتقديم، وفي ولاية القضاء يقدم الأورع فيما يظهر حكمه ويخاف فيه الهوى، ويقدم الأعلم فيما يَدَقُّ حكمه ويخاف فيه الاشتباه، ويقدم الأكفأ إن كان القضاء يحتاج إلى قوة وإعانة للقاضي أكثر من حاجته إلى مزيد العلم والورع.

وخلاصة هذا الأمر إنما تنحصر في تولية الأصلح والأنفع للمسلمين، وذلك يعرف بحسب مقصود الولاية، فإذا عُرفت المقاصد والوسائل تم الأمر، ومن هديه كذلك تولية الأنفع للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه، والحكم بما يُظهِر الحق ويوضحه إذا لم يكن هناك أقوى منه يعارضه، فسيرته ﷺ: «تَوْلِيَةُ الأَنْفَعِ والحُكْمُ بالأَظْهَرِ».

٣ ـ عدم اعتبار ما لم يكن عليه رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾(١) أي بمخالفتكم لسنته، وارتكابكم المعاصي، وقال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٢).

وفي حديث الثلاثة الذين ذهبوا إلى بُيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته أن رسول الله ﷺ قال لهم: «**أَمَا والله إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لله وأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِر، وأُصَلِّي وأَرْقُدْ، وأَتَزَوّج النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(٣).

وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا أشد الناس تمسكا بكتاب الله وأكثرهم حرصا على سنته، وهذا أبو بكر يقول بعد توليه الخلافة: «إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بِمُبْتَدِعٍ، فإن استقمت فتابعوني، وإن زُغتُ فقوموني».

ويقول ابن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وقال ابن عباس لسائل عن الوصية: «عليك بتقوى الله والاستقامة، واتبع ولا تبتدع».

---

(١) محمد: ٣٣.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، عن أنس رضي الله عنه.

وقال ابن عمر: «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة».

وقال أبو حنيفة: عليك بالأثر وطريقة السلف، وإيَّاك وكلٌّ محدثة فإنها بدعة.

وقال الإمام مالك: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾(١)، فما لم يكُنْ حِينئذ دينا لا يكون اليوم دينا، يقصد في الأمور التعبدية المنصوص عليها.

وكما أن حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»(٢) ميزان للأعمال في باطنها، فكذلك حديث: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(٣)، ميزان للأعمال في ظاهرها، فمن أحدث من الدين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس من الدين في شيء وليس لصاحبه أجر، بل قد يكون عليه وزر. ومعنى ذلك أن أعمال العاملين ينبغي الحكم عليها بميزان الشريعة، فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود.

يقول الإمام ابن رجب: «**الأعمال قسمان: عبادات ومعاملات:**

فأمَّا العبادات: فما كان منها خارجا عن حكم الله ورسوله بالكلية فهو مردود على عامله، يدخل تحت قوله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**﴾(٤) فمن تقرَّب بِعَمَل لم يجعله الله ورسوله قربة إلى الله فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى الله بسماع الملاهي أو الرقص وما أشبه ذلك من المحدثات... ومن زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع فزيادته مردودة عليه، وقد تبطل العمل كله؛ كمن زاد ركعة عمدا في صلاته، وتارة لا ترده من أصله كمن توضأ أربعا أربعا ...

أَمَّا المعَاملاتُ فَمَا كانَ مِنْهَا تَغْيِيرًا للأوضاع الشرعية كجعل حد الزنا عقوبة مالية وما أشبه ذلك فإنه مردود من أصله، يدل على ذلك أن النبي ﷺ قال للذي

(١) المائدة: ٣.
(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الشورى: ٢١.

سأله: إن ابني كـان عسـيفا على هذا فـزنى بامرأته، وإني أُخـبِرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مـائة وتغـريب عـام وإنَّ على امـرأة هذا الرجم، فقـال رسـول الله ﷺ: «**والذي نَفْسِي بِيَده لأَقْضِينَّ بَيْنَكُمَا بِكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنكَ جَلْدُ مَائة وتغريب عام**»(١).

وما كـان من الأعمال منهيـا عنه في الشرع، فهل هو مردود أو لا؟ في بعض الصور أنه مردود، وفي بعضها الآخر أنه لا يبطل العمل بالكلية.

وأما البدع والإحداث في المصالح والمنافع الدنيوية المعاشية فلا حرج فيها ما دامت نافعـة غير ضـارة ولا جارة لشر يعـود على الناس، ولا تؤدي إلى ارتكاب محـرم، أو هدم أصل من أصول الدين، فالله سـبحانه يبيـح لعباده أن يختـرعوا لشئون دنياهم ومعاشهم ما شاؤوا، قال تعالى: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(٢)، وقال: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾(٣).

٤ ـ الابتعاد عن الشـبهات: قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾(٤)، ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ**﴾(٥).

وقال ﷺ: «**تَرَكْتُكم عَلَى المحَجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(٦)، فكل أمور الدين مـبينة واضحـة، لكن بعضهـا أظهر من بعض، فهناك أمور اشتهرت وعلمت من الدين بالضـرورة وهذه لا خلاف فيها بين جميع المسلمين، ولا يعذر أحد بجـهلها، وهناك أمور لا يعلمها إلا حـملة الشريعة من العلماء، وهناك أمور أخرى يختلف فيها العلماء أنفسهم.

وفي الحديث عن النعـمان بن بشيـر أن رسول الله ﷺ قال: «**الحلالُ بيِّنٌ والحـرامُ بيِّنٌ وبيْنَهُمَـا أُمُـورٌ مُشْـتَبِـهَـاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَـثِيـرٌ من الناس، فـمن اتقى**

(١) أخرجه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧).
(٢) الحج: ٧٧. (٣) المائدة: ٢.
(٤) النحل: ٤٤. (٥) التوبة: ١١٥.
(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤ / ١٢٦)، وصححه الألباني.

الشـبهات فـقد اسـتبـرأ لدينه وعرضـه، ومن وقع في الشـبهات وقع فـي الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله مـحارمه، ألا وإن في الجسـد مضغة إذا صلحت صلح الجـسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(١).

يقول الإمام ابن رجب الحنبلي: «**الحلالُ المَحْضُ بَيِّنٌ لا اشـتباه فيـه، وَكَذَلكَ الحَرَامُ المَحْضُ، ولكنْ بَيْنَ الأمَـريْن أُمُورٌ تُشْتَـبهُ علَى كثـير من الناس. هلْ هِيَ من الحَلال أمْ مِن الحَرَام، وأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ فَلاَ يُشْتَبَهُ عَلَيْهِمْ ذَلكَ وَيعلمُونَ من أي القِـسْمَـيْنِ هي**» وقد أكـد هذا المعنى نفسـه الإمام الخطابي فـي قوله: إن الله سبحانه لم يتـرك شيئا يجب له فيه حكم إلا وقد جعل فـيه له بيانا، ونصب عليه دليلا، ولكن البـيان ضربان: بيان جليٌّ يعـرِفُهُ عامّةُ الناس، وخـفيّ لا يعرفه إلا الخاص من العلمـاء. قال: والدليل على صحة مـا قلنا قوله ﷺ: «**لا يَعَلمُهَا كَثير**» وقد عُقِلَ بيان فحواه أن بعض الناس يعرفونها، وإن كانوا قليلي العدد، وإذ صار معـلوما عند بعضهم فليس بمشـتبه في نفسـه، والناس أمام هذه المشتـبهات قسمان ـ كما يقول ابن رجب:

أحدهما: من يتقي الشبهات لاشْتِبَاهِهَا عَلَيْـه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه، أي طلب البراءة لدينه وعرضه من النقص والشين.

والثاني: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهة، فهم قسمان أيضا: من أتَى شيئا مما يظُنُّه الـناس شبهة لعلمه أنه حلال في نفس الأمـر فلا حرج عليه من الله في ذلك؛ فإذا خشى من طعن الناس عليه بذلك كان تركها حـينئذ استبراء لعرضه فيكون حـسنا، ومن أتى شيئا من الشـبهات لاعتـقاده أنه حلال بناء على اجـتهاد مقبول أو تقليد مقبول، وكان مـخطئا في اعتقاده فلا حرج عليه عند الله كذلك، ومن أتى شيئا من ذلك متبعـا هواه فقد وقع في الحرام، ومثل هذه الأقسام الراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، «**ألا وإنَّ لكل ملك حِمى، ألا وإن حمى الله محارمه**».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وهو مثل ضربه النبي ﷺ لمن وقع في الشبهات، وأنه يقرب وقوعه في الحرام المحض، وينبغي التباعد عن المحرمات وأن يجعل الإنسان بينه وبينها حاجزا.

ويستدل بهذا الحديث من يذهب إلى سد الذرائع إلى المحرمات وتحريم الوسائل المؤدية إليها، وصلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات، واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت الجوارح كلها، واتقى الإنسان المحرمات، وابتعد عن الشبهات حذرا من الوقوع فيما هو محرم، وإن كان القلب فاسدا قد استولى عليه اتباع هواه وطلب ما يحبه هو ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والشبهات، ولهذا قيل: القلب ملك الأعضاء تأتمر بأمره، وتنزجر بزجره؛ فإن كان الملك صالحا صلحت جنوده وإن كان فاسدا فسدت جنوده، ولا ينفع عند الله إلا القلب السليم ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(١).

٥ـ العمل بالحديث الصحيح وإن خالف بعض أقوال الفقهاء:

السنة هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله، فهي تفصل مجمله، فتبين مراده، وتقيد مطلقه، ولذا قال ﷺ: «**أَلا إنِّي أُوتيتُ الكتابَ ومثلهُ معهُ، يُوشكُ رجلٌ شَبْعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**»(٢)، زاد الترمذي وابن ماجه: «وإنَّ ما حرَّم رسول الله ﷺ كما حرَّم الله»(٣).

يقول الإمام الشاطبي: «يقول الله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾(٤)، إن سائر ما قُرِنَ فيه طاعةُ الرسول بطاعة الله فهو دالٌّ على أن طاعة الله ما أمر به ونهى عنه، وطاعة الرسول ما أمر به ونهى عنه مما جاء به مما ليس في القرآن».

وعلماء الأمة من السلف والخلف مجمعون على أنه لو خالف قولهم ما صح

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩ .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٦٤)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١٢)، وصححه الألباني.

(٤) المائدة: ٩٢ .

عن رسول الله ﷺ ضرب بقولهم عرض الحائط.

يقول الإمام مالك: «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر» يعني رسول الله ﷺ.

ويقول أبو حنيفة: «اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ» أي إذا خالف قولي قولا لرسول الله ﷺ فاتركوا قولي.

ويقول الشافعي: «إذا صح خبر يخالف مذهبي فاتبعوه واعلموا أنه مذهبي».

وقال الإمام أحمد: «لا تُقلدوني ولا تُقلدوا مالكا ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذوا من حيث أخذوا».

وهذا كله يدلنا على وجوب اتباع ما صح سنده عن رسول الله ﷺ، تاركين ما فيه ضعف مما نُسب إليه عليه الصلاة والسلام.

وما دام الأمر كذلك فلماذا إذن خالفت بعض أقوال الفقهاء أحاديث الرسول؟

يجيبنا الإمام ابن تيمية بقوله: إذا وجد لواحد منهم (أي الفقهاء) قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: ألا يكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عاملا بموجبه، أو يكون الحديث قد بلغه على نحو لم يثبت عنده؛ لأن في رواته مجهولا أو سيئ الحفظ أو متهما، أو أن في الحديث انقطاعا أو غير ذلك من العلل، أو يكون قد اعتقد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، أو يكون للمحدث حالان: حال استقامة وحال اضطراب، ولا يدري أَحَدَّث بالحديث في حال الاستقامة أو حال الاضطراب.

الصنف الثاني: أن يعتقد أن ذلك القول لا تُراد تلك المسألة به، لعدم معرفته بدلالة الحديث مثل لفظ: الملامسة والمنابذة، أو لاعتقاده أنه لا دلالة في الحديث، كأن يعتقد أن المفهوم ليس بحجة، أو أن العام المخصوص ليس بحجة.

الصنف الثالث: أن يعتقد أن الحكم منسوخ، كاعتقاده أن الحديث معارض بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما يصلح أن يكون معارضا بالاتفاق مثل آية أو حديث آخر.

كيفية معرفة الحديث الصحيح من غيره: كان من بين الصحابة من يكتب حديث رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، وأكثر الصحابة كانوا يتعاملون مع السنة مشافهة، لذا كنت تجد عند بعضهم ما لا تجده عند الآخر، ثم جمع الحديث في عهد عمر بن عبد العزيز بشكل رسمي ودونت السنة، وجمع الحفاظ الأحاديث المحتج بها في الكتب ونوعوها وقسموها وسهلوا أمر الوصول إليها وبينوا صحيح الحديث وضعيفه، فإذا أردنا في عصرنا هذا معرفة الحديث الصحيح من غيره رجعنا إلى أئمة الحديث، الذين هم قدوة في فنهم، وعرضنا آراء الفقهاء على السنن والآثار، فما ساعده الأثر فهو المعتبر، وإلا فإننا لا نبطل الخبر بالرأي ولا نضعفه إن كان على خلاف وجوه الضعف من علل الحديث المعروفة أو بإجماع الكافة على خلافه. وكل أمر لابد فيه من التثبت ومعرفة حكم الله من كتابه أو سنة رسوله، والتمسك بذلك هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وعلينا أن نعتقد وجوب العمل بالحديث الصحيح الذي لا نعلم له معارضا يدفعه، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء.

٥ ـ متطلبات الدعوة الإسلامية ومستلزماتها

إن الدعاة إلى الله هم مادة الحياة، ومنزلتهم أعلى المنازل، لا يستوحشون قلة السالكين، ولا يغترون بكثرة الهالكين، عرفوا أن الأمة المسلمة قد جاء دورها لتحقق ما أراده الله لها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾(١).

ولكن هذا ليس بالأمر الهين، إنه بعث جديد لأمة واراها ركام الأجيال، وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة التي لا صلة لها بالإسلام ولا بالمنهج الإسلامي، فالمسافة شاسعة والطريق طويل، ولكن لا مناص فلابد من البعث، ولابد من الخطوة الأولى، وإن كانت ستكون بداية مفترق طريق فما لنا من فكاك من البدء في هذه الرحلة الطويلة، فمن عاش لنفسه عاش متعبا، ولكنه عاش كبيرا ومات كبيرا.

والدعوة الإسلامية لها متطلباتها ومستلزماتها التي يجب أن تراعى، ولا تغيب عن الأذهان، ومن هذه المتطلبات:

يَسَعُ العمل الفردي ما لا يسع العمل المؤسسي:

يحتاج الدعاة إلى فقه دقيق لهذه الدعوة ووعي كامل بمتطلباتها، وهم محتاجون إلى صف آخر تُبنى عليه الآمال المستقبلية، وهذا يستلزم وضوح المفاهيم، ومنها مفهوم الولاء ومستلزماته من الطاعة والالتزام والانضباط، حتى لا تتشقق المؤسسة الدعوية.

وموقف حذيفة بن اليمان في غزوة الأحزاب يمثل انضباط رجل الدعوة خير تمثيل، فقد ندبه رسول الله ﷺ ذات ليلة ليأتيه بخبر القوم (الأحزاب) وقال له: «**لاَ تُحْدِثْ شَيْـئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي**»(٢) واقتحم حذيفة مُعسكر الأعداء وجلس بينهم، وشهد وسمع أبا سفيان وهو يقول: إني مرتحل فارتحلوا، يقول حذيفة: ولولا عهد

---

(١) آل عمران: ١١٠ .

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٣٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

رسول الله ﷺ: «**لاَ تُحْدِثْ شَيْـئًا حَتَّى تَأْتِينِي**»، لقتلته بسهم، كان حذيفة في موقفه هذا تضبطه ضوابطُ، وتقيده قيود الجماعة، فكان جنديا ملتزما مطيعا، لم يطع رغبته في قتل أبي سفيان مع قدرته على ذلك، التزاما منه بأمر رسول الله ﷺ: «**لا تحدث شيئا حتى تأتيني**»، وكان ذلك في صالح مؤسسة الدعوة، وإبعادها عن مشكلات هي في غنى عنها، وهذا الانضباط لا يعني القضاء التام على كل عمل فردي حسن، فهذا أبو بصير يرده رسول الله ﷺ التزاما بالعهد في صلح الحديبية، فيقتل أبو بصير أحد الرجلين اللذين جاءا في طلبه ويخرج إلى العيص على شاطئ البحر الأحمر، وينضم إليه كل من فر من مسلمي مكة بعد صلح الحديبية ويعملون أعمالا جليلة تخدم جماعة المسلمين، وإن لم يقم المسلمون بنفس الأعمال التزاما منهم بصلح الحديبية، وقد كانوا يفهمون ذلك فلم يطلبوا من الرسول أن يعملوا كما عمل أبو بصير؛ لأنه كان خارج نطاق الجماعة وكانوا هم في صفوفها .

والمؤسسة الدعوية لها أهدافها المحددة ووسائلها المشروعة، وهي مقيدة بهذه الأهداف والوسائل من جهة وتواجه من جهة أخرى أحداثا ومستجدات لا حصر لها مما يجعل حركتها محدودة ـ أحيانا ـ وهنا يبرز العمل الفردي الذي يُحقِّقُ للجماعة ما تصبو إليه ويكمل دورها، فهو جزء من الدعوة، فلا ينبغي النظر إلى كل منهما على أنه نهج مختلف عنه الآخر، بل ينبغي النظر إليهما على أنهما متكاملان متعاضدان، فالفرد الذي تملك المؤسسة توجيهه يؤدي الدور الذي تعجز الجماعة عن أدائه، أما الفرد الذي لا سلطة للجماعة عليه ولا تملك توجيهه فإنه يخدم الدعوة بدافع من إيمان أو حب، أو نخوة، ولكل امرئ ما نوى.

العوامل المنشئة للقاعدة:

وهي العوامل التي تجعل العمل الفردي يسعه ما لا يسع المؤسسة الدعوية، وتتجمع في شقين:

١ ـ عوامل داخلية: تتمثل في المنهج الحركي الذي تسير عليه، ومن أهم ملامحه:

أ ـ المرحلية: وهي سمة أساسية في هذا المنهج، ولابد من فهمها في ضوء

الواقع فهما عميقا، فلا تكون وسائلها ثابتة كما لا تكون مرحلية طائشة، وهنا قد يدفع العمل الفردي عن المؤسسة أضرارا، أو يجلب لها نفعا، فيقي بذلك المؤسسة من أن تتخذ موقفا لا يناسب مرحلتها.

ب ـ العمل الجماهيري: هذا العمل يخضع لمرحلة الدعوة وطاقتها؛ ففي المرحلة الأولى يكون تربويا ثم يكون له بعد ذلك دور أكبر.

٢ ـ عوامل خارجية: وهي مجموعة من الضغوط التي يتعرض لها العمل الإسلامي، ومنها:

أ ـ انتشار الانحلال والفساد الأخلاقي وخاصة من مراكز التوجيه والإعلام مما يُعِيقُ تقدم الدعوة وحركتها.

ب ـ تردي الأوضاع السياسية والاجتماعية نتيجة الدعوات المنحرفة.

جـ ـ بَثُّ الشُّبُهَاتِ حولَ العمل الإسلامي من أعدائه في الخارج والداخل.

حالات العمل الفردي:

١ ـ فرد المؤسسة الدعوية السائب، وهذا هو الذي منعه من الانضمام للمؤسسة الدعوية سبب من الأسباب من جانبه هو أو من جانبها هي، وهذا له دور يدفعه إليه الإيمان أو الحبُّ أو النخوة.

٢ ـ فرد المؤسسة الدعوية المجهول: وهو الفرد الذي لم يعرف انتسابه للمؤسسة، وله دور كبير خطير في العمل، حيث يمكن لظرف من الظروف أن يؤدي أجلَّ الخدمات للمؤسسة من غير أن يلحق بها ضرر، إلى جانب أنَّ أمثال هذا الفرد يعتبر قوة مذخورة للدعوة لا تحسب لها، ولا تظهر إلا وقت الحاجة، والفرق عظيم بين فرد يأتمر بأمر المؤسسة وآخر يجتهد لنفسه فالأول يحقق أهداف المؤسسة والثاني قد يحقِّقُها أو يحقق بعضها بعيداً عنها. وقصة نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب نموذج رفيع لنوعية هذا الفرد وما يقدمه من جليل الأعمال.

٣ ـ فرد من خارج الإطار العام للعمل الإسلامي: وهو الشخص الفاجر، وقد جاء في الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**»(١)، ووجوه تأييد مثل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).

هذا الرجل تتغير حسب الظروف والأحوال؛ فقد طلب رسول الله ﷺ نصرة عمه أبي طالب وهو مشرك، وبقيت نصرته للإسلام حتى مات، وقد تتخذ النصرة شكل الاستعانة ببعض المشركين كما فعل رسول الله ﷺ مع صفوان بن أمية قبل إسلامه، وقد تتخذ نصرة المشركين صورة من صور الحماية والجوار كما فعل المطعم بن عدي مع الرسول بعد رجوعه من الطائف، على أنه يجب في جميع الأحوال الترفع عن الشبهات، والابتعاد عما يفسر على غير وجهه أو يفتح بابا للطعن والنقد .

التحرك الدعوي بين الفردية والجماعة:

الدعوة إلى الإسلام فريضة شرعية وضرورة بشرية، امتثالا لأمر الله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١) ولأن المؤسسات الكافرة تعمل على حصر الإسلام، ومحاولة طمس معالمه، فإنه من الواجب العمل في مؤسسة دعوية إسلامية شعارها: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾(٢)، وقد بذل صحابة رسول الله من أجل الدعوة أنفسهم وأموالهم وأولادهم ففتحوا البلاد ونشروا نور الإسلام بين العباد، وكان هدفهم: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(٣)، وتذكر أخي الداعية قول الإمام ابن القيم: «مقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد».

انطلاقةُ الدعوةِ المباركة:

نزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ في غار حراء بأول آيات من الذكر الحكيم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٤) الآيات، فكانت لحظة مباركة في تاريخ الأرض، طوت صفحة مظلمة من صفحات الوجود، وأتت بصفحة مشرقة منيرة، وكان الصراع بين الحق والباطل، وكان ثبات الرسول ﷺ وصدقه وأمانته

---

(١) آل عمران: ١٠٤ .
(٢) يوسف: ١٠٨ .
(٣) فصلت: ٣٣ .
(٤) القلم: ١ـ٥ .

وعفته وإخلاصه لله دليلا علـى قوة هذه الدعوة، وتبعه على النهج رجال آمنوا به واتخذوه لهم قدوة، فكانوا كـما وصفهم الله: ﴿ **رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾(١)، فواجهوا المحن ثابتين، حتى ظهر الحق وزهق الباطل، بعد أن مات منهم من مـات، وبقي من بقي: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً** ﴾(٢).

واقع الدعوة اليوم:

وما لقيـه رجال الدعوة الأوائل هو نفس ما يلقاه رجـال الدعوة الآن، فمنهم من عُلِّقَ على حِبـال المشانق، ومنهم من أُلقِي في غيـابة السجن، ومنهم من لقي ربه، ولكنهم جمـيعا قالوا للطاغـوت: لا، وكأن لسان حالهم هو مـا قاله رجال الدعوة الأوائل:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وهؤلاء وأولئك: ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾(٣).

وسائل الدعوة:

للدعوة فن في التبليغ ووسائل في إيصال موضوعها للناس، الذين يحتاجون لِلفْت نظرهم للإسلام كمنهج حياة، ثـم إقناعهم بضرورة العودة إليه، وذلك يتم عن طريق الدعوة الفردية، أو منهج الدعوة العامة.

أولا : التربية الفردية:

مفهومها: قيام كل فرد من أفراد العمل الإسلامي بواجب الاحتكاك المقصود بعناصر جديدة ومـحاولة جذبها إلى الفكرة أولا عن طريق التـربية ثم إلى الدعوة أخيرا.

أهميتها: اعتمد عليها الرسل في تربية مجموعة على حقيقة الدين، تتحرك به حتى يقضي الله أمـرا كان مفعولا، ويؤكد القـرآن المسؤولية الشخصـية في حمل

---

(١) النور: ٣٧ . (٢) الأحزاب: ٢٣ .

(٣) آل عمران: ١٤٦ .

أعباء الدعوة: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾(١).

مُتَطلباتها:

أولا: المنهج السليم: الذي تتكامل فيه جوانب التربية (فكرية، روحية، أخلاقية) مما يحقق التوازن في بناء الشخصية المسلمة، ويؤدي إلى تخريج الفرد المسلم والجيل المسلم.

ثانيا: القدوة الحسنة: بحيث يرى أمامه في الصف أُناسا أتقياء ورعين، ويخافون ربهم.

ثالثا: البيئة الصالحة: التي يجب توافرها وخاصة أثناء مرحلة التكوين الأولى.

رابعا: تجرد المربي عن كل غرض شخصي.

خامسا: التدرج في التربية: فالعقيدة قبل العبادة، وهما قبل منهاج الحياة، والكليات قبل الجزئيات.

سادسا: استعمال الرفق والرحمة في التربية، والصبر على الزلات والأخطاء، حتى يثمر هذا الصبر في الفرد المدعو.

وسائلها:

متعددة ومدارها على اللقاءات التي يجلس فيها المربي إلى المدعوين، ويتدارس معهم القرآن والحديث والسيرة، ويختار الأماكن والأوقات المناسبة، ويأخذهم إلى حلقات المساجد، ويدعوهم إلى الطعام... إلخ.

أثرها في الفرد:

تعتبر التربية الفردية من أنجح وسائل الدعوة وأقواها أثرا على المدعو مما يزيد من فرص نجاحها فيتضاعف بها الصف المسلم، ويورثها الجيل القديم للجيل الصاعد فتستمر الفكرة ويتسع مداها.

صفات العاملين في الدعوة الفردية:

أسلوب الدعوة الفردية لا يجيده كل داعية؛ لأنه يحتاج إلى مواصفات

(١) النحل: ١٢٥ .

خاصة، فهو يحتاج إلى داعية مرب، والتربية ملكة يهبها الله من يشاء من عباده، وهي ملكة تعينه على تنشئة المدعو تنشئة موفقة.

ومن هذه الصفات التي يجب على من يمارس الدعوة الفردية أن يتمتع بها:

١ ـ **الفهم الشامل لتعاليم الإسلام،** فالمدعو ينظر إلى الداعية على أنه قدوة في كل شيء في علمه وفهمه وعمله وقوله، فإذا لم يكن المربي على المستوى اللائق من الفهم والعلم والالتزام أحدث خللا في بعض جوانب الشخصية الإسلامية للمدعو.

٢ ـ **السلوك الإيماني الذي يتجلى في حركات الداعية** وسكناته وأقواله وأفعاله وسمته ونظره، ويملك عليه كل حياته.

يقول الإمام البنا وهو يصف الداعية المجاهد بأنه : «شخص قد أعدَّ عُدَّتَهُ، وأخذَ أُهْبَتَهُ، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه، وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام على قدم الاستعداد دائما». والداعية قدوة لغيره ممن يدعوهم إلى الله، وهو بسلوكه وثبات أخلاقه أكثر تأثيرا فيهم، وقد قيل: «مَنْ لمْ تُهَذِّبْكَ رُؤيتهُ فاعلم أنه غيرُ مُهذَّبٍ».

وقال الشافعي رضي الله عنه: «من وعظ أخاه بفعله كان هاديا» ولابد في الداعية القدوة من الجد والزهد والتجرد، وأن يتصف بالبذل والسخاء؛ لأن غيره يقتدي به ويتعلم منه، والرسول ﷺ: كان خلقه القرآن، وحري بالدعاة أن يلتزموا نهجه ويسيروا على خطاه.

٣ ـ **الخبرة بالنفوس:** فالنفوس ليست متساوية وبينها من التفاوت الكثير، ولو عملت كلها معاملة واحدة لأضر ذلك بالكثير منها، ولذا فمن واجب المربي أن يتعامل مع كل نفس بما يناسبها فيلين حيث يُجدي اللينُ، ويشتد مع صاحب النفس القاسية، والرسول كان يعامل كل نفس بما يناسبها، ولنا فيه الأسوة الحسنة.

أسلوب التربية الفردية:

التربية الفردية فن له معالم وحدود شرعية، تطبقها المؤسسة الدعوية بما يناسب الظروف المحيطة، ويتشربها المدعو، فتظهر في حياته سلوكا عمليا يُعبر عن

الإسلام بوضوح، وأولى خطوات هذه التربية الفردية هي: التعرف على الشخص المدعو من حيث أفكاره ومفاهيمه وتصوراته، ومعرفة أقرب المنافذ للوصول إلى قلبه ليصوغه الصياغة الإسلامية بناء على الأطوار الآتية:

أولا: طور بناء العقيدة: أي إيجاد الفكر الصحيح عن ارتباط الإنسان بربه وعلاقته مع مخلوقات الله، بحيث يتحول هذا الفكر كما يقول سيد قطب: «إلى صورة حية متمثلة في الضمائر متكيفة بهذه العقيدة، ومتمثلة في بناء جماعي وتجمع حركي يعبر نموه من داخله وخارجه عن نمو العقيدة ذاتها».

ثانيا: طور التطبيق: إذا ما رسخت العقيدة في القلب أتى دور التطبيق في السلوك الكامل المحتوي على جميع الجوانب العبادية بالمعنى العام للعبادة وهي فعل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقول؛ لأن ذلك أثر من آثار العقيدة الصحيحة.

ثالثا: طور الانخراط في العمل الإسلامي: بعد رسوخ العقيدة وظهور آثارها في أعمال الفرد وأقواله يصبح ممهداً للانخراط في العمل المؤسسي، وعلى المربِّي أن يُبين له الأدلة الشرعية على هذا العمل، وأن يلازمه حتى تكتمل المفاهيم والجوانب الإسلامية اللازمة لينضم إلى العمل الدعوي المؤسسي.

القواعد الأساسية في التربية:

١ ـ **الرفق:** ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾(١)، وقال ﷺ: «**إن الرفق لا يكون في شَيءٍ إلاَّ زَانَهُ** ...»(٢) والمدعو في حاجة إلى الرفق واللين ليسهل امتلاك قلبه.

٢ ـ البُعْدُ عن الذَّمِّ والتَّعاتُبِ: فلا تُبنى الدعوة على الذمِّ والتوبيخ، إنما تُبنى على التناصح والإرشاد إلى الحسنى، قال أحد أصدقاء ابن السماك له: «الميعاد بيني وبينك غدا نتعاتب، فقال له: بل بيني وبينك غدا نتغافر».

٣ ـ التربية تمهيد وتشويق: لا جبر وإكراه، إذ لا يُمكن جبر إنسان على سلوك معين، فأسلوب التمهيد والتشويق وإثارة الرغبة فيما عند الله هو الذي

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

يجمل بالداعية ويحتاج إلى صبر لتظهر ثمرته.

٤ ـ **التشجيع**: فالتشجيع يزيد من حماس المدعو واستمراره في العمل، وقد فعله رسول الله ﷺ مع صهيب حينما هاجر وترك ماله للمشركين قال له الرسول ﷺ: «**رَبِحَ صُهَيْب ... رَبِحَ صُهَيْبُ**»(١).

المؤسسة الدعوية ومنهج التربية:

لابُدَّ لكل دعوة تقوم من قاعدة صلبة يُبنى عليها صرحها، وكلما قويت القاعدة كان البناء أثبت وأقوى، والتوسع الأفقي قبل قيام القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أي حركة، والرجال الأكفاء يكونون هذه القاعدة التي تحمل البناء وتعلو به وتظهره، والتربية الصحيحة هي أسلوب تكوين هذه العناصر القوية التي تحتاجها المؤسسة الدعوية. يقول الإمام البنا: «. . فأعدوا أنفسكم، وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة، والاختبار الدقيق، وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها، الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها».

ثانيا: منهج الوعظ العام:

بعد عرضنا المفصل لمنهج التربية الفردية نعرض الآن لمنهج الوعظ العام، الذي يختلف عن منهج الدعوة الفردية من حيث الأسلوب والتأثير والثمرة.

معنى الوعظ: لغة: جاء في المنجد، نصح له: ذكره ما يحمله على التوبة، **واصطلاحا:** هو ما كان الخطاب فيه مُوجها إلى جماعة من الناس بقصد التأثير فيهم.

طبيعة هذا المنهج:

الوعظ والإرشاد وسيلة هامة للدعوة لا يمكن الاستغناء عنها، ولاسيما إذا قام بها داعية قدير، فإن الله يهدي به ألوف الناس، وقد كان الوعظ جزءًا من مهمة الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم الله إلى الخلق، فأيقظوا الناس من سُباتهم، وأعادوهم إلى ربهم، وهذه الوسيلة ـ رغم عظمها ـ لا تكفي لتحقيق الهدف،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٠٨٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: «رجاله ثقات، رجال الشيخين، هو مرسل»، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٤١٣١).

لأسباب منها:

١ ـ أن الوعظ ـ غالبا ـ قاصر على المساجد، والملاحدة والفسقة لا يأتون إليها، وإن أتوا في بعض الأحيان إلى المساجد فقلَّما تُؤثر فيهم خطبة أو كلمة.

٢ ـ تأثير الموعظة محدود بوقت معين، ينصرف الناس بعده إلى شئون الحياة فيتبخر أثر الموعظة.

٣ ـ أن الوعظ يؤثر في الأفراد، لكنه لا يغير المجتمعات بتبديل مفاهيمها وقيمها وتقاليدها وقوانينها؛ لأن هذه الأشياء يُدعمها رجال لا تؤثر فيهم كلمة.

٤ ـ أجهزة الإعلام المعاصرة ـ بتقدمها الكبير ـ تهدم كل ما يبنيه الوعاظ المرشدون.

مَتَى يبلغ البُنيانُ يوما تَمَامَهُ إذَا كُنْتَ تَبنيه وغَيْرُكَ يَهْدِم
وَلو ألف بانٍ خَلفهم هادم كفى فكيف ببانٍ خَلْفه أَلْفُ هَادِمُ

٥ ـ قد لا تتاح الحرية الكافية أمام الوعظ ليُحدث أثره في المجتمع وخاصة في المجتمعات التي تُحارب الإسلام أصلا، وتقف في وجه دعاته المخلصين.

صفات الواعظ:

نستطيع أن نصف الواعظ بأنه شخص كملت نفسه، ورشد عقله، يعمل بما يعلم، واقف عند حدود الشرع، بصير بأحوال الناس، عليم بالطريق الذي يسوسهم منه، لا يعرف اليأس إليه سبيلا، يتبع كتاب الله، ويقتدي بالرسول ﷺ، يستطيع أن يعظ كل صنف من الناس بما يُناسبُهم، ويجب أن يكون أول من يقدم على العمل، يقول مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته عن القلوب كما تزل القطرة عن الصفا».

من آداب الوعظ العام:

أولا: حسن الاختيار فيما يأتي:

١ ـ الموضوع بأن يكون مناسبا للأحداث وللمستمعين.

٢ ـ سهولة الألفاظ وحسن اختيارها وقربها من الأفهام مع تجنُّبِ الغريب منها.

٣ ـ اختيار الوقت المناسب حتى لا يشُق على الناس.

٤ ـ اختيار المكان المناسب الذي يرتاح فيه المستمعون.

ثانيا: عدم الإطالة، إذ هي تستهلك الطاقة الذهنية وتخالف تعاليم الإسلام.

ثالثا: حسن الأداء بالبدء باسم الله وحمده والثناء عليه واستحضار المادة والتشويق، والوقار وحسن السمت.

طرق الوعظ العام:

أولا: الخطابة: وهي تهدف إلى التأثير والإقناع، وتكون لجمع من الناس، ولنجاحها لابد أن يكون عند قائلها معنى أو معانٍ يريد بيانها مع ربطها بحياة الناس وبيان موقف الإسلام منها.

ثانيا: الدرس: وله أثره في نفوس المستمعين خاصة إذا كان مُلقيه قد أعد مادته جيدا، وغالبا ما يكون الدرس شرحا لآية قرآنية أو حديث نبوي أو بياناً لمسألة فقهية، أو حثاً على سلوك أخلاقي.

ثالثا: الكتابة: التي تحرك أوتار القلوب، وتكون بكتابة الرسائل إلى الأشخاص، أو بتأليف الكتُب والبُحوث التي يقرؤها عامة الناس، ولذا ينبغي تبسيط الأسلوب فيها والبعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي.

بين التربية الفردية والوعظ العام:

تعتمد المؤسسات الدعوية في قيامها بواجبها على التربية الفردية لإيجاد العناصر الصلبة التي يقوم عليها بُنيانها ولإعداد قيادات تشُدُّ من أزر الجماعة وتعمل على تنشيطها، وتعتمد على الوعظ العام الذي ينشر الوعي على نطاق واسع ويبث الفكرة بين الجموع لكسب الآراء وإعداد الأفراد القادرين على تحمل مسؤولية الدعوة.

وينبغي أن تتم الخُطُوات السابقة بحذر واتزان وتخطيط، والسير وفق مراحل محددة لا تغتر بالكثرة، وإنما تُعنى بالتربية للوصول إلى إقناع عامة الناس وخاصتهم بضرورة تحكيم شرع الله في كُلِّ نواحي الحياة، وبما أن عصرنا عصر التجمعات فلابد من مؤسسات تدعو إلى الإسلام، ولا خوف من تعدد هذه المؤسسات؛ لأن مآلها إلى التوحد أو التقارب على الأقل، ويجب ألا تقتصر التربية على الوعظ العام وحده أو على التربية الفردية وحدها بل تشملهما جميعا.

٦ ـ النصيحة

شرعت النصيحة لتكون جدارا يصد نزغات الشياطين ومحاولاتهم للنيل من قوة الصف، فالنصيحة تنفي الأخطاء وتُعين على السير في الطريق القويم، ولذا قال ﷺ: «**الدينُ النَّصيحَةُ**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(١) فالنصيحة عماد الدين وقوامه، قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝**﴾ فالصبر والتناصح سبب الفلاح في الدنيا والآخرة، وهذا نوح عليه السلام يقول: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ**﴾(٢)، والنصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له بمعنى أن الناصح لا يترك باب خير ولا سبب فلاح إلا دل المنصوح عليه.

النصيحة من حقوق الأخوة:

من ألزم حقوق الأخوة إسداء النصيحة لأخيك المسلم، فمن سكت عن خطأ أخيه ولم ينصحه فقد غشه، وسواء رضي المنصوح أو لم يرض فإن النصيحة واجبة والناصحون لإخوانهم هم خير الإخوان كما قال أبو حاتم البستي: «خير الإخوان أشدهم مبالغة في النصيحة كما أن خير الأعمال أحمدها عاقبة وأحسنها إخلاصا، وضرب الناصح خير من تحية الشانئ»، والمؤمن مرآة أخيه يرى عيوبه فيصححها، وهو كما يصل أخاه بالزيارة والهدية يصله بنصيحة تفيده في دنياه وأُخراه.

يقول عمر بن عبد العزيز: «من وصل أخاه بنصيحة في دينه ونظر له في صلاح دنياه فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه» وجعل الحارث المحاسبي النصيحة دليل المحبة، فقال: واعلم أن من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك، وكان السلف الصالح يتذاكرون أنهم بايعوا الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم.

يقول جرير بن عبد الله: «بايعت الرسول ﷺ على السمع والطاعة فلقنني ـ فيما استطعت ـ والنصح لكل مسلم»(٣)، فلابد من الوفاء ومن قصَّر فإثمه على نفسه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥). (٢) الأعراف: ٦٢ .
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٠٤)، ومسلم (٥٦/ ٩٩).

طلب النصيحة:

كان السلف الصالح يطلبون النصيحة ليعملوا بها. يقول عمر بن الخطاب: «رحم الله امرأً أهْدَى إليَّ عيُوبي»، وكان عمر بن عبد العزيز يقول لمولاه مزاحم: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلا لا تحبه، فعظني عنده وانهني عنه»، وطلب النصيحة يدل على أن الإنسان لم يدع أنه بريء من المعايب، وأنه مستعد لعلاج عيبه، وأنه مشغول بعيبه عن عيوب الآخرين، وهنا بدأ طريق النجاة، يقول السري السقطي: «من علامة استدراج العبد عماه عن عيبه واطلاعه على عيوب الآخرين» والنبي ﷺ يقول: «**يُبصِرُ أَحدُكُم القَـذَاةَ في عين أخيه، وينسى الجذع في عين نفسه**»(١).

وطلب النصيحة يستوجب تخير الأصحاب واصطفاء الأخلاء الذين يخافون الله ويقومون بحقوق الأخوة بصدق، ومنها حق النصيحة.

قبول النصيحة:

الصادقون يفرحون بالنصيحة ويأنسون بها، ويحسون كأنهم حازوا بها كنزا ثمينا، والكاذبون يبغضون النصيحة والناصحين، قال تعالى: ﴿**وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾(٢).

وللناصح الحق في أن يسقط من عينه من يرد نصيحته، يقول الإمام الشافعي: «ما نصحت أحدا فقبل مني إلا هبته واعتقدت مودته، ولا رد أحد علي النصح إلا سقط من عيني ورفضته».

والنصيحة من الدين، ولا يقبلها إلا أصحاب اليقين، ومن ردها وجب عليه أن يراجع نفسه وأن يتهمها، يقول أبو حاتم البستي: «النصيحة محاطة بالتهمة، وليست النصيحة إلا لمن قبلها، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها، ولا الآخرة إلا لمن طلبها، وليس على كل ناصح إلا الجهد ولو لم يقبل من نصائحه ما يثقل عليه لم يحمد غب رأيه».

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥٧٦١)، وقال شعيب الأرناؤوط: «رجاله ثقات».

(٢) الأعراف: ٧٩ .

ويقول الشاعر:

إذا نَصحت لذي عُجْبٍ لتُرْشِدَهُ فلمْ يُطعْكَ فلاَ تنصح له أبدا
فإنَّ ذا العجَب لا يُعطيكَ طاعتهُ ولا يجيبُ إلى إرشاده أحدا

ولم يرفض أحد النصيحة إلا لعجب في نفسه وكبر في قلبه، وقد قال ﷺ: «**لاَ يدخُلُ الجنَّةَ مَنْ كَانَ في قلبه مثقال ذرة من كبر**»(١)، وكفى بهذا عقابا لرافضي النصيحة، المعاندين للحق.

من آداب النصيحة:

١ ـ **عدم إظهار الأستاذية على المنصوح**، بأن تسلك له سبيل الأخوة وإظهار المودة ثم تنصحه بعد ذلك، وإن لجأت إلى التعريض فحسن.

٢ ـ **الإسرار بالنصيحة**: تواترت أقوال السلف بالتشديد على الإسرار بالنصيحة، وعدوا من جاهر بنصيحته متجاوزا الحد.

يقول أبو حاتم: «كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره، أمره في ستر ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره، ويؤجر في نهيه، أما اليوم فإذا رأى أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه وهتك ستره».

وقال الفضيل بن عياض: «المؤمن يستر، والفاجر يهتك ويعير».

ويقول أبو حاتم البستي: «من وعظ أخاه سرا فقد حفظه وزانه، ومن وعظه علانية فقد شانه»، وكان السلف يأبى أحدهم أن يبين له أحد عيوبه في الملأ.

حدث سفيان قال: قلت لمسعر: «تحب أن يخبرك أحد بعيوبك؟ قال: أما أن يجيء إنسان فيوبخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصحا فنعم».

ويقول الشاعر:

تعهدني بنُصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعه
فإن النُّصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت قولي فلا تجزع إذا لم تُعْطَ طاعه

(١) أخرجه مسلم (٩١).

ولما كان الجهر بالنصيحة مظنة الرياء فقد وجب اللجوء إلى الإسرار.

٣ ـ التثبت في معرفة الأخطاء: التثبت من أخطاء الناس أولا ثم نصحهم في السر ثانيا يجعلهم يثقون بنصيحة الناصح ويقبلونها فتقع منهم في أحسن موقع.

٤ ـ الرفق في النصح: والرفق في كل أمر مطلوب، وهو في النصح آكد وأشد، فالله يقول في كتابه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1]، فالغلظة والقسوة تتنافى مع منهج رسول الله ﷺ في الرفق واللين في النصح والإرشاد، كيف لا وهو القائل: «**ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزِع من شيء إلا شانه**»[2].

يقول سيد قطب: «عندما تلمس الجانب الطيب في نفوس الناس تجد خيرا كثيرا لا تراه العيون أول وهلة . . . شيء من العطف على أخطائهم وحماقاتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية غير المتصنعة باهتماماتهم وهمومهم.. ثم ينكشف لك نبع الخير في نفوسهم» وما كان أرفق رسول الله وهو يعالج أخطاء أصحابه، يقول معاوية بن الحكم السلمي: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكلَ أُماه، ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكنِّي سكتُّ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»[3].

٥ ـ عدم تصيد الأخطاء، لأن من فعل ذلك يحاول أن يجد للبرآء عيبا ونصحه مردود عليه.

---

(١) آل عمران: ١٥٩ .   (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

٧ـ واجبات الداعية المسلم

يقول صاحب الظلال ـ رحـمه الله: «إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قـصيرة الأجل، إما أن تربـح ربحاً معـينا محـددا في هذه الأرض، وإما أن يتخلـى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربما وأيسر حصيلة، والذي ينهض بالدعوة يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل.

إنما ينبـغي له أن يستـيقن أنه يواجـه طواغيت يملكون القـوة والمال، ويملكون استـخفاف الجمـاهير حتى ترى الأسود أبيـض، والأبيض أسود، ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات.

ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثـيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجـاهلية كثير التكاليف أيضـا، وأنه من ثم لا تنضم إليها ـ في أول الأمر ـ الجماهير المستضعفـة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا.

وواجبات الداعية المسلم كثيرة: واجبات نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو أهله وذوي رحمه، ونحو المسلمين من حوله، وقد تقف عوائق كـثيرة في سبيل تحقيق هذه الواجـبات ولكن الإيمان القـوي والتطلع إلى المنزلة العاليـة عند الله تذلل كل الصعوبات، وتزيل العقبات، وسنحاول هنا أن نُلم بطرف من هذه الواجبات.

أولا: واجب الداعية المسلم تجاه ربه:

١ ـ العمل بالأركـان الخمـسة، فيقـيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصـوم رمضان ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا، وذلك كله بعد أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويسلم لله في أمره الشرعي: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾(١) ويسلم كـذلك في أمره الكـوني القدري، كـمـا فعل رسـول الله ﷺ حين مات ابنه

---

(١) النساء: ٦٥ .

إبراهيم: «**تَدمعُ العينُ ويحزنُ القلبُ ولا نقولُ إلا ما يُرضِي ربَّنَا، والله - يا إبراهيمُ - إنَّا بكَ لَمَحْزُونُونَ**»(١).

٢ - الإخلاص: قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثُ خصال لا يغُلُّ عليهن قلبُ مُسلم أبدا: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتَهُم تُحيطُ من ورائهم**»(٣)، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان صحيحا وابتغى به وجهه، فإن غاب أحدهما لم يقبل العمل.

٣ - الصبر: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾(٤)، يقول الإمام أحمد: (الصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر).

٤ - المراقبة: يقول الله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا**﴾(٥) والمراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه بأن الله مُطلع على ظاهره وباطنه، وهي ثمرة العلم بأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (٦).

٥ - التقرب إلى الله بالنوافل: وهي ما عدا الفرائض من جميع أجناس الطاعات وفي الحديث: «**إن الله تعالى قال: مَنْ عادَى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزالُ عبدي يتقربُ إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه**»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٢) البينة: ٥ .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٠)، وأحمد (٥ / ١٨٣) واللفظ له، وصححه الألباني.

(٤) البقرة: ١٥٣ .

(٥) الأحزاب: ٥٢ .

(٦) الملك: ١٤ .

(٧) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

٦ ـ **حب الله**: وهو قارب النجاة من الغرق في بحر الدنيا والجري وراء حُطامها وشهواتها؛ فالذي تعلق قلبُه بالله لا يطغى عليه حُبٌّ ما عداه: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(١).

٧ ـ **حبُّ الرسول**: يقول ﷺ: «**لا يُؤمِنُ أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢)، وحب رسول الله ﷺ يقتضي العمل بسنته والسير على منهجه والاقتداء به، والذب عنه أمام الأعداء.

٨ ـ **الورع**: قال رسول الله ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(٣)، فهذا الحديثُ جمع كل ما هو مقصود من الورع في جميع نواحي الحياة، قال إبراهيم ابن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات.

٩ ـ **الرجاء**: قال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٤)، ويقول ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»(٥)، والرجاء لا يكون إلا مع بذل الجهد وحسن التوكل، ولذا فهو لا يصح إلا مع العمل.

١٠ ـ **التوكل**: قال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾(٦) فعلى الله ـ وحده ـ يتوكل المؤمنون، لا يركنون إلا إلى حماه، ويواجهون الطغيان والأذى بالإيمان والثبات ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا**﴾(٧)، والله الذي يهدي السبيل هو الذي ينصر ويعين: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾(٨).

١١ ـ **الثقة في الله**: وتتجلى هذه الثقة في قصة موسى حين أوحى الله إليه أن يسري ببني إسرائيل، وعند الصباح لحق بهم جنود فرعون، فقال أصحاب موسى: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾(٩)، قال موسى في ثقة وثبات ويقين: ﴿**قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾(١٠) كلا، لن نكون مدركين، كلا لن نكون هالكين، كلا لن نكون

(١) البقرة: ١٦٥.
(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وقال: «غريب»، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الألباني.
(٤) البقرة: ٢١٨.
(٥) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).
(٦) إبراهيم: ١٢.
(٧) إبراهيم: ١٢.
(٨) الطلاق: ٣.
(٩) الشعراء: ٦٠.
(١٠) الشعراء: ٦١.

مفتونين أو ضائعين، ووقعت المعجزة، وانكشف بين فرقي الماء طريق، وقف الماء على جانبيه كالطود العظيم ومر بنو إسرائيل.

١٢ـ الاستعداد للآخرة وتذكر الموت: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾(١)، فعلم طريق الآخرة يهيج القلب، ويشعر صاحبه بغربته في الدنيا، وقرب رحيله عنها إلى سفر بعيد لا يرجع بعده إلى دنياه، ولا ينفع فيه إلا زاد التقوى ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ**﴾(٢).

١٣ ـ تجديد التوبة والاستغفار: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾(٣)، وقال ﷺ: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٤)، والتوبة ليست من المعاصي وحدها ولكنها كذلك تكون من التقصير في الطاعات، ولابد فيها من الندم على ما ارتكبه الإنسان، والإقلاع عنه، والعزم على عدم العودة إليه، ورد المظالم إلى أهلها.

١٤ ـ استصحاب نية الجهاد دائماً: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول ﷺ يوم الفتح، فتح مكة، قال: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٥).

قال النووي: «يريد أن الخير الذي انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا».

١٥ ـ المحاسبة الدائمة: قال تعالى: ﴿**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾(٦) وجاءت ﴿**لا**﴾ لتوكيد القسم.

قال الحسن: «هي والله نفس المؤمن، ما يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت

---

(١) آل عمران: ١٨٥ . (٢) البقرة: ١٩٧ .
(٣) التحريم: ٨ . (٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).
(٥) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).
(٦) القيامة: ٢ .

بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ مـا أردت بحديث نفسي؟ والفـاجر لا يحاسب نفـسه»

إنها محكمة يقيمها المؤمن لنفسه داخل نفســه، يفصل فيها بين الأعمال الصحيحة وغير الصحيحة، والعقاب فيها يكون بالتوبة والإقلاع، وفعل الصالحات.

ثانيا: واجبات الداعية المسلم نحو نفسه:

١ ـ نحو بدنه: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجلَّ من المؤمنِ الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ**»(١)، ومن أهم واجبات الداعية في هذا الجانب معالجة ما يظهر من أمراض، والاهتمـام بأسباب القوة البدنية، والابتعاد عن تناول المنبهات، والبُـعد التام عن التدخين، والعناية بالنظافـة في كل شيء؛ فقد بني الدين على النظافة، ومزاولة أي نوع من أنواع الرياضة، والبعد عن السهر ما أمكن.

٢ ـ نحو عقله: لا يستطيع الداعية أن يغالب التحديات وأن يقود الركب قيادة رشيدة ما لم يكن على مُستوى حسن من الثقافة والاطلاع، فإن من الواجب عليه أن يتثقف بالثقافة الإسلامية بأن يُلمَّ بعلم العقيدة وعلم القرآن وما يتصل به وعلم السنة، وعلم أصـول الفقـه، وعلم الفقـه، وعلم الأخلاق وعلم التـاريخ وعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغـة وغيرها، وعليه أن يتثقف بالثقافـة العامة، فيدرس التحديات والمؤامـرات والتيارات المنحرفة التي تواجـه الإسلام وتنحرف بأبنائه عن هديه القويم، ويدرس مـؤلفات كتـاب الحركة الإسلامـية، ويتابع قـراءة الصحف والمجلات المحلية والعالمية، ويسمع ويشاهد بعض ما يفيد.

٣ ـ نحو خُلُقه: قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)، وقال ﷺ: «**ما من شيء أثقل في مـيـزان المؤمـن يوم القـيـامـة من خلق حـسن ، وإنَّ الله يبـغضُ الفاحش البذيء**»(٣)، ومن أهم واجباته نحـو خلقه أن يكون متواضعـا في غير ذل، وأن يكون حييا رقيق الشعور، وأن يكون صادقا لا يكذب أبدا، وفيا لا يخلف وعده، وأن يكون شـجاعا عظيم الاحـتمال، صـريحا في الحق، كـاتما للسر، وأن يكون وقورا يُؤثر الجد والرزانة، وأن يبتعد عن رفقاء السوء ومواطن الشبهات.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤). (٢) القلم : ٤ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

٤ ـ نحو ماله: قال ﷺ: «**لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغني به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه، ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»(١)، وعلى الداعية المسلم أن يزاول عملا يكسب منه مهما كان غنيا، وأن يجيد عمله ويتقنه، وأن يبتعد عن الربا في كل معاملاته، وأن يجتنب الميسر بكل أنواعه، وأن يدخر للطوارئ.

ثالثا: واجبات الداعية نحو بيته:

١ ـ نحو والديه: قال تعالى: ﴿**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾(٢) ومن الواجبات نحوهما: الحرص على برهما في كل الظروف، فعن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قال: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قال: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»(٣)، ومن الواجبات الحذر من عقوقهما فذلك من أكبر الكبائر، قال رسول الله ﷺ: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»(٤)، ومن الواجبات النصح لهما بالمعروف حتى وإن كانا مشركين ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾(٥) ومعاونتهما بالمال إن كانا فقيرين، وحفظ عهدهما من بعدهما والاستغفار لهما: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾(٦).

٢ ـ نحو الزوجة: قال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(٧) فيطعمها ويكسوها ويؤدبها، ويعلمها الضروري من أمور دينها إن كانت لا تعلمها، ويُلزمها بتعاليم الإسلام وآدابه، ويعدل بينها وبين غيرها من الزوجات إن وجدن، وألا يفشي لها سرا أو يذكر لها عيبا، إذ هو أمين عليها مُطالب برعايتها.

٣ ـ نحو الأبناء: الواجب نحو الأبناء اختيار أسماء إسلامية خالدة لهم، وتعليمهم الصلاة وما يسبقها من طهارة وتعويدهم عليها، ففي الحديث: «**مروا**

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٢).
(٢) الإسراء: ٢٣.
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧).
(٤) أخرجه البخاري (٦٦٧٥).
(٥) لقمان: ١٥.
(٦) الإسراء: ٢٤.
(٧) النساء: ١٩.

أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»(١)، ومن الواجب نحوهم معرفة غزوات الرسول ﷺ وقصها عليهم، والعناية بصحتهم، وغرس روح الحرية والعزة فيهم، وتحفيظهم من كتاب الله ما أمكن وحثهم على العمل به، وتعويدهم الذهاب إلى المساجد والجلوس في مجالس الرجال، وحضور الندوات الإسلامية، ومراقبتهم وتوجيههم وإصلاح ما اعوج منهم وتبسيط التعامل معهم في حنان ورحمة.

٤ ـ نحو الإخوة: والواجب إحسان معاملتهم والبشاشة في وجوههم، والتعاون مع السالكين درب الإسلام، وتعليم من لا يؤيد الفكرة الإسلامية، واستمالة القلوب بالطرق المشروعة، وإنكار المنكر إذا بدر من الإخوة برفق وتلطف، وعدم الإكثار من وعظهم حتى لا يملوا.

رابعا: واجب الداعية نحو الناس:

محبة الناس طريقها معروف، بينه رسول الله ﷺ : «**ازهد في الدُّنيا يُحبكَ الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»(٢).

١ ـ واجبه نحو أقاربه: ومن واجبه نحو أقاربه عيادة مريضهم، وإعانة فقيرهم، ونصرة ضعيفهم، والتجاوز عن أخطائهم، والاقتراب منهم إن بعدوا، وفي الحديث: «**الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله**»(٣)، ويجب الحذر من مقاطعتهم لأي سبب من الأسباب، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾(٤).

٢ ـ واجبه نحو الجيران: عدم إيذائهم بقول أو فعل، وفي الحديث: «**منْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»(٥)، والإحسان إليهم بنصرهم إذا استنصروه، وعونهم إذا استعانوا به، وإرشادهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٥). (٤) الرعد: ٢٥ .
(٥) أخرجه البخاري (٥١٨٥)، ومسلم (٤٧).

وفي الحديث: «**مَن كان يومن بالله واليـوم الآخر فليُحـسن إلى جاره**»(١)، وإكرام الجار من الواجبـات، فقد قال ﷺ لأبي ذر: «**يا أبا ذر إذا طبخت مـرقة فأكـثر ماءها وتعاهد جيرانك**»(٢).

٣ ـ واجبه نحو زملاء العمل: الزهد فيما عندهم ليحبوه، وإيثارهم على نفسه ليحتـرموه، ومعرفة ما فـيهم من قوة أو ضعف قبل مفـاجأتهم بما لا يعرف أثره، لقـد قـال الإمـام عـلي: «حـدثوا الناس بما يعـرفـون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟»(٣)، ومن الواجبات أن تستمع إليهم كـما تحب أن يستمعوا إليك، وأن تبتدئ دعوتهم بالأهم فالمهم، وأن تعـترف بالحق إذا جاء على لسان زميلك، وأن تكون رحيما معهم لين الجانب تلقاهم بالبشـاشة، وتتعامل معهم بالسماحة، ذاكرا قول الله: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾(٤).

خامسا: واجب الداعية نحو إخوانه في الدعوة:

قال تعالى: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾(٥) ومن واجبات الداعية نحو إخوانه:

١ ـ قضـاء حاجـتهم والـقيام بـها: وهي درجات أدناها القـيام بالحـاجة عند السؤال، وأوسطها الـقيام بالحاجة من غـير سؤال، وأعلاها تقـديم حوائجه على حوائج النفـس، وفي الحديث: «**لا يُؤمن أحـدكم حـتى يُحب لأخـيـه مـا يحب لنفسه**»(٦).

٢ ـ حفظ لسانه عن مضرتهم: بألا يشهر بعيوبهم، وألا يسألهم عما يكرهون ظهوره من أحوالهم، وأن يكتم أسرارهم ولو بعـد القطيعة، وأن يحسن الظن بهم قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ... إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾(٧).

٣ ـ التحبب إليهم: بتفقد أحوالهم وإظهار شغله بمصالحهم وإخبارهم بحبهم،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧، ٤٨). (٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٥).
(٣) أخرجه البخاري معلقاً انظر: فتح الباري (١/ ٢٢٩).
(٤) آل عمران: ١٥٩. (٥) الأنفال: ٦٣.
(٦) سبق تخريجه. (٧) الحجرات ١١، ١٢.

وفي الحديث: «**إذا أحب أحدكم أخاه فليُعلمه أنه يحبه**»(١).

وعن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه: «ثلاث يُصفين لـك ود أخيك: تُسلِّم عليه إذا لقيـته، وتُوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسمـاء إليه، وأن تُبلِّغُهُ ثناء من أثنى عليه، وأن تذُبَّ عنه في غيبته إذا قُصِد بسوء».

٤ ـ الدعوة إليـهم بالخير في الحياة وبـعد الممات: وفي الحديث: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغـيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعـا لأخيه بخير قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**»(٢).

٥ ـ عدم مقاطعـتهم أو هجرهم، واتقاء المزاح معهم مـع الحرص على البشر عند لقائهم، وحضور مـجالسهم وحلقاتهم وألعابهم (فإن الجماعـة رحمة والفرقة عذاب) والترحم عليهم بعد مماتهم.

سادسا: واجب الداعية تجاه مؤسسته الدعوية:

العمل على إحيـاء العادات الإسلامية في كل أمورها، والتـعرف على إخوانه والقيام بحقوقهم عليـه من الحب والإيثار والمعاونة، وأن يشارك بجزء من ماله في دعوته، وأن يعمل علـى نشر الدعوة والالتزام بها في كل مكان يسـتطيع أن يفعل ذلك فيه، وأن يقرأ صـحف الجماعة ومجلاتها، وأن يثق بمؤسـسته الدعوية ويكن لها الاحـترام والتقدير والطاعـة، وأن يوقر العلماء الذين هم ورثة الأنبـياء، وأن يقدم النصيحـة الصادقة للقائمين عليها من غير إعـلان، وأن يعتني بالمنتمين الجدد لمؤسسته بأن يبتدئ معهم بـالأهم فالمهم، وألا يُكثر عليهم من الموعظة، وأن يبتعد عن أُسلوب التحدي وعن المـراء والجدل، والنقد اللاذع، وأن يبتعـد عن سفاسف الأمور ويتجـه إلى معاليهـا، وأن يُراعي أنَّ لِكُل مقام مقالا، وألا يُـكلفهم ما لا يطيقـون، وأن يكون قدوة لهم في قـوله وعمله ﴿**كَبُـرَ مَقْتًـا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُـولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٢)، وأحمد (٤ / ١٣٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٣). (٣) الصف: ٣ .

٨ـ المراحل الانتقالية في الدعوة الفردية

وجوب تبليغ الناس دعوة الله:

وجد الإنسان على ظهر الأرض، وصاحبته عناية الله سبحانه وتعالى التي تمثلت في الرزق والهداية.

فأما عن الرزق: فقد وجههم الحق سبحانه إلى خبايا الرزق في الأرض بعد أن هيأها لهم، فقال سبحانه وتعالى مشيرا إلى ذلك: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾(١)، وقال جل شأنه: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾(٢).

وأما عن الهداية: فقد أرشدهم الحق إلى الطريق المستقيم، وأرسل إليهم رسله بوحي من عنده، وبرهان من لدنه، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾(٣)، ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾(٤).

هذا لتتم النعمة وتكمل السعادة، ولينسجم الإنسان المؤمن مع الكون القائم على الحق والسائر بنظام دقيق وتدبير حكيم، وطاعة وهداية.

وتبليغ الدعوة واجب. وقد انعقد إجماع العلماء على ذلك، ولابن تيمية كلام طيب أنقل بعضه هنا لمناسبته، يقول ـ رحمه الله:

«والدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله (أي الرسول ﷺ)... وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية، إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين.

قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

(١) الملك: ١٥.
(٢) البقرة: ٢٩.
(٣) النساء: ١٧٤.
(٤) المائدة: ١٥، ١٦.

الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة، فأمته لا تجتمع على ضلالة، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى.

فقد يدعو هذا إلى اعتقاد الواجب، وهذا إلى عمل ظاهر واجب، وهذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة، وفي الوقوع أخرى.

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ ما جاء به الرسول، والجهاد في سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن»(٢).

فكما يشير ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن على الدعاة تربية الأجيال التي تتحمل بدورها عبء الدعوة حتى تكون السلسلة حلقات متصلة، ويدخل في هذا تعليم الأمة القيام بواجب النصح والتعاون فيما بينها على البر والتقوى، فذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر اللذين أمر الله بهما، فقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾(٣)، ومن الولاية التي قال الله عنها: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٤).

مراحل تبليغ الدعوة إلى الله:

أولاً: مفهوم التعامل مع الناس:

الدعوة إلى الله تحلُّ في مرحلة إثر مرحلة، وهي بحاجة إلى توسع وانتشار

---

(١) آل عمران: ١٠٤ .
(٢) مجموع الفتاوى (٥ / ١٦٥، ١٦٦).
(٣) العصر: ٣.
(٤) التوبة: ٧١ .

في جـميع القطاعـات، فمن يقـوم بذلك؟ إنه الداعـية الذي عليـه أن يُجيـد فن التعامل مع الآخرين، وأن يُوطن نفسه على ارتياد كل المجـتمعات، واستغلال كل المناسبـات والفرص لتبـيان آراء الدعوة ومواقـفها من الأحـداث، وهذا كان نهج رسول الله ﷺ؛ فقد دعا في اجتماع سيـاسي بين بني عبد الأشهل عندما قدموا من يثـرب يطلبون الحـلف من قريش على قـومـهم من الخزرج، ودعـا في الحج وعرض نفسـه على القبائل، ودعا أهل الطائف وخـرج إليهم من مكة لا يريد إلا الدعوة إلى الله، ولم يكف عن الدعوة مما كان سببـا في إسلام سبعة من الأنصار كانوا في مقدمة من آمن به من قومهم، ثم ازداد انتشار الإسلام في المدينة ثم فيما حولها، ثم في الجزيرة كلها بعـد الفتح، ثُمَّ في البلاد الأخرى ثمَّ في العالم كُلِّه.

إن الداعية عليه أن يتصل برجال السياسة والمطلعين على الأحداث ليُبلِّغهم مفاهيم الدعوة، ويبلغوه دقائق الأحداث، وإن على الداعـية أن يتصل بالمفكرين والمثقفين ليضعـوا معا ضوابط الفكر والثـقافة الملائمة لروح الإسـلام، وإن على الداعية أن يتصل بأصحاب المشاعر الإسلاميـة، وأن يتصل بالطلاب في مدارسهم وجامعاتهم، وبالعُمَّال في مصانعهم وشركاتهم، وبالعشائر والقبائل، وبكل الناس يُبلغهم دعوة ربهم، ويرشدهم إلى الطريق السديد.

لا انعزالية عن دعوة أهل الفسوق والعصيان:

إن على الداعية ألا يُهمل أهل الفسوق من حظهم في الدعوة (**فلأن يهدي الله بك رجلا واحدا خيـر لك من حمر النعم**) وكثير من الناس أغـواهم الشر واتبعوا الهوى؛ لأنهم لم يجدوا مرشدا يوجههم، ولا داعـية يخرجهم من ظلمات الفسق إلى نور الإيمان، وعلى الداعية أن يتدرج بهؤلاء ليكتسبـوا المعاني الإسلامية مبتدئا بالأصول والأركان ثم بعد ذلك الآداب والسنن، وليس بالضرورة أن ينضم هؤلاء إلى المحاضن التـربوية، إذ الواجب هو إكسابهم المعـاني الإسلاميـة قبل أي شيء آخر.

الروحانية الاجتماعية والاعتزالية:

الروحانيـة الاجتماعيـة تكون لصاحبهـا ولغيره، فهـو يعلم الناس ويرشدهم ويدعوهم إلى الحق والخـير، ولا يتخلى عنهم، حـتى لا يتعرضـوا لعبث المبطلين

وغواة الشياطين، والروحـانية الاعتزالية هي التي تقبض صاحـبها عن الناس، فلا يدعو ولا يرشـد ولا يزور ولا يُزار، وليست هذه الروحـانية الاعتـزالية من هدي رسول الله ﷺ في شيء، فقد كان مع أصحابه دوما في المسجد والسوق والجهاد والحج يزورهم، ويعـود مـرضاهم، ويُشـيع جنائزهـم، ويجاملهم ويـواسيـهم، ويشـاطرهم ما نزل بهم من خـيـر أو شر، وهو في ذلك مـصدر إرشـاد وهداية لقلوبهم وأرواحهم. فالروحانية الاجتماعية هي دأب رسول الله ﷺ، ويجب أن تكون دأب الدعاة.

إدخال الدعوة في صميم حياة الناس:

إن نجاح الداعية مـتوقف على إدخاله الدعوة في صميم حـياة الناس؛ بحيث تشغل عقولهم وقلوبهم، يتحدثون عنها في منتدياتهم، وتكون أقرب الأقوال على ألسنتهم، وليس المهم أن يتلقـوها بإعجاب واستـحسان، فقد تجـد بعض الخصوم يعـارضون، وإنما المهم أن تحـدث الدعوة حـركة في الأذهان والقلوب، فـإذا نجح الداعية في هذا فقد ضمن النجاح؛ لأن كثيرا من الناس يتبع الحق حين يتضح له، ولا يعرض عنه بعـد ذلك إلا المعاندون، ولقد جـاهد رسول الله ﷺ في سبيل دعوة الله، حتى صارت حديث الناس ومـحط اهتمامهم في كل حين؛ لأن الناس شعروا أن هذه الدعوة تتوغل في صحيح حياتهم من كل جوانبها.

إن مـعرفـة الداعيـة بأحوال الناس، وطرق مـعاشـهم، وما يعـترضـهم من المشكلات له أثر كبـير في نجاح الدعوة، ولن يتحـقق ذلك إلا بمُخالطة الناس في كل ميدان من ميـادين الحياة، ومعرفة أفكارهم وتوجـهاتهم الاجتماعية والثـقافية والأهداف التي يسعون نحوها، فـإذا عرف ذلك عرف طريقه إلى قلوبهم، وسلك معهم في الدعـوة مسلكا مضمون الـنجاح، وقد كان الإمام أحـمد يخالط الناس ويسعى إليهم «كـان إذا بلغه عن أحد صلاح أو زهد أو قيـام بحق أو اتباع للأمر سأل عنه، وأحب أن يجري بيـنه وبينه معرفة وأحب أن يعرف أحـواله»، لا مفر إذن من تفرغ الداعيـة بضع ساعات من يومه لدعوته بحـيث لا يُشغله عنها شيء آخر من مـال أو ولد أو زوجة أو غير ذلك، ويجب على الدُّعـاة أن يتكاتفوا في سبيل ذلك .

كنْ مـشْـعَـلاً في جُنْح لَيْل حَـالك يَهْــدي الأَنَام إلى الهُــدَى ويُبينُ
وانْشَطْ لدينكَ لاَ تَـكُنْ مُـتَكَاسِـلاً واعْــمَلْ على تَـحْـرِيـكِ كُلِّ رَهِينِ

وقد يظن بعض الـناس خطأ أن الداعية لابد أن يكون مـتبـحرا في كثـير من العلوم حتى يُبلغ دعـوة الله، وليس هذا بصحيح فمتى تكامـلت للإنسان جوانب فهم الإسلام فإن عليه أن يُعبر عن هذا الفـهم ولو بلسان الحال إن لم يُسعفه لسان المقال، فلسان الحال أبلغ في الدلالة وأعظم في الإفادة.

أصناف الناس وفن التعامل معهم:

هناك أصناف كثيرة من الناس يجدر بالداعية أن يتعرف عليها وأن يدعوها إلى الله سبحانه، ومن هذه الأصناف:

١ ـ الملأ: وهم أشراف الناس وقادتهم ورؤساؤهم، فهم البارزون في المجتمع وأصحاب النفوذ فيه، وهؤلاء يحتـاجون إلى بذل الجهد والنصح وإسداء المعروف بأسلوب لين يشرح الصدور، ويستل منها الأحـقاد والسخائم، وهذا ما أمر الله به موسى وهارون حين أرسلهمـا إلى فرعون: ﴿**اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾(١).

٢ ـ المنافـقون: وهم الذين يُظهـرون الإسلام ويخـفـون غيـره في باطنهم، وهؤلاء لا يَظهرون إلا حين تكون الغلبة للمؤمنين علـى أعدائهم، والمنافقون أسوأ من الكافرين؛ لأنهم ساووهم في الكفر وزادوا علـيهم بالخداع والتضليل وتسللهم إلى صفوف المسلمين، وهؤلاء يقبل منهم ظاهر أمرهم ونترك سرائرهم إلى ربهم، ويكفي التلميح لهم بأنهم معروفون، دون تعريض أشخاصهم لشيء من الأذى.

٣ ـ العصاة: وهم الذين يقرون بشهادة التوحيد، ثم لا يقومون بحقها كاملا، فهم يُـقصرون في الطـاعات، ويتجـاوزون ذلك إلى ارتكاب المحـرمات، وهؤلاء يقفون على حـافة الخطر، ويجب انتشالهم مما هم فيـه بالرفق واللين، والبعد عن الشماتة بهم، أو الافتخار بالطاعة عليهم، مع الغضب لتجاوزهم حدود الله، فإن هم حاربوا الدعـوة والدعاة فيـجوز ـ في هذه الحالة ـ كف ضـررهم بالقدر الذي

(١) طه: ٤٣، ٤٤.

يبيحه الشرع، دون تجاوز لهذا القدر.

٤ ـ جمهور الناس: وهؤلاء هم أتباع الرسل وركيـزة كل دعوة، ولذا ينبغي الالتفات إليهم وتذكيرهم وحثهم على تعاليم الإسلام.

٥ ـ المتعلمون: وهم قسمان: متعلمون على الطريقة الغربية، وهؤلاء يجهلون تعاليم الإسلام ومتى عرفوها استقـام بعضهم عليها وأعرض عنها المعاندون، ومن الواجب دعوتهم وتبـصيرهم بدينهم. ومُتعلمـون في المعاهد والمدارس في بلادنا، وهؤلاء تستـثار عاطفـتهم نحو الإسلام حـتى يصبحـوا كُلهم أو جلهم من جنده العاملين المخلصين.

ثانيا: الاتصال الفردي:

الناس ليسوا على الجادة؛ فقد تكون فيهم قلوب خيرة، ونفوس على استعداد للاتصال بالله وحمل الدعوة، وجوارح مستعدة للابتعاد عن الفساد إن وجدت من يجذبها إلى طريق الدعوة الصحيح، وهذا واجب العاملين إلى الله أن يمدوا أيديهم إلى هؤلاء وأمثالهم لينقذوهم بالدين من الضلالة، وليجعلوا منهم جندا في دعوة الحق، وعلى الدُّعاة ألا يغفلوا الأسس والمبادئ الواجبة عليهم في ذلك ومنها:

الرحمـة ببني الإنسان: فليعلم أن السـعادة والراحة في إسعـاد الناس وإنقاذ الآخرين مـن المصاعب والمتـاعب، وفي شرح الصـدور الحرجة، وبسط الـنفوس المنقبضة، ولا يكون ذلك إلا بدعوتهم للاستقامة على الهدى . . . وخير الأعمال ما يعم نفـعه، ونور الدعوة إلى الله يهـدي إليه الشاردين، ويرد الحـائرين، وينقذ المترددين.

وفي هذا لابد من التـحلي بالشـعارات الربانيـة والأوصاف الدعـوية، التي منها:

١ ـ لين الجانب: فالداعـية إن لم يكن رحـيما لين الجـانب، يألف ويُؤلف، نفرت منه النُّفوس؛ لأن الناس في حاجة إلى كنف رحيم، وود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم أو عنادهم، وإنما يقدم لهم العفو والرضا.

٢ ـ القدوة الحسنة: الداعية عليه أن يُنمِّي الإيمان العميق في قلبه، وأن يكون

عاملا بما يقوله، وأن يتمثل الدعوة في فعله وقوله، وأن يكون حاله: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾(١).

٣ ـ **البصيرة والفطنة**: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ**﴾(٢)، فأصول الإسلام والوعي التام للواقع وربط الوعي الواقعي بوسيلة الدعوة من مُستلزمات الداعية الذي يتبع كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح.

٤ ـ **الإخلاص**: وقبول العمل متوقف على الإخلاص فيه وموافقته الشرع، والداعية الحق يؤثر ما عند الله من أجر على ما عند الناس من مدح وحظوة، والإخلاص قوة تدفع إلى الجرأة في الحق، والتصدي للباطل، مما يجعل الدعوة تصل إلى القلوب.

٥ ـ **حسن الصلة بالله**: يحتاج الداعية إلى توثيق الصلة بالله والتوكل عليه ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾(٣) ويحتاج إلى دفع اليأس عنه ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾(٤) ويحس بالعزة؛ لأنه مع الله فلا يخشى باطلاً ولا ظالماً.

من نختار من الناس؟

الناس «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام**»(٥) فلا تبتعد ـ أيها الداعية ـ عن المقصرين في الطاعات فقد يتوبون وينصلحون، ولا تلتزم من لا يحترم نظام المجموعة فإنه قد يصلح منفردا، وقد يضر المجموعة إن انضم إليها. واحرص على من في المسجد فإنه منك قريب، **ولا** تُفرط في صاحب المركز الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، فقد يكون من ورائهم خير كثير للفكرة، وقد يكونون بعد تربيتهم نعم الرجال المصلحين.

الداء والدواء «أساليب الدعوة ووسائلها»:

(لا يمكن فصل حقيقة الدين عن منهجه في العمل) والدين رباني ومنهجه رباني كذلك، وحين يكون فهم الدعاة ربانيا يشعرون أنهم سائرون على نهج

---

(١) هود: ٨٨. (٢) يوسف: ١٠٨.
(٣) الحج: ٣٨. (٤) يوسف: ٨٧.
(٥) أخرجه البخاري (٢٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

الأنبياء والمرسلين، فتمتلئ أرواحهم بالأُنس، ويستهينون بالصعاب، ومعرفة المنهج تتحقق بمعرفة الأسلوب النبوي في تربية الصحابة، وهو منهج يقوم على القرآن والسنة والتجارب الخاصة والعامة، التي يتكون منها منهج تربوي يهتم بجميع الجوانب الإسلامية دون طمس أي جانب ودون إعلاء لجانب على آخر، بل إن الجوانب كلها تسير في خطوط متوازنة تُكوِّن الشخصية المتكاملة.

أولويات التربية التكاملية:

حين تدفع **بأخيك** إلى العمل التجميعي فاحرص أن تصوغه الصياغة التي تُراعي التكامل والانسجام وتوفر جميع الصفات اللازمة للداعية، والتي منها:

١ ـ **توفير قسط إيماني** ووعي عقائدي يستقيم به على المنهج الصحيح، ويكون هذا بإفهامه كليات العقيدة الإسلامية، وتعريفه بالرُّسل واليوم الآخر والملائكة والكتاب، وهذه المعرفة إن تعمقت في القلب عصمت من الزلل والسقوط.

٢ ـ **توفير العلم الشرعي**: العاصم من الزلل، وتوفير وعي فقهي يحمله على تتبع النصوص من غير تفريع المسائل الفقهية، ومن غير وقوع في المسائل الخلافية، مع بيان أن دين الله أكبر وأوسع من عقول البشر، وكل شيء فيه يرد إلى الله والرسول.

٣ ـ **تحبيبه في توثيق صلته بالله**: بالذكر والدعاء والاستغفار والنوافل، وغير ذلك من ألوان القربات التي يُحبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد الحرص على الفرائض في أوقاتها.

٤ ـ **الاهتمام بجوانب فقهية معينة**: كفقه فن الدعوة وقضايا العمل الإسلامي، ودراسة الناس، وكيفية تخير العناصر الصالحة مع التربية والنشاط الدائم والعمل الدائب، وهذه كله تصون من الشطط والإيغال في جانب واحد.

٥ ـ **تبصيره بالوعي السياسي**: ليعرف مكامن الخطر على الإسلام والمسلمين، وما حل بالأمة الإسلامية من فساد، مع ضعف المقاومة نتيجة التعليم العصري غير الديني، وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلمه بنشاط دعاة الفساد والهدم والخلاعة والإلحاد والزندقة، وأثر بعض أجهزة الإعلام التي تستخف بالدين وتستهزئ برجاله، وخذ بيده ونفسه إلى إباء الضيم، والنفور من

الفساد والضلال مع اختلاطه بالآخرين ودعوتهم.

٦ ـ **حبب إليه مجالس الأتقياء:** ليدوم حبه لهم ويسعد بصحبتهم ويتعظ بسمتهم ويعيش معهم بحسه وشعوره فلا يستطيع الغياب عنهم، ولا يستطيع أن يجالس أهل المنكرات الذين يخوضون في آيات الله.

أساليب حكيمة في التربية:

التجاوب الروحي بين الداعية والمدعو له أثره العميق، فهو الذي يجذب المدعو نحو الداعية، ويجعله يحبه كثيرا رغم ما يكلفه به من أعمال، وسيكون الداعية قدوته وأخاه المحبب، وحاجة الداعية إلى قوة التأثير في نفوس المدعوين عظيمة، ولذا ينبغي الاهتمام بهم، وتقديرهم وإبراز محاسنهم، وغض الطرف عن هفواتهم، والحديث معهم فيما يعنيهم، وحل مشكلاتهم ما أكن ذلك.

١ ـ **تبسمك في وجه أخيك صدقة:** فاعلم ـ أيها الداعية ـ أن التبسم يترك أثرا طيبا فيمن تُقابله أول مرة مهما طال عنك غيابه، واعلم أن العبوس لا يثمر غير النفور، ولك في الرسول الأسوة الحسنة فقد كان من أكثر الناس تبسما، ومن أحسنهم بشرا.

٢ ـ **احرص على حفظ اسم المدعو:** فهذا من المفاتيح الهامة للقلب، وقد كان رسول الله ﷺ ينادي أصحابه بأسمائهم ويكنيهم، وأظهر له الحب والود فذلك رابط يبقى دائما.

٣ ـ **التأثير في نفوس السامعين:** بالحديث اللبق والكلام الموجز، وترك التكرار، والبعد عن الجدال، وقرر رأيك بما تراه من الأدلة، وابتعد عن تجريح الأشخاص أو الهيئات، وتحر الأسلوب الجميل، وتجنب الإطالة، واجعل غايتك الحق.

٤ ـ **الرفق والتدرج:** الرفق يقود إلى التدرج في طريق الرقي الروحي، ويبعث على تبادل التقدير والاحترام، ويوثق روابط الأخوة ويصل ـ ولو بعد حين ـ إلى الإصلاح ، و«**ما دَخل الرفقُ في شيء إلا زانه**»(١) فعليك به.

---

(١) سبق تخريجه.

٥ ـ **التجمل المناسب:** إن الله جميل يحب الجمال، فليكن مظهرك ـ أيها الداعية ـ حسنا ورائحتك طيبة، وأظهر نعمة الله عليك، ولا تنس أن رسول الله ﷺ كان من أطيب الناس رائحة، وأنظفهم ملبسا.

٦ ـ **انتهاز الفرص من خلال الحوادث:** فالحوادث الواقعة إن استغلها الإنسان وربطها بالدين أحدثت أثرا عظيما في نفوس المدعوين بحيث تعمل على صقلها وتهذيبها، وقد نزل القرآن يفسر الأحداث ويبينها فأثر أبلغ التأثير.

٧ ـ **الترغيب والترهيب:** بعرض صور للخير وأهله، وأخرى للشر وأهله وعاقبة هؤلاء وأولئك، وفي القرآن الكريم كثير من هذا، فبعد هلاك الضالين تجد ﴿ **وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾(١).

٨ ـ **الابتعاد عن الجدل:** فـ «**ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل**»(٢) فليكن غرض المربي في الحديث الوصول إلى الحق، لا الانتصار للرأي ولتكن المحبة والتسامح أساس إيثار الحسنى ﴿ **وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾(٣)، واترك غيرك يطرح فكرتك التي أوحيت بها إليه، وحبب القراءة إلى تلاميذك وإخوانك، واجعل الأعمال لا الأقوال هي الناطقة بما تريد، والفت النظر إلى الأخطاء من طرف خفي، وسلِّم بخطئك إن أخطأت، وتكلم بلين ورفق، ودع الغضب فإنما بُعثنا مُيسرين لا مُعسرين، وأظهر فرحك وسرورك بعمل إخوانك وإن كان بسيطا، ثم بعد ذلك كله استعن بالله ولا تعجز، وقل: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾(٤).

ثالثا: المحاضن التربوية:

التي تبقي شعلة الإيمان مُتقدة في قلب الأخ حين ينضم إلى إخوانه في تلك المحاضن التربوية التي تُمثل المجتمع المسلم ـ رغم صغرها ـ الذي يتطلع إليه المسلمون.

---

(١) النمل: ٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجه (٤٨)، وأحمد (٥/ ٢٥٢) عن أبي أمامة، وحسنه الألباني.

(٣) النحل: ١٢٥ . (٤) الشعراء: ٨٣ .

أهمية المحاضن التربوية:

١ ـ تعمل هذه المحاضن على شحذ الإيمان لدى الأفراد وتزيد من طاقتهم واندفاعهم للعمل؛ لأنها تُشعر أن لقاءهم لقاء المتآخين في الله، الذين يُباهي بهم الله ملائكته لتجمعهم على رضاه.

٢ ـ تعمل على تزويد الأفراد بفقه الدعوة والفهم الحركي لها، والمحاضن خير مكان يتناول فيه الإخوان ذلك الفقه.

٣ ـ أنها مُنطلق الداعية لنصرة دعوته، ففيها يتداولون الآراء، ويدرسون كيفية كسب الأفراد.

أركان المحاضن التربوية:

١ ـ التعارف: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١)، وقال رسول الله ﷺ: «**المسلمُ أخُو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمُه**»(٢) والدعاة الذين تحابوا في الله يستشعرون معنى الأخوة الصحيحة فيما بينهم ويحرصون ألا يُعكر صفوها شيء، ومظاهر التعارف كثيرة منها التعرف على ظُروف الأخ الاجتماعية، والتعرف على عائلته، وعلى ظُروف عمله . . إلخ.

٢ ـ التفاهم: وهو المشاركة في حسن الفهم للدعوة وغاياتها وعلاقة الأخوة بعضهم ببعض، وهي علاقة تقوم على حسن الظن، والتنبيه برفق إلى بعض العُيوبِ التي قد تظهر ـ من غير إعلان ـ والتمسك بالحب في الله.

٣ ـ التكافل: وهو تفقد أحوال الأخ الاجتماعية والاقتصادية، والسؤال عنه، والبر إليه، والمبادرة إلى مساعدته إن احتاج، وتمثل ما جاء في هذا الحديث الشريف: «**أحبُّ الناسِ إلى الله أنفعهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله ـ عز وجل ـ سرور يدخله على مسلم أو يكشف عنه كربة، أو يقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا؛ ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرا، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ـ ولو شاء أن يُمضيه**

---

(١) الحجرات: ١٠ .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٦٤).

أمضاه ـ ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مـشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام»(١).

من آداب المحاضن التربوية:

١ ـ **النية:** لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(٢)، ويجب أن يستشـعر الدعاة أن لقاءهم غايته إرضـاء الله، والعمل على إظهار دينه في العالمين.

٢ ـ **الاستعداد للاجتماع التربوي:** بتحضير كل ما هو مـطلوب ثقافيا أو غير ثقافي، ومـحاسبة الفـرد نفسه في ذلك إن قـصر، لأنه قد يعوق المسـيرة ويُعطل الركب، ويضيع الأجر والثواب.

٣ ـ **الحضور في الموعد المحدد:** لأن ذلك من أخلاق المؤمنين؛ ولأنه من أهم مظاهر الالتزام، ومن فـرط في موعد لقاء فـإنه لما سواه أكثر تفـريطا، وإذا تأخر لسبب خارج عن إرادته اعتذر لإخوانه.

٤ ـ **الاستئذان:** قال ﷺ: «**إنَّما جُـعل الاستئذان من أجل البـصر**»(٣) فإن أذن له صـاحب المنزل دخل، وإلا رجع، وهو متـذكر قـول الله: ﴿**وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ**﴾(٤).

٥ ـ **السلام:** فينبغي أن يُسلـم على إخوانه بقوله: «**السلام عليكم**» ويُسنُّ له أن يزيد: ورحمـة الله وبركاته، فـيرد عليه إخـوانه (وعليكم السلام ورحـمة الله وبركاته)، يقول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾(٥)، ثم يُصافـح الأخ إخوانه، عن قـتادة رضي الله عنه قـال: قلت لأنس رضي الله عنه أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: «نعم»(٦).

---

(١) أخرجه الطبراني فـي المعجم الكبير (١٢ / ٤٥٣) (١٣٦٤٦)، وقال الهيثـمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٢١): «رواه الطبراني في الثلاثة وفيه: سكين بن سـراج وهو ضعيف»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٢٣): «حسن لغيره».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٤١).

(٤) النور: ٢٨ .

(٥) النساء: ٨٦ .

(٦) أخرجه البخاري (٦٢٦٣).

٦ ـ **الجلوس**: حين يدخل الأخ المجلس فلا يقوم له إخوانه، وليراع الجميع آداب الإسلام، وليجلس حيث انتهى به المجلس، ولا يُفرق بين اثنين أو يجلس بينهما إلا بإذنهما، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه، ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا»(١)، وفي الحديث: «**لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»(٢).

٧ ـ **التحدث والاستماع**: والاجتماع التربوي يضم متحدثين ومستمعين.

وعلى المتحدث: أن يكون كلامه واضحا مفهوما، وفي الحديث: «كان كلام رسول الله ﷺ فصلا (واضحا) يفهمه كل من سمعه»(٣)، وأن يبسط كلامه، وألا يتعالى على إخوانه بالمعرفة فيشق عليهم؛ فلقد سئل الخليل بن أحمد عن مسألة فأبطأ بالجواب، فقال السائل: ما في هذه المسألة كل هذا النظر !! قال الخليل: قد فرغت من المسألة وجوابها ولكني أُريد أن أجيبك جوابا يكون أسرع إلى فهمك والأفضل: أن يقتصد الأخ في كلامه ويتجنب التكرار، فقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكر الناس كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُملكم، وإني أتخولكم (أتعهدكم) بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا(٤).

ويختار الأخ حديثه من الطيب من القول، ففي الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»(٥).

وعلى المستمعين: أن يقبلوا على حديث أخيهم وألا يقاطعوه حتى يتم حديثه، وألا يداخله أحد في الحديث إلا إذا أخطأ، فإن على من يعرف حديثه أن يصححه بأدب واحترام، فعن عطاء بن رباح: «إن الشاب ليحدثني حديثا فأستمع

(١) أخرجه البخاري(٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٤٥)، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٩)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).
(٥) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

له كأنني لم أسمعه، ولقد سمعته قبل أن يولد».

٨ ـ التيـقظ والتدوين: إن كل ما يدور في المحـاضن التربوية يجب أن يحظى باهتمـام الأخ، وهذا يستدعي منه أن يكون متـيقظا لا يفوته شيء من الاجـتماع التربوي صغر أم كبر، تعلق به أم بغيره، ويدون ذلك.

٩ ـ المناقشة: فإذا ما دارت مناقشة في المجلس فلتكن بهدوء وخفض صوت: ﴿ **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾(١)، وليكن الهدف من النقاش الوصول إلى الحق، فـعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما حاججت أحدا إلا وتمنيت أن يكون الحق على لسانه»، وينبـغي التفرقة بين الجدال والاستـيضـاح، فالاستـيضـاح مطلوب محـمود، والجدال إلا بالتـي هي أحسن مذموم، وليذكر الأخ قول الرسول ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعد هُدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل**»(٢)، وقوله: «**الحكمةُ ضـالَّة المؤمن أنَّى وجدها فهـو أحقُّ بها**»(٣)، فالجدل في المناقشة محذر منه، والاستيضاح مرغوب فيه.

١٠ ـ عدم إشـاعة مـا يدور من مُناقشـات في المحاضن التـربوية: فقـد عاب القرآن أقواما فقال: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ** ﴾ وأرشدهم إلى ما يُحب أن يكون: ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾(٤).

١١ ـ ختم اللقاء: ويختم اللقاء باستشعـار أنه جمعهم على الخير وعلى الحق وعلى مرضاة الله، وليسألوا الله أن يُعيدهم إليـه وهم أكثر حُبا وأقربُ ودا، وأشدُّ ساعدا.

---

(١) لقمان: ١٥ .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٨)، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وقال الألباني: «ضعيف جدًا» .

(٤) النساء: ٨٣ .

٩ ـ الدعوة النسائية: واقع ومتطلبات

عندما أتحدث عن الدعوة النسائيـة أتحدث عن الدعوة القائمة على منهج أهل السنة والجماعة، ولا أتكلم عن الدعوة الـتي تقدم المرأة لأن تكون إماما للرجال والنساء، ولا التي تبيح للمـرأة النزول إلى أحواض السباحة المختلطـة تحت مفهوم الوصول إلى الناس في مواقعهم ودعوتهم.

أنا لا أتحدث عن هؤلاء فليـس لهم في حساب الدعـوة شيء، ولكن أتحدث عن الدعوة النسائية التي تمثلها مجلة منبـر الداعيات، وكذلك مجلة الأسرة وتحت العشـرين، وكذلك مجلة الزهـور والشقائق، فـهذه النماذج الموجـودة في العالم الإسلامي وأمثالهـا في المغرب وأوربا في مجملها خيـر كثير، والاختلافـات فيما بينها ـ والـتي قد لا تتفق مع بعـضهـا ـ اختلافـات يسعنا الأمر فـيهـا على وجه العمـوم، وهي تقدم رسالة عظيـمة، وتتحـرك خطى حذرة في بحر مـتلاطم من جاهلية الشبهات والشهوات، والسير على الطريق المستقيم بين الشهوة والشبهة سير حرج مثله كما قال تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[(١)] فما بين فرث الشهوات ودم الشبهات تسير الداعيات المستقيمات على منهج الله لبنا خالصا سائغا لأصحاب الفطر السليمة.

والمرأة إذا آمنت بفكرة سبقت زمن الرجال فعندها من الصلاحية والثقة بدينها والاستعلاء على رغباتها ما قد يضعف عنه الرجل، وقد لا تكون مسايرة في خط متواز مع الدعوة الإسلامية بشكل عام لسبق الرجال في ميدان الدعوة، وللظروف المحيطة بالمجـتمع ولطبيـعة المرأة وتحركـاتها في الحيـاة قد تجعل الدعـاة أسبق من الداعيـات إن صح التعبـير، وإلا فكل منهمـا يكمل الآخر، وهل خرج الداعـية الرجل إلا من بتـربية الداعـيـات من منابرهن إن كـان في البيت أو في المنتـدى، ومهمـة التربية الآن من مهام البـيت والأم والمرأة بما عندها من طبيعة عـاطفية من الممكن أن تقدم الكثير في ميدانها في حدود إمكاناتها وقدراتها.

---

(١) النحل: ٦٦ .

أما هل للدعوة في الميدان النسائي خصوصية ومتطلبات؟ أقول نعم : لها عموم وخصوص، فهي متفقة مع إخوانها الدعاة في الاستقامة والاتصال بجماهير النساء، وتتبع الفتيات في أماكنهن، والوقوف على تربيتهن، والحفاظ عليهن كالرجال مع الشباب، كما الإقبال على العلم، وانتقاء أطايب الثمر منه كما الرجال.

وينبغي أن يكون لديها قدر معقول من العلم الشرعي التي تستطيع به السير الصالح في تحصيل القدر المطلوب، وتمتلك به السلاح الذي يعينها على دعوتها والنجاح فيها، فإن أكثر النساء ينجذبن نحو من تملك العلم الشرعي أو طرفا جيدا منه، وقد تكون الداعية متميزة في طرحها الدعوى ذات شخصية قوية مؤثرة، لكن بسبب ضعفها في مسائل من العلم الشرعي مهمة وحيوية، فإنها تفقد جزءًا من تأثيرها وبريقها لدى الآخرين. وتحصيل قدر جيد من الثقافة شرط مهم لنجاح الأخت الداعية في دعوتها، والحديث عن الثقافة طويل ومتشعب، لكن عليها معرفة أن الثقافة قسمان: ثقافة إسلامية، وثقافة عالمية.

فالثقافة الإسلامية: تحصن الأخت من الشبهات، وتفهمها دينها على وجه تعتز به وتدفع عنه، وتحسن به رعاية زوجها وأولادها، وتجيد به التعامل مع الأخريات.

أما الثقافة العالمية: فهي مهمة لتنجح في دعوتها على وجه مقبول، خاصة إذا أرادت أن تدعو مثقفات متميزات أو متعلمات تعليما عاليا، والثقافة العالمية تعمق فهم المرأة فيما يدور حولها من أحداث وما يقوم من دول وأنظمة ومؤسسات، بحيث تستطيع الحصول على المعلومات المهمة التي تستطيع بها المقارنة بين شريعتها وكمالها وبين شرائع الآخرين ونقصها على وجه من المقارنة مقبول، وكذلك القول في معرفتها للمذاهب الفكرية الهدامة كالحداثة مثلا، ومعرفتها للفرق الضالة والغزو الفكري، والمكر اليهودي، والتخطيط الصليبي، والتنصير المسمى زورا بالتبشير، وهكذا . . .

الضوابط الشرعية التي ينبغي أن تراعيها المرأة أثناء ممارستها العمل الدعوي:

أولاً: ألا تتعسف الطريق بمعنى أن تقوم بعملها في إطار المقدور: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾(١) الآية.

---

(١) البقرة: ٢٨٦ .

ثانيا: أن تسير في خط متواز في واجباتها كأم وكداعية وربة بيت وزوجة، فالأصل في هذه الدعوة التوازن، وهو ميزان دقيق والمرأة المسلمة قادرة على تحقيقه على الأرض وفي الواقع، فلا إفراط ولا تفريط ووضع كل أمر في وقته ومناسبته بمعرفة حقيقة أي عمل أفضل، ففي وقت خدمة الزوج فخدمة الزوج أفضل وفي وقت إكرام الضيف فإكرام الضيف أفضل، فكل شيء في وقته أفضل.

ثالثا: أن تعرف أنها امرأة كما يعرف الرجل أنه رجل، وللمرأة طبيعة وأحكام شرعية وضعها الشارع لمصلحتها فإن تكلمت فتبتعد عن مكالمة الرجال بالميوعة، وإن ظهرت فتتحفظ عن الوقوع في التبرج بألوان الأصباغ والروائح، وإن لبست وتحركت فتستشعر أنها قدوة فلا تفصل ولا تشف عن جسدها، وإن سافرت فتحرص على المحرم.

وهناك مساحة واسعة تلتقي المرأة الداعية مع الداعي فيها، ومع ذلك فالمرأة لها خصوصية، فهي منضبطة في تحركاتها بضوابط شرعية، فتختلف عن الضوابط الشرعية التي يتحرك في ضوئها الرجال، وينبغي للمرأة أن تظل مستمسكة بدينها محافظة على تعاليم الشرع المطهر إلى أن تلقى ربها: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(١)، وقد يعتريها في مسيرتها الدعوية الطويلة شيء من التراخي، والتميع لكن عليها أن تعود سريعا إلى مبادئ التربية الأولى، وأن تستمسك بها وتعتصم، حتى لا تتمادى في هذا التراخي فتضل، والعياذ بالله. وينبغي أن تحافظ المرأة على حيائها وأن تبتعد عن التميع والتهاون خاصة إن كانت من الداعيات القدوات اللواتي ينظر إليهن، ويعتد برأيهن وعملهن.

ولكلام المرأة مع الرجل آداب يجب أن تراعى وتضبط حتى يسير المجتمع المسلم سيرا منضبطا بأوامر الشرع المطهر، فالكلام يجب أن يكون كلاما جادا وله مبررات وأسباب، والمقصود بجدية الكلام ألا يكون مزاحا، أو تظرفا، أو أقاصيص ومسليات، وأن يكون لهذا الكلام أسباب موجبة. وقد طولبت المرأة المسلمة وهي تحدث رجلا أو يسمعها رجل ألا تخضع في القول استجابة لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(٢).

---

(١) الحجر: ٩٩. (٢) الأحزاب: ٣٢.

ومعنى الخضوع في القول: تليينه أو ترخيمه، كما يجب أن يكون كلامها مع الرجل له مبررات وأسباب تقتضيه، بمعنى أن تكون هناك مصلحة وضرورة لهذا الكلام، وأن تفوت مصلحة لترك هذا الكلام.

أما تتبع الرخص في أقوال العلماء فهو مهلكة للمرأة؛ لأنها ستكون فيما بعد مستمعة للموسيقى والغناء؛ لأن هناك من الفقهاء من يجيز ذلك، وتحف من حاجبها، لأن هناك من العلماء من يجيز ذلك، وتسافر من غير محرم؛ لأن هناك من العلماء من يجيز ذلك، وتصل شعرها؛ لأن هناك من العلماء من يجيز ذلك، وتجالس الرجال لغير ضرورة؛ لأن هناك من العلماء من يجيز ذلك، وهكذا تعطي لنفسها تجميع رخص الغافلين من العلماء والفقهاء والمتفيهقين لتجمع حطبا قد يحرق إيمانها وحياءها.

أما كيف تلتزم الداعية في هذا العصر الذي انقلبت فيه الموازين، فهذا هو التحدي الذي يعيشه الناس اليوم في العصر الذي استأسر فيه الباطل بكل أشكاله وصوره، ولعلنا أن نذكر بعض الأمور التي تعين على الالتزام:

١ ـ البحث عن عصبة صالحة طاهرة يكون معها اللقاء والتواصي بالحق والصبر.

٢ ـ أن تعرف الداعية أنه مطلوب منها أن تدعو الناس ومطلوب منها كذلك أن تستقيم على أمر الله.

٣ ـ الحفاظ على جزء ليس بالقليل بالاتصال بالله عز وجل من خلال قراءة القرآن والذكر والدعاء بالتثبيت، فالداعية تحتاج إلى تجديد إيمانها بهذه الوسائل كما روي «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم، فجددوا إيمانكم بلا إله إلا الله**»(١).

٤ ـ أن تكون الموازين واضحة والثوابت بينة حتى تسير بلا تخبط وبلا وجهة.

سبل تفعيل دور المرأة الدعوي:

أولا: دور الرجال في تفعيل دور المرأة في الدعوة:

١ـ أن يضع الدعاة من الرجال حقيقة وهي أن الخطاب الدعوي لابد وأن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٠)، وصححه الألباني.

تكتمل المنظومة فيه فيكون للرجل دور وللشاب دور وللمرأة دور وللشابة دور، فكل شريحة من هذه الشرائح لها خطابها الخاص والذي قد يحسنه أهله أكثر من الآخرين.

٢ـ **أن تهيأ للمرأة المراكز والمنتديات والوسائل المعينة لها**؛ لتمارس الأمر الدعوي مع بنات جنسها.

٣ـ **ألا تحمل المرأة في حركتها الدعوية العبء الإداري** والمالي بنشاطها وحركتها بل يساعدها الرجل في ذلك.

٤ـ **أن تحدد المرأة في عملها الدعوي مشاريع محددة** تضع لها برامج وآليات ومقررات يتم التحرك من خلالها لإنجازها . . . وهكذا كلما انتهت من مشروع وأجادته انتقلت إلى مشروع آخر.

٥ـ **ألا يبخل العلماء والفقهاء عليها بالنصح**، والإجابة على استفساراتها.

وإيجابيات دور المرأة لا حصر له وخصوصا في زمننا الذي أعلنت فيه الليبرالية الشرقية والغربية والعمائم الليبرالية أنها نصيرة المرأة وواقعهم يخالف هذا الأمر، فنصير المرأة هو هذا الدين الذي يرفعها من سفاسف الأمور ويجعلها في محل أهل العطاء والجد بعيدا عن عروض الأزياء وحفلات ملكات الجمال وإعلانات بيع المعلبات والسيارات والملابس وغيرها من الترهات.

هذا المنهج الذي عبر عنه نصير المرأة من الغربيين أوقع المرأة ـ كما تقول الإحصائيات ـ في متاهات الضعف والحبوب المهدئة وضياع الهوية وأرجع المرأة إلى الجاهلية الجهلاء ولكن بصورة عصرانية، اقرأوا ما يتعلق بالمرأة في أمريكا والغرب، بل اقرأوا ما يتعلق بإحصائيات التدخين والمهدئات في دول الخليج المحافظة لتعرفوا كم هو وَهْم باعوه للمرأة فسعت إليه بكل وسائلها المنسلخة عن القيم لتجد بعد ذلك أنها لم تتحصل إلا على السراب.

فدور الداعية المسلمة اليوم هو إنقاذ المرأة من هذا الضياع، وهو دور عظيم يخرج المرأة من عالم التيه والضياع الذي أوقعها فيه سماسرة المال والمكاسب الحرام، والكلمة الصالحة الطيبة من المرأة الداعية الصادقة تغير ما لا يتصور أنه يتغير. وما الممثلات المهتديات إلا دليل صارخ على أن المرأة تبحث عن الحقيقة

التي ليس لها وجود إلا في عالم الإسلام.

ثانيا: دور المرأة الداعية:

ابتداء يجب أن تستشعر الأخت الداعية الأجر والثواب في عملها على كل الجبهات؛ حيث تقضي فلسفة التشريع الإسلامي غاية (السداد والمقاربة) كما نص حديث النبي ﷺ: «**سددوا وقاربوا ...**»[(١)] الحديث، فلا يعوق عمل عملا، ولا يناقض سابق لاحقا، وإنما عليها أن تحدد موقعها جيدا من واقعها الدعوي وتضبط برنامجها جيدا، ثم تنظر إلى برنامجها كواسطة العقد في بيتها وبين أولادها وزوجها «أسرة صغيرة» ثم تناغم بين هذين الموقعين بحيث لا يتناقضان ولا يتعارضان، وإنما تحكم أمرها بفلسفة «السداد والمقاربة»، وليس من الصحيح أن تجد ما يدفعها للقضاء على أي من الواقعين . . . وإنما الحزم في الجمع بينهما والتوفيق بين نظاميهما.

وفي هذا السبيل فإنني أقترح خطة من عدة نقاط لتوفيق الداعية بين التزامات الدعوة وتكاليف الأعباء المنزلية:

١ـ يجب أن يكون واضحا لديها فقه الأولويات، فتبدأ بالأهم ثم المهم، فلا تنشغل بفريضة النفل عن فريضة العين، ولتتذكر أنها تتعبد الله بخدمتها لأسرتها لأبنائها وزوجها والنصوص الإسلامية في ذلك كثيرة وواضحة.

٢ـ عليها أن تنظم وقتها بشكل أكبر، وتستفيد من أفكار تنظيم الوقت في الحصول على المزيد من الوقت، فهناك أوقات مهملة مثل الوقت بعد صلاة الفجر، وأوقات ذهاب الأطفال للمدارس، وغيرها من الأوقات البينية.

٣ـ عليها أن تنوع بين الأعمال الصالحة لكي تنال الأجر والثواب من كل تلك الأعمال ولا يفوتها شيء، فمثلا بدلا من أن تقوم بواجبات صلة الرحم ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع فلتجعلها مرتين، وتستفيد من الوقت الباقي في أنشطة دعوية أخرى.

وأنبه هنا إلى ضرورة حسن الصلة بالله وبكتابه العزيز، فهذا الذي يحفظ الأوقات ويطرح البركة فيها.

٤ـ فلتبتعد عن الملهيات، وستجد أن هناك وقتا مهدرا لم يكن في الحسبان،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٨).

مثل: كثرة مشاهدة التلفاز مهما كان مفيدا، والانشغال بالمكالمات الهاتفية، والمبالغة في إعداد الطعام.

٥ـ على الزوج والزوجة استشعار الأجر وهم يضحون ببعض أوقاتهم لصالح الدعوة والعمل إلى الله، وسيجدون حلاوة وبركة هذا العمل في الحياة الآمنة المطمئنة والذرية الصالحة الطيبة.

وأقترح في هذا المقام لتطوير خطاب المرأة المسلمة ودفع غمامة التقليد عنها ما يلي:

١ـ **بث الثقة في نفوس الأخوات المسلمات:** والتركيز على الجوانب المضيئة والفاعلة، والمهارات العالية لديهن . . . فهذا خير كثير من التركيز على محاور ظاهرها ينتقص منهن ويدفع لسحب بساط الثقة عنهن، ولست في حاجة إلى التمثيل على ذلك، ونظرة واحدة إلى أي وسيلة إعلامية تخاطب المرأة تظهر هذا التفاوت في الخطاب.

٢ـ **طرح البدائل التي لا تجد المرأة المسلمة عنها مناصا:** فما أعظم هذا الأمر، حيث إنه يفتح الباب واسعا للمرأة لتحقيق ذاتها وأنوثتها في غير معصية وفي غير شعور بالضيق والحرج بما يدفع كثيراً منهن للنكوص عن التزامهن.

٣ـ **التركيز على قضايا المرأة المسلمة الواقعية:** والتي تعالجها يوميا، وتصادفها مرارا وتكرارا، فهذا الخطاب حينئذ يحظى بالقبول والتفاعل والمشاركة ويدفع لفتح قنوات اتصال بين المرأة المسلمة والدعاة.

وأنوه في هذا المقام بقضايا الفتاة المسلمة وما أكثرها وما أكثر إعراض الخطاب الدعوي عن التجديد فيها، ومن ثم تنجذب المرأة إلى خطاب غير الدعاة بما يلبي حاجتها ويشبع مطالبها الذهنية وغيرها . . .

المشاركة في وسائل الإعلام:

ولقد كانت المشاركة الجماعية لنساء الصحابة رضي الله عنه موجودة في العهد النبوي.

فعن عائشة $ قالت: «كن نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر متلفعات بمروطهن (كساء معلّم من خز أو صوف)، ثم ينقلبن إلى

بيوتهن يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ثم اعتكف أزواجه من بعده»(٢).

وعن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة»(٣).

وهذه فاطمة بنت قيس تروي لنا عن أم شريك رضي الله عنهما فتقول فاطمة: قال لي رسول الله ﷺ: «**انطلقي إلى أم شريك** ـ وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ـ **ينزل عليها الضيفان**»، فقلت: سأفعل، فقال: «**لا تفعلي، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان**..»(٤).

هناك حاجة ماسة لمشاركة الداعيات الجيدات في وسائل الإعلام المختلفة، فإن الجرائد والمجلات ـ على سبيل المثال ـ تفتقد للمشاركة النسائية الجيدة عموما، وللمشاركة النسائية الإسلامية خصوصا، وهناك أعمال ناجحة في الساحة الإعلامية خصوصا، وهناك أعمال ناجحة في الساحة الإعلامية النسائية .

وتجدر الإشارة إلى وجود انتعاش في الحركة الدعوية النسائية، حيث برزت مجلات ناجحة أسهمت في بناء الكوادر الدعوية . . . لكن ما تزال بحاجة ماسة لدخول المرأة الداعية الصحفية في الصحافة اليومية التي تدخل كل بيت وعمل . . ونحتاج في المستقبل إلى تكثيف المشاركة الإعلامية في مختلف الوسائل الإعلامية، ولابد من أجل الوصول لذلك إلى وجود مراكز تدريب صحفية تشرف عليها الأخوات الإعلاميات المتميزات، يكون هدفها توجيه مجموعة من النابهات المتميزات في طرحهن الفكري، وإمدادهن بالأدوات اللازمة في مجال التواصل الإعلامي.

ويمكن التفكير في إنشاء قنوات فضائية موجهة للمرأة، تقوم النساء على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (٢/ ١١٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٩٤٢)، والنسائي (٣٢٣٧).

إعداد برامجـها بتقديمهـا، كما أن من الأفكار: إنشاء مكتب صحـفي يرعى إنتاج المربيات، ويتولى تنسيق وصوله إلى معظم وسائل الإعلام»(١).

وهذه بعض الخطوات التي تساعد في ضبط المشاركة:

أ ـ إذن الزوج أو ولي الأمر.

ب ـ أن تتـمسك المرأة بحـجابهـا ـ وهذا في حالة الأخـوات الداعيـات أمر مفروغ منه.

جـ ـ أن تلتزم بالضوابط الشرعيـة، فلا خلوة ولا خضوع بالقول، ولا تفريط بالاستمساك بأوامر الإسلام، فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة.

د ـ ألا تشارك في القنوات الفضائية إلا إذا نضـجت ثقافتها، وعندها قدر من العلم الشرعي لا بأس به، والوعي بما يجري، فإن المقام صعب.

هـ ـ أن تحرص على المشـاركة الإيجابية الـبعيدة عن الإثارة والصـخب حتى تحصل بها على الفائدة المرجوة.

و ـ ألا تشارك إلا إذا دعت الحاجة لذلك، كأن تكون هناك قضية ملحة تحسن هي مناقشتها وعـرضها، أو أن تثور مشكلة خاصة ببنات جنسـها، فتعرض الرأي الإسلامي السديد فيها . . . ، وإنما قلت ذلك حتى لا تصبح المشاركة شهوة نفسية كان يمكن تركها؛ إذ الأصل ألا تخرج المرأة في القنوات إلا لحاجة ملحة(٢).

المجلات النسائية نافذة نجاح:

المجلات الإسلامية باب عظيم من أبواب الدعوة، مثلها مثل القنوات الدعوية المتخصـصة والمواقع الإسلاميـة على شبكة الإنترنت، وهي بحـمد الله أخذت في التنامي والصعود بما يبشر بمستقبل طيب، وهذه الأدوات الدعوية هي من باب قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾(٣)، وإنها لتحـمل رسالة رسول الله ﷺ بلسـان أهل عصـرنا «عـصر الفـضـائيات المنظورة والإذاعـات المسموعـة، والمواقع المكتوبة والمقروءة معا. . .»، وإني في مـقامي هذا لأشد على

---

(١) رؤية مستقبلية: بحث على الإنترنت.

(٢) انظر: المرأة الداعية، د/ محمد موسى الشريف (٤٣، ٤٤).

(٣) إبراهيم: ٤ .

يد القائمين على هذه الأدوات الإعلامية أن يتقدموا بها إلى الأمام، وإلى ملامسة واقع الناس ومجتمعاتهم وتحسسها ووضع بلسم النور وترياق الشفاء من كنوز قرآننا وسنتنا لهم.

أما عن المجلات النسائية خاصة فهي ـ بحمد الله ـ أخذت في التنامي أيضا، وأدعو القائمين والقائمات عليها أن يقيموا أنفسهم من خلال جهودهم، وأن يلحظوا جوانب التقدم في المجلات الأخرى المنافسة ثم يقتبسوها ويوظفوا تقنياتها ومؤثراتها بروح إسلامية واضحة، ونبرة تخاطب العقول والقلوب جميعا، وفي مقامي هذا أشيد وأنوه بتلك الثلة من المجلات التي تخاطب حاجز الابتداء مثل مجلة «فرحة» حيث أثبتت بحق واقعيتها في التخاطب، وإسلاميتها ووسطيتها في الطرح، وجودة تقنياتها، كذلك أشيد بمجلات مثل الأسرة، وتحت العشرين والشقائق وغيرها الكثير.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه للغة الخطاب في المجلات فأقول: لغة المجلات الإسلامية آخذة في التطور والرقي، ونؤمل عليها الشيء الكثير، ولكنني هنا أحذر من بعض الأوقات التي تحصر شريحة هذه المجلات وتمنعها من الانطلاق: فهناك مثلا آفة الخطاب التخصصي للداعيات، وهذا الخطاب في الغالب لا يجذب اهتمام عوام المسلمات، ولا يشجعهن على قراءة المجلات الإسلامية النسائية، والاهتمام بمشاكل النساء المسلمات ومساعدتهن على حلها سواء كانت في بناء الشخصية أو في رعاية الأسرة والتدبير المنزلي.

كما أن هناك قضية هامة جدا، وهي ضرورة عدم الانعزال والانغلاق عن المجتمع الذي نعيش فيه، ونغفل أخباره، وما يحدث فيه، فيجب أن ننتبه إلى القدوات في المجتمع ونفرق بين القدوات السيئة والقدوات الحسنة، فنعري القدوات السيئة، ونبين شقاء حياتهن من باب تعرف الشر لا للشر ولكن لتوقيه، مثلما نشيد بالقدوة الحسنة، ونبرز نقاط النور والضوء في حياتهن وندعو إلى الاقتداء بهن.

ونختم بقضية تسويقية بحتة، وهي يجب ألا ننتظر الأخريات لكي يأتين أو يتعرفن على المجلات النسائية الإسلامية، بل يجب أن نذهب إليهن ولا بأس من

تخصيص عدد معين من النسخ من كل عدد لتـقديمها كإهداءات إلى القارئات غير الملتزمات فـفي نساء المسلمين خير كثـير، وطبيعة النســاء يملن إلى العاطفة، فلعل مقالا أو قصة تقرأها، وتقع عينها عليها تكون سبيلا لهدايتها والتزامها.

من معوقات الدعوة النسائية:

حقيقة ما من عمل إلا وله معوقات، بل من طبيعة هذا الدين والدعوة إليه أن فـيـه تحدياً وعـوائق، قال تعـالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾(١).

١ ـ هذا السـيل الجرار من أدوات تدمـيـر الأسرة والمرأة والعـفة والطهـارة؛ فإعلام فاضح تشتغل عليه محطات وصـحافة مدمرة، من خلفهم جيش جرار من الرجال والنساء والدولار، أدواتهــم الخمر والفجور بكل صـوره وأشكاله، فأفلام داعرة وصور ساقطة وأغان هابطة ومحطات غربيـة تقوم أصلا في ترويج بضاعتها على العري والتـفسخ، والفتـاة الجالسة في البـيت لقلة خروجهـا تتقلب بين هذه المحطات، فما تصنع تلك المحطات الداعرة، وتلك الصحف الماجنة؟ إنه تدمير في الشعـور واللاشعـور في الفكر والسلوك، تدمـيـر كامل لكل مـحاولات التـربية والتكوين، والمرأة الداعـيــة تتعـامل مع هذه الجـمـوع، تبني بوسـائلها المحـدودة وإمكانياتها المتـواضعة وأولئك العمالقة يخـربون في هذه الفتاة أو في تلك المرأة، فهو عائق ضخم لا يعين عليه إلا الله.

٢ ـ الفقر الذي يعصف بالبيوت إما لذات الفقر وقلة وجود الفرص، وانتشار البطالة، أو إلزام العـوائل والأسر أنفسـها بمتطلبـات فرضهـا الخطاب الإعلامي، فتنتقل التحسينات بل والملـهيات إلى رتبة الضروريات، والأب يلهث والأم كذلك يداومون في الوظائف صباحا ومساء، بل قد يغترب الرجل ويترك الصبي مع المرأة ليوفر التحسينات والملهيـات، فهو فقر مصطنع أضيف إلى البطالة وقلة تدوير المال بين المسلمين، ولا شك أن لهذا الفقر أثراً كبيراً على المستوى الأخلاقي والاستقرار النفسي وقلة اليد التي يعيشها الشبـاب اليوم فلا فرص عمل ولا مؤسسات تكافلية ولا تفهم من الآباء والأمهات لطبيعـة الشباب، كل هذه سدود دون إيجاد محصن

---

(١) العنكبوت: ٢ .

العفة والدفء في بيت الزوجية، فالشاب قطع الأمل في الزواج، والشابة فقدت الأمل في طرق الباب لقلة ذات يد الشباب ولكثرة المتطلبات، فعاش الشاب في ضياع وهذه الفتاة في هم، فكيف تستقبل صوت الداعية؟

٣ ـ الأطروحات الدعوية الإسلامية المغلفة والمزينة والمبهرجة بتخفيفات الخطاب الديني الدعوي المائع تحت إطار التجديد الذي هو في حقيقته تجريد لهذا الدين، فأصبح المنبر المستقيم فيه متشددا لا يمثل الآيات السمحة ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[(١)] الآية. بل هو خطاب متشدد يلزم المرأة الحجاب ويضيق عليها في التحرك، وكطبيعة البشر الذين يتخففون من طبيعة الالتزام يتركون الخطاب الأصيل إلى البديل الذي يجيز للمرأة أن تشهد المسابح والبلاجات وأن تكون نسخة لمثيلاتها في الغرب.

٤ ـ ومن المعوقات كذلك قلة العلم الشرعي الذي يحصن المسلم من الوقوع في الشبهات أو أن يكون فريسة للشهوات، وخاصة المرأة، فهي قليلا ما تسمع شيئا يخص دينها وطهارتها وعفتها، ومصدر معرفتها في ذلك التقاليد البالية والعادات الخاطئة.

٥ ـ كذلك من المعوقات انشغال المرأة في بيتها خاصة بعد زواجها، يضاف إلى ذلك طبيعتها وقلة الحركة.

٦ ـ كذلك من المعوقات الجمع بين الوظيفة والدعوة؛ فالمرأة الداعية إن احتاجت أن تعمل خارج بيتها في وظيفة ما، فإن العبء يكون ضخما عليها، فإذا اجتمع إلى ذلك كونها ذات زوج وأولاد فقد تضاعف عليها العبء أضعافا مضاعفة.

هل يمكن للمرأة أن توفق بين متطلبات الدعوة وواجبات الأسرة؟

المرأة الداعية في موقعها هذا في أشرف المواقع وأحسنها ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[(٢)] الآية. لذا فحياتها ليست كحياة أي امرأة، ويومها ليس كيوم أي امرأة، وكذلك جزاؤها عند الله ـ عز وجل ـ

---

(١) البقرة: ٢٥٦.
(٢) فصلت: ٣٣.

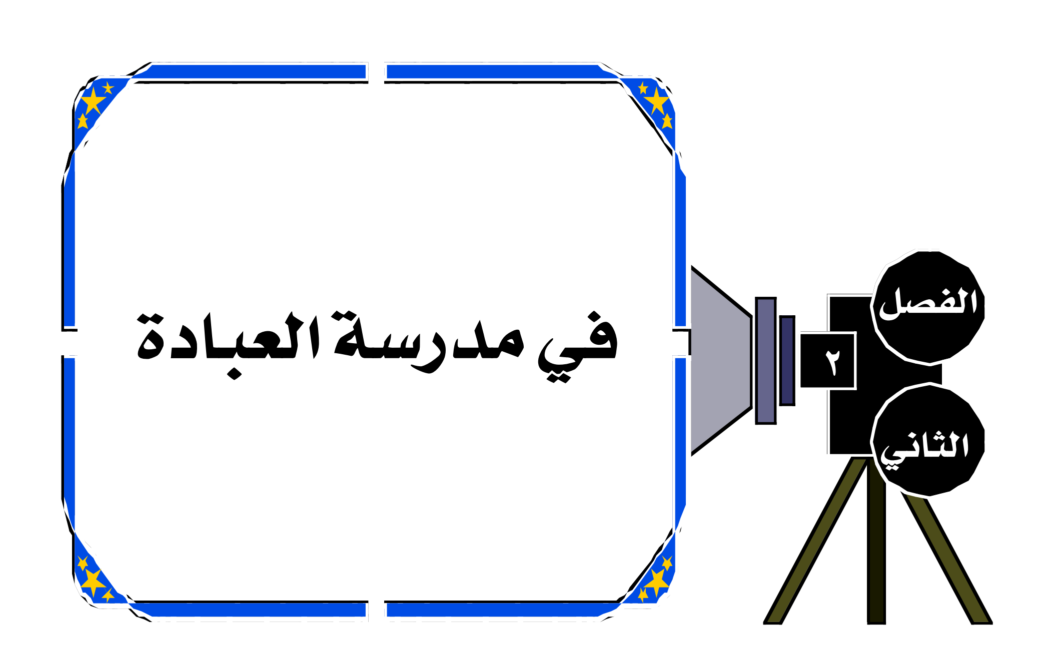
ليس كجزاء أي امرأة. فعليها أن تبذل مجهودا ليس كغيرها من النساء، في حدود إمكانياتها وطاقاتها، والله المعين لها، وتعلم أيضا أن الدعوة واجب رباني، وأن القيام على أمر الأسرة واجب كذلك، ولا تعارض بين الواجبات، وعليها أن تدرك أيضا أن هناك فرقا بين العمل وبين حسن العمل، فعمل في حقل الدعوة توفر فيه الإخلاص وحسن التخطيط وإن كان قليلا وقته فعظيم نفعه وليست المسألة بالكم بقدر الإخلاص في المتيسر، فإذا بحثت المرأة الداعية عن كيفية التوافق بين متطلبات الدعوة وهي في أسرتها فعليها أن تعلم أنها في أسرتها داعية لمثيلاتها اللاتي عجزن عن القيام بأمرهن كربات بيوت.

وعلى هذه الاعتبارات السابقة نقول: إن التوفيق بين متطلبات الدعوة ومتطلبات الزوجين أمر سهل صعب: سهل على من أعانه الله وصعب على من ركن إلى نفسه وجهده، والموازنات في كل أمر من الأمور لا يحسنها إلا الكبار. ولزيادة التوضيح نقول ما ذكره العلماء: «ليس الفقيه الذي يعرف الحلال من الحرام، ولكن الفقيه الذي يعرف أخف الضررين وأكبر الواجبين وأقل المفسدتين»، فعلى هذا فعملية الموازنة أمرها صعب ولا يسعنا أن نتحدث عن تفصيلاته، ولكنني أذكر قاعدة في هذا الأمر كما قال ﷺ: «**ابدأ بمن تعول**»[1]، ثم الاستئناس بخطاب النبي ﷺ لأهل مكة في أمر التبليغ، وكذلك يستأنس بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾[2] فبدأ بنفسه ثم بالأهل، ولا يحسن للمرأة أن تحسن إلى الأبعد في المجتمع وتهمل الأقرب في بيتها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤).

(٢) التحريم: ٦ .


في مدرسة العبادة
الفصل
٢
الثاني

١ ـ الصلاة في الإسلام

منزلة الصلاة:

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال رسول الله ﷺ: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»(١).

ـ وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وتولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة، قال أنس: فرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة أسري به خمسين، ثم نقصت حتى جعلت خمسا، ثم نودي: «**يا محمد، إنه لا يبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين**»(٢).

ـ وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله(٣).

ـ وهي آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا ، جعل يقول وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»(٤).

ـ وهي آخر ما يفقد من الدين، فإن ضاعت ضاع الدين كله، قال رسول الله ﷺ: «**لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن الصلاة**»(٥).

ـ وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة، أن أمر بالمحافظة عليها في الحضر والسفر والأمن والخوف، فقال تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩)،ومسلم (١٦٣)، عن أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٨٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٣).
(٤) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٠)، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥١)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده جيد».
(٦) البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩ .

ـ وقد شدد النكيـر على من يفرِّط فيهـا، وهدد الذين يضيعونهـا، فقال جل شأنه: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾(١)، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾(٢).

ـ وهي تحقـيق لإقامة الدولة: فـقد خاطب المولى عـز وجل بني إسرائيل في مرحلة الاستضعاف يخبرهم كيف يقيمون دولتهم قائلا: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

لا حظ في الإسلام بدون الصلاة:

جاء عن عـمر بن الخطاب: «**لا حظ في الإسلام لمـن ترك الصلاة**»(٤)، وقد كان يكتب إلى الآفـاق أن أهم أموركم عندي الصـلاة، فمن حفظهـا حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة.

قال الإمام أحمد: فكل مستخف بالصلاة مـستهين بها، فهو مستخف بالإسلام مسـتهين به، وإنما حظهم في الإسـلام على قدر حظهم من الصـلاة، ورغبـتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصـلاة، فاعرف نفسك يا عبد الله، واعلم أن حظك من الإسلام وقـدر الإسلام عندك بقدر حظك من الصلاة وقـدرها عندك، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلاة عمود الدين**»(٥)، ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده، سقط الفسطاط، ولم تنتفع بالطنب (الحبل تشد

---

(١) مريم: ٥٩ . (٢) الماعون: ٤، ٥ .

(٣) يونس: ٨٧ .

(٤) أخرجه مـالك في الموطأ موقوفـا عن عمر رضي الله عنه (١ / ٣٩، ٤٠) في الطهارة، باب العـمل فيمن غلبه الدم من جـرح أو رعاف، وابن أبي شيبـة (١٠٣)، والبيهقي (١ / ٣٥٧)، وعـبد الرزاق (٥٧٩)، والطبـراني في الأوسط (٨١٨١)، وقـال الهيـثمـي في مجـمع الزوائد (١ / ٢٩٥): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) ذكره الحافظ ابـن حجر في التلخيص الحـبير (١ / ٤٤٦)، وقال: «وهو مرسل رجـاله ثقات»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٦٧).

به الخيمة) ولا بالأوتاد؟ وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما يبقى الصلاة، وليصلين قوم لا إيمان لهم**»(١).

وجاء الحديث: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته**»(٢) فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نسأل عنه غدا من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين، إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الدين.

من مقاصد الصلاة:

يقول الإمام الشاطبي: لها مقصد أصلي ومقاصد تابعة؛ فالمقصد الأصلي هو التوجه إلى الله الواحد، وإفراده بالقصد إليه في كل حال، قال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾(٣) أي أن قصد الصلاة هو ذكر الله، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾(٤) لأن ذكر الله هو المقصود الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة كصلاح النفس، والنهي عن الفحشاء والمنكر، وإنجاح الحاجات، والفوز بالجنة وغيرها.

ولا حرج على المؤمن أن يطلب بعبادته الفوائد الأخروية، كالفوز بالجنة؛ لأن هذا داخل تحت معنى الرجاء في مثوبة الله، والخشية من عذابه، وهذا لا يقدح في الإخلاص لله.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾(٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩ / ١٤١) (٨٧١٨) عن عبد الله بن مسعود موقوفا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٧٩): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة»١٠٤. وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٩) عن أنس مرفوعا، بلفظ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخره الصلاة»، وقال: «إسناده حسن في الشواهد».

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣) واللفظ له، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٤٦٥)، وابن ماجه (١٤٢٦)، وصححه الألباني.

(٣) طه: ١٤ .

(٤) العنكبوت: ٤٥ .

(٥) الإسراء: ٧٩ .

ولكن من الخطأ أن يصلي المسلم فقط لتحقيق هدف دنيوي مثل النجاح أو التوفيق؛ فصاحب هذا القصد لن يستطيع الاستمرار في أداء الصلاة؛ لأنه داخل تحت قوله عز وجل: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾(١).

كما أن هذا الفهم يحول الصلاة إلى مجرد وسيلة لتحقيق شيء من الدنيا، فإن وجد غيرها من الوسائل استغنى عنها كما يدعي البعض قائلا: إن مقصد الصلاة تهذيب السلوك، فإذا وصلنا إلى هذه النتيجة بأي وسيلة أخرى فلسنا بحاجة إلى العبادة والصلاة، وهذا القول مردود؛ لأنه أغفل المقصد الأول من العبادة بل المقصد الأول من خلق الناس.

١ ـ المقصد الأصلي: ذكر الله وحده وتعلق القلب به سبحانه.

يقول الأستاذ المودودي ـ رحمه الله : «وما الصلاة في حقيقة الأمر إلا أن تعيد بلسانك وأعمالك خمس مرات في اليوم والليلة ذكر ما قد آمنت به»(٢).

٢ ـ رحلة الروح: في هذه الرحلة تعرج الروح متخلصة من جاذبية الأرض إلى ساحة الطهر في الملأ الأعلى . . . من حدود الحس الضيقة إلى العالم الذي لا حدود له. . . عالم النور الذي لا تدركه إلا الأرواح. في هذه اللحظات ترى إنسانا يقف على الأرض بينما تسبح روحه في السماء، فما أثر هذه الرحلة العلوية على الروح؟

الصلاة في الجماعة ومحافظة السلف عليها:

صلاة الجماعة سنة مؤكدة، ورد في فضلها أحاديث كثيرة، منها ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وسوقه خمسا وعشرين ضعفا، وذلك أنه**

---

(١) الحج: ١١ . (٢) مبادئ الإسلام ص١١٢ .

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٠).

إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يحدث: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من سره أن يلقى الله ـ تعالى ـ غدا مسلما فليحافظ على هذه الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا ما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف(٢).

ولأهمية الصلاة في الجماعة أتى النبي ﷺ رجل أعمى، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته فرخص له، فلما ولى دعاه، فقال له: «**هل تسمع النداء بالصلاة؟**» قال: نعم، قال: «**فأجب**»(٣).

وقد أرشد ﷺ للمحافظة على هذا الخير العظيم فقال: «**اعلموا أن خيرَ أعمالكُم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(٤)، أولئك قوم قلوبهم معلقة بالمساجد، وقد جاءتهم البشائر في قوله ﷺ: «**سبعة يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم: «**رجل قلبُهُ مُعلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»(٥).

وقد حث سفيان بن عيينة على السير إلى الصلاة حتى قبل النداء فقال: لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي حتى يُدعى، ائت الصلاة قبل النداء، وذلك استجابة لقوله ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟**»، قالوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧). (٢) أخرجه مسلم (٦٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٢٨٢) عن ثوبان، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، واللفظ له.

بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(١).

وهذا فاروق هذه الأمة رضي الله عنه ينتبه بعدما ذُكِّرَ بالصلاة وهو في حالة الإغماء الشديد، فقد ذكر المسور بن مخرمة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب لما طُعِنَ جعل يُغمى عليه، فقيل: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة، فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، قد صُلِّيَتْ، فانتبه فقال: الصلاة ها الله، فلا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، فصلى وإن جُرحه ليثعب دَمًا.

قال رسول الله ﷺ: «**مُروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(٢).

وكان علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ إذا توضأ يصفر لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء، فيقول: تدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وتوضأ منصور بن زاذان يوما فلما فرغ دمعت عيناه ثم جعل يبكي حتى ارتفع صوته فقيل له: رحمك الله ما شأنك؟ فقال: وأي شيء أعظم من شأني؟ أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سنة ولا نوم فلعله أن يعرض عني.

قال سعيد بن المسيب: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة.

وقد أدرك السلف رحمهم الله ذلك فاهتموا بالتبكير إلى الصلاة. فقال سفيان بن عيينة: إن من توقير الصلاة أن تأتي قبل الإقامة.

وقال حاتم الأصم: فاتتني صلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا.

قال رسول الله ﷺ: «**بشر المشائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنُّور التام يوم القيامة**»(٣)، وقال ﷺ: «**إنَّ الرجلَ لينصرف ما كُتِب له إلا عُشر صلاته،**

(١) أخرجه مسلم (٢٥١).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (٦٧٥٦)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وابن ماجه (٨٧١)، وصححه الألباني.

تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»(١).

قال شبرمة: صحبنا كرزا الحارثي، فكنا إذا نزلنا إلى الأرض فإنما هو قائل:

يا من له تعنو الوجوه وتخشع ولأمره كل الخلائق تخضع
أحنو إليك بجبهة لم أحنها إلا لوجهك ساجدا أتضرع

وكان ينظر ببصره فإذا رأى بقعة تعجبه ذهب فصلى فيها حتى يرتحل

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٦)، وصححه الألباني.

٢ ـ قيام الليل

في بداية الدعوة المباركـة كان الأمر الإلهي للنبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (١).

وكان الأمر بقيام الليل فرضا في بداية الدعوة وقبل فرض الصلاة . . . لماذا؟

لأنه بمثابة دورة تدريبية على طاعـة الله، وترويض النفس على تقديم أمر الله على متطلبات الدنيا وشهواتهـا، وتدريب على عمل مشاق الدعوة وإيذاء الكافرين، فإن قيام الليل ضرورة لتحقيق العبودية لله بأن الله وحده هو غايتهم.

ولابد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة من خلوة مع الله . . . لتغيير مسار هذا الإنسـان أولا، فإن نجح في هذا مع نفسه فسيكون مـؤثرا في غيره وفي مجتمعه.

لهـذا كان لابد للطليعـة الأولى التي نشرت هـذه الدعوة من هذا التـدريب المكثف.

قال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليـمان فرأيته يبكي فقلت: ما يبكيك؟ قال: ويحك يا أحـمد، إذا جن الليل وخلا كل حبـيب بحبيبـه، افترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دمـوعهم على خدودهم، وأشرف الجليل جل جلاله عليهم، وقال: بعيني مَنْ تلذذ كلامي، واستروح إلى مناجاتي، وإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم وحنينهم .

يا جبريل، ناد فـيهم: ما هذا البكاء الذي أراه منكم، هل أخبركم مـخبر أن حـبيـبا يعـذب أحبـابه بالنار، بل كيـف يجمل أن أعـذب قومـا إذا جنهم الليل تملقوني، فبي حلفت إذا أوردوا القيامـة علي أن أسفر لهم عن وجهي، وأمنحهم رياض قدسي.

وقال ذو النون المصـري: لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته وقـراءته فلما

---

(١) المزمل: ١ ـ ٥ .

وقف في محرابه، واستفتح كلام سيده، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين، فانخلع قلبه، وذهل عقله، فقلوبهم في ملكوت السماوات معلقة، وأبدانهم بين الخالق عارية، وهمومهم بالفكر دائمة.

خلوة الليل:

قال النبي ﷺ: «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن**»(١).

والليل سكون وهدوء ... وفي الهدوء تركيز وصفاء.

والناس نيام ... وفي ذلك بعد عن الرياء.

والليل خلوة مع **الله** ... وفي الخلوة قرب وأنس ومناجاة.

وعند الثلث الأخير يبدأ المحبون في التسلل فرادى إلى معراجهم الخفي ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾(٢).

في هذا الوقت يبلغ التعب بأهل الدنيا منتهاه، فيسقطون صرعى تحت مطارق الغفلة والنسيان، بينما يشمر عشاق الليل إلى غنيمتهم.

يقول سفيان الثوري رضي الله عنه: «إذا جاء الليل فرحت، وإذا جاء النهار حزنت».

ولحرصهم على هذه العبادة كانوا يتعاهدونها جيلا بعد جيل، وكان الآباء يغرسونها في نفوس الأبناء، فكان معاوية بن قرة يسمع أباه يقول لبنيه: «يا بني ناموا لعل **الله** أن يرزقكم من الليل خيرا».

والنبي ﷺ يحث الأزواج على التناصح والتعاون من أجل تحصيل هذا الخير فيقول ﷺ: «**رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني.

(٢) السجدة: ١٦.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٨)، والنسائي (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٣٣٦)، وصححه الألباني.

قيام الليل وإعلان سيطرة الروح:

يقول صاحب الظلال: «إن مغالبة هواتف النوم، وجاذبية الفراش بعد كدِّ النهار، صعب على البدن، ولكن إعلان لسيطرة الروح وإيثار دعوة الله، ومن ثم فهي أقوم قيلا؛ لأن للذكر في هذا الوقت حلاوة، وللصلاة فيه خشوعها مما لا يحدث للقلب في صلاة النهار، والله الذي خلق القلب ويعلم مداخله وأسراره، وأوقات تهيئه اختار له قيام الليل.

فمن أراد أن يكون في طليعة من ينقذ هذه الأمة من وهدتها، فلابد له من العزم على قيام الليل، وأن يبذل الأسباب ويحفز نفسه ويعاقبها ـ إذا لزم الأمر ـ حتى تلتزم القيام بالليل، والعزيمة إذا لم تحتمل القيام من الفراش إلى هذه المناجاة فهي عزيمة الأدعياء».

الأسباب الميسرة لقيام الليل:

اعلم أن قيام الليل صعب إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له، فمن الأسباب ظاهر ومنها باطن...

فأما الظاهر: فألا يكثر الأكل. كان بعضهم يقول: يا معشر المريدين لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا فتناموا كثيرا، فتخسروا كثيرا.

ومنها: ألا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة.

ومنها: ألا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل.

ومنها: أن يجتنب الأوزار.

قال الثوري: حرمت قيام الليلة خمسة أشهر بذنب أتيته.

وأما الميسرات الباطنة:

فمنها: سلامة القلب للمسلمين ... وإعراضه عن فضول الدنيا.

ومنها: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل.

ومن أشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى، وقوة الإيمان بأنه إذا قام ناجى ربه، وأنه حاضره ومشاهده، فتحمله المناجاة على طول القيام.

ومنها: الدعاء والإلحاح على الله ليعيننا على قيام الليل، فإن هذا الدعاء مقبول إن شاء الله، ومهما أخذ العبد من الأسباب، ونسي هذا السبب فأنى له أن يحقق مراده.

فإذا وفقك الله لقيام ليلة فأكثر من الحمد وقل: «**اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(١)، فإنه سبحانه قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢).

أفضل القيام:

عن أبي ذر رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ: أي قيام الليل أفضل؟ فقال ﷺ: «**جوف الليل الغابر أو نصف الليل وقليل فاعله**»(٣).

وكان ﷺ يقول: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه**»(٤).

ومن حديث عمرو بن عبسة أن النبي ﷺ قال: «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن**»(٥).

قال أبو سليمان الداراني: وسط الليل للمحبين للخلوة بمناجاة حبيبهم، والسحر لبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج، فمن عجز عن مسابقة المحبين في مضمارهم فلا ينبغي أن يعجز عن مشاركة المذنبين في استغفارهم.

من أي هؤلاء أنت؟

يقول ابن رجب: الليل منهل يرده أهل الإرادات كلها، قد علم كل أناس مشربهم فالمحب يتنعم بمناجاة محبوبه، والخائف يتضرع لطلب العفو ويبكي على ذنوبه، والراجي يلح في سؤال مطلوبه، والغافل أحسن الله عزاءه حرم من هذا الخير، وهو لا يدري كم غنم هؤلاء وكم خسر، فاتته قوافل الصالحين إلى العلا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٢)، وصححه الألباني.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) أخرجه أحمد (٥ / ١٧٩)، وقال الأرناؤوط: «صحيح لغيره».

(٤) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩/١٨٩).

(٥) سبق تخريجه.

وهو في سراب الدنيا يعدو.

وعلى هؤلاء كان عطاء الخراساني ينادي في جوف الليل: أيها الناس قوموا وتوضؤوا وصلوا فإن صيام النهار وقيام الليل أهون من شرب الصديد ومقطعات الحديد .

كان بعض السلف يقوم من الليل حتى إذا جاء السحر قال: يا رب إن مثلي يستحيي أن يسألك الجنة، فأسألك برحمتك أن تجيرني من النار .

وكان لبعضهم غلام خادم عندهم فكان يقوم الليل، فقال له مولاه (سيده): إن قيامك بالليل يوثر على عملك في النهار.

قال: وماذا أعمل؟ إني إذا تذكرت الجنة طال شوقي، وإذا تذكرت النار طال خوفي، فكيف لي أن أنام بين خوف يزعجني وشوق يقلقني؟**!**

هؤلاء هم الذين ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾(١) رغم أن المضطجع هنيء، والفراش لين، فإنهم يدعون ذلك كله.

مدرسة الليل:

كان رسول الله ﷺ كما وصفته السيدة عائشة $: «يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه» أي: تتشقق، وفي بعض الروايات: «تتورم قدماه»، فقالت له: لم تصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا**»(٢).

دخل عليها يوما عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح فسألاها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ؟ فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «**يا عائشة ذريني أتعبد لربي**»، قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه

(١) السجدة: ١٦ .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) .

يبكي قال: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا؟**»، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ... ﴾(١)، الآية(٢).

هكذا كان ليله وليل أصحابه، كانوا يشمرون عن ساعدهم، وكانت أشواقهم عالية، وهممهم رفيعة، فلم يكونوا يقتصرون على الفرائض بل كانوا يحبون أن يتنفلوا وأن يستزيدوا، وأن يكثروا من رصيدهم عند الله ـ عز وجل.

باع الحسن بن صالح ـ من فقهاء السلف ـ جارية كانت عنده لقوم، فلما كان الثلث الأخير من الليل قامت تنادي فيهم: الصلاة ... الصلاة، فقالوا لها: أأصبحنا، أطلع الفجر؟ فقالت لهم: وما تصلون إلا الفجر؟! قالوا: بلى ، ما نصلي إلا المكتوبة. فرجعت إلى سيدها الأول وقالت له: بعتني لقوم ليس لهم حظ من الليل، بالله عليك إلا رددتني.

---

(١) آل عمران: ١٩٠ .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٠)، وقال الأرناؤوط: «إسناد صحيح على شرط مسلم».

٣ـ الزكاة في الإسلام

إن من حكمة الله ـ عز وجل ـ أن فاوت بين عباده في أخلاقهم وأرزاقهم وهو العليم الحكيم، فبسط الرزق لبعضهم، وجعل بعضا أقل من ذلك، فقال جل شأنه: ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

ابتلى الله البعض بالمال فوسع عليه المال، وأعطاه من أصناف الأموال، وابتلى البعض بالقلة، وربك الخبير البصير، قال في محكم التنزيل: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ** ﴾ (٢).

أي: ليس كل من وسعنا عليه دليلا على الحب له، ولا كل من ضيقنا عليه دليلا على بغضنا له، لكنها الدنيا يعطيها الله بعض عباده، ويحرمها بعض عباده، وله الحكمة في ذلك.

ابتلى الأغنياء بالفقراء وابتلى الفقراء بالأغنياء، ابتلي الغني بالمال حتى ينظر أيكون ذلك المال سببا لشكره لنعمة الله، وقيامه بحق الله؟ وابتلى الفقير بالفقر حتى ينظر أيكون من الصابرين الراضين أم يكون من المتسخطين؟

غرس في النفوس حب المال ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾(٣)، وهذا المال نعمة عند قوم، وبلاء على قوم، نعمة في حق من أخذ المال بحقه وصرفه في حقه، علم أن لله حقا في هذا المال، فأدى الحق أداء كاملا، وكان هذا المال سببا لصلاحه، واستقامة حاله، ومنافسته في صالح العمل.

وآخرون صار المال في حقهم سببا لطغيانهم واغترارهم بأنفسهم، فمنعوا حق الله الواجب في المال فلم يؤدوا حق المال، بل صار المال سببا لعذابهم، ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾(٤).

---

(١) سبأ: ٣٦ .
(٢) الفجر: ١٥ـ١٧ .
(٣) الفجر: ٢٠ .
(٤) التوبة: ٥٥ .

مكانة الزكاة:

أكد النبي ﷺ في المدينة فرضية الزكاة، وبين مكانها في دين الله، وأنها أحد الأركان الأساسية لهذا الدين، ورغب في أدائها، ورهب من منعها بأحاديث شتى، وأساليب متنوعة: تقرأ في حديث جبريل المشهور حين جاء يعلم المسلمين دينهم بحسن السؤال: أنه سأل النبي ﷺ: ما الإسلام؟ فقال النبي ﷺ: «**الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**»(١).

وفي حديث ابن عمر المشهور: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**»(٢).

أعلن الرسول ﷺ في هذين الحديثين وغيرهما أن أركان الإسلام خمسة، بدأها بالشهادتين، وثناها بالصلاة، وثلثها بالزكاة.

فالزكاة في السنة كما هي في القرآن ـ ثالثة دعائم الإسلام، التي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها.

وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، مات والله عنه راض**»(٣).

قال أنس: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ**﴾(٤).

قال: توبتهم خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾(٥)(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٧٠)، وضعفه الألباني.

(٤) التوبة: ٥. (٥) التوبة: ١١.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير للآية.

يا أيها الناس: اعلموا ـ وفقكم الله ورعاكم ـ أنه لا يوجد دين يحس بآلام الناس وأحزانهم مثل دين الإسلام، وليس في الدنيا منظمات ولا جمعيات حقوقية تسعى لتخفيف العبء عن كاهل الفقراء مثل دين الإسلام لأنه دين الرحمة؛ ولأنه الدين الحق؛ ولأنه الدين الذي نادى بمبادئ التكافل والتضامن الاجتماعي قبل أن تعرفها البشرية.

وكان من أظهر المبادئ والوسائل التي نادى بها أن فرض على معتنقيه ركنا من أركانه هو فريضة الزكاة، وهي فريضة فرضها الله على المسلمين تخرج من أغنيائهم وترد على فقرائهم، والزكاة تطهر وتزكي النفس والمال، وعاقبة مانع الزكاة في الدنيا وخيمة، وفي هذه المادة دعوة إلى الإنفاق والبذل والتصدق على المسلمين كما أمرنا الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

في هذه الآيات هجوم أدبي على الإقطاعيين في العالم، هذا غضب ونقمة على الذين كدسوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وادخروا الأموال في البنوك، وتركوا فقراء الأمة ينامون على الأرصفة هذا غضب من الله للذين لعبوا في أمواله سبحانه وتعالى، فما أدوا زكاة الأموال، وما اجتنبوا الربا وما تصدقوا.

هذا وعيد صارم من الله ألا يقبل لهم توبة إذا أتوا بهذه الحالة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ كان بعض الناس فقيرا فأغناه الله الواحد الأحد، كان لا يملك درهما ولا دينارا، فلما أصبح يملك الملايين لوى عنقه لرب العزة سبحانه وتعالى، بطر

---

(١) التوبة: ٧٥ ـ ٨٠.

بالأموال وصد بالأموال عن سبيل **الله**، ورابى بالأموال، وصارت أمواله مصدر حرب على الإسلام والمسلمين ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ عهد من **الله**، فأتاهم **الله**، وأراد سبحانه وتعالى، أن يرى هل يصدقون أم يكذبون.

وأذكر قصة صحيحة عند الإمام البخاري ومسلم وغيرهما يوم أرسل الرسول ﷺ عمر بن الخطاب ليجبي الصدقات من الناس، فذهب عمر جابيا للصدقات، فمر على العباس عم الرسول ﷺ، قال: هات زكاتك، قال: لا، ومر على خالد بن الوليد ـ أبي سليمان سيف **الله** المسلول ـ قال: هات زكاتك قال: لا.

ومر على ابن جميل وقال: هات زكاتك قال: لا، وليس لعمر إلا أن ينقل الإجابة كما سمعها للرسول ﷺ، ووصل عمر وأخبر الرسول ﷺ قال: أعطاني الناس جميعا إلا ثلاثة: عمك ـ هكذا صراحة ووضوح وصدق الإسلام، ليس في دين **الله** خشية ولا مجاملة ولا نفاق ـ عمك رفض أن يدفع الصدقة، وما قال عمر في نفسه: ما دام أنه عم الرسول فنتجاوز عنه، لا.

أول من رفض الصدقة عمك وخالد بن الوليد وابن جميل، فتبسم ﷺ وأتى يخبر بجواب مفصل عن أعذار الثلاثة، قال: «**أما عمي فإنها عليَّ ومثلها**» يعني زكاة سنتين؛ لأن الرسول ﷺ استعجل، وتعجل منه صدقة عامين، قرضا ودينا في شئون الإسلام، ثم قال لعمر: «**أما تدري يا عمر أن عم الرجل صنو أبيه**»، كالمازح يقول هو عمي ومع ذلك تعجلت صدقته هذه السنة والسنة المقبلة.

قال النبي ﷺ: «**وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا**» خالد مظلوم فخالد دفع دمه وعرقه ودموعه وسيوفه ورماحه في سبيل **الله**، خالد أخذ أمواله جميعا فشرى بها مائة فرس فحبسها في سبيل **الله**، وشرى مائة سيف فجعلها في سبيل **الله**، وشرى مائة درع فجعلها في سبيل **الله**.

يقولون: معن لا زكاة لماله … وكيف يزكي المال من هو باذله
هو البحر من أي النواحي أتيته … فدرته المعروف والجود ساحله

فاعتذر لخالد وللعباس.

وأما ابن جميل ـ وهو الحية الرقطاء ـ يقول ﷺ: «**فما ينقم ابن جميل إلا**

أن كان فقـيرا فأغناه الله»(١)، يقول: أيحق لابن جمـيل أن يفعل بنا هذا، بعد أن كان فقيرا مملقا فأغناه الله؟! يتنكر للإسلام وللزكاة وللصدقة أهذا جزاء الإحسان! أهذا رد المعروف! أهذا حفظ اليـد البيضاء! هكذا يفعل اللؤم! فـرفض ابن جميل ورفض ﷺ أن يقبل صدقـته أبدا، فأنزل الله: ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ**﴾(٢)، وهو ابن جميل هذا، كان فقيرا في جانب المسجد يأكل من طعام المسجد لا يجد كسرة خبز، فأتى إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله! أريد مالا، قال: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقـه»، ـ قليل تشبع به وتصلى معنا في المسجد وتشكر الله عليه أحسن من الكثيـر الذي لا تؤدي شكره ـ قال: يا رسول الله! ادع الله لي أن يرزقني مالا، قال ﷺ: «أنا رسول الله لو شـئت أن يسير الله لي جبـال الدنيا ذهبا وفضة لسيرها لي، ولكني مع ذلك أجوع يوما وأشبع يوما»، قال: يا رسول الله! ادع الله أن يرزقني مـالا، قال: «فـإن رزقك مالا أتؤدي شكره؟» قـال: إي والذي نفسي بيـده، فرزقه الله مـالا، فترك صلاة الجـماعة ثم تشـاغل عن صلاة الجمعة ثم رفض الزكاة.

وابن جرير وابن أبي حـاتم يذكرونها لثعلبـة وفي سندها عن ثعلبة نظر، بل هي عن ابن جمـيل لقصة البخاري ولـسند البخاري، أرسل عمـر إليه قال: هذه جزية لا أعترف بالصدقة، قـال: كنت فقيرا فأغناك الله، قال: لا، أنا ورثت المال كابرا عن كابر، قال الله: ﴿ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾(٣) وهذه قصة ابن جميل تتكرر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ونحن يا أيها الناس نعيش مشكلة اجتماعـية، واقعا أعرفه وتعرفه أنت؛ لأننا من أبناء هذه المنطقـة، نعرف الفقـراء ونعرف المسـاكين، بل أعرف منطقـة كاملة

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، ولفظ مسلم: بعث رسول الله ﷺ عمـر على الصدقة، فقـيل: منع ابن جميل وخـالد بن الوليد، والعبـاس عم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقم ابن جـميل إلا أنه كان فـقيرا فأغناه الله، وأمـا خالد فإنكم تظلمون خالدا، قد احـتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العـباس فهي علي ومثلها معها، ثم قال: يا عمر، أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».

(٢) التوبة: ٧٥ . (٣) التوبة: ٧٧.

مشيتها قرية قرية وواديا واديا يعيشون فقرا مدقعا، ومن يكذب هذا؟! ومن ينكر هذا؟! إن منطقة واسعة وإقليما يعيش فقرا مدقعا، والرجل يعيش في عشة لا يجد أحيانا قوت يومه، وبالقرب أغنياء بلغ غناهم السحاب، وهل الإسلام يرضي هذا! وهل محمد ﷺ إن كان حيا يرضى هذا الوضع! أن تعيش قرى في البادية وقرى في تهامة على التراب، لا تتمتع بأقل ما يتمتع به الإنسان في عصر الحضارة والرقي والتقدم، عصر الكهرباء، عصر الإشعاع، عصر المال والماء، عصر الخبز والفواكه والخضروات والثياب، إنها أمانة يجب علي أن أنقلها لكم وأن تعوها وتسمعوها، من عنده زكاة فليذهب إلى هذه المناطق لينقذ أهلها، ونحن ذهبنا إلى هناك، ووالله لقد استودعنا منهم شيوخا وهم يبكون أن نبلغكم الوديعة، وأن نخبركم بالأمانة، نعم.

فمن يعذر هذه الأمة التي يعيش أغنياؤها ترفا هائلا؟ اقرأ المقابلات مع تجار بعض البلاد، الملايين التي تعادل ميزانية كل تاجر منهم ميزانية دول، ومع ذلك هذه المناطق الشاسعة تعيش التراب والفقر المدقع، مسؤلية من؟ إنها مسؤوليتنا.

وأصيب هؤلاء المساكين بخيبتين وقاصمتين: قاصمة فقر العلم والعلماء والدعاة، وقاصمة فقر المال من الأغنياء والتجار، والله يقول عن بني إسرائيل: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾(١)، فهذا بخل بالعلم وبخل بالمال، وأمامي طلبة علم وأغنياء وتجار، فطلبة العلم أمامهم أمانة من الله أن يذهبوا بعلمهم ليعلموا هؤلاء، والله إن فيهم من لا يحسن قراءة الفاتحة، ومنهم من لا يعرف الغسل من الجنابة، فاجتمع عليهم فقر الدين وفقر الدنيا، وهي مسؤوليتنا نحن.

التحذير من منع الزكاة:

وفي أحاديث أخرى أنذر الرسول ﷺ مانعي الزكاة بالعذاب الغليظ في الآخرة، لينبه بهذا الوعيد القلوب الغافلة، ويحرك النفوس الشحيحة إلى البذل، ويسوقها بعصا الترغيب والترهيب إلى أداء الواجب طوعا، وإلا سيقت إليه بعصا القانون وسيف السلطان كرها.

---

(١) النساء: ٣٧ .

العذاب الأخروي:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه ـ يعني بشدقيه ـ ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**»، ثم تلا النبي ﷺ الآية: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾(١)(٢).

والشجاع: الحية الذكر.

والأقرع: الذي لا شعر له لكثرة سمه، وطول عمره.

والزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق العينين، وهو أخبث الحيات.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، ثم أحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقْضى بين الناس فيُرى سبيله: إما إلى الجنة وإما إلى النار. وما من صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أتي بها يوم القيامة تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها، كلما مضى عليه أخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»(٣).

العقوبة الدنيوية لمن يمنع الزكاة:

ولم تقف السنة النبوية عند حد الوعيد بالعذاب الأخروي لمن يمنع الزكا، بل هددت بالعقوبة الدنيوية ـ الشرعية والقدرية ـ كل مَنْ يبخل بحق الله وحق الفقير في ماله.

وفي العقوبة القدرية ـ التي يتولاها القدر الأعلى ـ يقول ﷺ: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**»(٤).

---

(١) آل عمران: ١٨٠ . (٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٦) برقم (٤٥٧٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٦): «رجاله ثقات».

جمع سنة وهي المجاعة والقحط.

وفي حديث ثان: «**ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا**»(١).

وفي حديث آخر: «**ما خالطت الصدقة ـ أو قال الزكاة ـ مالا إلا أفسدته**»(٢).

وهذا الحديث يحتمل معنيين كما قال المنذري:

الأول: أن الصدقة ـ بمعنى الزكاة ـ ما تركت في مال ولم تخرج منه إلا كانت سببا في هلاكه وفساده.

ويشهد لهذا المعنى ما روي في حديث آخر: «**ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة**»(٣).

الثاني: أن الرجل يأخذ الزكاة وهو غني عنها فيضعها مع ماله، فيهلكه، وبهذا فسر الإمام أحمد.

العقوبة الشرعية لمانع الزكاة:

وفي العقوبة الشرعية القانونية ـ التي: يتولاها الحاكم أو ولي الأمر ـ جاء قوله ﷺ في الزكاة: «**من أعطاها مؤتجرا بها فله أجرها، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله، عزمة من عزمات ربنا، لا يحل لآل محمد منها شيء**»(٤).

تضمن هذا الحديث الكريم مبادئ هامة في باب الزكاة:

أحدها: أن الأصل في الزكاة أن يعطيها المسلم مؤتجرا، أي طالبا الأجر، ومحتسبا الثواب عند الله تعالى؛ لأنه يتعبد الله بأدائها، فمن فعل ذلك فله أجره

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٠٢)، وقال: «رواه البزار وفيه عثمان بن عبد الرحمن الجمحي، قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠٥٧).

(٣) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤) برقم (١٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٣): «فيه عمر بن هارون وهو ضعيف».

(٤) أخرجه أبو داود (١٥٧٥)، والنسائي (٢٤٤٣)، وحسنه الألباني.

ومثوبته عند ربه.

الثاني: أن من غلب عليه الشح وحب الدنيا ومنع الزكاة، لم يترك وشأنه، بل تؤخذ منه قهرا بسلطان الشرع، وقوة الدولة، وزيد على ذلك فعوقب بأخذ نصف ماله تعزيرا وتأديبا لمن كتم حق الله في ماله، وردعا لغيره أن يسلك سبيله.

وهي عقوبة مفوضة إلى تقدير الإمام، ينفذها حيث يرى تمادي الناس في منع الزكاة، ولم يجد سبيلا لزجرهم غير هذا.

الثالث: إن هذا التشديد في أمر الزكاة إنما هو لرعاية حق الفقراء، والمستحقين الذين فرض الله لهم الزكاة، وأما النبي ﷺ وآله؛ فليس لهم نصيب في هذه الزكاة، ولا يحل لهم منها شيء على خلاف ما عُرف في الصدقات عند اليهود، حيث كان عُشرها مخصصا لآل هارون (اللاويين) الذين كانوا كهانا بالنسل والوراثة، وكان جزء آخر منها يصرف إلى أصحاب المناصب الدينية.

عاقبة تكديس الأموال:

يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**﴾(١) يدخل فيهم أهل الشركات والملايين من الدولارات وغيرها من سائر الأموال ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾(٢) ذوقوا هذا كنزكم، هذه ملايينكم، رأيتم الفقراء، ورأيتم الأمة الضائعة، ورأيتم المحتاجين فما رفعتم ضيما، هذا كنزكم، هذا ما كنتم تكنزون.

يقول ﷺ في صحيح مسلم: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما رُدَّت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها**

(١) التوبة: ٤ .

(٢) التوبة: ٣٤، ٣٥ .

حلبها يوم وِرْدها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحدا تطؤه بأخفافها وتَعَضُّه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئا ليس فيها عَقْصَاء ولا جَلْحاء ولا عَضْبَاء تَنْطَحُه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(١).

هذا كلام المعلم، هذا كلام المعصوم ﷺ، هذا كلام الذي رفع رؤوسنا، والذي أتى بهذه الفريضة يطهرنا بها ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾(٢)، لماذا لا يتطهر الإنسان قبل أن يكون أول ما يحاربه في القبر ماله، وفي الحديث الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مثل له ماله شجاعا أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه ـ يعني: بشدقيه ـ يقول: أنا مالك أنا كنزك**»(٣) هذا الكنز وهذا المال. وعند ابن ماجه والإمام أحمد: أن الصحابة اختلفوا: أي الكنز أحسن؟ أهو الذهب أم هي الفضة أم الإبل أم عروض التجارة؟ فأرسلوا عمر بن الخطاب يسأل رسول الله ﷺ فلما وصل إليه قال: أي الكنز أحسن يا رسول الله؟ قال: «**ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة تعينه على أمر الآخرة**»(٤)، هذا هو الكنز العظيم الذي يكتنزه المسلم لينفعه في ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾ (٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٢) التوبة: ١٠٣ .

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٥)، ومسلم (٩٨٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٨٥٦)، وأحمد (٥ / ٢٨٢)، وصححه الألباني.

(٥) الشعراء: ٨٨، ٨٩ .

حكمة الزكاة:

للزكاة في الإسلام حكم لا يعرفها إلا من اطلع على أسرار هذا الدين منها:

١ ـ أداء الزكاة زكاة للنفس: فهي زكاة للنفس، تزكيها من أوضار البخل، والشح، وترفع قدرها عند الله، وقد وصف ﷺ المتصدق والبخيل برجلين عليهما جبتان من حديد، كلما أنفق المنفق اتسعت الجبة حتى تغطي أثره، وكلما أمسك الممسك ضاقت عليه الجبة حتى تخنقه «**ولله عز وجل مناديان في كل صباح** ـ كما في الصحيح ـ **ملكان الأول يقول: اللهم أعط منفقا خلفا، والآخر يقول: اللهم أعط ممسكا تلفا**»(١)، ومن لا يستفيد من المال في الحياة، فلن يستفيد منه بعد أن يموت، فإما حلال فللورثة، وإما حرام يعذب به حتى يلقى الله ويدخله هذا المال النار، وقد رأينا كثيرا من التجار، وسمعنا أخبارهم أنهم شقوا بمالهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

أما في الحياة فبالاستقراء من أخبارهم، تاجر عنده من التجارات الهائلة ما الله به عليم، حضرته الوفاة في منطقة نائية عن منطقته التي فيها قصوره وأمواله وبساتينه ودوره، فلما توفي في المستشفى النائي تصدق عليه الناس بكفن، هذه نتيجة الملايين.

خذ القناعة من دنياك وارض بها ... لو لم يكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

هكذا هي حياة هؤلاء في الدنيا، وأما بعضهم فقد سعد سعادة بهذا المال ﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾(٢).

كان ابن هبيرة الوزير تاجر مشهور، يفطر كل يوم في رمضان عشرة آلاف صائم، يبني القناطير المنقطرة، يبني المساجد، يبني البرك للحجاج من العراق إلى مكة يشربون ماء باردا، وصل إلى منى يقود الحجاج، وفي اليوم الثامن انقطع الماء

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).
(٢) الليل: ١٧ـ٢١ .

عن الناس، وانتهى الماء، وأصبحوا في أزمة وأشرفوا على الهلاك، فقام هذا الرجل الصالح ـ وكان من أغنى الأمة الإسلامية في عهد دولة بني العباس ـ فرفع يديه، وقال اللهم إنك تعلم أني ما أنفقت أموالي إلا ابتغاء مرضاتك، اللهم إن كنت تعلم أني صادق فأغث الحجاج الآن هذه الساعة.

قال الراوي: فوالله لقد نزل الغيث علينا بمنى وما في السماء قبله سحابة حتى نزل الثلج مع الماء، فأخذ يأكل الثلج ويبكي ويقول: يا ليتني سألت الله المغفرة. هذا صنف من صنف أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان الذين دفعوا أموالهم وأعطوها سخية أنفسهم، نعم هناك من يحتاج بناء مساجد، وهناك مقاطعات ليس فيها مسجد واحد، هناك قوم يحتاجون إلى برك لإيصال الماء النقي الصحي إليهم لا الماء الملوث الذي يحمل البلهارسيا والموت والسم الزعاف، هناك أناس يحتاجون لبناء بيوت تكنهم من المطر وتظلهم من الشمس، هناك أناس يريدون الحاجة الضرورية، يريدون الخبز ـ هذا من حوائجهم الضرورية ـ والأرز والسكر، لا يريدون الكماليات، هناك أناس يريدون اللباس، يتعيد الناس في الألبسة الجديدة والثياب الفاخرة، والواحد منهم يبقى سنة في الثوب الواحد.

٢ ـ الزكاة إنقاذ للنفس يوم القيامة: فأنقذوا هؤلاء، وقدموا لأنفسكم ما تجدونه عند الله، يقول ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل**»(١)، هذا عند الله ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾(٣)، وسوف تكون هناك بعض المسائل في الزكاة وزكاة الحلي والفطر وعروض التجارة، والحبوب والثمار والأنعام والنقدين مجالها في الدروس التي تلقى، نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من كل مكروه.

أيها الناس: صلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة والسلام عليه فقال:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣١)، والنسائي (١٣٧٣)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وصححه الألباني.
(٢) النحل: ٦٩ . (٣) البقرة: ٢٦١ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(١) فقد قال ﷺ فيما صح عنه: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي**»، قالوا كيف تعرض عليك صلاتنا يا رسول الله! وقد أرمت؟ قال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»(٢).

(١) الأحزاب: ٥٦ .

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٣)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وصححه الألباني.

٤ ـ فضل الصدقة والإنفاق

إن الوعد الصادق الحق الذي لا يتخلف موعوده، هو وعد الرحمن الذي وصف به نفسه في محكم التنزيل وهو أصدق القائلين حيث قال سبحانه: ﴿**أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾(١).

وقال جل شأنه: ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾(٢).

ولقد كان مما وعد الله به المؤمنين المنفقين أموالهم في وجوه الخيرات حسن العاقبة بكمال الإخلاف عليهم كفاء البذل والسخاء بمال الله الذي آتاهم إياه، واستخلفهم فيه تفضلا منه ومنا، وجودا وإحسانا وبرا وكرما، فقال عز اسمه: ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾(٣).

أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «**أنفق يا بن آدم أنفق عليك**»(٤)، وكما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**»(٥).

ألا وإن دعاء الملك بالإخلاف على المنفق عام في الدنيا بحصول البركة في المال ونمائه وطيبه وازدياده، وفي الآخرة بحسن الثواب وكريم الجزاء، وأما دعاء

---

(١) يونس: ٥٥. (٢) فاطر: ٥.

(٣) سبأ: ٣٩.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٥٢)، ومسلم (٩٩٣/٣٦).

(٥) سبق تخريجه.

الملك الآخر على الممسك بالتلف فهــو إما بذهاب ذلك المال بعينه، أو بتلف نفس صاحب المال، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها.

وفي الصحيحين أيضا عن أسمــاء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أنفـقي ولا تحصي فـيحـصي الله عليك، ولا توعي فيـوعي الله عليك**»(١)، وهو نهي لها أن تمنع الفـضل من مالها فلا تنفقــه في وجوه الطاعات خشيــة نفاده، فتكون العــاقبة عند ذلك أن يقطع الله عنها مــادة الرزق، ويحجب عنها بركة الإنفاق، وبئست العاقبة.

فضل الإنفاق:

لا يخفى على كل ذي لب، وخــاصة إذا كان خالصــا لله تعالى ورغبة فــيما عنده، والعــاقل يستــفــيد مما أنعم الله بــه عليه من المال ويســتــغل فضل الزمــان (كرمضان) وفـضل المكان (كالبلد الحرام) في التقديم لنفسه من الخــير حتى يجده عند الله تعالى امتثالا لقوله: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(٢).

ومن باب النصيحة والتواصي بالخير جمعت بعض الآيات والأحاديث والآثار والفوائد في فضل الصــدقة والإنفاق، أهديها إلى كل مسلم ومسلمــة علنا نهتدي بهدي القــرآن والسنة في أقوالنا وأعمالنا ، وصلى الله وسلم علــى من كان أجود بالخير من الريح المرسلة، نبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

والإنفاق إخراج المال الطيب في الطاعات والمباحات.

النفقة على العيال والأهل:

مقدرة بالكفــاية، وتختلف باختلاف من يجب له النفقة في مــقدارها، وبهذا قال أبو حنيفــة ومالك، وقال القاضي أبو يعلى من الحنابلة: هي مــقدرة بمقدار لا

---

(١) أخرجه البخاري ٢٥٩١٠)، ومسلم (١٠٢٩).

(٢) المزمل: ٢٠ .

يختلف في القلة والكثرة. وقال ابن علان: النفقة هي سائر المؤن من كسوة ونفقة وسكن على من يعول من زوجة وولد وخادم.

وأما بالنسبة للإنفاق والقرض الحسن، فإن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ قال في معنى قول الله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١)، صدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن معنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن، فيجازى عليه أضعافا مضاعفة؟

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنا، وذلك يجمع أمورا ثلاثة:

أولها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه.

ثانيها: أن يخرجه طيبة به نفسه، ثابتة عند بذله، ابتغاء مرضاة الله.

ثالثها: ألا يمن به ولا يؤذي.

فالأول: يتعلق بالمال.

والثاني: يتعلق بالمنفق بينه وبين الله.

والثالث: بينه وبين الآخذ.

آيات في الإنفاق:

١ ـ ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٢).

٢ ـ ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(٣).

٣ ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴾(٤).

٤ ـ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا

(١) البقرة: ٢٤٥ . (٢) البقرة : ١ـ٣ .
(٣) الأنفال: ٣ . (٤) إبراهيم: ٣١ .

تُنفقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾(١).

٥ ـ ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(٢).

٦ ـ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣).

٧ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(٤).

٨ ـ ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٥).

الأحاديث الواردة في «الإنفاق»:

١ ـ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئا**»(٦).

٢ ـ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة**»(٧).

٣ ـ عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة**»(٨).

---

(١) البقرة: ٢٧٢ . (٢) آل عمران: ٩٢ .
(٣) آل عمران: ١٣٣، ١٣٤ . (٤) سبأ: ٣٩ .
(٥) البقرة: ٢٦١، ٢٦٢ .
(٦) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٠٢٤).
(٧) أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٣).
(٨) أخرجه البخاري (٥٣٥١)، ومسلم (١٠٠٢).

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»(١).

٥ ـ وعنه أيضا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك**»(٢).

٦ ـ وعنه كذلك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»(٣).

٧ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**»(٤).

٨ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب ـ يعني الجنة ـ يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان**»، فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة؟ وقال: هل يُدعى منها كلها أحد يا رسول الله، قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**»(٥).

٩ ـ وعن خُرَيْم بن فاتك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من**

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤). (٢) أخرجه مسلم (٩٩٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).
(٤) سبق تخريجه. (٥) أخرجه البخاري (٣٦٦٦).

أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف»(١).

١٠ ـ وعن عائشة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ: إني أمي افتلتت ـ أي ماتت فلتة أي فجاءة ـ نفسها وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «**نعم**»(٢).

١١ ـ وعن سلمان بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة**»(٣).

١٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: «**أن تَصدَّقَ وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا وفلان كذا وقد كان لفلان**»(٤).

١٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى، ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة، فقال: «**أيها الناس تصدقوا**»، فمر على النساء فقال: «**يا معشر النساء تصدقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»، فقلن: وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء**»، ثم انصرف فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه، فقيل: يا رسول الله، هذه زينب فقال: «**أي الزيانب؟**» فقيل: امرأة ابن مسعود، قال: «**نعم، ائذنوا لها**»، فأُذن لها، قالت: يا نبي الله إني أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حُلي لي فأردت أن أتصدق بها، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: «**صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم**»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٢٥)، وقال: (حسن)، والنسائي (٣١٨٦)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).
(٣) أخرجه النسائي (٢٥٨٢)، وابن ماجه (١٨٤٤)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).
(٥) أخرجه البخاري (١٤٦٢)، ومسلم (١٠٠٠).

١٤ ـ عن أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «**يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق**»، قال: قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يعين ذا الحاجة الملهوف**»، قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «**يأمر بالمعروف أو الخير**»، قال: أرأيت إن لم يفعل؟، قال: «**يمسك عن الشر فإنها صدقة**»(١).

١٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس**»، قال: « **تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٢).

١٦ ـ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما تصدق أحد بصدقة من طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يُربِّي أحدكم فلوه أو فصيله**»(٣).

١٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة»(٤).

ومن أقوال المفسرين في فضل الإنفاق في سبيل الله: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى: النفقة تعم الواجبات والمندوبات، لكن الممسك عن المندوبات لا يستحق دعاء الملك (اللهم أعط منفقا خلفا) إلا أن يغلب عليه البخل المذموم بحيث لا تطيب نفسه بإخراج الحق الذي عليه لو أخرجه.

وقال النووي ـ رحمه الله تعالى: «الإنفاق الممدوح ما كان في الطاعات على

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٤). (٤) أخرجه البخاري (٤٩٩٧).

العيال، والضيفان، والتطوعات»[(١)].

فوائد الزكاة والصدقة:

قد فرض الله على المؤمنين ذوي الأموال الزكوية زكاة تدفع للمحتاجين منهم، وللمصالح العامة النفع كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[(٢)].

وفي القرآن آيات كثيرة في الأمر بإيتاء الزكاة والنفقة مما رزق الله والثناء على المنفقين والمتصدقين وذكر ثوابهم، وتواترت بذلك كله الأحاديث عن النبي ﷺ وبين ما تجب فيه الزكاة من المواشي والحبوب والثمار والنقود والأموال المعدة للتجارة، وذكر أنصابها ومقدار الواجب منها وذكر الوعيد الشديد على مانعها، واتفق المسلمون على نقصان إيمان تاركها ودينه وإسلامه، وإنما اختلفوا هل يكفر تاركها أم لا، وذلك لما في الزكاة والصدقة والإحسان من الفوائد الضرورية والكمالية والدينية والدنيوية، فمنها أنها من أعظم شعائر الدين وأكبر براهين الإيمان، فإنه قال: «**والصدقة برهان**»[(٣)]، أي على إيمان صاحبها ودينه ومحبته لله إذا سخى لله بماله المحبوب للنفوس.

ومنها أنها تزكي وتنمى المعْطِي والمعْطَى له والمال الذي أخرجت منه:

أما تزكيتها للمعطي فإنها تزكي أخلاقه وتطهره من الشح والبخل والأخلاق الرذيلة، وتنمي أخلاقه فيتصف بأوصاف الكرماء المحسنين الشاكرين فإنها من أعظم الشكر لله، والشكر معه المزيد دائما، وتنمي أيضا أجره وثوابه، وإخلاصه ونفعها ووقوعها موقعها، وهي تشرح الصدر وتفرح النفس وتدفع عن العبد من البلايا والأسقام شيئا كثيرا، فكم جلبت من نعمة دينية ودنيوية، وكم دفعت من نقم ومكاره وأسقام، وكم خففت الآلام، وكم أزالت من عداوات وجلبت مودة وصداقات، وكم تسببت لأدعية مستجابة من قلوب صادقات!!

---

(١) دليل الفالحين (٢ / ١٢١). (٢) التوبة: ٦ .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٨٥) (٨٩١١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١/ ١٢٦): « رواه الطبراني وإسناده جيد».

وهي أيضا تنمي المال المخرج منه، فإنها تقيه الآفـات وتحل فيه البركة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1]، وفي الصحيحين عنه أنه قال: «**ما من صباح يوم إلا وينزل ملكان يقـول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**»[2]، والتجربة تشهد بذلك، فلا تكاد تجد مـؤمنا يخرج الزكاة وينفق النفـقات في محلها إلا وقـد صب الله عليه الرزق صبا، وأنزل له البركة ويسر له أسباب الرزق.

وأما نفعها للمعطى له فإن الله قد أمر بدفعها للمحتاجين من الفقراء والمساكين والغارمين وفي الرقاب وللمـصالح التي يحتاج المسلمون إليهـا، فمتى وضعت في محلهـا اندفعت الحاجـات والضرورات واستغنى الفـقراء أو خف فقـرهم وقامت المصالـح النافعة الـعمومـية، فـأي فائدة أعظم من ذلك وأجل، فلو أن الأغـنياء أخرجوا زكاة أموالهم ووضعت في محلها لقامت المصالح الدينية والدنيوية وزالت الضرورات وانـدفعت شرور الـفقراء، وكـان ذلك أعظم حاجـز وسد يمنع عـبث المفسـدين، ولهذا كانت الزكـاة من أعظم محاسـن الإسلام لما اشتـملت عليه من جلب المصالح والمنافع ودفع المضار .

فوائد الإنفاق في سبيل الله:

١ ـ الإنفاق من كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٢ ـ دليل حسن الظن بالله والثقة به.

٣ ـ أداء شكر نعمـة الله ـ عز وجل ـ بالمال؛ إذ إن المالك على الحقيـقة هو الله ـ عز وجل.

٤ ـ سبب نيل حب الله ـ عز وجل ـ وحب الخلق.

٥ ـ تقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأمة.

٦ ـ مواساة الفقراء والمحتاجين وسد حاجة المعوزين.

٧ ـ الإسهام في حل مشكلة الفقر التي أعجزت العالم المعاصر.

٨ ـ إشاعة التراحم والتواد في المجتمع بدلا من الشحناء والبغضاء.

---

(١) سبأ: ٣٩ .

(٢) سبق تخريجه.

٩ ـ تزكية النفس وتطهيرها بإخراج الشح منها.

١٠ ـ الإنفاق سبب بركة المال ونمائه ووقاية الإنسان من المصائب والبلايا.

١١ ـ الإنفاق طريق موصل إلى الجنة.

١٢ ـ الإنفاق يجعل لصاحبه مكانة اجتماعية مرموقة.

١٣ ـ الإنفاق يدعم الروابط الأسرية ويقوي الصلات بين أفراد المجتمع.

١٤ ـ الإنفاق يكفر فتنة الرجل في أهله وجاره.

١٥ ـ المنفق يستظل بظل الله ـ عز وجل ـ يوم لا ظل إلا ظله.

١٦ ـ الإنفاق دليل الطبع السليم والأريحية الكريمة ومدعاة لنصرة الله ـ عز وجل.

٥ ـ رمضان فرصة للتغيير

الأيام تمر مر السحاب، وتمضي السنون سراعا، وجلنا في غمرة الحياة ساهون، وقل من يتذكر أو يتدبر واقعنا ومصيرنا مع أننا نقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾(١).

والمسلم في عمره المحدود وأيامه القصيرة في الحياة قد عوضه الله تعالى بمواسم الخير، وأعطاه من شرف الزمان والمكان ما يستطيع أن يعوض أي تقصير في حياته إذا وفق لاستغلالها والعمل فيها، ومن تلك المواسم: شهر رمضان المبارك.

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢).

«إنه نداء رباني حبيب لعباده المؤمنين، يذكرهم بحقيقتهم الأصيلة، ثم يقرر بعد ذلك النداء: أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين، وأن الغاية الأولى هي إعداد القلوب للتقوى والخشية من الله، هكذا تبرز الغاية الكبرى من الصوم، والتقوى هي التي توقظ القلوب لتؤدي هذه الفريضة طاعة لله وإيثار لرضاه.

والمخاطبون بهذا القرآن من الرعيل الأول ومن تبعهم بإحسان يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها وطريق موصل إليها»(٣).

ولهذا الشهر الكريم من الخصائص التي ميزه الله بها دون غيره من الشهور، مما يساعد على أن يكون فرصة لزيادة معدلات التغيير والتصحيح في حياة كل فرد، بل في حياة الأمة جمعاء.

فشهر رمضان شهر كريم، ورد ذكره في القرآن، وخصه الله سبحانه وتعالى

(١) الفرقان: ٦٢ . (٢) البقرة: ١٨٣ .
(٣) الظلال (١/ ١٤٠).

بعبادة عظيمة القدر، عظيمة الأجر، فيها ليلة عظيمة شريفة، نزل فيها أشرف الملائكة على أشرف الخلق بأشرف كتاب: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)**﴾(١).

شهر رمضان، شهر القرآن، شهر الصيام: قال الله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾(٢).

إن مقدار الأجر الذي قد يفوت الإنسان من ترك صيام هذا الشهر كبير، ففي الحديث القدسي قال الله سبحانه وتعالى: «**كلُّ عَمَل ابن آدمَ لهُ إلا الصيام فإنه لي وأَنَا أجْزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكُم فلا يرفُثْ ولا يصْخَبْ، فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتلهُ فليقل: إني امرُؤٌ صائم، والذي نفسُ مُحمد بيده، لخُلُوفُ فمِ الصَّائم أطيبُ عندَ الله من ريح المسْكِ، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه**»(٣).

في هذا الشهر يمن الله على عباده بأسر ألد أعدائه له، الشيطان، فيصبح العبد مقبلا على طاعة ربه من غير صادٍّ يمنعه عن الخير غير النفس الأمارة بالسوء، فإن زكى هذه النفس فقد أفلح وأنجح، ومن أتبعها شهواته فقد خاب وخسر، فعن أبي هُريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخَلَ رَمضانُ فُتِّحَتْ أبْوَابُ الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وسُلسلت الشياطين**»(٤).

ومع تسهيل الرب ـ عز وجل ـ لنا سبل الطاعات، نرى أن الرسول ﷺ يرغبنا في الإكثار من الباقيات الصالحات بقوله وفعله، فكما ورد في صحيح البخاري فيما يرويه عنه حبر هذه الأمة وابن عمه ابن عباس رضي الله عنه فيقول: كان رسول الله ﷺ أجودَ الناسِ، وكان أجود ما يكونُ في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن، فلرسول الله

(١) القدر: ١ـ٥. (٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩).

ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(١).

أخي المسلم، يبعث الله في أول ليلة من هذا الشهر المبارك مناديا ينادي ويرشد إلى ما يحبه الله ويرضاه كما جاء في الترمذي عن أبي هريرة # قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يُفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبلْ، ويا باغي الشرِّ أقصِرْ. ولله عُتقاءُ من النار، وذلك كل ليلة**»(٢).

ولا يسعنا إلا أن نذكِّر الإخوة الكرام أن أحد أبواب الجنة الثمانية قد خصه الله بالصائمين فقط لا يدخله غيرهم، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريَّان لا يدخله إلا الصائمون**»(٣).

وأذكر بأن هناك ثلاث غنائم قد خصها الله تعالى لطائفة من الناس في هذا الشهر الكريم، هذه الطائفة قد بينها لنا رسول الله ﷺ في أحاديث ثلاثة متفق على صحتها فقد رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٤).

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «**من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٥).

وأخيرا عنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يقم ليلة القدر إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٦).

فهذه الطائفة هي من صام أو قام رمضان أو قام ليلة القدر إيمانا بالله مخلصا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٧).
(٤) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).
(٥) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).
(٦) أخرجه البخاري (٣٥)، ومسلم (٧٦٠).

له العمل والنية، واحتسابا للأجر عند الله بهذا العمل، هذه الطائفة هي التي تغنم بغفران ما سبق لها من المعاصي والذنوب في الماضي، فيخرج المؤمن المحتسب من رمضان كحال المولود الجديد في هذه الدنيا.

ومع ما سبق ذكره يجب أن نعلم أن رمضان مدرسة تربوية، يتدرب فيها المسلم المؤمن على تقوية الإرادة في الوقوف عند حدود ربه، والتسليم لحكمه، وتنفيذ أوامره وشريعته، وضبط جوارحه كلها عما لا يجوز فعله؛ لينجح من هذه المدرسة حقا، ويخرج ظافرا من جهاده لنفسه، موفرا مواهبه الإنسانية وطاقاته المادية والمعنوية لجهاد أعدائه.

فحري بهذا الشهر أن يكون فرصة ذهبية، للوقوف مع النفس ومحاسبتها لتصحيح ما فات، واستدراك ما هو آت، قبل أن تحل الزفرات، وتبدأ الآهات، وتشتد السكرات.

فلنتذاكر جميعا ونتساءل: هل يمكننا أن نغير من أحوالنا، ونحسن من أوضاعنا، فنفكر في مآلنا ومصيرنا بعد فراق حياتنا، فنمهد لأنفسنا قبل عثرة القدم، وكثرة الندم، فنتزود ليوم التناد بكامل الاستعداد؟!

لماذا رمضان؟!

١ ـ لأن رمضان موسم البضاعة الرابحة، ولما حباه الله من المميزات، فهو بحق مدرسة لإعداد الرجال وهو بصدق جامعة لتخريج الأبطال.

٢ ـ ولما يسر الله تعالى فيه من أسباب الخيرات، وفعل الطاعات، فالنفوس فيه مقبلة، والقلوب إليه والهة.

٣ ـ ولأن رمضان تصفد فيه مردة الشياطين، فلا يصلون إلى ما كانوا يصلون إليه في غير رمضان.

٤ ـ وفي رمضان تفتح أبواب الجنان، وتغلق أبواب النيران، ولله في كل ليلة من رمضان عتقاء من النار.

٥ ـ وفي رمضان ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فما أعظمها من بشارة، لو تأملناها بوعي وإدراك؛ لوجدتنا مسارعين إلى الخيرات، متنافسين في

القربات، هاجرين للموبقات، تاركين للشهوات.

٦ ـ ورمضان فرصة للتغيير . . . لما حصل فيه من الأحداث التي غيرت مسار التاريخ، فنقلت الأمة من مواقع الغبراء، إلى مواكب الجوزاء، ورفعتها من مؤخرة الركب، لتكون في محل الصدارة والريادة:

أ ـ ففي معركة بدر الكبرى التقى جيش محمد ﷺ، وجيش الكفر بقيادة أبي جهل في السنة الثانية من الهجرة في اليوم السابع عشر من رمضان، وانتصر فيها جيش الإيمان على جيش الطغيان، ومن تلك المعركة بدأ نجم الإسلام في صعود، ونجم الكفر في أفول، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(١).

ب ـ وفي السنة الثامنة، وفي شهر رمضان، كان الفتح العظيم الذي أعز الله به دينه، ورسوله، وجنده، واستنقذ به بلده وبيته من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، ودخل الناس به في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا.

جـ ـ وفي سنة ستمائة وثمان وخمسين، فعل التتار بأهل الشام مقتلة عظيمة، وتشرد من المسلمين من تشرد، وخربت الديار، فقام الملك المظفر قطز، بتجهيز الجيوش، لقتال التتار، حتى حان اللقاء في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وأمر ألا يقاتلوا حتى تزول الشمس، ويدعو الخطباء والناس في صلاتهم، ثم تقابل الصفان، واقتتل الجيشان، وحصلت معركة عظيمة، سالت فيها دماء، وتقطعت أشلاء، ثم صارت الدائرة على القوم الكافرين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

كل هذه الأسباب جعلتنا نوقن بأن رمضان فرصة سانحة، وغنيمة جاهزة، لمن أراد التغيير في حياته، فالأسباب مهيأة، وما بقي إلا العزيمة الصادقة، والصحبة الصالحة، والاستعانة بالله في أن يوفقك للخير والهداية.

رمضانُ أقبل قم بنا يا صاح ... هـذا أوان تبتل وصلاح

---

(١) آل عمران: ١٢٣ .

واغنم ثواب صيامه وقيامه تسعد بخير دائم وفلاح

رمضان فرصة الجميع للتغيير:

١ ـ ليصبح العبد من المتقين الأخيار: يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(١)، فقوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ تعليل لفرضية الصيام؛ ببيان فائدته الكبرى، وحكمته العظمى، وهي تقوى الله، والتقوى: حساسية في الضمير، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتَوَقٍّ لأشواك الطريق؛ طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الفتن والموبقات، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة الرجاء، وأشواك الخوف الكاذب ممن لا يملك نفعا ولا ضرا، وعشرات غيرها من الأشواك.

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

هذا هو مفهوم التقوى، فإذا لم تتضح لك بعد، فاسمع إلى علي رضي الله عنه وهو يعبر عن التقوى بقوله: «هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل». هذه حقيقة التقوى، وهذا مفهومها .. فأين نحن من هذه المعاني المشرقة المضيئة؟

يوم عُمرت قلوب السلف بالتقوى، جمعهم الله بعد فرقة، وأعزهم بعد ذلة، وفُتحت لهم البلاد، كل ذلك تحقيقا لموعود الله: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(٢).

فليكن هذا الشهر بداية للباس التقوى؛ وهو خير لباس: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**﴾(٣).

---

(١) البقرة: ١٨٣. (٢) الأعراف: ٩٦.
(٣) القمر: ٥٤، ٥٥.

٢ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** .. لمن كان مفرطا في صلاته: فلا يصليها مطلقا، أو يؤخرها عن وقتها، أو يتخلف عن أدائها جماعة في المسجد، ليعلم المتهاون في صلاته، أنه يرتكب خطأ مهلكا، وإن لم يتدارك نفسه؛ فهو آيل إلى عذاب مخيف، جاء في الحديث عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الرؤيا قال: «**أما الذي يُثلغ رأسه بالحجر فإنه يأخذُ القرآن فيرفضُهُ وينام عن الصلاة المكتوبة**»(١).

إني أدعوك بكل شفقة وإخلاص، في مثل هذ الشهر المبارك إلى إعادة النظر في واقعك، ومُجريات حياتك، أدعوك إلى مراجعة نفسك، وتأمل أوضاعك قبل فوات الأوان، إني أنصحك ألا تخدعك المظاهر، ولا يغرك ما أنت فيه، من الصحة والعافية، والشباب والقوة، فالصحة سيعقبها السقم، والشباب يلاحقه الهرم، والقوة آيلة إلى الضعف، فاستيقظ يا هذا من غفلتك، فالحياة قصيرة وإن طالت، والفرحة ذاهبة وإن دامت، واجعل من رمضان فرصة للمحافظة على هذه الصلاة العظيمة، فقد وفقك الله للصلاة مع الجماعة، وإلف المساجد، وعمارتها بالذكر والتسبيح، فاستعن بالله، واعزم من الآن أن يكون هذا الشهر المبارك بداية للمحافظة على الصلاة، والتبكير إليها، يقول تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ** ﴾(٢).

٣ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** .. لمن ابتلي بتعاطي الحرام: من خمر ومخدرات، أو دخان ومسكرات، ألا يفعل بعد إفطاره ما يخل بهذه العزيمة القوية، أو يوهنها، أو يقلل من شأنها، تلك العزيمة التي جعلته يمسك طوال ساعات النهار،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٣). (٢) المعارج: ٢٣ـ٣٥ .

فما أحزمه لو استغل شهر الصيام كمدرسة يتدرب بها على هجر ما يكرهه هو، أو يكرهه الشارع، من مألوفاته التي اعتاد أكلها، أو شربها، أو مقاربتها.

أخي الصائم: إني أشجع فيك إيمانك ويقينك بالله، الذي جعلك تمتنع عن تعاطي هذه السموم في وقت الصيام، وإلا فمن من الناس يعلم أنك صائم أو لا؟! ولكن شعورك بنظر الله إليك، ومراقبته لك، صرفك عن تعاطي الحرام في وقت الصيام، فالإرادة التي استطاعت أن تصوم لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، أتعجز عن مواصلة مسيرتها الإصلاحية؟! والعزيمة التي صمدت عن تعاطي هذا البلاء، لهذه الفترة الطويلة أثناء النهار . . أتنهار في آخر لحظات الإسفار، وإرخاء الليل الستار؟! أين الهمة التي لا تقف أمامها الجبال الشامخات؟ وأين العزيمة؟ استعن بالله ـ تعالى ـ على ترك هذا البلاء، فالنصر صبر ساعة، والفرج قريب، وإن الله مع الصابرين.

٤ ـ ورمضان فرصة للتغيير .. لمن كان مقصرا في نوافل العبادات: فيغير من حاله، ففي رمضان تتهيأ النفوس، وتقبل القلوب، فينتهز هذه الفرصة، فيحافظ على شيء منها، فهي مكملة لفرائضه، متممة لها، قال ﷺ: «**إن أول ما يُحاسَبُ بِهِ العبدُ المسلم يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم يُفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك**»(١).

وأقل الوتر ركعة، وأقل الضحى ركعتان، وعدد السنن الرواتب ثنتا عشرة ركعة، ركعتان قبل الفجر، وأربع ركعات قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، يقول ﷺ: «**ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير فريضة إلا بنى الله له بيتا في الجنة أو إلا بُني له بيت في الجنة**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٤٦٤)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٨).

ولماذا لا تجعل من رمضان فرصة؛ لأن يكون لك أيام تصومها لله رب العالمين؛ فمن صام يوما في سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفا، فهذه ستة من شوال، ويوم عاشوراء، وعرفة، وصوم الاثنين والخمس، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

فبادر شبابك قبل هرمك .. وصحتك قبل سقمك.. وحياتك قبل موتك.. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ... ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»(١).

٥ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** .. لمن هجر القرآن قراءة وتدبرا، وحفظا وعملا: أن يكون هذا الشهر بداية للتغيير، فترتب لنفسك جزءا من القرآن، لا تنفك عنه بأي حال من الأحوال، ولا تنس الفضل الجزيل لمن قرأ كلام الله، يقول النبي ﷺ: «**من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢).

ومن المفارقة العجيبة، أن يدرك أعداؤنا من عظمة هذا القرآن ما لا ندركه، وأن يعملوا جاهدين على طمس معالمه، ومحو آثاره في العباد والبلاد؛ لخوفهم الشديد من عودة الأمة إلى هذا القرآن الذي يؤثر في النفوس، ويحييها، ويبعث فيها العزة والكرامة، يقول غلادستون: «مادام هذا القرآن موجودا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان، وكان نشيد جيوش الاستعمار، كان نشيدهم: أنا ذاهب لسحق الأمة الملعونة، لأحارب الديانة الإسلامية، ولأمحو القرآن بكل قوتي». فما موقفك أنت يرعاك الله؟ أدع الإجابة لك، وأسأل الله أن يوفقك للخير وفعله.

٦ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** ... للمرأة المسلمة: التي أصبح حجابها مهلهلا، وعباءتها مطرزة، وثيابها فاتنة، وعطرها يفوح، وفي كل يوم إلى الأسواق تروح.. قال ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت فمرت بقوم ليجدوا ريحها فهي**

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).
(٢) أخرجه الترمذي (٩١٠)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني.

زانية»(١).

فليكن ـ يا أخية ـ رمضان فرصة لأن تربي نفسك على البقاء في المنزل، وعدم الخروج منه إلا لحاجة ماسة، وبضوابط الخروج الشرعية، وليكن رمضان فرصة لضبط النفس في قضايا اللباس، والموضة والاعتدال فيهما، بدون إفراط ولا تفريط، وليكن رمضان فرصة للحفاظ على الحجاب الشرعي؛ طاعة لله، وإغاظة للشيطان وحزبه.

٧ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** .. للرجل والفتاة اللذين عبثا بالهاتف طويلا: تلاعبا بالمشاعر والعواطف، وقد تكون البداية قضاء وقت فراغ، ثم يستدرجهما الشيطان للوقوع في الفاحشة البغيضة، فتقع المصيبة، وينكسر الزجاج فأنى له أن يعود مرة أخرى! فاتق الله أيها الشاب، واتقي الله أيتها الفتاة، وليكن رمضان فرصة لتغيير المسار، والابتعاد عن الأخطار، وهتك الأعراض.

٨ ـ **ورمضان فرصة للتغيير**.. لمن تعود على حياة المترفين، ونشأ على حب الدعة واللين: أن يأخذ من رمضان درسا في تربية النفس على المجاهدة والخشونة في أمر الحياة، فربما تسلب النعمة، وتحل النقمة.

٩ ـ **ورمضان فرصة للتغيير** .. لمن كان يتابع الأكلات، ويتتبع المطاعم، فيوم هنا، ويوم هناك، حتى أصبح بطنه هو شغله الشاغل، ولم نخلق من أجل أن نسعد بطوننا، والطعام وسيلة لا غاية، فافهم هذا حتى تبلغ الغاية، وقلة الطعام توجب رقة القلب وقوة الفهم، وانكسار النفس، وضعف الهوى والغضب، وكثرة الطعام يوجب ضد ذلك.

فعن عمرو بن قيس قال: «إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب».

وعن سلمة بن سعيد قال: «إن كان الرجل ليعير بالبطنة كما يعير بالذنب يعمله».

وعن مالك بن دينار قال: «ما ينبغي للمؤمن أن يكون بطنه أكبر همه، وأن

(١) أخرجه أبو داود (٤١٧٣)، والترمذي (٢٧٨٦)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٥١٤١)، وحسنه الألباني.

تكون شهوته هي الغالبة عليه».

فليكن هذا الشهر المبارك بداية للتقلل من الطعام والاستمرار على ذلك على الدوام.

١٠ ـ ورمضان فرصة للتغيير من أخلاقنا: فمن جبل على الأنانية والشح، وفقدان روح الشعور بالجسد الواحد، فشهر الصوم مدرسة عملية له، وهو أوقع في نفس الإنسان من نصح الناصح؛ لأنه تذكير يسمعه ويتلقنه من صوت بطنه إذا جاع، وأمعائه إذا خلت، وكبده إذا احترت من العطش، يحصل له من ذلك تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، وحاجة المحتاجين، فتسمح نفسه بأداء حق الله إليهم، وقد يجود عليهم بزيادة ، فشهر الصيام شهر الجود والمواساة.

فرمضان مدرسة للقضاء على صفة الأنانية والشح، ومن ثم الشعور بالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، قال ﷺ : «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١).

١١ ـ ورمضان فرصة للتغيير ... لمن كان قليل الصبر، سريع الغضب، أن يتعلم منه الصبر والأناة: فأنت الآن تصبر على الجوع والعطش، والتعب ساعات طويلة، ألا يمكنك ـ أيضا ـ أن تعود نفسك من خلال شهر الصبر: الصبر على الناس وتصرفاتهم وأخلاقهم، وما يفعلونه تجاهك من أخطاء، وليكن شعارك الدائم: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٢)، وقول النبي ﷺ: «**من كظم غيظا وهو قادر على أن يُنفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيره من أي الحور شاء**»(٣)، فليكن هذا الشهر بداية لأن يكون الصبر شعارنا، والحلم والأناة دثارنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) آل عمران: ١٣٤ .

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤١٨٦)، وصححه الألباني.

١٢ ـ ورمضان فرصة للتغيير .. لمن كان يأكل الحرام: من خلال أكل الربا، أو التلاعب في البيع والشراء، أو بيع المحرمات من دخان ومجلات فاسدة، ومعسل وجراك، أو بيع العباءات والنقابات المحرمة، أو الملابس الفاضحة من بناطيل نسائية، أو أشرطة غنائية، أو أشرطة فيديو، أو الأطباق السوداء؛ أن يغير من حاله، وأن يبدل من شأنه، وأن يدع أكل الحرام. فإن الله تعالى يحاسب على النقير والقطمير، فحذار أن تزل قدم بعد ثبوتها!!

وهل يسرك أن أهل الإيمان يرفعون أيديهم في صلاة التراويح يدعون الله، ويستغيثون به، ويسألونه من فضله، ويستجاب لهم .. وأنت ترد عليك دعوتك؟! فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين** فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾(١)، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ... ﴾»(٢) ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك(٣).

وتذكر أنه لن ينفعك أن الناس فعلوا، أو أنهم يريدون ذلك، فكل واحد منا سيقف بين يدي الواحد القهار، ويسأله عن أعماله وأقواله الصغار والكبار .. فمن سيقف معك في ذلك الموقف العصيب؟

١٣ ـ ورمضان فرصة للتغيير.. للكتاب الذين تأثروا بعدوهم: فنقول لهم: إن رمضان فرصة لهم للتغيير، فالكلمة أمانة، إنها مسؤولية .. نعم لمسؤولية الكلمة، لا لحرية الكلمة المتجردة من تعاليم ديننا، وخليق بأدبائنا وشعرائنا أن يتفق أدبهم مع أدب دينهم، وحري بالصحافة المسلمة أن تربأ بما ينشر على صفحاتها عما يتنافى مع عقيدتنا الإسلامية وتراثنا. قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾(٤).

---

(١) المؤمنون: ٥١ .
(٢) البقرة: ١٧٢ .
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٥).
(٤) الإسراء: ٣٦ .

١٤ ـ ورمضان فرصة للتغيير ... للدعاة الذين فترت همتهم، وضعفت غيرتهم: فيستيقظوا من رقدتهم، وينتهزوا فرصتهم، بدعوة الناس إلى ربهم، والذهاب إلى أماكن تواجدهم وتجمعهم؛ لتذكيرهم بالله، وتخويفهم من ناره وجحيمه، وترغيبهم بجنته ونعيمه، والتفكير الجاد لمعرفة الأساليب المناسبة للإصلاح، وليتذكر الدعاة إلى الله فضل الدعوة إلى الله، والسهر من أجلها، والتفاني لها، وجزاء من تاب على أيديهم، يقول النبي ﷺ: «**لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»(١).

وليكن شهر رمضان محطة روحية تبعث فينا روح الجدية، فيعد الداعية عدته، ويأخذ أهبته، فيكون دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدا، إن دعي أجاب، أو نودي لبى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجده ولعبه لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له!!

١٥ ـ ورمضان فرصة للتغيير .. لمن كان مذنبا ومسرفا على نفسه بالخطايا والموبقات: فإذا به يسمع الأغنيات بأصوات المغنين والمغنيات، ويشاهد القنوات بصورها الفاضحات، ويعاكس الفتيات، ويسهر على الموبقات، ويعاقر المنكرات، أن يسارع إلى الإنابة، ويبادر إلى الاستقامة، قبل زوال النعم، وحلول النقم، فهنالك لا تقال العثرات، ولا تستدرك الزلات ﴿ ... **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(٢)، ويكفي التائبين شرفا أن الله تعالى قال: ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾(٣).

وفي الختام..

آن لثياب العصيان أن تخلع في رمضان، ليُلبس الله العبد ثياب الرضوان، وليجود عليه بتوبة تمحو ما كان من الذنب والبهتان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، وعلى آله وأصحابه، وعلى من سار على نهجهم، واقتفى أثرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) واللفظ للبخاري.
(٢) النور: ٣١ . (٣) البقرة: ٢٢١ .

٦ ـ كلمات في عيد الفطر

أيها المسلمون: هذا يــوم العيد، هذا يوم التكبير، زينة أعـيادنا نحن المسلمين التكبير، فالله أكبــر الله أكبر الله، أكبر الله أكبر الله، أكبــر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

الله أكبر شعار المسلمين، يدخل المســلم صلاته في كل يوم خمس مرات بهذه الكلمة العظيمة: الله أكبر، يؤذن للصلاة كل يوم خمس مرات، ويفتتح أذانه بهذه الكلمة: الله أكبر الله أكبر، يقيم لصلاته كل يوم خمس مرات، يفتتح إقامته بهذه الكلمة: الله أكبر الله أكبر، إذا ذبح المسلم ذبيحة، سمي الله وكبر: بسم الله والله أكبر.

الله أكبر هي شعار المسلم في كل حين، إذا دخل المسلم معركة كانت الصيحة التي تملأ قلوب الأعداء فزعا وخوفا، هي صيحة: الله أكبر الله أكبر.

الله أكبر هي زينة العــيد، فكبروا لله، وقولوا: الله أكبــر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد.

أيهــا الإخوة المسلمــون: هذا يوم العــيد، هذا يوم عــيد الفطر، وللمــسلمين عيــدان: عيد الفطر، وعــيد الأضحى، وكل عــيد يأتي بعــد عبادة من العــبادات الكبرى، وبعد فريضة من الفرائض العظمى، عيد الأضحى يأتي بعد الحج، وعيد الفطر يأتي بعــد الصــيــام ﴿ ... **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾(١).

جاء هذا العيد، ليفرح فيه المؤمنون بتوفيق الله، و«**للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فــرح بصومه**»(٢)، إذا أفطر كل يوم فرح، وإذا أفطر بعد الفراغ من رمضــان فرح فرحة أخرى، هي فرحة التــوفيق لطاعة الله عز وجل، هي أن الله سبحــانه وتعالى أنعم عليه بنعمــة الصيام والقيام، وجــاء العيد متمما لهذه النعمة، وفيه يفرح المؤمنون بتوفيق الله: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ**

---

(١) البقرة: ١٨٤ .
(٢) أخرجه مسلم (١١٥١).

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١).

ومن شكر نعمة الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده، بل يجتهد أن يشرك معه الفقراء والمساكين من عباد الله، ولهذا فرض الإسلام زكاة الفطر من رمضان، يؤديها المسلم عن نفسه وعمن يمونه ويلي عليه من زوجة وأولاد، وهي مقدار يسير يجب على من يملكه فاضلا عن قوت يوم العيد وليلته ولو لم يكن مالكا للنصاب عند جمهور العلماء. فقد أراد الإسلام أن يعود المسلم العطاء والإنفاق في السراء والضراء، وأن تكون يده عليا يوما، فهو يعطي وإن كان فقيرا، وقد يعطي الصدقة من ناحية، وتجيئه ـ لفقره ـ صدقات من ناحية أخرى، وفي الأثر: «... **أما غنيكم فيزكيه الله، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى**».

والمسلم يطلب المسكين في هذا اليوم ويوصل إليه الصدقة في مكانه، كما جاء: «**أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم**»(٢).

أيها الإخوة: يوم العيد أشبه بيوم الوعيد، أشبه بيوم القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ**﴾(٣).

أما المستبشرون الفرحون، فأولئك الذين أتم الله عليهم نعمة الصيام والقيام، فهم في هذا اليوم يفرحون وحق لهم أن يفرحوا. وأما الوجوه التي عليها غبرة، ترهقها قترة، فوجوه أولئك الذين لم يقدروا نعمة الله، ولم يمتثلوا لأمر الله في الصيام والقيام، فيا ويلهم ثم يا ويلهم: ﴿**فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥)**﴾(٤).

أيها الإخوة المسلمون: هذا يوم عيدنا، يوم العيد ليس يوم انفلات ولا انطلاق للشهوات، بعض الملل والنحل عيدها عيد شهوات، عيد إباحية ولذات،

---

(١) يونس: ٥٨ .

(٢) أخرجه البيهقي (٤/ ١٧٥)، والدارقطني (٢/ ١٥٢) (٦٧) وضعفه ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ٦٢٠) وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٣/ ٣٣٢).

(٣) عبس: ٣٨ـ٤١ .

(٤) القيامة: ٣١ ـ ٣٥.

ولكن عيـد المسلمين يبدأ بالتكبيـر ويبدأ بالصلاة، فـيه المعنى الرباني، فيـه معنى الصلة بالله عز وجل، فأول شيء في يومنا هو التكبير، وثاني شيء هو الصلاة.

العيد ليس معناه انطلاقا من كل قيـد، لا، وليس العيد قطعا للصلة بالله عز وجل، إن بعض الناس يظنون انـقضـاء رمضـان، هو انقـضاء العـهـد بالمساجـد والجماعـات والصلوات والطاعات، لا . . لا يا إخواننا . . . لا، من كـان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

إن رمضـان موسم المتقين، ومـتجر الصـالحين، والتاجر يضـاعف نشاطه في الموسم، ولكنه لا يغلق دكانه بعد الموسم. إن رمضـان موسم نشحن فيه بطاريات القلوب بمعاني الإيمان والتقى، والرغبة فـيما عند الله، والإقبال على ما عند الله. وعلامة القبول في رمضان، أن يظل الإنسـان موصولا بحبل الله بعد رمضان، ألا يقطع الود بينه وبين ربـه، وقد كـان بعض السلف يقـولون: بئس القوم قـوم لا يعرفون الله إلا في رمضان، كن ربانيا ولا تكن رمضانيا.

لا تكن إنسانا مـوسميا يعـرف الله شهرا في العـام، ثم بعد ذلك تنقطع عن طاعة الله، وعن عبادة الله.

من كان قد قبل صيامه، وقبل قـيامه، فلذلك علامة، علامة هذا أن نجد أثر ذلك بعد رمضان: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(١).

فمن عـلامة قبول الحسـنة، ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها، ومن عـقوبة السيئة: السيئة بعدها.

فيـا أخي المسلم كن مع الله دائما، إن الله يحب الطاعة في كل زمان، ويكره المعصية في كل أوان، ورب رمضان هو رب شوال، هو رب ذي القعدة، هو رب سائر الشهور.

كن مع الله أبدا، اتق الله حيـثما كنت، فـي أي مكان كنت ، وفي أي زمان كنت، وعلى أي حـال كنت: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾(٢).

أيها الإخوة المسلمون: نحن في يوم العيد . . .عيد الفطر، نحن في يوم من

(١) محمد: ١٧ . (٢) البقرة: ١١٥ .

أيام الله، نحن في يوم مهرجان إسلامي، كان النبي ﷺ صلي العيد في الخلاء، ولم يرد أنه صلى العيد في مسجد، إلا ما روي أن السماء أمطرت يوما فاضطر إلى إقامة العيد في المسجد، وإنما كان يصلي في الخلاء؛ ليجتمع المسلمون الذين في المدينة جميعا في صعيد واحد، وفي مكان واحد، في مهرجان إسلامي كبير، يجتمع فيه الرجال والنساء، حتى أن النبي ﷺ سئل: إذا كانت إحدانا ليس لها (جلباب) أي عباءة، أو ملاءة، أو ثوب خارجي تلتحف به وتخرج، فماذا تفعل يا رسول الله؟ قال: «**لتعرها أختها من جلبابها**»(١)، تستعير جلبابا وتخرج للصلاة.

وكان الصبيان يخرجون، وكانت المرأة تخرج، حتى المرأة الحائض، التي ليس عليها صلاة، ولا يقبل منها صلاة، كانت تحضر العيد، تعتزل الصلاة، ولكنها تشهد الخير ودعوة المسلمين.

والحمد لله قد أحيا الشباب الإسلامي في كل بلد هذه السنة، التي أميتت زمنا طويلا، سنة مشاركة المرأة المسلمة في صلاة العيد، فجعلوا جناحا للأخوات المسلمات، وجعلوا كذلك متسعا للصبيان، وشجعوهم بالحلوى والهدايا، وهكذا ينبغي أن نكون، ينبغي أن نحيي السنن المهجورة، السنن التي أماتها الناس في عصور التخلف والانحطاط، ونحمد الله ـ عز وجل ـ أن سننا كثيرة قد أحييت، بفضل الحركة الإسلامية، حركة الإسلام، وحركة الشباب المسلم.

كانت هناك سنة لم يكن يعرفها إلا القليل النادر، أو الشاذ من الناس، وهي سنة الاعتكاف في رمضان، وفي العشر الأواخر من رمضان، والحمد لله أحييت هذه السنة بفضل هذا الشباب الإسلامي في كثير من المساجد، فالحمد لله ما زال الإسلام بخير.

رأينا عشرات ومئات من الشباب، يتحدون (المودات)، ويتحدون البدع الوافدة من الشرق والغرب، يطلقون لحاهم، ويحيون سنة رسول الله ﷺ .

رأينا أخوات مسلمات، يقفن ضد التيار . . التيار الزاحف بالفجور والتحلل ويتحجبن، إنما يمثل التحدي، التحدي للحضارة الغربية: حضارة التحلل والعري والإباحية، والتحدي لعبيد الحضارة الغربية وتلاميذها.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٨١٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح».

الحمد لله، هذه الحركة الإسلامية نجدها ـ والحمد لله ـ في كل مكان، شباب مسلم صدقوا مـا عاهدوا الله عليه، يصومون الاثنين والخمـيس، يقرؤون القرآن، يقرؤون السنن والسيـر، يتفقهون في دين الله يقومـون بخدمة المجتمع، يسـتبقون الخيرات.

كان الناس قد ظنوا يوما أن الإسلام في هذه الأمـة لن تقوم لها قائمة، فلقد ضربت ضربات وحـشية متلاحقـة، في عهد الطغيان، اختلطت السـياط باللحوم والدماء في رجال وشباب من أبناء هذا البلد، ولكنهم ظلوا رجالا والرجال قليل. كان هناك من يتحدى الله فوق سمـاواته وفوق عرشه، كان هناك من يقول: هاتوا ربكم وأنا أجـعله في زنزانة، كان هناك المتـجبـرون المتكبرون، أين هؤلاء؟ لـقد ذهبوا، ذهبوا ولـم يعد لهم إلا ذكر السوء، ولعنة السـوء عليهم من الله والملائكة والناس أجمعين.

وبقي الإسلام، وبقيت حـركة الإسلام، بقيت هذه الحركـة، لم يطو بساطها كما ظنوا، لم تنكـس أعلامها، بل ظهرت في مـثل هذه التجمعات الإسـلامية، التي يدعو إليها الشباب المسلم المثقف.

يا أيهـا الإخوة: الإسلام بخـير إذا وعـيناه، وفهمـناه، وعملنا له، والتـففنا حوله، إن هذه الظاهرة . . . ظاهرة الشباب الإسلامي، في كل مكان، المعسكرات الإسلامية، المخيمات الإسلامية، الوعي الإسلامي، إنها ظاهرة صحية.

إنها ظاهرة ترينا بكل وضوح، أن هذه الأمة لم تكفر بربها، ولا بقرآنها، ولا بمحمدها ﷺ، إنها ما زالت موصولة بالإسلام، وإنما تحـتاج إلى من ينبهها من غفلتها، إلى من يوقظها من نومها، إلى من يجمع شتاتها، إلى من يحيي مواتها، إلى من ينفخ فيها روح الإيمان، وإلى من يناديها بـ(الله أكبر).

(الله أكبـر) هي الكلمة التي تفعل الأعـاجيب. (الله أكبـر) هي الكلمة التي توقظ القلوب من الغفلات، هي التي تجمع الناس من الفرقة والشتات.

هذه الأمة فيها خير، فـيها كنوز مرصودة، ولكن أين من ينبش ويفتش عنا؟ ليس هناك شيء يحرك عزائم هذه الأمة مثل كلمة الإيمان وكلمة الإسلام.

لن تحركـها الاشـتراكـية، ولا الثوريـة، ولا الديمقراطية، ولا الـعروبة، ولا

الوطنية، ولا القومية، وإنما حـركتها كلمات الله، حركتها كلمـة الإسلام، حركها قادتها يوم نادوا فـيها نداءهم المعروف: وا إسلاماه . . وا إسـلاماه، ولازال الأمر كذلك.

هذه الأمـة إنما تقاد بـاسم الله، باسم الإسلام، باسـم الإيمان، بغيـر هذا لا يمكن أن تجد هذه الأمة نفسها، ولا أن نصنع منها شيئا ذا بال.

إن لكل أمة شخصية، ولكل شخصـية مفتاحًا، وإنك إذا أردت أن تفتح قفلا بغير مـفتاحه، لن يفتح إلا إذا كان قـفلا غير أصيل، القـفل الأصيل لا يفتح إلا بمفتاحه الخاص.

وهذه الأمة مـفتاحهـا الإيمان، حركتـها بالإيمان تتحـرك، قدها بالإيمان وهي تنقاد، اجعل منها أمة الأمم إذا حركتها بدوافع الإيمان بالله عز وجل، إنها تتخطى العقبات، وتصنع المـستحيلات، وتنشئ البطولات، وتعيد لـنا عهد خالد وطارق وصلاح الدين من جديد، وهذا ما يخشاه أعداء هذه الأمة.

يخـشون أن تتـحرك هذه الأمـة بالإسـلام، ولهذا يضـعون العـقبـات وراء العقـبات، ويحاولون تشـويه الحركة الإسـلامية، والتـخويف منها، والتنفـير من دعوتها، وإطلاق الشـائعات حولها، وما رأينا أنظف من هذه الحـركة، ولا أمثل منهـا، أهدافا وطرائق وأسلوبا ورجـالا وشبـابا وشابات، النظافـة في كل شيء، الإخـلاص في كل شيء، الإيمان في كل شـيء، هذا أيهـا الناس مـا ينبـغي أن نسجله، وهذا ما يفرح به المؤمنون.

وفي مقابل هذا أريد أن أسجل شيئا: لقد جئت قبل انقضاء رمضان بيومين، ولكني رأيت عجبا، ما كنت أراه من قـبل في بلد دينه الإسلام. . بلد المساجد. . بلد العلم والقرآن رأيت عجبا أيهـا الإخوة المسلمون، رأيت أناسا يجاهرون بالإفطار في رمضان ، رأيت بعض محلات العصير والناس عليها مزدحمون، رأيت من يبيع بعض المشروبات والمأكولات وغيرهما في الشوارع في نهار رمضان، رأيت وسمعت أن الناس يجاهرون بشرب الدخان في الشوارع، رأيت أشياء من هذا النوع.

أين نحن ؟! أنحـن في أوربا أم في أمـريكا؟! ألسنا في بـلد مـسلم حـمل الإسلام وحـمى ذماره أكـثر من ألف عـام؟ ألسنا في بلد به العديد من العـلماء؟ ألسنا في بلد القرآن.

ما هذا؟ ولم السكوت على هذا المنكر؟

إن أشد من المنكر أن يسكت على المنكر، أن يحدث هذا ولا يجد المفطر المجاهر من يقول له: أيها المفطر اختبئ إن كنت معذورا، وإن كنت فاجرا فلا تظهر فجورك على الناس.

كيف يحدث هذا في بلد إسلامي، بل في بلد واجهته الإسلام، ويفتخر بالإسلام كيف تحدث هذه المنكرات؟!

كنت أعلم من قديم أن الناس قد يتركون الصلاة،ولكن إذا جاء رمضان صلوا، وإذا جاء رمضان صاموا، كان الإنسان الفاجر . . . الإنسان الشرير، لا يجرؤ على انتهاك حرمة رمضان، كان لرمضان حرمة وهيبة في قلوب الناس، حتى النصارى كانوا يتركون شرب الشاي والتدخين في مكاتبهم طوال نهار رمضان، رعاية لحرمته عند المسلمين، فليت شعري أين ذهبت هذه المهابة؟! وأين ضاعت هذه الحرمة؟!

إن النبي ﷺ حذرنا من هذا العصر الذي تموج فيه الفتن كموج البحر، والتي تضل الناس عن عقائدهم ببريق المادة، وجاذبية الطين، يقول ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»(١).

ومن فتن هذا العصر التي حذرت منها الأحاديث: طغيان النساء، وفسق الشباب، وترك الجهاد في سبيل الله، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بل اضطراب المعايير، حتى يرى الناس المعروف منكرا، والمنكر معروفا! وهو ما جاء في الحديث الذي رواه أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**كيف بكم أيها الناس أنتم إذا طغى نساؤكم، وفسق فتيانكم؟**» قالوا: إن هذا كائن يا رسول الله؟ قال: «**نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون**»، قالوا: وما أشد منه؟ قال: «**كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟**»، قالوا: يا رسول الله إن

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨).

هذا لكائن؟ قال: «**نعم، وأشد منه سيكون**»، قالوا: وما أشد منه؟! قال: «**كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفا والمعروف منكرا؟**»(١).

نحن في هذه الفتنة التي تذر الحليم حيران، ولكن لهذه الفتنة مخرجا واحدا، هو الرجوع إلى الإسلام، إلى القرآن . . . دستور هذه الأمة ومنهاجها الرباني، روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ستكون فتن كقطع الليل المظلم**»، قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «**كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**»(٢).

القرآن هو المخرج لهذه الأمة، يقول الله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾(٣)، فبركة القرآن في اتباعه والعمل بما فيه، والحكم بما أنزل الله فيه، ليست البركة فيه أن نعلقه لافتات للزينة، أو نقرأه على الموتى، أو نجعل منه حجبا للحبالى والأطفال، القرآن حرز للإنسانية كلها من الضلال، القرآن قد نزل ليحكم الأحياء لا ليقرأ على الأموات، القرآن نزل ليطبق في المحاكم لا ليتلى في المآتم، القرآن دستور هذه الأمة، فينبغي أن نعود إليه، لنتدبر آياته، ونحسن فقهه، نحسن تطبيقه، ونجعله لنا خلقا، كما وصف النبي ﷺ بأن خلقه القرآن: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾(٤).

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٦٤٢٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٠): «رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط، وفي إسناد أبي يعلى موسى بن عبيدة وهو متروك».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، وقال: «إسناده مجهول»، وضعفه الألباني.

(٣) الأنعام: ١٥٥. (٤) ص: ٢٩.

إن حراما على الغني أن يتسول، تسول الأغنياء أمر تعاقب عليه القوانين، وتنكره الأخلاق، ونحن أغنياء بمبادئنا الإسلامية، بشريعتنا الربانية، بمناهجنا المحمدية، بتراثنا العظيم، فلماذا نستورد؟! ولماذا نتسول؟!

أيها الإخوة: لنعد إلى قرآننا: النور الإلهي، وإلى سنة نبينا: النور النبوي، الأنوار بجوارنا، لا ينقصنا إلا أن نضغط على الزر لتنير الحياة من حولنا، أنوار في كتاب الله، وفي سنة رسول الله، والخلاص في أن نعود مستمسكين بعرى التوحيد، بمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، بمعنى أن نعود مسلمين كما كنا، مسلمين حقيقة لا بالأسماء، ولا بالوراثة، ولا بالوجود في أرض الإسلام.

لا نريد مسلمين جغرافيين، لا نريد مسلمين وراثيين، لا نريد مسلمين شكليين، إنما نريد مسلمين مستعدين أن يبذلوا في سبيل دينهم، مستعدين أن يضحوا من أجل هذا الدين، فكل أصحاب ملة، وكل أرباب نحلة يبذلون في سبيل مللهم ، وفي سبيل نحلهم، فما بالنا لا نضحي نحن في سبيل الإسلام؟!

أيها المسلمون: إن هذا الدين منصور لا محالة، ولكن إنما ينتصر بفضل الله، وبالمؤمنين، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿ ... **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾(١).

إن عدد المسلمين في العالم كبير، ولكن العبرة ليست بالأعداد الوفيرة، ولا بالجموع الغفيرة، العبرة بالكيف لا بالكم، يوم كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، حققوا نصرا عظيما، سمى الله يومهم: (يوم الفرقان)، فرق فيه بين الحق والباطل، وصدق الله العظيم: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾(٢)، ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(٣).

يوم كانوا قلة مع الله، يوم كانوا مع الإسلام الحق، نصرهم الله، ولكن ما قيمة هذه المئات الذين تجمعهم زمارة، ونحن الآن مئات وتفرقهم عصا؟! ما قيمة آلاف وملايين إذا كانوا كما قال القائل:

يزحمون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جلل؟!

(١) الأنفال: ٦٢ . (٢) آل عمران: ١٢٣ .
(٣) الأنفال: ٢٦ .

ما قيمة الملايين ومئات الملايين إذا كانوا على غير ما وصف الأنصار رضي الله عنه: يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع؟! ما قيمة هذه الملايين إذا كانوا كما وصفهم النبي ﷺ ـ وصف مسلمي آخر الزمان ـ بأنهم كثرة كغثاء السيل؟! الغثاء: هو القش والحطب والورق والرغاوي والأشياء الخفيفة التي يحملها السيل، فهذه تذهب جفاء ولا تنفع الناس: ﴿ ... **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**﴾ (١).

ما قيمة هذه المئات من الملايين إذا كانت كما قال الشاعر قديما:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم أني لم أقل فندا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

إن هذا الجمع الذي لا أرى آخره على مد بصري في هذه الساحة، هذا الجمع الذي احتشد لله، لا ليهتف لفلان أو لعلان، إنما ليهتف بهذه الصيحة: الله أكبر، الله أكبر، هذا الجمع جدير أن يصنع شيئا، إذا خرجنا من هنا وقد عقدنا مع الله صلحا، أن نكون لدين الله، أن يستمر نشاطنا بعد رمضان، كما كان في رمضان أو قريبا مما كان في رمضان، إذا خرجنا من هنا بتوبة نصوح، بنية صالحة، بعزيمة صادقة، بعقد نعقده مع الله، لننفذ الصفقة التي عقدها الله معنا، الصفقة التي بعنا نحن فيها لله واشترى الله منا ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾(٢).

يقول الحسن البصري: ما أعظم فضل الله، اشترى منا أنفسنا وهو الذي خلقها، وأموالا هو الذي رزقها، ثم أعطى ثمنا غاليا هو جنة عرضها السموات والأرض.

نفذوا، سلموا لله الثمن يسلمكم المبيع، يسلمكم جنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

أيها الإخوة المسلمون: ما أجدرنا أن نصطلح على الله، وأن نخرج من هذا المكان بعزم على نصرة الإسلام، ولنا في ذلك أعظم الأجر، فقد روي أن النبي

---

(١) الرعد: ١٧ . (٢) التوبة: ١١١ .

ﷺ قال لجماعة من أصحابه يوما: «**أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟**» قالوا: الملائكة، قال: «**وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟!**» لا شهوات ولا غرائز ولا مغريات بالشر ولا معوقات عن الخير ولا ملاهي ولا مراقص ولا سينمات ولا أجهزة إعلام ولا ولا وقالوا: فالنبيون، قال: «**وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!**»، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن أعجب الخلق إليَّ إيمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها**»[(١)]، وفي حديث آخر: أنه ﷺ سئل من بعض أصحابه: هل من قوم هم أعظم منا أجرا، آمنا بك واتبعناك، قال: «**ما يمنعكم من ذلك، ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء؟ بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرا مرتين**»[(٢)].

كتاب بين لوحين، أي مصحف بين دفتين، اتخذوه إماما لهم ومنهاجا لحياتهم، إنهم الذين يؤمنون بالغيب، يؤمنون برسول الله ولم يروه، يؤمنون بالمصحف ولم يروا جبريل يتنزل رواحا وغدوًا بآيات الله، لم يروا الملائكة تنزل في بدر ولا في الخندق ولا في حنين يؤمنون به ويعملون بما فيه، إيمان وعمل ولا خير في إيمان بلا عمل، إن مثل هؤلاء يمكن أن يكونوا أعظم أجرا من كثير من الصحابة، بمن ليسوا من السابقين الأولين، ولا من أهل بدر وأهل أحد، وأهل بيعة الرضوان وأمثالهم.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦٩١)، وقال: «رواه البزار، وقال: غريب من حديث أنس، قلت: فيه سعيد بن بشير، وقد اختلف فيه، فوثقه قوم، وضعفه آخرون، وبقية رجاله ثقات».

وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢١٥): «حسن لغيره».

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤ / ٢٣) (٣٥٤١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦٩٢): «رواه الطبراني واختلف في رجاله»، وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣١٠).

٧ـ آمال في عيد الأضحى

أيها الإخوة المسلمون:

(الله أكبر) ليست كلمة تقال، وليست مجرد شعار يرفع، إنما (الله أكبر) معناها يا أخي المسلم: أن تكون الدنيا كلها في عينيك صغيرة في جنب الله ـ عز وجل ـ إذا عرض عليك المال، أو عرض عليك الجاه، أو عرضت عليك الدنيا مجتمعة لتتنازل عن دينك، استمسكت بدينك وقلت: الله أكبر، الله أكبر من المال والثروة، الله أكبر من الجاه والمنصب، الله أكبر من المتع والشهوات، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا.

أيها الإخوة المسلمون: نحن في عيد الأضحى، ولنا نحن المسلمين عيدان، قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**ما هذان اليومان؟**»، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله قد أبدلكم بهما خيرا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر**»(١).

وقد شاء الله لنا نحن المسلمين أن تكون أعيادنا عقب فرائض وعبادات كبرى، فعيد الفطر بعد عبادة الصيام، بعد أن تجوع البطون، وتظمأ الشفاه لله، ويدع الإنسان طعامه من أجل الله، وشرابه من أجل الله، وشهوته من أجل الله، وزوجته من أجل الله، يأتيه العيد (جائزة) من الله تعالى، بعد هذه المشقة في سبيل الله، و«**للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه**»(٢).

ويأتي عيد الأضحى عقب الحج، فهو يوم الحج الأكبر، بعد أن يقف الحجاج على عرفات، متجردين لله تعالى من مظاهر الدنيا، لابسين ثيابا بيضاء، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، قد تساووا صغيرهم وكبيرهم، أميرهم وخفيرهم، غنيهم وفقيرهم، تجردوا وتساووا أمام الله، لبوا نداء الله، كتابهم واحد، دينهم واحد،

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٣٤)، وصححه الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

ربهم واحد، نبيهم واحد، نداؤهم واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

هناك يتجلى الله تعالى على عباده، يباهي بأهل الأرض أهل السماء، فيقول للملائكة: «**انظروا إلى عبادي، أتوني شعثا، غبرا، ضاحين ـ أي متعرضين لحرارة الشمس ـ من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم ...**»(١).

ولهذا فإن لأعيادنا خصائص:

أعيادنا أعياد ربانية، ليس يوم العيد عندنا يوم (كاس وطاس)، ولا يوم انفلات للشهوات، أو جريًا وراء الملذات، إن أعيادنا تبدأ بالتكبير، تبدأ بـ(الله أكبر)، تبدأ بالصلاة، أعيادنا أعياد ربانية، أعياد موصولة الحبال بالله تبارك وتعالى. وهي كذلك أعياد إنسانية؛ لأن المعاني الإنسانية تتجلى فيها أعظم التجلي، لا يريد الإسلام للمسلم أن يفرح بالعيد وحده، فليس منا من أكل وحده، وليس منا من عاش لنفسه.

في عيد الفطر شرع الإسلام زكاة الفطر، فرضها رسول الله ﷺ طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فرضها على كل صغير وكبير، ذكر وأنثى، حر وعبد من المسلمين، وقال: «**أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم**»(٢)، بدل أن يطوف المسكين ويسأل الغني، فإن الغني يبحث عنه، ويسأل ويطوف، ويذهب إلى داره ليعطيه زكاة الفطر، لتعم الفرحة، ويعم السرور الجميع.

وكذلك في عيد الأضحى، شرع الإسلام (الأضحية) ليوسع الإنسان على أهله، ويوسع الإنسان على أحبائه وجيرانه، ويوسع على فقراء المسلمين، هكذا ينبغي أن توزع الأضحية أثلاثا: ثلث لنفسه وأهله، وثلث يهدي منه جيرانه وأصدقاءه، وثلث للفقراء، وإذا كان أكثر من الثلث للفقراء فقد أحسن.

وليس لفقراء المسلمين فقط، بل إن التسامح الإسلامي شمل المسلمين وغير

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٨٥٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح إسناده قوي»، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٧٩).

(٢) أخرجه البيهقي (٤ / ١٧٥)، والدارقطني (٢ / ١٥٢) (٦٧)، وضعفه ابن الملقن في البدر المنير (٥/ ٦٢٠)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٣ / ٣٣٢).

المسلمين، روى أبو داود والترمذي أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»(١)، أي يورث الجار من الجار، كما يرث القريب من القريب.

أيها الإخوة: هذا هو الإسلام، ليس من الإسلام أن تأكل وحدك، أن تجمع على مائدتك من الأطعمة أطيبها ومن الأشربة أعذبها، وأن تلبس من الثياب أحسنها، وبجوارك أخ لك أو قريب، أو جار، لا يجد ما يسد الرمق، أو يطفئ الحرق، يئن من الجوع أنين الملسوع، ليس هذا من الإسلام، برئ من ذلك محمد ﷺ فقال: «**ما آمن بي** - وفي رواية: ليس المؤمن - **من بات شبعانا، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**»(٢)، أي ليس بمؤمن من عاش لنفسه ولم يعش لإخوانه، ولم يعش لمجتمعه، هذا هو الإسلام قبل أن تعرف الدنيا المذاهب المستوردة من هنا وهناك.

أيها الإخوة: هذا التجمع المؤمن علام يدل؟ إنني أنظر مد البصر، فلا أكاد أرى له آخرا. علام يدل هذا التجمع الذي دعا إليه فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى؟ إنه يدل على وجه الإسلام ووجه الحب الحقيقي، هذا هو وجه من أراد أن يعرف هذا البلد، فليعرفه هنا، ليس الذين يجلسون في البارات، أو الكباريهات، أو يجلسون حول الموائد الخضراء، أو في الليالي الحمراء، ليس هؤلاء ممثلي بلدنا.

إن هذا الوجه يرد على طوائف من البشر أصحاب الفكر الخاطئ والشاذ، وأول هذه الطوائف: طائفة الماركسيين، طائفة الذين يريدونها إلحادية، يريدونها مادية جدلية، الذين يقولون: لا إله والحياة مادة، الذين يزعمون أن (الدين أفيون الشعوب)، هذا هو الدين محرك الجماهير، هذا هو الدين مصدر القوة، لم تستند هذه الأمة إلى الدين يوما وأخفقت أو هزمت.

يوم صاح الصائم في عين جالوت، صاح في جنود مصر: وا إسلاماه . .

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٤).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٥١)، وقال المنذري في الترغيب: «رواه الطبراني والبزار وإسناده حسن»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٥٦١): «صحيح لغيره».

وا إسلاماه. قالها قطز قائد معركة عين جالوت، ورمى خوذته، هنالك حرك الكامن، وهاج الساكن، وأقبل المتردد، وتشجع الجبان، وكان النصر على التتار. يوم استندت هذه الأمة إلى معاني الإيمان في العاشر من رمضان وصاحت: الله أكبر، انتصرت.

وفي سنة (١٩٦٧م) يوم دخلوا المعركة بعيدين عن الله، ناسين، يقولون للجنود: معكم الممثل الفلاني والممثلة الفلانية، وتوزع عليهم صور المطربين والممثلات بدل أن توزع المصحف .. أن يوزع القرآن، كانت النتيجة ما عرفناه من العار، والهزيمة، والنكسة، والوكسة.

الدين ليس أفيونا، الدين ليس مخدرا، إن صح هذا في دين من الأديان، فلن يصح في الإسلام، الإسلام دين القوة، الإسلام هو مصدر العزة والقوة ... مصدر التحريك لهذه الأمة.

لا يحرك هذه الأمة شيء كالإسلام، لا يحركها وطنية، أو قومية، أو عروبة، أو فرعونية، إنما يحركها: الله أكبر، إنما يحركها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إنما يحركها أن ينادي المنادي: يا خيل الله اركبي، ويا ريح الجنة هبي! هنالك نرى هذه الأمة حقيقة واقعية، لا دعوى تدعى.

إن الشيوعيين الذين يريدون العالم أن يكون شيوعيا واهمون مخطئون، لن تكفر الأمة، لن ترتد عن إسلامها، لن ترجع عن دينها، هؤلاء غرباء عن هذا البلد.

أما الذين يقولون: إن الله لم يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي خلق الله، فهؤلاء الماديون ... الملحدون ... الشيوعيون، لا مكان لهم في بلدنا، البلد المسلم .. الشعب مؤمن.

ثم هناك طائفة أخرى على النقيض من هؤلاء، ولكنهم جهلوا أيضا، إنها طائفة غفلت عن حقيقة هذه الأمة، غرهم ظاهر المنكرات التي يرونها في الشوارع، وفي الأجهزة التي تبث الفساد، غرهم هذا فظنوا أن هذا الشعب قد كفر، كفروا الناس بالجملة، كفروا المجتمع بغير تمييز ولا تفضيل، هؤلاء أخطؤوا.

هذه الأمة لم تكفر بربها، ولا بقرآنها، ولا بمحمدها ﷺ، هذا الشعب

مسلم، قـد يتراكم عليه غـبار المعصـية، قد يعـتريه الصدأ من كثـرة التوجيـهات المضللة الفاسـدة المفسدة من هنا وهناك، ولكن إذا أزلت هذا الغـبار، إذا حككت هذا الصدأ، تبين لك المعدن الحقيقي، تبين لك الجوهر الأصيل. معدن هذه الأمة هو الإسلام، الخـامة الأصليـة لهذه الأمة، هي الإسـلام، أرضيـة هذه الأمة هي الإسلام، فليعلم ذلك الغلاة المتطرفون.

وفئة ثالثة أذكرها بهذا الجمع، إنها فـئة العلمانيين، الذين يريدون أن يفصلوا بين العقيدة والشريعة، أو بين الدين والدولة، الذين يريدونها دولة لا دين لها، أو دينا لا دولة له، أخطأتم أيها العلمانيون، هذه الأمة تريد أن تحكم وفق عقيدتها.

إن هذا الصـراع وهذا التناقض الذي يـحس به المسلم في حـيـاته، يجب أن يزول، المسلم يحس في أعماقه أنه مـؤمن بالله، مؤمن بالإسلام، مؤمن بالقرآن، رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، وبالقرآن منهاجا وإماما.

هذا المسلم يحس أنه يحكم ويقاد في كـثير من الأوضاع والمفـاهيم والقوانين والتقاليد بغـير الإسلام، وبغير شريعة الإسلام، ولهـذا يجب أن تتعالى الأصوات في كل مكان، تنادي بشريعة الإسلام، تنادي بحكم القرآن، يجب أن يكون ذلك في كل مكان.

وأحب أن أقول هنا شيئا: ماذا نريد بشريعة الإسلام؟ إن بعض الناس يظن أن مجرد تعديل القوانين يقيم شريعة الإسـلام، وأن مجرد تطبيق الحدود يقيم مجتمع الإسلام، وأمة الإسلام.

لا، الإسلام أيها المسلمـون: فلسفة حياة، ونظام حيـاة، نظام يصحب الفرد من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة، بل ربما صحبه قبل الميلاد وبعد الوفاة.

فإن في الإسلام أحكـاما تتعلق بالجنين في بطن أمه، وأحكامـا تتعلق بالميت بعد موته: أحكام الغسل والتكفين والصلاة والدفن وتقسيم التركة وغير، ذلك.

الإسلام يصـحب الإنسان في رحلة الحيـاة كلها، كمـا يصحبه في مـجالات الحيـاة كلها: في المسـجد، والبـيت، والمزرعة، والمصنع، والمدرسـة، والمحكمة، والطريق... إنه يهـيئ للإنسان حـياة إسـلاميـة، متكاملة، توجـهها العقـيدة،

وتضبطها القيم، وتحكمها الشريعة في كل شيء. من قضاء الحاجة إلى نظام الخلافة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة، يعلمك كيف تأكل وكيف تشرب «**سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»(١)، «**ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها**»(٢)، ولا بملعقة من فضة أو ذهب، و.. و.. كما يعلمك كيف تحكم ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾(٣)، ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾(٤).

فإذا أردنا أن نحكِّم الإسلام، فلابد أن يتغير المجتمع كله إلى الإسلام، تتغير الأفكار والمفاهيم، تتغير القيم والأخلاق، تتغير العادات والتقاليد، تتغير العواطف والمشاعر، تتغير الأنظمة والشرائع والقوانين، تتغير الثقافة والإعلام، تتغير التربية والتعليم، نريد تشريعا إسلاميا.. تربية إسلامية.. إعلاما إسلاميا.. ثقافة إسلامية.. توجيها إسلاميا في كل مكان، هذا ما نريده إذا أردنا أن نحكم الإسلام، ونقيم المجتمع المسلم حقا.

أيها الإخوة المسلمون: إن الإسلام دين عظيم، إن الله مَنَّ علينا بهذا الدين، وهو أفضل دين، مَنَّ الله علينا بأكرم نبي أرسل، وأعظم كتاب أنزل، منَّ علينا بالقرآن، وبمحمد ﷺ، وأنعم علينا بالإسلام: ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... ﴾(٥)، ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾(٦).

ولكن هل يعز الإسلام، ويسود الإسلام، وينتصر الإسلام وحده؟ هل ينتصر الإسلام ويظهر على الدين كله بغير مسلمين؟ هل يعز الإسلام بغير رجال؟ لا، إن الإسلام يحتاج إلى رجال ينصرونه، ويعزونه، وينشرونه، ويكونون مُثُلاً له في الأرض، مُثُلا عملية يراهم الناس فيرون فيهم الإسلام. إذا سار أحدهم قالوا: انظروا، هذا هو الإسلام المجسم، هذا قرآن يسعى على قدمين، كما كان النبي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).
(٣) المائدة: ٤٩ .
(٤) المائدة: ٤٢ .
(٥) المائدة: ٣ .
(٦) التوبة: ٣٣ .

ﷺ وكما كان الصحابة رضي الله عنه.

الإسلام عظيم، ولكنه يحتاج إلى مسلمين عظمـاء يكافئون عظمته، إن الله ـ تعالى ـ يقول لرسوله: ﴿ ... **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**﴾(١)، وبالمؤمنين . . . لابد من المؤمنين.

إن رجلا أجنبيا درس الإسـلام، فأعجب به، وأعجب بتعاليمـه، فقال كلمة يجب أن نحفظها ونرويهـا؛ لأنها تقطع نياط القلوب، ماذا قال؟ قـال: ما أعظمه من دين لو كان لـه رجـال! ديـن عظيم ولكنه في حاجة إلى رجـال عظماء، دين قوي ولكنه في حاجة إلى رجال أقوياء.

لا نريد أناسا من هذا الصنف، نريد مسلمين. . . مسلمين حـقيقيين، الواحد منهم بألف، وقد قال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحـد كالألـف إن أمـر عنا

وقال الله تعالى: ﴿ ...**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**... ﴾(٢).

أيها المسلمون: إن هذا التجمع يعرفنا حقيقة أنفسنا، لا نريد أن ننصرف لنلهو ونلعب، ولكن نريد أن ننصرف لنـتعاهد على نصرة الإسـلام، لنربي أنفسنا على الإسلام، لنربي أبناءنا وبناتنا على الإسلام، لنربي أهلينا وزوجاتنا على الإسلام.

الإسلام أساس عـزنا في الدنيا، وأساس سعادتـنا في الآخرة، إذا أردنا العزة في الدنيا، فلا عزة والله إلا بالإسلام.

عمر بن الخطاب # كان في طريقه إلى الشام، وكـان معه أبو عبيدة رضي الله عنه فقـابلتهم مـخاضة، فنزل عـمر ليخـوض هذه المخاضة، وخـلع نعليه، وأمسـك بهما كـأي رجل عادي من الـناس، فانزعج أبو عـبيـدة، وقال يا أمـير المؤمنين: لو فعلت غير هذا، الناس يرونك، وأنت أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، فماذا قـال عمر؟ قال: لو غيرك قـالها يا أبا عبيدة، إنا كنا أذل قـوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

أيها الإخوة: لا عزة بغير الإسلام ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ**

---

(١) الأنفال: ٦٢ .
(٢) البقرة: ٢٤٩ .

لا يَعْلَمُونَ﴾(١)، إذا أردنا النصر على عدونا فلا نصر إلا بالإسلام، النصر لا يأتي بغير الإيمان، ولا إيمان بغير الرجوع إلى الإسلام.

بالإيمان نستطيع أن نصنع الرجال الذين يكسبون حقوقهم بأيديهم. بمثل هذا الإيمان هبت نفحة من نفحات رمضان، فحققنا ما تحقق في رمضان.

إذا أردنا العزة، فلا عزة إلا بالإسلام، وإذا أردنا النصر، فلا نصر إلا بالإسلام، وإذا أردنا الوحدة، فلا وحدة إلا بالإسلام.

يريدون الوحدة العربية، كيف يتحد العرب إذا لم يكن منهجهم الإسلام؟! إذا تركوا الإسلام تفرقوا إلي يمين ويسار، واليمين درجات، واليسار درجات، هناك يمين اليمين، ووسط اليمين، ويسار اليمين، وهناك يسار اليسار، ووسط اليسار، ويمين اليسار، هناك من يتجه إلى موسكو، وهناك من يتجه إلى بكين، وهناك من يتجه إلي لندن، وهناك من يتجه إلى واشنطن، قبلات متعددة، ووجهات متفرعة، سيتفرق الجميع إذا لم يلتقوا على الإسلام.

الإسلام دين الأمة، وهو الذي يوحد الجميع، يوحد قبلتهم، ويوحد مشاعرهم، ويوحد أهدافهم، ويوحد منهاجهم، إن الله تعالى يقول: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه...**﴾(٢). قال ابن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطا ـ أي على الرمل، يرسم لهم بوسائل الإيضاح المتاحة ـ ثم قال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، وقال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، وقرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ..**﴾(٣).

أيها الإخوة المسلمون:

في هذا اليوم ... في هذا المهرجان الإسلامي ... في هذا اليوم الرباني .. في هذه الساحة التي التقت فيها الألوف وعشرات الألوف وربما مئات الألوف.. في هذه الساحة يجب أن نعرف أنفسنا، يجب أن نكتشف أنفسنا، نحن مسلمون قبل كل شيء، مهما عرضت العوارض، أو طرأت الطوارئ، يجب أن نعرف أننا

---

(١) المنافقون: ٨ . (٢) الأنعام: ١٥٣ .

(٣) سبق تخريجه.

مسلمـون، ولا حياة لنا بغـير الإسلام، وعلى هذا يجـب أن نطبق الإسلام على أنفسنا، ثم ندعو إليه العالم، والعالم كله في حـاجة إلى الإسلام، البشرية المعذبة في الأرض لم تنفـعها الرأسـمالية ولا الشـيوعـية، ولن يجدوا دينا يـنقذهم من الجاهلية الحديثة.. لن يجدوه إلا في الإسلام.

وأذكر حادثة أقولها لكم، رجل غربي دخل في الإسلام، اعتنق الإسلام عن طريق الكتب، قـرأ عن الإسـلام فأعـجب به، وآمن بالله ربا، وبالإسـلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، ولكنه بعد عـدة سنين أراد أن يقوي دينه بالحج إلى بيت الله الحرام، هناك ذهب إلى موسم الحج، فرأى سـوء حال المسلمين، وسوء نظامهم، ورأى الفوضـى، وعدم الأدب في المعـاملة، وغير ذلـك، مما قرأ ضده فـي كتب الإسلام، فـماذا قال؟ قال هذه الكلمـة: الحمد لله الذي عرفني الإسـلام قبل أن أعرف المسلمين!!

نحن صورة سيئة للإسـلام. لماذا يا مسلمون؟ لماذا لا نعود إلى ديننا؟ لماذا لا نكون مـسلمين حقـا؟ نعمل بالإسـلام، ونعمل للإسـلام. لماذا لا نوقف حيـاتنا وجهودنا على نصرة هذا الدين؟

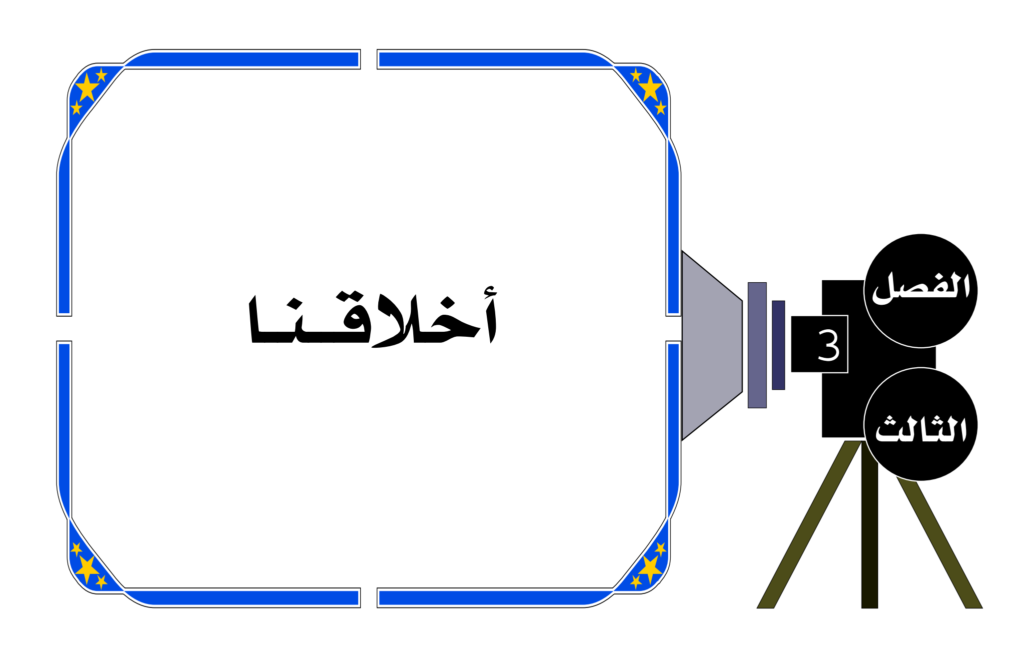
أي دين في الدنيا وجد من يدعون إليه، ويعملون له، حتى الشيوعية الباطلة وجدت لها أنصارا ورجالا، الماسونية وجدت رجالا، اليهودية أقامت لها دولة في قلب بلاد المسلمين، النصرانية لهـا مبشرون ومبشرات بـعشرات الألوف في أنحاء العالم، كل مـذهب له أهله وأنصاره ورجـاله، فأين أنصار الإسـلام؟ أين رجال الإسلام؟

كونوا أنتم رجال الإسلام، كونوا أنصار الله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ...**﴾(١).

أيها الإخوة: كلمة أريد أن أختـم بها، إن دعوتنا إلى الإسـلام لا تحمل أي عدوان على أحد، ولا تحمل أي تعصب ضد أحد، حينما ندعو إلى الإسلام، إنما ندعو إلى المثل العليا، إنما ندعو إلى القيم الرفيعة التي جاء بها الأنبياء، ونادت بها كل الرسالات، القيم والمثل التي نادى بها بعد ذلك خاتمهم محمد ﷺ.

---

(١) الصف: ١٤ .


أخلاقـنا
الفصل
3
الثالث

الأخلاقُ الإسلاميةُ وضرورةُ التَّخلُقِ بهَا

مفهوم الأخلاق في الإسلام:

هي مجموعـة الأقوال والتصرفات الحميدة المنبـثقة من الدين الإسلامي والتي يتحلى بها المسلم ابتـغاء رضوان الله وأخلاقنا هي قرآننا، فقـد قالت عائشة $ عن خلق رسول الله ﷺ: «**كان خلقُه القرآن**»(١)، فلا مفر إذن من التخلق به، وقد اسـتنكر ابن مسـعود عدم تخلق بعض المسلمين بـالقرآن فقـال: «أنزل القرآن عليهم ليعملوا به، فاتخذوا دراسته عـملا، وإن أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته لا يسقط منه حرفا وقـد أسقط العمل به»، ونحن نلقى أمثال هؤلاء ممن لا إيثار لديهم ولا عـفو ولا تسامح في مـعاملاتهم، ولا يصـبرون إلا اضطرارا ولم يفهموا شمـول الإسلام لجميع جوانب الحياة، فقصـروه على المسجد فقط، وظنوا أن علاقة الإسـلام بالمأكل والمشرب والمسكن والنوم واليقظة بعيدة، فـصدق عليهم قول الفاروق عـمر: «لا تنظروا إلى من يقرأ القـرآن، ولكن انظروا إلى من يعمل به»، واعتبر هؤلاء قول الرسول ﷺ: «**صل من قطعك**»(٢) إهانة للنفس وقوله: «**أعط من حرمك**»(٣) حطا من كرامة الإنسان، وقوله: «**وأعرض عمن ظلمك**»(٤) ضعفا لا يليق.

حاجة البشرية لأخلاق الإسلام:

يتخبط العالم اليوم في ظُلمات الآثام، وتشيع فيه منكرات وفواحش كثيرة من خمر ومخدرات واعتـداء على الأنفس والأعراض والأموال، مما جعل المصلحين، يبـحثـون عن حلول وسـبل للإصلاح لم تـغن نفعـا؛ لأنهـا ابتعـدت عن هدي الإسلام، وتنبـه مصلح أستـرالي إلى ذلك فقـال: «إن العالم يتخـبط في تيارات فاسـدة، وقد سُئلت كـلُّ الأمم عن حلول ناجعة لعـلاج تلك المفاسـد فلم تجد، وبقـيت أمـة لم تسأل وأظن أن لديـها العـلاج الشـافي ألا إنهـا أمة الإسـلام»،

---

(١) أخرجه أحمد (٦ / ٩١)، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح.

(٢ ـ ٤) أخرجـه أحمد (٤ / ١٤٨)، وقـال الهيثـمي في مجمع الزوائد (١٣٦٩٠): «رواه أحـمد والطبراني وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات»، وحسنه الأرناؤوط.

فالإسلام يـنشئ علاقة بين الفرد وخـالقه، فيرجـو ثوابه ويخشى عقابه، فـيلتزم بالأخـلاق الحسنة في كل زمـان ومكان، وغـير المسلمين لا يرجـون ثوابا إلا من رؤسائهم؛ فـإذا غفل الرؤساء عنـهم أساؤوا ولـم يحسنوا، وقـد قال أحد ضـباط المرور الإنجليز: «أنتم أيها المسلمون لو كان عندنا في كتابنا آية كالتي في قرآنكم ما احتجنا لـقانون مرور ينظم السيـر، إنها قول الله: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾(١)».

والإنسان له طبيعتان الأولى: حيوانية، والثانية خلقية.

ولكننا إذا تأملنا المسألة وسبرنا غورها تبين لنا أن القوة المنفذة الفاصلة الحقيقية هي القوة الخلقية لا المادية، والإنسان لا يسمى إنسانا لأجل جسـمانيته أو حيوانيته، بل لأجل صفاته الخلقية.

هذه الصفات الخلقية يقسمها المودودي إلى شـعبتين مهمتين: الأخلاق الإنسانية الأساسية وهي: تلك الصفات التي يقـوم عليها أساس وجود الإنسان الخلقي، وهي تشتمل على سائر الصفات التي لابد منها لفلاح الإنسان ونجاحه في هذه الدنيا.

ويقدم المودودي تحليـلا للإضافة والتـوجيه الذي تمارسـه الأخلاق الإسلامـية على الأخلاق الإنسانية، حـيث يقرر أنها جاءت متمـمة لها ومكملة إياها، ويبين أن هذا الإتمام والتكميل يتم من خلال ثلاثة أسس، هي:

١ ـ الإسلام يزود الأخلاق الإنسانية بمركز صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حولها إلى الخير والرشد؛ حيث يجعل غايتها وجه الرب تعالى.

٢ ـ أن الإسلام يؤصل الأخلاق الإنسانية الأساسية، ويعطي مثالا على ذلك من خلال خـلق الصبـر، فالصبـر في الإسلام غـايته وجـه الله تعالى، وبالتـالي يستـجلب قوته من جذور التوحـيد، ويزداد تأصيـلا وقوة بذلك، كما أن الصـبر يتحول من التركـز في جانب معين مثل: الصبر في مـيدان المعركة، إلى أن يطبع حياة الإنسان، فيكون هناك الصبر على شـهوات النفس، أو يجعله سدا منيعا في

---

(١) ق: ١٨.

مواجهة كل ما يحاول تنكيب الإنسان عن الصراط المستقيم.

٣ ـ الإسلام ينظر إلى الأخلاق الأساسية العامة كأنها الطبقة الأولى من البناء، فيشيد عليها الطبقة الثانية من الأخلاق الفاضلة، حتى يرتقي الإنسان إلى أعلى درجات الشرف والكمال.

عناية الإسلام بالأخلاق:

تظهر عناية الإسلام بالأخلاق فيما يلي:

١ ـ أن أعمال العباد وقلوبهم هي نظر الرب سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

قال ابن تيمية: «فعلم أن مجرد الجمال في الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فإن كان الظاهر مزينا مجملا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله».

٢ ـ أنها من مهمات الرسل ـ عليهم السلام:

تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق من مهام الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾(٣).

قال ابن كثير: يذكر تعالى عباده المؤمنين بما أنعم عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله المبينات، ويزكيهم أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس وأفعال الجاهلية.

وقال الله تعالى ممتدحا نبيه ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) البقرة: ١٥١.
(٣) آل عمران: ١٦٤.
(٤) القلم: ٤.

قال ابن عباس: أي على دين عظيم وهو الإسلام.

وعن سعد بن هشام قال: «سألت عـائشة فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن».

قال ابن رجب: يعني أنه يتأدب بآدابه، فيفعل أوامره ويجتنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خلقا كالجبلة والطبيعة لا يفارقه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١).

نتائج التعامل بالأخلاق الإسلامية:

لم يكن لأمة العـرب شأن بين الأمم فقـد كانوا يئدون البنات، ويـشيع بينهم الفجـور والزني والخمور، ويكثر ظلم المـستضعـفين، وتضيع الحقوق، فلمـا جاء الإسلام أخرجهم من هذه الـظلمات وجعلهم خير أمة أخرجت لـلناس، ففتحت لها الأمم الأخرى وتفـوقت عليها بالعلم، وأصبحت المدن الإسـلامية منابر للعلم يقـصدها الطلاب من كل مِـصْرَ، وتماسكت أمـة الإسلام كـالبنيان المـرصوص، وأضحى المسلم لأخيه المسلم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

الأخلاق الإسلامية:

سنقسم الأخلاق الإسلامية إلى قسمين: أخلاق بين الفرد وربه، وأخلاق بين الفرد وغيره من الناس، وسنعرض لبـعض ما يندرج تحت هذين القسمين ـ وذلك كله لسهولة البيان.

أولا: أخلاق بين الفرد وربه:

١ ـ التقوى: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(٢)، إن المسلم الذي يتصرف في حـياته وهو يدرك أن الله مطلع عليه، عالم بهـواجسـه، وأنه أقرب إليه من حـبل الوريد، وأنه يعلم خـائنة الأعين وما

(١) أخرجـه أحمد (٢ / ٣٨١)، وقـال الهيثـمي في مجـمع الزوائد : «رواه أحمد ورجـاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

(٢) آل عمران: ١٠٢ .

تخفي الصدور، لا يمكن أن يعصي الله أو يتخلف عن أمر ربه، فلا يرد الأوامر، ولا يقرب النواهي، فتجـري حياته وفق شرع الله، فمراقـبة الله تعالى والحذر منه في كل ما صغـر وكبر واجب على كل مسـلم، يسعى لمرضاة الله، يرجو رحـمته ويخشى عذابه.

فعن أنس: «إنكم تعـملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشـعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»، فحري بالمـؤمن أن يتقي الله حيث قال رسول الله ﷺ: «**اتق الله حيـثما كنت... وخـالق الناس بخلق حسن**»(١)، ولقد سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم**».

٢ ـ الإخلاص: قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(٢)، والإخلاص بينه الإمام حسن البنا بقـوله: «وأريد بالإخلاص أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، وابتغاء مرضاته، وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب، أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جنديَّ فكرةٍ وعقيدة، لا جندي غرض ومصلحة». ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(٣)»، والإخلاص يتعلق بتجريد العقيدة، واستقامة الوجهة: ﴿**قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**﴾(٤).

٣ ـ اليقين والـتوكل: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾(٥)، فالثقة وحسن التوكل يحملان العبد على الصبر والثـبات والتقرب إلى الله، فلا يـضعف أمام العقبـات، وإنما تتحقق الثقة وحسن التـوكل من الإيمان بالله، وأنه هو الناصر والحامي والولي: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وقال: «حسن صحيح»، وحسنه الألباني.
(٢) البينة: ٥ .
(٣) الأنعام: ١٦٢ .
(٤) الزمر: ١٤، ١٥ .
(٥) آل عمران: ١٧٣ .
(٦) البقرة: ٢٥٧ .

ثانيا: أخلاق بين الفرد وغيره من الناس:

١ ـ **الصدق**: الصدق في نظر المسلم ليس إلا الحق الذي هو أساس الإيمان وعماد الوجود، ومن ثم يلتزم المسلم الصدق في قوله وفعله، ويتخذ من الصدق طريقا مأمونة توصله إلى رضوانه، وتهديه إلى حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلقه**»(١)، والصدق مع النفس هو بداية ممارسة الصدق مع الناس، وليكون الإنسان صادقا مع نفسه لابد أن تتوفر له أصالة خلقية قديمة وقناعة داخلية عميقة بالتزام جوهر الدين ومكارم الأخلاق، وفي الدين: «**اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم ، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**»(٢).

٢ ـ **الصبر**: قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(٣)، عظم الجزاء عند الله والاحتساب لديه يدفع المؤمن إلى الصبر ويعينه على تحمل مرارته، فعن صهيب بن سنان أن رسول الله ﷺ قال: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**»(٤)، إنه الصبر الذي تنفجر بسببه ينابيع العزم والثبات، وليس صبر اليائس الذي لم يجد بُدا من الصبر فصبر، فالصبر يجعل المؤمن يحسن التصرف في كل موقف، ويواجه الحياة بمشاعر ثابتة وقلب مطمئن، قال تعالى: ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، والترمذي (١٩٩٣)، وقال: «حسن»، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٥ / ٣٢٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٧٠٩): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، إلا أن المطلب لم يسمع من عبادة»، وقال الأرناؤوط: «حسن لغيره».

(٣) آل عمران: ٢٠٠ .

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(٥) البقرة: ١٥٥ـ ١٥٨ .

٣ ـ العفو والحلم: قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾(٢)، وصلة المسلم بالناس تشملها السماحة ويظللها الحلم، ويحيط بها العفو والتجاوز وضبط النفس، قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٣). إن الإسلام يجعل العفو والصفح سبيلا لتنظيف القلب من مشاعر الحقد، ولتطهيره من نزغات السوء؛ لذلك رغبنا رسول الله ﷺ في العفو حين قال: «**وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا**»(٤).

٤ ـ التواضع: قال تعالى: ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾(٥). إن التواضع صفة حميدة يحبها الله ويرفع صاحبها، فمن تواضع لله رفعه، وقد يظن بعض الناس أن في التواضع شيئا من الذلة، وهذا ظن في غير موضعه؛ إذ التواضع الحقيقي باب من أبواب الرفعة عند الله وعند الناس، فحين يتعامل الإنسان مع غيره معاملة طيبة، وحين يقدم الخير إلى الآخرين فإنه يتقرب بذلك إلى الله، وفي ذلك عزة أي عزة، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في تواضعه الكامل حين كان يتعامل مع الناس، وحري بنا أن نمارس هذا السلوك لنجني الثمار الطيبة حين تترابط الوشائج، وتتآلف القلوب، فتصبح كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

٥ ـ النصيحة: وقال ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»(٦)، والقصد من النصيحة التقرب إلى الله، وتلافي الأخطاء والزلل والتوبة منها، والمؤمن مرآة أخيه، يُوجهه ويرشده، ويقوم اعوجاجه بأسلوب رفيق، ومن هنا عدت النصيحة بمثابة الهدية.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي».

وقال الصديق أبو بكر بعد أن بويع بالخلافة: إن أحسنت فأعينوني، وإن

---

(١) الشورى: ٢٥ .
(٢) الشورى: ٤٠ .
(٣) التغابن: ١٤ .
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٥) الإسراء: ٣٧ .
(٦) أخرجه البخاري (٤٢)، ومسلم (٥٥).

أسأت فقوموني.

٦ ـ **الأمانة والوفاء:** قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾(٢) الأمانة يزكو بها المسلم ويكتسب ثقة الآخرين، وقد كان أهل مكة يطلقون على رسول الله ﷺ ـ قبل بعثته ـ الصادق الأمين، وجاء في قصة موسى عليه السلام حين توجه إلى مدين، وسقى للمرأتين: ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾(٣). والوفاء خصلة من الأمانة، والمؤمن يفي بوعده، وينجز عهده، والمنافق على خلاف ذلك، ولذا قال ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»(٤)، والكذب والخلف والخيانة آفات تفكك المجتمع وتثير فيه الأحقاد، وتختل به الأعمال، والمجتمع المسلم بريء من هذه الآفات؛ لأنه قائم بالأمانات، وَفِيٌّ بالعهود، بعيد عن الكذب، وأكبر الأمانات الدعوة إلى الله والقيام بأعبائها قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾(٥).

---

(١) النساء: ٥٨. (٢) المائدة: ١.

(٣) القصص: ٢٦.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧).

(٥) الأحزاب: ٧٢.

٢ ـ أخلاقنا الإسلامية قوة

نظرة على الواقع:

الأخلاق الإسـلامية ليست مـوجودة ـ اليوم ـ إلا عند آحـاد من الناس بفعل الطباع الإنسـانية التي تميل إلى الخلود إلى الأرض، وتضـعف عن ضوابط السـمو والرقي، وبفعل وسائل الاتصال العصرية، ووسائل الإعلام المختلفة التي يرى من خلالهـا المشاهد، ويسمع السامـع، ويقرأ القارئ، كل يوم العشـرات من عادات وتقاليد الشعوب الغربية والشرقية، المستخلصة مما يعتقدون من عقيدة، ويدينون به من دين رضيناه أم خالفناهم الرأي فيه.

ومن المؤسف المزري أن أخـلاق الإسلام تتـراجع في النفوس ليـحل محلـها أخلاق أخرى، حتى احتلت أخلاق الآخرين مـساحة واسعة من نفوس المسلمين، ومسـاحة واسعة من حـياتهم وعاداتهم وتقـاليدهم في الملبس والمأكل والاجتـماع والأفراح والأعياد، والحروب، والمآتم، والأحزان.

ونحن ـ بالطبع ـ لا نتحدث هنا عن بلد بعينه ـ صـغر أو كبر ـ وإنما نتحدث عن مسـاحة عظيـمة شـاسعة من الأرض يغطيـها دين الإسـلام، ويسكن فوقـها مسلـمون تعددت لغـاتهم وألوانهم وأجناسـهم، ولكنهم يتظللون جـميعـا بمظلة الإسلام، نقول هذا حـتى لا يقال لنا: إن بلد كذا ليس فيهـا كذا، وبلد كذا ليس فيها كذا، ونحن ـ كذلك ـ نتحدث عن الغالب، وليس عن العموم.

ولسنا ننكر أن مساحـة الأخلاق غير الإسلاميـة بدأت تنحسر من هنا أو من هناك لتفسح بعض أمـاكنها للأخلاق الإسلاميـة، التي بدأت تمتد بفعل المزيد من الوعي الديني، وظهور الصحوة الإسلامية، غير أن هذا لم يغير من الواقع كثيرا.

فلمـاذا عمت أخـلاق غـير المسلمـين ديار المسلمين؟ وكيـف يمكن التمـسك بأخلاق الإسلام؟ وما أثر التمسك بهذه الأخلاق؟

الخلود إلى الأرض وضعف الهمة، والتأثر بأخلاق الشرق والغرب التي تنقلها وسائل الاتصال والإعلام، هي أعراض لمرض واحد، هو فقدان التمسك الصحيح

بالدين، الذي منه وعنه ظـهرت الأخـلاق الإسلامـية، ولـسنا نفصل الجـزء عن الكل، فالأخـلاق جزء من الدين، فإن جـعلت الأمة ـ مـعظم بلاد الأمة ـ الدين وراءها ظهريا. فكيف تتمسك بجزء منه، وحتى أن كثيرين من المسلمين الحريصين على شعـائر الدين تراهم أمام بعض أخلاق الإسـلام ضعيفين؛ لا يتـورع أحدهم عن أن يغش في بيع، أو يحلـف لينفق سلعة، أو يـكذب ليرضي الآخـرين، أو يدلس ليصل إلى مـأرب، أو لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر حـتى لا يضيق به الناس، أو غيـر ذلك، وأخلاق الإسلام رفـعة لأصحابهـا وسمو لهم، وتبـعة عليهم في نفس الوقت، فهي تقتضي جهدا مضاعفا، ويقظة دائمة، واتصالا بالله في كل حين، وهل يتحقق ذلك لمجموع الأمة في كل حين وفي كل مكان؟

وأزيدك بيانا فأقول:

ما القوة الغائبة عن مجموع الأمة؟

الإسلام يحمي الإنسان:

يصنع الدين الصحـيح سياجا يـحمي الإنسان، وحصنا يأوي إليـه المرء، فلا يجرفـه التيـار، تيار الانهـيار السـائد بين أفراد البـشر، والذي يكاد يجـرف أبناء المسلمين، ليكونوا كغيرهم، لا يعصمهم عـاصم، ولا يحميهم من شرور أنفسهم وشرور الحياة مـن حولهم حام، وليس هذا السياج سورا حـول بيوتهم ولا حول بلادهم؛ فذلك مـا عاد يجدي نفـعا، ولا يغني أمـام وسائل الاتصالات الحـديثة فـتيـلا، إن هذا السـيـاج هو من الأفـراد في القلوب، ومن الأمم في الوجـدان والشعـور، بغيره يـأتي السيل الجارف الذي يقـضي على الأخضـر واليابس؛ لأنه يحول الأفراد من مدافـعين عن الحق أمام الشر والباطل والفساد إلـى مفسدين في الأرض، ينشرون الضلال، ويثيرون بين الناس الجدال، ويرتكبـون في مجتمعاتهم أسوأ الخـصال والأعمال، دون أن ينال منهم قـانون البشر لعـجزه وضعفـه وعدم جدواه أمام المتسربين من بين مواده وطواياه.

أخلاق الإسلام قوة:

إن الأخلاق المستمـدة من القرآن قوة للأمة، وحياة لأبنائهـا وحماية لأفرادها ورفع لراية الكرامة الإنسانية، فهو في عـزة بغير ذل، وصلابة في الحق بغير وهن

ولا ضعف، وإن فقد الإنسان روحه في سبيل شرفه وعرضه أو ماله وأرضه، وتحمل للشدائد وتجلد للمصائب وثبت أمام المغريات، وصبر على الملمات حتى تنقشع سحابتها، دون أن يستخزي الإنسان أمام الأعداء.

ومن هنا كان حرص الإسلام على تنمية الأخلاق لدى أبنائه بجعلها دينا يحاسب عليه المرء أمام الله؛ لينتفع المسلمون بثمارها في الدنيا قبل أن ينتفعوا كذلك بثمارها في الآخرة، فأما ثمارها في الدنيا فقد حدثناك عن بعضها في الكلمات السابقة، وأما ثمارها في الآخرة فقد أخبرنا بها رسولنا الكريم ﷺ، الذي ما ترك بابا من أبواب الخير إلا ودلنا عليه، وما ترك بابا من أبواب الشر إلا وحذرنا منه قال ﷺ: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**»(١)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «**حسن الخلق وتقوى الله**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «**الفم والفرج**»(٢).

وبالخلق تقوم الأمم وتنتهض وترقى وتتقدم، وبغيرها يتداعى البنيان، ويزيد ركام الشر والفساد حتى تزول الأمم فتصبح عند الناس أثرا بعد عين، وقد كان أمير الشعراء محقا حين قال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

العدو وهدم الأخلاق:

وأعداء الله، أعداء دينه لا يريدون لأمة الإسلام أن تستيقظ من سباتها، ولا أن تتنبه من غفلتها، والسبيل الوحيد أمامهم هو هدم الأخلاق في بناء الأمة وإزالتها من قلوب الأفراد، فيكون الفرد ـ من غير خلق ـ واهنا ضعيفا، وبالتالي فهو في أمته لبنة هشة سرعان ما تتفتت أمام أهون الضربات وأقل العواصف والنكبات، وقد حرص المبشرون أعظم الحرص على استخدام هذا الطريق، الذي هو أقرب الطرق الموصلة إلى غايتهم في التحطيم والهدم، يقول زويمر مخاطبا المبشرين: «إن مهمتكم أن تجعلوا المسلم لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وقال: «حسن الإسناد»، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وحسنه الألباني.

بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولن يتيسر ذلك إلا إذا انتشرت العلمانية بين أبناء المسلمين».

ويقول جب مبينًا طريق السلامة على المسلمين المتمثل في مسخ أخلاقهم: «وهذا يتوقف على حد بعيد على القادة في العالم الإسلامي، وعلى الشباب منهم خاصة، وكل ذلك عن طريق نشر العلمانية».

وبداية هذا الطريق ـ طريق تفريغ المسلمين من أخلاقهم الإسلامية ـ الحط من قدر العاملين في الشؤون الدينية الإسلامية حتى تسقط هيبتهم أمام الجماهير ويضعف تأثيرهم فيسهل الطريق على أعدائهم، ومن ثم حورب العاملون للإسلام أعظم محاربة، ونالهم الاستهزاء من الأقرباء قبل الأبعدين، وضيق عليهم في أرزاقهم وأعمالهم، وشوهت صورتهم في أجهزة الإعلام، وافترى عليهم المفترون بالإفك والزور والبهتان، وفي نفس الوقت يعلى من أمر الخارجين على حدود الدين، الساقطين في أوحال الطين ، المتسترين تحت بريق الأسماء، يلبسون ثوب الفن، وينشرون من خلاله العهر والفجور، ويعلنون بين الناس الفحش وشرب الخمور، ومع ذلك فلهم التقدير، والجوائز تنتظرهم، والصحف تتلقف أخبارهم، فلا تعادل بين كفتي الميزان، تطيش فيه كرامة رجال الدين، ويعلو قدر غيرهم من الهدامين للأخلاق العاملين على إشاعة الفاحشة بين المسلمين، وانتشرت أشرطة الفيديو، وزاد توزيعها، وأقيمت لها الأسواق، وانتشر الأدب الرخيص بين الشباب المسلم، وهذا ما يتفق مع خطة أعداء الله وأعداء الدين، بهدم الأخلاق في نفوس الناس فتسهل قيادتهم، وتضعف أمام الأعداء مقاومتهم.

يقول اليهود في البروتوكول السابع عشر: «لقد عنينا أصدق العناية منذ أمد طويل بالحط من قيمة رجال الدين وتحطيم رسالتهم»، وهم لا يخفون وسيلتهم لذلك؛ إذ يقولون: «ستقوم صحافتنا دائما بتقديم تعابير محقرة تقرب من حد الإهانة للتعريض بالشؤون الدينية».

ولو استعرضنا ما فعله حكام المسلمين، وما نال المسلمين من استهزاء وسخرية وتحقير من رجال الإعلام في كثير من بلادنا لعلمنا إلى أي مدى ينجح العدو في تطبيق ما يريد بأيدينا وبأموالنا، وبجهود بعضنا يضرب ضربته محطما أخلاق

الأمة وهو متوارٍ عن الأنظار، لا يثار نحوه من الاتهامات غبار.

إن اليهـود في البروتوكـول الرابع عشر يـقولون: لقد خلقنا فـي البلاد التي تسـمى بالمتحـضرة أدبا قـذرا لا منطق فيـه، ونحن نرى آلاف الناس في كل يوم يضعـون أنفسهم تحت تصرف أشـرطة الفيديو والسـينما التي غدت تحت التوجـيه اليـهودي، وعنوانهـا الطيش والشـهوات الجنسـيـة، والانحطاط الخلقي، فغـدت للأفلام والمسـرحيات تأثيـرات مذهلة في الضوء والحـركة من غيـر أن نجد أفكارا مغايرة أو توجها بناء.

والعجب في بلادنا أن الأمور تكال بكيلين وتوزن بميـزانين، فتجار المخدرات يلاحقـون من الشرطة ويطاردون قانونيًا، وهم مـجرمون؛ لأنهم يسمـمون الأبدان والأجساد. أما الذين يسممون النفوس، ويفسدون القلوب، ويغيرون الضمائر، فلا غبار عليهم ولا تثريب، بل إنهم مُكرَّمون، يحتفى بهم في كل مكان وفي كل حين.

إن الذين يُروِّجون الخمور والعهـر والفساد وأفلام الطيش والجنس، هم الذين يريدون للأمة السقـوط، وهم الذين يرجعون بالشباب من هبـوط إلى هبوط، فلا مخـرج إلا باتباع أخـلاق القرآن ومنهج رسول الأنـام، وهو القائل: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، وقد كان ﷺ (خلقه القرآن).

والأخلاق الإسلامية هي مُنْشِئَةُ الفـضائل،فلا بد من المحافظة عليها في السر والعلن، والأخلاق الإسلامية هي السـياج من الرذائل، وهي الحصن الذي يحفظ من الشرور والآثـام. وأينما حللت وحيـثمـا توجهت وجـدت من هذه الأخلاق دسـتورا يأبى الشـدة من الأعداء، ويأبى كـذلك الغلظة أو القـسوة مع الأقـارب والإخوة والأصدقاء.

وكفـى به دستورا، وأنـعم به من منهج يجمع ولا يفـرق، يؤلف ولا يمزق، يكف الأقوياء عن أن يَظْلِموا، ويقوي الضعفاء حتى لا يُظْلَموا، يجعل الغني لا يتكبر على الفقير، ويجعل الفقيـر لا يتذلل أمام الغني، تحقق به الأمة المسلمة قول الله: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ (٢).

---

(١) سبق تخريجه. (٢) الفتح: ٢٩ .

٣ـ حسن الخلق

الأثر الواضح في الدنيا والآخرة لمن حسن خلقه، وجمع له الله بين التقوى وحسن الخلق، قال ﷺ: «**أكثر ما يُدخل الناس الجنَّة تقوى الله، وحسن الخُلُقِ**»(١).

وحسن الخلق يؤدي إلى السلامة، ويأمن صاحبه الندامة، وقد قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٢).

فانظر أخي المسلم إلى الأثر العظيم والثواب الجزيل لهذه المنقبة المحمودة، فقد قال ﷺ: «**إن الرجل يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»(٣).

وقد جمعت علامات حسن الخلق في صفات عدة: أن يكون الإنسان كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاة، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برا، وصولا، وقورا، صبورا، شكورا، راضيا، حليما، رفيقا عفيفا، شفيقا، لا لعانا ولا سبابا، ولا نماما، ولا مُغتابا، ولا عجولا، ولا حقودا، ولا بخيلا، ولا حسودا، بشاشا، هشاشا، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله، ومن حسن الطبع مقابلة الشر بالإحسان؛ فشتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته قال ابن عباس: «يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنكس الرجل رأسه واستحى».

وقد ذكر علقمة العطاردي أثر حسن الخلق في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة، فقال: «يا بُني، إذا عُرضت لك صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإذا صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة أعانك، واصحب من إذا مددت يدك بخير مدها. ويحكى أن الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ كان في الحرم فجاء خُراساني يبكي، فقال له: لماذا تبكي؟ قال: فقدت دنانير، فعلمت أنها سرقت مني، فبكيت، قال: أتبكي من أجل الدنانير؟ قال: لا، لكني بكيت لعلمي أني سأقف بين يدي الله أنا وهذا السارق، فرحمت السارق فبكيت.

(١ـ ٣) سبق تخريجها.

وإن رأى منك حسنة عـدها، وإن رأى سيئـة سدها، اصحب من إذا سـألته أعطاك، وإن سكت ابتـدأك، وإن نزلت بك نازلة واسـاك، اصـحب من إذا قُلت صدق قـولك، وإن حاولت أمـرا أمرك، وإن تنازعـتمـا آثرك، فكأنه جمع بـهذا جميع حقوق الصحبة وشرط أن يكون قائما بجميعها.

والإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ أفاد بعلمه وأشفى ببيانه فقال: «الانقباض عن الناس مكسبـة للعداوة، والانبساط إليـهم مجلبة لقرناء السـوء، فكن بين المنقبض والمنبسط:

وصاحب بمعروف وجانب من اعتدى وفـارق ولكـن بالتـي هـي أحسـن

وعندما سُرِقَ للربيع بن خثيم فرس أعطي به عشرين ألفا، فقالوا له: ادع الله عليه، فقال: اللهم إن كان غنيا فاغفر له، وإن كان فقيرا فأغنه.

قال شقيق البلخي: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منفعتها واحذر أن تحرقك.

قال محمد بن المنكدر: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

وقال حاتم الأصم: تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فـاذكـر سمـع الله منك، وإذا سكت فـاذكر علم الله فـيك. وقـال الشافعي: الخير في خمسة: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، والتقوى، والثقة بالله.

قال عبد الله بن أحمد: إني ما رأيت أحدا أنظف ثوبا، ولا أشد تعهدا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوبا وأشد بياضا من أحمد بن حنبل. واحتجم داود الطائي، فدفع ديناراً إلى الحجـام، فقيل له: هذا إسراف، فقال: لا عبادة لمن لا مروءة له!!

الأخلاق المحمودة:

ذكر القـرطبي الأخلاق فقال: الأخـلاق.. أوصاف الإنسان التي يعـامل بها غيره، وهي محـمودة ومذمومة، فالمحمودة ـ على الإجـمال ـ أن تكون مع غيرك على نفسك، فـتنصف منها، ولا تنتـصف لها، وعلى التـفصيل: العـفو والحلم

والجود والصبر وتحمل الأذى، والرحمة، والشفقة، وقضاء الحوائج، والتواد ولين الجانب، ونحو ذلك.

فأمر الأخلاق باختصار كما يجمله هذا الإجمال . . أن تكون مع غيرك على نفسك تنصف منها . . ولا تنتصف لها.

فالأخلاق تكون حين تكون مع الآخرين ضد نفسك، تنتصر لهم منها، وتجبرها على تحمل الأذى منهم، وعلى السكوت في ميادين الذات، ومادامت هناك أخلاق فهناك أمة، ونقرأ حديث رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»(١)، فنرى أن النبي ﷺ جعل الهدف من بعثته إتمام مكارم الأخلاق، وكان في حديثه هذا أكبر علامات مكارم الأخلاق هو ﷺ، فالنبي ﷺ لم يقل: «بعثت لأعلمكم مكارم الأخلاق»، ولكن ليتممها، أي أننا أصحاب أخلاق وجاء ﷺ ليتممها.

فأخرج أبو داود عن أنس # قال: كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب ـ وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ قال: فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قابض بقفاي من ورائي فنظرت إليه ـ وهو يضحك ـ فقال: «**يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟**»، قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته سبع سنين أو تسع سنين، ما علمت أنه قال لشيء صنعت، لم فعلت كذا وكذا، ولا لشيء تركت : هلا فعلت كذا وكذا(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر . . (٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣) واللفظ له.

(٣) البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤).

حسن الخلق من طرق الجنة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**»[١].

وبيوت الجنة تختار أصحابها حسب ارتقاء أخلاقهم، فالبيوت العالية لأصحاب الأخلاق العالية، وكلما ارتقى الخلق ارتقت البيوت.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[٢].

فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهو حسن الخلق، والأوسط لأوسطها، وهو ترك الكذب، والأولى ـ وهو ما حول الجنة ـ لأدناها؛ وهو ترك المماراة ـ الجدل ـ وإن كان معه الحق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

الخلق إيمان:

فالإسلام لم يحث على حسن الخلق فحسب، بل بين أن ضعف الخلق دليل على ضعف الإيمان، فعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[٣].

والنبي ﷺ يربط دائما بين دقائق الأخلاق والإيمان، فعن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»[٤].

هي في النار:

عجبا لهذه العابدة المستزيدة من الصلاة والصيام والذكر، كيف تكون في النار؟

(١، ٢) سبق تخريجهما.
(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٦).
(٤) أخرجه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال ﷺ: «**هي في النار**». قال: يا رسول الله: فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وأنها تصدق بالأثوار[١] من الأقط ـ أي بالقطع من الجبن ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال ﷺ: «**هي في الجنة**»[٢].

بل إن كمال الإيمان وزينته تكون بحسن الخلق، فعن عائشة $ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم وألطفهم بأهله**»[٣].

الطباع تتغير:

فلو كانت الأخلاق لا تقبل التغير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما قال رسول الله ﷺ: «**وخالق الناس بخلق حسن**»[٤].

وكيف ينكر هذا في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق.

الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

الأخلاق الحسنة يمكن اكتسابها بالرياضة، وهي تَكَلُّف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح حتى لا تترك إلا على وفقها لا محالة، وكل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب وهكذا.

وتارة تكون الأخلاق الحسنة بالطبع والفطرة، وتارة تكون باعتياد الفعال

(١) الأثوار: جمع ثور. وهو القطعة من اللبن المجفف.

(٢) أخرجه أحمد (٢ / ٤٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٦٢): «رواه أحمد ورجاله ثقات»، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٧٣)، وقال: «رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ»، وقال الذهبي: «فيه انقطاع»، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٩٩٠).

(٤) سبق تخريجه.

الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح؛ إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا، فمن تظاهرت في حقه الجهات حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة، ومن كان رذلا بالطبع، واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم، وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل، وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات، ولكل درجات في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)**﴾(١).

(١) الزلزلة: ٧،٨ .

٤ ـ الأخوة

مكانة الأخوة:

الأخوة في الله، هي: الحقيقة الإيمانية التي تمتد لتتعدى حواجز الزمن، وتتجاوز روابط الدم والنسب، فتستقر عند قوله تعالى: ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾(١)، حقيقة تصل في نهايتها إلى هذه المكانة من رب العالمين تستحق منا أن نتواصى بها ونتدارسها، ونتعبد الله من خلالها.

والأخوة من مستلزمات الإيمان، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾(٢).

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله: «هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى، وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة، يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية (أعداء)، وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد، وهما الحيان العربيان في يثرب التي يجاورها اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا، ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه، فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام، وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمته إخوانا».

فالأخوة في الله رباط إيماني يقوم على منهج الله، ينبثق من التقوى، ويرتكز على الاعتصام بحبل الله، فهي رباط إيماني؛ إذ لا إخوة بدون إيمان أو تقوى، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾(٣)، ويقول سبحانه: ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾.

---

(١) الزخرف: ٦٧.
(٢) آل عمران: ١٠٢، ١٠٣.
(٣) الحجرات: ١٠.

في حقيقة الصحبة والأخوة:

أ ـ واجبات وحقوق: فالتعاون مظهر كـريم من مظاهر الأخوة، وهدف كبير من أهدافها، كما أمر بذلك الحق عز وجل: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾(١).

وصوره النبي ﷺ بأروع معنى قال: «**المؤمن للمؤمن كـالبنيان يشد بعـضه بعضا**»(٢)، ويرتقي التعاون إلى مـراتب عالية سامية ليصل إلـى مرتبة الإيثار، لما قدم المهاجرون المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سـعد لعبد الرحمن: أنا أكـثر الأنصار مالا، فأقـسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فـانظر أعجـبهمـا إليك فسـمها لي أطـلقها، فـإذا انقضت عـدتها فتزوجها.

قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقضى إلا ومعه فضل من أقط وسمن.

ب ـ توفيق قـد لا يتكرر: قال عـمر بن الخطاب: «إذا رأى أحـدكم ودا من أخيه فليتمسك به، فقلما يصيب ذلك».

والأخوة الإيمانية مستمرة مـتصلة لا يقطعها غنى ولا فقر ولا مرض، بل ولا حتى الموت، فـفي عرصـات الحشر تنقطع الوشـائج إلا وشائج الأخـوة الإيمانية، ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾(٣)، ويستمر عـقد الأخوة هذا إلى الآخـرة، حيث لا يرى بعض أهل الجـنة إخوانهم الذين كـانوا مـعهم في الدنيـا فيسألون ربهم ـ عز وجل ـ عنهم، وقد صور النبي ﷺ ذلك الموقف بقوله: «**ما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا أشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخـوانهم الذين أدخلوا النار، قال: يقـولون: ربنا إخـواننا كانوا يصلون مـعنا، ويصومـون معنا، ويحـجون معنا، فـأدخلتهم النار، فـيقول: اذهبـوا فأخـرجوا من**

---

(١) المائدة: ٢ .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥١٥).

(٣) الزخرف: ٦٧ .

عرفتم منهم»[١].

جـ ـ تنطلق من نفسية التسامح والتغافر: قال الإمام الشافعي: «من صدق في أخوة أخيه: قتل علله، وسد خلله، وعفا عن زلله».

والمسلم لا يقف عند خطأ الآخرين بل يردد:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا ... فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا

والعتاب يفرح الواشي، فلنسع لإسكات صوت الفتنة:

تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى ... ولا سمع الواشي بذاك ولا درى

تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا ... وحتى كأن العهد لم يتغيرا

ولذلك قال ابن السماك لصديقه الذي قال له: «الميعاد بيني وبينك غدا نتعاتب، فقال: بل الميعاد بيني وبينك غدا نتغافر».

من سبل تحقيق الأخوة:

١ ـ إفشاء السلام:

السلام عند اللقاء هو مفتاح أبواب القلوب، ولقاح المحبة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[٢].

وليس المقصود بإفشاء السلام هو النطق باللفظ وإنما تحقيق معانيه، فإذا أقبل الأخ على أخيه وقد علته البشاشة، وفاض وجهه بالغبطة، وصافحه بحرارة فقد تحقق معنى من معاني إفشاء السلام، وكتب له أجر على ذلك، قال ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[٣].

٢ ـ الزيارة واللقاء الأخوي:

فزيارة الأخ من أعظم الطاعات وأجل القربات، ولذلك حث إليها ورغب

---

(١) أخرجه النسائي (٥٠٢٥)، وابن ماجه (٦٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

فيها رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة؟ النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والصديق في الجنة، والمولود في الجنة، والرجل يزور أخاه من ناحية المصر في الله في الجنة**»(١).

٣ ـ إدخال السرور إلى قلب أخيك:

ومن أعظم ما يربط القلوب ويأسرها ويفرحها ويسرها الإحسان إليها والقيام على خدمتها وبذل المعروف إليها، ففي حديث عبد الله بن عمر ٪ مرفوعا: «**أحب الأعمال إلى الله عز وجل: سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينا، أو تطرد عنه جوعا، ولئن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلى الله من أعتكف في هذا المسجد (المسجد النبوي) شهرا، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام**»(٢).

٤ ـ الإحساس بمصائب أخيك:

إن مما يقطع حبال الأخوة ويوهنها أن تكون ميت العاطفة، قليل الاكتراث بما يحصل لأخيك من أفراح وأتراح، ومن فَقُهَ الإسلام يرى واجبه أن يفرح لفرح أخيه، ويحزن ويتألم إن مسته ضراء، والتألم الحق هو الذي يدفعك دفعا إلى كشف وتنفيس كربة أخيك، فلا تهدأ حتى يزول كربه .

وهذا هو أبو سليمان الداراني يعلم أبناء عصره هذه الصفة الأساسية، فيقول ـ رحمه الله: «إني لألقم اللقمة أخا من إخواني فأجد طعمها في حلقي».

ويقول سعيد بن العاص: «إني لأكره أن يمر الذباب بأخي مخافة أن يؤذيه».

من ثمار الأخوة:

١ ـ التناصح لا التفاضح:

التناصح بين الأخوة في الله من أركان أخوتهم، وعليه بايع الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩ / ١٤٠) (١٥٩٧٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٦٦٣): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه السري بن إسماعيل وهو متروك»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٩٤١): «صحيح لغيره».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٤٥٣)(١٣٦٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨)؛ «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف»، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٠٦).

بعض أصحابه، كما في حديث جرير البجلي: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

وفقه التابعون ومن جاء بعدهم من سلف الأمة هذا الركن في عقد أخوتهم وأخذوا ينبهون الخلف على أهميته، فهذا الحسن البصري ـ رحمه الله ـ نجده ملحاحا في الحث على هذا الخلق، حتى جعله ثلث الدنيا فقال: لم يبق من العيش إلا ثلاث: «أخ لك تصيب من عشرته خيرا، فإن زغت عن الطريق قومك، وكفاية من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جمع تكفى سهوها وتستوجب أجرها» .

فثلث زينة الحياة عنده في جيل التابعين: أخ ناصح مقوم لاعوجاج أخيه.

فالعين تبصر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة

فكن أنت لأخيك المرآة، ليكن هو لك كذلك، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر إخوانه بهذا المثل فيقول: المؤمن لأخيه المؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، والوسخ قد لا يخرج إلا بالحك وشيء من الخشونة، ولكن عاقبته النظافة والطهارة.

ويؤكد عمر بن عبد العزيز معنى وجوب النصحية من الإخوان ويرى أنها من أحسن الصلات فيقول: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه فقد أحسن صلته، وأدى واجب حقه».

٢ ـ التغافر:

التغافر والتسامح من خلق المؤمن الذي ينتحل الأعذار لإخوانه، ويحسن الظن بهم.

قال أخ في الله لابن السماك: «الميعاد بيني وبينك غدا نتعاتب، فقال له ابن السماك: بل الميعاد بيني وبينك غدا نتغافر».

أليس جمال الأخوة بل الحياة أن تضمر في قلبك أنك قد غفرت لأخيك تقصيره تجاهك كلما صافحته، وتقول ما قاله موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾(١).

---

(١) الأعراف: ١٥١ .

وإن كان لابد من كلمة عتاب فلتكن بالحسنى، فلا تخدش محبة إخوانك بكثرة العتاب:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنبا تارة ومجانبه
وإذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن الذي تُرضي سجاياه كلها كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه

٣ ـ التفقد:

فعندما يفتقد الأخ أخاه ينبغي أن يبادر لزيارته، لكي يسأل عن أخباره، ويطمئن على أحواله.

وإليك هذا المثل الطيب الذي قام به سلمان الفارسي في تفقده لأخيه أبي الدرداء، حيث يروي الإمام البخاري في صحيحه فيقول: آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما فقال له: كل.

قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان في آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا.

فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ: «**صدق سلمان**»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨).

٥ ـ بين المحبة النافعة والنصيحة الصادقة

الناس رجلان:

الناس رجلان إما على الحق فلا يستحق نصحا وإن أحببته، وإما على الباطل فلا يقبل نصحا وإن بذلته؛ إذ يرى أنه في غنى عنه، ولا يمكن أن تقوم صلة مع أمثال هؤلاء من أي نوع ما فكيف تكون صلة محبة؟!

وأفضل الرجال من لا يألم إن نصحته حين يفعل ما يستوجب النصح؛ لأنه يدرك أنه غير معصوم، وأن الناصح له يريد أن يرشده، وأن ينبهه إلى بعض ما فيه، فيقدم له أعظم هدية، هدية النصيحة، التي بها يتخلص من عيوبه، وينجو من الهوى وظلم النفس الأمارة، ويصبح بين الناس برًا كريما، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه فلا يضيق بنصيحة، بل ويقدر الناصحين ويعتبرهم أصحاب فضل عليه عميم، ولعل هذا المعنى هو ما قصده عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي».

المحبة والنصيحة: وكلا الرجلين لا نتخلى عن نصحه، ولا نعرض عن حبه، فلا نكون عونا للشيطان على الشارد البعيد، ولا نضن بإظهار الفرحة والرحمة، والمحبة بصاحب الحق القريب.

ونحن في ذلك بنور الإيمان نستضيء، وبهدي القرآن والسنة نهتدي، وبالسلف الصالح نقتدي، وقد قامت حياة المسلمين وتماسكت جوانبها، وترابطت لبناتها على الحب في الله وأدنى مراتبه سلامة الصدر من كل ما يشين ويبغض المسلم لإخوانه، فإذا سلمت الصدور حسنت النوايا في التصرفات، والتمس الناس الأعذار للمقصرين، وشاعت النصيحة الصادقة بين المؤمنين «**وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما**»(١) فلا يكتمل الإيمان إلا بالمحبة، ولا يقوم الإيمان الصحيح إلا بعد درجة المحبة التي يحققها الإنسان في نفسه، ثم يرتقي منها إلى درجة الإيمان يقول ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا**

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألباني.

تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١)؛ ولأن هذا الحب في الله أساس كل خير، به تتواصل القلوب، ويُعفَى عن المسيئين، ويُقدَّمُ العون للمحتاجين، ويُرحَمُ الفقراء والمساكين، وقد يصل الإنسان ـ بالحب ـ إذا رعاه ونمّاه إلى درجة الإيثار، فيقدم لمن يحبهم الكثير مما هو في حاجة إليه؛ ولأن الحب كذلك فلا ينبغي أن يُصانَ في السرائر ويظل في طي الكتمان، فالرسول ﷺ أمر بإعلان هذا الحب بين المحبين وإخبارهم به، فقال ﷺ: «**إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**»(٢)، وهذا أمر بالخير، وأولى بأمور الخير النابعة من القلوب أن تتحدث بها الألسن، وأن تشيع بين المؤمنين، ليعلم من لم يكن يعلم، أن الحب رباط متين، وأن على المسلم أن يبادل إخوانه حبا بحب ﴿ **وإذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾(٣)، فلا يخبر أخ أخاه بحبه له، إلا ويجلب من قلبه الرضا، ويزيل من نفسه الغضاضة، ويحيي عنده الأمل في أهميته كعنصر بشري فعال في مجتمعه يحرص عليه الآخرون؛ إذ هو بينهم محب محبوب إلف مألوف، فيسعد بالناس ويسعد به الناس، ويتحقق بينهم وبهم ومعهم الخير، «**ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(٤).

وعلى المسلم أن يخلص كل عمل يعمله لله رب العالمين وخاصة أعمال القلوب، ومنها الحب فلينظر الإنسان ما دافع هذا الحب؟ ولمن؟ ولماذا؟ إذ على إجابة هذه الأسئلة تترتب نتيجة هذا الحب، فينال المرء الثواب أو العقاب، فالذين: ﴿ **يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾(٥) والذين يحبون الشهوات، والفاحشة وما حرم من الملذات هم معذبون إن لم يتوبوا من ذنوبهم، ويعودوا إلى رشدهم، والذين يحبون الصالحين، ويقبلون على الصادقين ويميلون إلى الناصحين المخلصين هم معهم يوم الدين، يوم لا ينفع مال

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤). (٢) سبق تخريجه.

(٣) النساء: ٨٦ .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، والحاكم في المستدرك (٥٩)، وصححه ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣١)

(٥) النور: ١٩ .

ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والرجل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يخبره قائلا: يا رسول الله، إني إذا لم أرك اشتقتك فذكرت الآخرة، وإني إن دخلت الجنة لم أرك لأنك في درجة الأنبياء والمرسلين، وأنا بعيد عن هذه الدرجة، ويخبره الرسول بالقول المبين الذي فيه فصل الخطاب، «**المرء مع من أحب**»(١).

والمحبة ليست وقفا على الخلق وحدهم، ولا حكرا على البشر، إن الملائكة لتحب الصالحين، وإن الله ليرضى عن بعض عباده فيحبهم واقرأ قول الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾(٢)، فالمحبة هنا من العبد لله ومن الله للعبد، وهي محبة يرتفع بها قدر العبد على كثير ممن خلق الله، وطريق محبة الله معروفة لا خفاء فيها ولا لبس، إنه الأخذ بمنهج الله، والالتزام به وجعله سلوكا في الحياة، ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾(٣) واتباع الرسول ﷺ هو الموصل إلى محبة الله، وبهذا المنهج الذي يلتزمه المسلمون في جميع تصرفاتهم، وفي كل أحوالهم وأوقاتهم، أينما وجدوا وحيثما حلوا، بهذا المنهج يصلون إلى أن يحبهم الله، بل ونقول صادقين.

المحبة طريق الخير:

إن العبد لا يحقق لنفسه درجة الحب من الله فقط، ولكنه يحقق مع هذه الدرجة الرعاية من الله والتوفيق في كل أمور الحياة إن أخذ نفسه ـ بعد الفرائض ـ بالتزام النوافل أوليس رسول الله ﷺ هو القائل فيما يرويه عن ربه:

«**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، و...**»(٤)؟!

وإذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).
(٢) المائدة: ٥٤ . (٣) آل عمران: ٣١ .
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، يقبل عليه الناس ولا ينفرون، فهو لا يخدع ولا يغش ولا يفعل شيئا بعيدا عن الحق، متسامح في حق نفسه، متمسك بشرع ربه، لا يحيد إن حاد الناس، ولا يضل إن شرد الناس فهو مع الكتاب حيث سار ومع الحق حيث حل، ومع الله في كل حين.

والحب طريق للخير بين العباد والبغض طريق الشر، وهل يُجنى من الشوك العنب؟ إن الفطرة السوية التي استقامت على الجادة تدرك ما نقول، وهي تصدق بغير ما دليل أو بينة؛ لأنها تحس بذلك في ذاتها، وتعرف هذا من طبعها، والأمر لا يحتاج عندها إلى دليل؛ إذ هو من الوضوح بمكان عظيم، متى احتاج النهار إلى دليل؟ ولكن النفوس ليست سواء، والفطر المنكوسة موجودة بيننا، وقد تحتاج في بيان أن الحب إلى طريق الخير دليل ومرشد.

قد تنكرُ العينُ ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

ودليلنا قول الرسول ﷺ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم...**»(١).

والمحبة لا تخفى، فروائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتبدو عليهم وإن ستروها «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف ...**»(٢).

النصيحة مقياس الخير:

فالنصيحة التي هي الدين، كما أخبر الرسول الكريم، مقياس لاستمرار الخير والسعادة في الدنيا، وبعد عن الشقاء والضلال والعذاب، فإن تركت النصيحة وسكت عنها الناس؛ لأنهم يحبون المنصوحين كان العذاب المبين: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾(٣).

(١، ٢) أخرجهما مسلم (١٨٥٥).   (٣) الدخان: ٢٥ـ ٢٨ .

ذهبت عنهم نعـمة الله، وحلَّتْ بهم نقـمتـه، دون أن يأسى عليهـم أحد أو يحزن:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾(١).

ومع النصيحة لا تكون الفـضيحة والتشهير، بل الستـر، حتى لا يتسع الخرق على الراقع، وما لم يجـاهر الناس بمعاصيهم ويتـحدون شرع الله، فإن النصـيحة هي الطريق، والستر ثوب توارى بـه العورات، وتُغطَى به السوءات، ولنعلـم «**أن الله حيي ستير يحـب الحياء والستر**»(٢)، ولكن الستر وإن أجدى مع الأفراد، فإنه لا يجدي إن عمـت البلوى وقد عمت في ديار المسلمين، بعدم تطـبيق شرع الله، وعدم الأخذ بكل ما في كتاب الله مع أن فيه شرفنا وفيه عزنا:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾(٣).

والآيتان في سياقـهما وترتيبهمـا لكأنما تخبر ثانيتهمـا أن الذين لا يتمسكون بالكتاب يهلكهم الله، ويزيل دولتـهم، ويُذهب من الحياة شوكتهم فـيكونون غثاء كغثاء السيل، إن هم كتب لهم البقاء، وقـد يستأصلهم الله، ويستبدل بهم غيرهم ثم لا يفرطون مثلهم بل يتمسكون بالكتاب، ويقـيمون شرع الله فيجعلهم الله من الصالحين المصلحين:

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾(٤).

إن عبر الماضي أمامنا تـخبرنا بخبر السابقين فحين تمسـكوا بالقرآن، ومارسوا الإسلام خـضعت لهم الأمم، وأذل الله لهم العـظماء، وحين فرطوا فـي الكتاب كانت الهـزائم تتتابع، وحين ألقى المسلمـون دينهم خلفهم ظهريا يأخـذون منه ما يريدون ويتركـون ما لا يحبون صاروا أكـداسا من البشر فـوق رقعة من الأرض، مزينة بالمال والمتاع، وحوكم الإسلام نفسه بالمسلمين، فغفلتهم وتأخرهم، وسيطرة

---

(١) الدخان: ٢٩.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (٤٠٤).

(٣) الأنبياء: ١٠، ١١. (٤) الأعراف: ١٧٠.

الآخـرين على مقـدراتهم، ألصِـقَتْ كلها بدينهم والـدين منها براء، الدين قـوة والمسلمـون في ضـعف، والدين عزة والمسلمون في ذل، والـدين سيـادة ورقي والمسلمون على غير ذلك فأين هم من الدين؟

يا قومنا، إننـا لكم من المحبين، وهذا ما حَـدَاَ بنا لأن ننصح ونبين، ولو لم نحبـكم ما نصـحنا، لقد كـان رسول الله ﷺ وهو المحب لأمـته يحـذرها من المهلكات، دخل فزعـا على زينب فقال: «**ويل للعرب مـن شر قد اقـترب ...**»، فقالت زينب: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

٦ـ صلاح الأمة وخيريتها

منزلة النصيحة:

النصيحة داخلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مرحلته الوسطى التي بينها الرسول ﷺ بقوله: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١)، فالتغيير باللسان هو بغير شك نصيحة إن صدر عمن لا يملك إنزال العقوبة، فالرجل المار في الشارع لا يملك لصاحب السيارة شيئا، إن نصحه فلم يمتثل بينما شرطي المرور يملك إنزال عقوبة مالية أو غير مالية إن لم يمتثل صاحب السيارة لنصحه وينزل على أمره، وهذا مثال ونموذج لصلة النصيحة بالمرتبة الوسطى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أنه لا يلزم أن تكون كل نصيحة داخلة في هذه المرتبة، فقد تنصح ولدك المجتهد بالجد في المذاكرة، تأكيدا لأهمية هذا الأمر، وليس هنا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، وقد تنصح رجل الأمن بمزيد من اليقظة في الحراسة وليس هنا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فهما إذن يتداخلان أحيانا وينفصلان أحيانا، والأمر بالمعروف أعم من النصيحة؛ لأنه تغيير باليد أو باللسان أو بالقلب ولا غنى لمجتمع مسلم صغر أم كبر عن النصيحة ولا عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، الذي به صلاح الحياة، وحفظ الأمن، وثبات الحقوق، والوقوف في وجه الظالمين، ونصرة المظلومين، ورد العدوان عن المعتدين، وصفات الصلاح للأمة هذه مسؤولية كل فرد يعيش فيها، وإن اختلفت المسؤوليات باختلاف مكانة الأفراد ومواقعهم فهي ليست خاصة بالعلماء، وإن كان العلماء في مقدمتهم؛ لأنهم وارثو النبوة ومصابيح الهدى في سواد المحن والنكبات.

ولا نترك هذا الأمر دون مزيد بيان معتمدين على أدلة الكتاب الكريم والسنة المشرفة.

ضرورة النصيحة:

قال ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لله

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١)، وبالمناصحة تكون لنا الخيرية:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٢).

ومن ضرورة محبتنا لكل المسلمين في جميع بقاعهم أن نصدقهم في عظيم ما نحن فيه، وعظيم ما نحتاج إليه، فمحن المسلمين كثيرة وواجب على كل مسلم ـ بقدر استطاعته ـ أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، امتثالا لقول الرسول ﷺ: **« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(٣)، إنه نص السلامة كما قال ﷺ: **« من كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»**(٤).

هذه النصوص تلقي على المسلم تبعة كما تعطيه شيئا من الأمل إن هو تعامل معها بصدق، فواقعنا فيه حرقة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهناك خلف للوعد، وكذلك فسق ومجون مجاهر فيه، ومواضع تنتهك فيها حرمة المسلم وينتقص فيها من عرضه، فقد أصبحنا ظالمين لأنفسنا وظالمين لقيمنا ومبادئنا وإخواننا، مما يجعلنا نخاف المقت، ونحن لا يسعنا إلا أن نتمسك بنص حديث نبينا السابق، فنكره ما يصنع من مخالفة لشريعة الله ودينه، وننكر بكل وسائل الإنكار ما هو واقع من انحراف لعلنا بذلك ننجو برحمة الله وفضله.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب عام يمارسه الجميع وعلى الجميع، وذلك من أجل ألا تنزل اللعنة، قال الله تعالى: **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾**(٥).

فالوقفة الجادة في منظومة العمل واجبة من أجل تصحيح المسار لكي نحافظ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥).
(٢) آل عمران: ١١٠ .
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٤).
(٥) المائدة: ٧٨، ٧٩ .

على الأمة من الدمار والخراب قبل أن ينالهـا خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ومازلنا نلمح في أفق البلاد الإسـلامية شـعاعًا من ضـوء ينير للسالكين، إن خـرجوا من كهـوف الظلام وتمسكوا بالحق، وتركـوا الباطل، وأدركـوا أن المعروف ينبـغي أن يسود، وأن المنكر ينبغي أن يباد ويهلـك أو على الأقل يتوارى ولا يتبجح بما يملك من زينة الحـياة الدنيـا من شهوات ومـلذات وأموال وغيـرها، والباطـل ـ اليوم ـ منتعش، يصـاول في كل مكان ويجاهر أصحابه بين الناس بـالعصيان لغـيبة الحق عن الساحـة أو لخفوت صوته وقلة رجـاله المستمـسكين به، الذين يعلمون أن في غيبتهم عن السـاحة خرابها، وأن في وجودهم فيها وقيامهم ـ بـواجبهم ـ عمرانها وحتى لا تتكرر المأسـاة ويكثر الخبث وتحق السنة الكونيـة، فأم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها تسأل النبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ فيقول ﷺ: «**نعم إذا كثر الخبث**»(١)، وعمر بن الخطاب # يقول: توشك القرى أن تخرب وهي عـامرة؟ قالـوا: وكيف تخـرب وهي عامـرة؟ قال: «**إذا علا فـجارها على أبرارها وسار بالدنيا منافقها**»(٢)، وهكذا إذا كثر فيهـا الخبث السياسي والمصلحي والفكري، وأصـبح من به مس من الهوى هو الذي يسـمع له وتقدم له مـكبرات الصوت، ويعتلي الصـوت الفاجر ليختفي وينزوي صوت الحق والـدليل، ويستمر هذا الأمر حتى يحدث الطوفـان كما قال ﷺ: «**فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا**»(٣)، والأمة مهددة بالغرق إن حادت عن منهج الله، ولن يخرجها إلا الله سبحانه بالآلات الربانية:

﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾(٤).

ومن المسلم به لكـل طالب علم أن مـرتبـة الدعـوة إلى الله من أعلى وأرفع المراتب وأفضل القربات، ولم لا؟ وهي مهمـة الأنبياء وطريق الرسل والأولياء، وبها تنتشر الرحمات وتزال الضلالات، ويصلح حال الأمة ويعلو الحق، ويزهق الباطل.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦). (٢) كنز العمال (٣١٤٨٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).
(٤) آل عمران: ١١٠ .

ولذلك كثرت الآيات البينات، وتوجيهات الأحاديث الصحاح الواضحات الآمرة بالدعوة إلى الله، ومنها: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(١).

وقال ﷺ موضحا: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(٢).

وقد اتخذ العلماء هذا المنهج سبيلهم فأناروا أمام الناس مسالكهم ودروبهم، فهم كما قال الإمام أحمد ـ رحمه الله: يدعون من ضل إلى الهدى، ويُبصرونَ من هم على الأذى... يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله العمى، فكم من قتيل لإبليس أحيوه، وكم من ضال تائه وقد هدوه!.

ولذلك استحقوا أن تصلي عليهم النملة في جحرها والحيتان في البحر... فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، ولم لا؟ وهم القائمون بالتبليغ عن الله الآخذون بمهمة الأنبياء، بعد طي سجل الرسل بمحمد ﷺ وانقطاع الوحي من السماء، ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾(٣).

وهذا طريق المصلحين الناصحين فهم وسيلة من وسائل تحقيق الخير في الأمة، وهم وقاية لها من الهلاك والدمار واللعنة، وبهم يستمر خط الخير في صعود يتلقفه الأبناء عن الآباء، ويأخذه الصغار من الكبار، ويسير على هدى منه الذين ضلوا الطريق، فلا يتركون لعبة في يد الشيطان، بل ينتزعون من يده، ويطلقون في ساحة الحق والخير والهدى، فتستنير بصائرهم، وتزول الغشاوة عن أبصارهم.

إن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم عون للمظلومين، وقوة للمستضعفين، وسيف مصلت في وجه الظالمين، الذين يظلمون أنفسهم حين

---

(١) آل عمران: ١٠٤ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٩)، وقال: «حسن»، وحسنه الألباني.

(٣) البقرة: ١٤٣ .

يسيــرون على خطا الشيطان، ويظلمــون غيرهم حين يجـعلون غيــرهم تابعا لهم يعمل ما يعملون، ويرضى بما يرضون.

ولسنا نجعل لهؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر سلطة فوق السلطات ولكنا نقول: إنهم نور يضيء للناس وتبصرة للغافلين.

هل من خوف على الناصحين لقلة عددهم؟

قال الفـضيل بن عـياض: «لا تستـوحش طريق الهدى لقلة أهـلها»، والحق والتزام أهله به أمر في غاية الصعوبة ويزداد مـعاناة إذا كان الأمر معلقا بالآخرين، فالإمام أحــمد رضي الله عنه تحمل مــا لم تتحمله الجبــال، لاستشعاره المــسؤولية فكان يقول وهو ينظر إلى أهل بغداد: «أأهلك هؤلاء وأنجو بنفسي» ويقول: «كنت أصلي بأهل السجن وأنا مـقيد»، وهكذا أهل الحق لا يســتوحشــون قلة السالكين معهم، فكل محاسب بحسب مــا يؤديه اجتهاده في إنكار المنكر، فالناس في دائرة النجاة مــا داموا في فلك الإنكار- باليد واللســان والقلب - ولكن هلك من رضي وتابع، كمــا قال علي رضي الله عنه: «إنمــا يجمع الناس الرضا والـسخط، وإنما عقر ناقــة ثمود رجل واحد فعــمهم الله بالعذاب»، وأصحــاب الدعوات عودتهم حياتهم دروسا منها: التأني في اتخاذ قراراتهم فهم بفضل الله يستطيعون أن يقولوا : نعم أو لا ويتحملوا مــسؤولية الكلمة؛ لأنها نتجت بروية ودراســة، لا من عاطفة ومصلحة، وهذه الدقــة التي أكرمهم الله بها إنما هي عنوان رجولة عندهم يعــرفها الرجال، فــهم لا يمارون ولا يجاملون في كلمة الحــق يقولون ويتحــملون الكلمة بكامل تبعاتها كــسيرة أسلافهم ، ومناصحة كهذه مـتكاملة مع أخواتها الأخريات التي ذكرها الفـضيل حين قال: «لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صــيام ولا صلاة إنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة».

وهذا المنهج في النصح يصل بصــاحبه إلى مــا قاله الإمام البــخاري: «المادح والذام عندي سواء».

٧. غض البصر

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾(١).

وفي هذا الأمر بالغض أدب شرعي عظيم في مباعدة النفس عن التطلع إلى ما عسى أن يوقعها في الحرام، أو ما عسى أن يكلفها صبرا شديدا عليها.

وغض الطرف يكون لحالتين:

الأولى: حياء.

قال عنترة:

وأغض طرفي حين بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مثواها

الثانية: مذلة.

قال جرير:

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ويضاف إلى ذلك **حالة ثالثة:** وهي غض البصر طاعة لله تبارك وتعالى، وهي المأمور بها في هذه الآية الكريمة.

ولم يذكر في الآية ما الذي يغض البصر منه، ولكن سياقها ومجيئها بعد آية الاستئذان، وقد كان من أجل البصر، ومجيء آية حفظ الفروج بعدها يدل دلالة قاطعة على أن المراد هو غض البصر عما يحرم النظر إليه، ولا سيما النظر إلى النساء من غير القيود الشرعية في ذلك.

لذلك جاء في آية أخرى تهديد لمن لا يمتثل، ويغض بصره عن الحرام، وهو قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾(٢).

وجاء في الحديث: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزني، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر**...»(٣)، وقد فهم أهل العلم أن المقصود من الآية ما

(١) النور: ٣٠. (٢) غافر: ١٩.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

ذكرنا، فقد قال الإمام البخاري: «وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن، يقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ، قال قتادة: عما لا يحل لهم، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾(١) خائنة الأعين: النظر إلى ما نهى الله عنه».

قال ابن كثير: «إن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا».

وكما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته، ونوراً في قلبه.

قيل: من حفظ هذه الأربعة يحفظه الله: دينه، اللحظات والخطرات، واللقطات والخطوات، فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويُلازم الرباط على ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار متبرا ما علا تتبيرا، وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته، قال ﷺ: **«يا علي، لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»**(٢) .

قال ﷺ: **«النظرة سهم مسموم»**(٣)؛ لأن السم يسري إلى القلب فيعمل في الباطن قبل أن يرى عمله في الظاهر، فاحذر النظر فإنه سبب الآفات إلا أن علاجه في بدايته قريب، فإذا كرر تمكن الشر فصعب علاجه. فمن سرح ناظره أتعب خاطره، ومن كثرت نظراته ضاعت أوقاته ودامت حسراته، فيا من يريد السلامة، ويطلب الخلاص، غض من بصرك، وأقصر عن محارم الله طرفك، ولا تقلل من شأن النظر وتستصغره، فإن كل الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن

---

(١) النور: ٣١ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠ / ١٧٣)(١٠٣٨٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٩٤٦): «رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف»، والحاكم (٧٨٧٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٦٥): «ضعيف جدا».

معظم النار مبدؤها الشرر، تكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. قال الشاعر في الجواب الكافي:

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغيد موقوف على خطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

قال ﷺ يوما لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**يا علي إن لك كنزا في الجنة، فلا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**»[١]، يعني أن النظرة الأولى نظرة الفجأة من غير قصد يُمنح لك عفو بلا إثم، وليست لك الثانية إذا أتبعتها نظرة تمتع.

قال وكيع: خرجنا مع سفيان الثوري يوم عيد، فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا.

قال الفضيل: يقول إبليس: هو قوسي القديم وسهمي الذي لا أخطئ به يعني النظر.

قال ﷺ: «**النظرة سهم من سهام إبليس، فمن غض بصره لله، أورثه حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه**»[٢].

روى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: أرأيت الحمو؟ فقال عليه السلام: «**الحمو الموت**»[٣].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**»[٤].

كيف أغض البصر؟

الطريقة المثلى هي: استشعار عظمة الله، والشعور بأن الله ينظر إليك، وأنت

(١، ٢) سبق تخريجهما بالصفحة السابقة.
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢).
(٤) أخرجه البخاري (٥٢٤٠).

تنظر إلى محارمه.

يقول الحسن البصري وقد سألوه قالوا: كيف نستعين على غض البصر؟ قال: بعلمك بأن نظر الله إليك أسـرع من نظرك إلى المنظور إليه. هل تسـتطيع أن تنظر إلى فتاة وهناك من ينظر إليك ممن حولك من البشر؟ تستحي وتخاف.

فكيف تنظر إلى امرأة والله يراك، والله أغير على محارمه؟

يقول أحد الشبـاب: كنت أسمع داعية يدعو إلى الله باستـمرار في المساجد، يقول: فأتت مناسبة من المناسبات فـذهبت أنا وإياه في وليمة، وكنت أقود السيارة وكان بجواري، وفي الطريق دخلنا على إحدى القرى، وفـجأة عرضت أمامنا فتاة وكانت متبرجة.

يقول: فـأنا اعتـبرت هذا الموقف بمـنزلة الاختـبار لهذا الـداعية، فـجلست أرصده، أرى ماذا سيفعل، هل سـينظر أم سيغض بصره؟ يقول: فنظرت إليه وأنا أقود وإذا به منكس الرأس، نكس رأسه وهو يستـغفر الله عز وجل، يقول: فكان لهذا الـفعل منه أكبـر الوقع والأثر في قلبي؛ إذ إن هذا العـمل أثر بي أعظم من ألف موعظة سمعتها في غض البصر، لكن لما رأيته يغض بصره والمرأة أمامه وهو شاب مثلي، ولديه مـثلما لدي من الرغبة في النظر، ولكن الذي منعـه خوفه من الله. يقول: فغضضت بصري من ذلك الوقت، وسيصبح هذا الموقف مرسوما في عيني إلى أن أموت.

فوائد غض البصر:

١ـ تخليص القلب من ألم الحسرة.

٢ ـ يورث القلب نورا وإشراقا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح.

٣ ـ يورث صحة الفراسة.

٤ ـ يفتح له طرق العلم وأبوابه بسبب نور القلب.

٥ ـ يورث قوة القلب ويصبح له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة.

٦ ـ يورث القلب، سرورا وفرحا وانشراحا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر.

٧ ـ يخلص القلب من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه.

٨ ـ يسد عنه بابا من أبواب جهنم.

٩ ـ يقوي عقله، ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه، وعدم ملاحظته للعواقب.

إن مما يعين على غض البـصر المسارعـة إلى الزواج، قال ﷺ: « **يا معـشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(١).

كان مـالك بن دينار ـ رحمه الله ـ يـقول: «يترك أحـدكم أن يتزوج يتيـمة، فيؤجر فيها إن أطعمها وكسـاها، تكون خفيفة المؤنة ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان يعني أبناء الدنيا، فتشتهي عليه الشهوات وتقول: اكسني كذا وكذا».

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠).

٨ـ محاسبة النفس

لما كانت النفس من الأعداء الملازمين للإنسان في ليله ونهاره، وفي حله وترحاله، وكان من شأنها أن تزين له الباطل، وتدعوه إلى الدعة والكسل، وتسعى للإيقاع به في الزلل ـ لزم أهل العقول محاسبتها؛ لإيقافها عند حدها، ومنعها عن زيفها؛ اتباعا للمنهج القرآني: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾(١).

وهذا نبينا عليه السلام يقول: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله**»(٢).

قال الغزالي ـ رحمه الله: «اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس؛ لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾(٣).

وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ـ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه، وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولا، ويراقبه ثانيا، ويحاسبه ثالثا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعا، العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولا، فيوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم ير إلا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال.

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه

---

(١) الحشر: ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وضعفه الألباني.

(٣) الشمس: ٩، ١٠.

تجارة ربحها الفردوس الأعلى، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا».

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في إغاثة اللهفان:

«وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا ينتهي به إلى الهلاك، وهذا حال أهل الغرور؛ يغمض عينيه عن العواقب ويمشي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها، وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد».

فيجب أن يكون المؤمن محاسبا لنفسه مهتما بها، لائما على تقصيرها، قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله: «ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنه وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جميعا بين التقصير بل بين التفريط والأمن».

هكذا يقول ابن القيم عن نفسه وعصره!! فماذا نقول نحن عن أنفسنا وعصرنا.

أركان المحاسبة:

قال ابن القيم ـ رحمه الله: قال صاحب المنازل: للمحاسبة أركان ثلاثة.

أحدها: أن تقايس بين نعمتك وجنايتك، يعني أن تقايس بين ما من الله وما منك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، ومعلوم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النفس وصفاءها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ثم تقايس بين الحسنات والسيئات، فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدرا وصفة.

وثاني هذه الأركان: أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية، وبين ما لك وما عليك، فالذي لك هو المباح الشرعي، فعليك حق ولك حق، فأد ما عليك يؤتك ما لك.

الثالث: أن تعرف كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيرت

بها أخاك فهي إليك؛ لأن رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب ـ جل جلاله ـ ويليق أن يعامل به.

حاسب نفسك قبل أن تحاسب:

وهل حاولت يوما أن تعد سيئاتك كما تعد حسناتك؟ وكيف ستعرض على الله وأنت محمل بالأثقال والأوزار؟ وكيف تصبر على هذه الحال، وطريقك محفوف بالمكاره والأخطار؟!

يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ** ﴾(٢).

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية».

١ ـ كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل الشدة، عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة».

٢ ـ وقال الحسن رضي الله عنه: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همته».

٣ ـ وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

٤ ـ وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه

(١) الحشر: ١٨. (٢) الزمر: ٥٤.

الساعة عونا على تلك الساعات وإجماما للقلوب.

٥ ـ وكان الحسن البصري يقول: المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

٦ ـ وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل!!

٧ ـ وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله: ومن تأمل أحوال الصحابة وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن. هكذا يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن نفسه وعصره، فماذا نقول نحن عن أنفسنا وعصرنا؟!

محاسبة النفس نوعان:

١ـ محاسبة قبل العمل، وهو أن يقف العبد عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، قال الحسن ـ رحمه الله: رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

٢ ـ محاسبة بعد العمل:

وهو ثلاثة أنواع: الأسباب المعينة على محاسبة النفس.

أحدها: محاسبة النفس على طاعة قصرت فيها في حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

هناك بعض الأسباب التي تعين الإنسان على محاسبة نفسه وتسهل عليه ذلك، منها:

١ ـ معرفته أنه كلما اجتهد في محاسبة نفسه اليوم استراح من ذلك غدا،

وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا.

٢ ـ معرفته أن ربح محاسبة النفس ومراقبتها هو سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، ومجاورة الأنبياء والصالحين وأهل الفضل.

٣ ـ النظر فيما يؤول إليه ترك محاسبة النفس من الهلاك والدمار، ودخول النار والحجاب عن الرب ـ تعالى ـ ومجاورة أهل الكفر والضلال والخبث.

٤ ـ صحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم ويطلعونه على عيوب نفسه، وترك صحبة من عداهم.

٥ ـ النظر في أخبار أهل المحاسبة والمراقبة من سلفنا الصالح.

٦ ـ زيارة القبور والتأمل في أحوال الموتى الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم أو تدارك ما فاتهم.

٧ ـ حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير، فإنها تدعو إلى محاسبة النفس.

٨ ـ قيام الليل وقراءة القرآن والتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بأنواع الطاعات.

٩ـ البُعد عن أماكن اللهو والغفلة فإنها تنسي الإنسان محاسبة نفسه.

١٠ ـ ذكر الله ـ تعالى ـ ودعاؤه بأن يجعله من أهل المحاسبة والمراقبة، وأن يوفقه لكل خير.

١١ ـ عدم حسن الظن الكامل بالنفس؛ لأن ذلك ينسي محاسبة النفس ويجعل الإنسان يرى عيوبه ومساوئه كمالا.

إن محاسبة النفس تكون كالتالي:

أولا: البدء بالفرائض، فإذا رأى فيها نقصا تداركه.

ثانيا: ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة، والاستغفار والحسنات الماحية.

ثالثا: محاسبة النفس على حركات الجوارح مثل: كلام اللسان، ومشي الرجلين، وبطش اليدين، ونظر العينين، وسماع الأذنين، ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟

رابعا: محاسبة النفس على الغفلة وتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله.

فوائد محاسبة النفس:

لمحاسبة النفس فوائد جمة:

١ ـ الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

٢ ـ التوبة والندم وتدارك ما فات في زمن الإمكان.

٣ ـ معرفـة حق الله ـ تعالى ـ فإن أصل محاسـبة النفس هو محاسبـتها على تفريطها في حق الله ـ تعالى.

٤ ـ انكسار العبد وذلته بين يدي ربه ـ تبارك وتعالى.

٥ ـ معـرفة كرم الله ـ سـبحانه وتعـالى ـ وعفوه ورحـمته بعـباده في أنه لم يجعل عقوبتهم عاجلة مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.

٦ ـ الاجتهاد في الطاعة وترك العصيان لتسهل عليه المحاسبة فيما بعد.

٧ ـ رد الحقوق إلى أهلها، وسل السـخائم، وحسن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس.

وأخيرا قطار العمر قصير:

قال أبو الدرداء: إنما أنت أيام، كلما مضى منك يوم مضى بعضك، فيا أبناء العشرين! كم مات من أقرانكم وتخلفتم؟!

ويا أبناء الثلاثين! أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم!

ويا أبناء الأربعين! ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم!!

ويا أبناء الخمسين، تنصفتم المائة وما أنصفتم!! .

ويا أبناء الستين، أنتم على معـترك المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلـعبون، لقد أسرفتم!!

صور من محاسبة النفس:

عن حنظلة الأسـيدي رضي الله عنه وكـان من كتـاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قـال: قلت: نافق حنظلة قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نافق حنظلة.

قال: سبحان الله، ما تقول؟!

قال: نكون عند رسول الله ﷺ يذكر بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا.

قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**وما ذاك؟**».

قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ : «**والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات(١).

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه سمعت عمر بن الخطاب # يوما، وقد خرجت معه، حتى دخل حائطا فسمعته يقول: وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ، والله لتتقين الله يابن الخطاب أو ليعذبنك.

وعن سلمة بن منصور عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس، قال: كنت أصحبه، فكان علامة صلاته الدعاء، وكان يجيء بالمصباح، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حس(٢)، ثم يقول: يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفس، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

(٢) **حس**: كلمة تقال عند الألم.

٩ـ المجاهدة

المجاهدة: لغة: هي كما جاء في لسان العرب: الجَهْد: بالفتح المشقة والغاية، والجهْدُ بالضم: الوسعُ والطاقة، وجاهد العدو: قاتله في سبيل الله. **واصطلاحا:** هي المبالغة في استفراغ الوسع في الحرب أو اللسان، أو ما أطاق من شيء.

ميادين المجاهدة:

١ ـ النفس. ٢ ـ الهوى. ٣ ـ الشيطان.

٤ ـ الدنيا. ٥ ـ الكفار والمنافقون. ٦ ـ العصاة.

وعلى كل مسلم أن يستفرغ ما في وسعه لمجاهدة أعدائه والتغلب عليهم.

مراتب المجاهدة:

١ ـ الجهاد المالي. ٢ ـ الجهاد التبليغي.

٣ ـ الجهاد التعليمي. ٤ ـ الجهاد السياسي.

٥ ـ الجهاد القتالي. ٦ ـ الجهاد في فعل الخيرات.

وسنتناول بيان الوسائل المعينة على مجاهدة أعداء الإنسان أولا، ثم بيان معاني مراتب المجاهدة ووسائلها ثانيا.

مجاهدة النفس ووسائل مجاهدتها: تلزم مجاهدة النفس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾(١) ولقد بين الله للنفس ما ينبغي أن تأتي وأن تذر من خير وشر أو طاعة أو معصية، وعلى المرء أن يجاهد نفسه حتى لا تفارق الطاعة والخير، ولا تقع في الشر والمعاصي، ووسائل الإنسان في ذلك هي:

١ ـ معرفة حقيقة النفس:

حيث إنها لا تستقيم وتعدل في مطالبها وتطلعاتها وشهواتها إلا إذا استقامت على منهج الله الذي شرعه لعباده ـ وهو عليم بهم ـ وعرفت ربها بالتأمل في

---

(١) الشمس: ٧، ٨.

مخلوقاته وإدراك بعض نعمه، وأحبت الله وأحبت في الله، فقاومت حتى لا تقع فيما لا يرضاه الله، وحاولت السير على منهجه الذي ارتضاه، وأقامت الصلاة اقتداء برسول الله، الذي كان يقوم حتى تتورم قدماه، ليكون عبدا شكورا لله وعرفت أثر الحسنة والسيئة في الدنيا قبل الآخرة، قال ابن عباس: «إن للحسنة لنورا في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب، وسوادا في الوجه، ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضا في قلوب الخلق»، وعلى المرء أن يُجاهد نفسه لتفعل الحسنات، وتبتعد عن السيئات. وعلى قدر إيمان المرء ومعرفته بحقائق الأشياء تكون مجاهدته، فهذا أبو بكر يأتي بماله كله في سبيل الله ويقول للرسول حين سأله «**ماذا أبقيت لأهلك؟**»: أبقيت لهم الله ورسوله، وهذا عمر يأتي بنصف ماله. فتفاوتت المجاهدة بتفاوت الإيمان والعلم.

٢ ـ مجاهدة الهوى ووسائل مجاهدته:

قال تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ (١)، لقد ذم الله سبحانه من اتخذ إلهه هواه وجعله أضل من الأنعام، ويقول ابن القيم فيمن اتخذ إلهه هواه: «إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثر عنده وأحب من رضا مولاه، فالهوى إمامه والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور، ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه، وترضيه، والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه . . إلخ».

ومجاهدة هذا الهوى تكون بقراءة القرآن وتدبر آياته، فالقرآن شفاء لما في الصدور، وموعظة ورحمة للمؤمنين وقهر لأهوائهم، فمن قرأه متدبرا فقد امتلك وسيلة قوية لمجاهدة هواه، وتكون مجاهدته بمعرفة سنة رسول الله والاقتداء به، وبناء حياته على أساس من القرآن والسنة، والابتعاد عن أهل الأهواء ومعرفة

(١) الفرقان: ٤٣، ٤٤ .

عاقبتهم: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

٣ ـ مجاهدة الشيطان ووسائل مجاهدته:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٢) فالشيطان عدو ظاهر العداوة لآدم وذريته، فعليك أن تعاديه وألا تكون من حزبه، وتستفرغ وسعك في مجاهدته وسد مداخله إليك حتى لا يصحبك، فإنه لم يصحب إلا كل هالك مفتون ـ كما يقول ابن القيم ـ ومجاهدته تكون بذكر الله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣)، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ ﴾ السورة.

فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، ومجاهدته بملازمة الاعتصام بالله ومداومة الذكر له: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٤)، وتكون مجاهدة الشيطان أيضا بالإمساك عن فضول النظر والكلام، وقد أمر الله بغض البصر فقال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى ﴾(٥)، وقال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾(٦)، وحذر الرسول ﷺ من آفات اللسان: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟**»(٧) وفضول النظر والكلام هما أوسع مداخل الشيطان فعلى المرء أن يجاهد في سد هذه المداخل وغيرها وأن يذكر دائما أن الشيطان عدوه، وأن يكون على حذر دائم منه: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾(٨).

---

(١) الأعراف: ١٧٥، ١٧٦. (٢) فاطر: ٦.
(٣) الأعراف: ٢٠٠. (٤) العنكبوت: ٦٩.
(٥) النور: ٣٠. (٦) النور: ٣١.
(٧) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.
(٨) فاطر: ٦.

٤ ـ مجاهدة الدنيا ووسائل مجاهدتها: قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»(١)، ويتقي المسلم الدنيا بمعرفة صفة الجنة ونعيمها: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾(٢)، فالمسلم يتعامل مع الدنيا كما يتعامل الغريب في غير وطنه، «**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها**»(٣) وتكون مجاهدتها أيضا بمعرفة أهوال وشدائد يوم القيامة الذي يتمنى فيه الكافر أن لو كان ترابا في الدنيا، ويقال لمن أخذ كتابه بشماله: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ**﴾(٤)، ومعرفة أهوال يوم القيامة تقلل التعلق بالدنيا وزينتها، وتردع المؤمن من التمسك بها والعمل لأجلها؛ لأنه متطلع إلى النجاة يوم القيامة.

ومما يُعين على مجاهدة الدنيا اليقظة الدائمة وعدم الانخداع بها ﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾(٥) فمن شمر عن ساعد الجد، وبذل ما في الوسع من المجاهدة للبعد عن النار والفوز بالجنة والزهد في الدنيا أفلح وفاز.

٥ ـ مجاهدة الكفار والمنافقين ووسائل مجاهدتهم: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾(٦)، والأمر للنبي أمر لأمته، فواجب بذل الوسع في مجاهدتهم بالوسائل المعينة على المجاهدة، ومنها:

أ ـ الحرص على الألفة والتعاون، اللذين بهما يزداد المسلمون تماسكا، ويزداد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢). (٢) الدخان: ٥١،٥٦ .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصححه الألباني.

(٤) الحاقة: ٣٠ـ٣٧ . (٥) فاطر: ٥ .

(٦) التحريم: ٩ .

الكفار والمنافقون غيظا منهم.

ب ـ دعوة الكفار والمنافقين إلى الإسلام وإقامة الحجة عليهم، والصبر وتحمل الأذى في سبيل ذلك.

جـ ـ معرفة سيرة الرسول في تعامله معهم في الطائف وفي المدينة وغيرهما.

د ـ مجاهدتهم بالقتال والإعداد لهم: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾(١).

مجاهدة العصاة ووسائل مجاهدتهم: العصاة بعيدون عن طاعة الله، ولذلك وجب على المسلم مجاهدتهم ونصحهم وردهم إلى رشدهم وتحمل الأذى في سبيل ذلك: ﴿ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾(٢) فقد يتوبون إلى الله، ووسائل مجاهدتهم كثيرة منها:

١ ـ دعوتهم إلى الصلاح وبيان عاقبة غيهم، فالمعاصي تمحق بركة الرزق، وتصب على المجتمع كثيرا من المفاسد والفتن، وهي في الآخرة سبب العذاب، فواجب المسلم بيان ضررها ودعوة العصاة للإقلاع عنها.

٢ ـ الهجر الجميل لهم وعدم مخالطتهم إلا حين دعوتهم إلى الصلاح، وعدم الرضا بأفعالهم وإظهاره لهم ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾(٣).

٣ ـ الالتزام بمجاميع الشباب، التي تعين المسلم على الطاعة وتكفه عن المعصية، وتعاونه في المعروف، وتكون له عضدا يشد أزره في مجاهدة العصاة. ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٤)، فهذه ميادين المجاهدة وما عليك إلا أن تأخذ

---

(١) الأنفال: ٦٠ . (٢) المدثر: ٧ .

(٣) الأنعام: ٦٨ . (٤) آل عمران: ١٠٣، ١٠٤ .

نفسك إليها مستعدا لها بالوسائل المشروعة لكي تفوز في الجهاد وتنتصر، فتحقق غنيمة الدنيا بالسعادة وغنيمة الآخرة بالمثوبة والرضا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١).

مراتب المجاهدة ووسائلها:

مراتب المجاهدة ستة أنواع، وهي:

١ ـ الجهاد المالي: وهو العصب الحساس لكل جهاد يقوم به المسلم في الحياة سواء أكان تبليغيا أم تعليميا أم غير ذلك، وإذا لم يتحقق الجهاد المالي بسخاء تعطلت بعض أنواع الجهاد الأخرى، ولذا قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في عديد من آيات القرآن ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(٢).

٢ ـ الجهاد التبليغي: وهو تكليف على المسلم أن يقوم به في حدود قدرته، لإقامة الحجة على الكافرين والمنافقين بأن الدين عند الله الإسلام، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(٣)، والرسول ﷺ يقول: «**بَلِّغُوا عني ولو آية**»(٤).

ومما يُعين على الجهاد التبليغي:

١ ـ البدء بالكليات قبل الجزئيات وبالأهم قبل المهم، بعث رسول الله معاذا إلى اليمن وقال له: «**إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»(٥).

٢ ـ الصبر على الأذى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا

(١) التوبة: ٧٢ .
(٢) الحجرات: ١٥ .
(٣) آل عمران: ١١٠ .
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١).
(٥) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾(١)، وفي الحديث: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(٢).

٣ ـ دراسة البيئة التي يتم فيها تبليغ الدعوة: لمعرفة أنسب الوسائل وأقرب الطرق لنجاح الدعوة بعد إيصالها إليهم.

٤ ـ استخدام الأجهزة الصوتية والمرئية في بث ما يفيد الجهاد التبليغي بإيصال دعوة الحق للخلق.

٣ ـ الجهاد التعليمي: وهو بذل الجهد لإيصال الفهم الصحيح الشامل للإسلام إلى أذهان عامة المسلمين، بحيث يحدث لديهم التصور الصحيح عن الله وعن الكون والحياة ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾(٣).

وسائل الجهاد التعليمي:

١ ـ فتح دورات تعليمية.

٢ ـ المطالعة الشخصية.

٣ ـ المذاكرة بين اثنين.

٤ ـ فتح المدارس التعليمية الشرعية.

٥ ـ حلقات التعليم المفتوحة في المساجد.

وسائل الجهاد التبليغي:

١ ـ نشر الكتاب الإسلامي.

٢ ـ نشر المجلة والجريدة والنشرة الإسلامية .

٣ ـ الخطابة والمحاضرة والدرس العام والندوة.

٤ ـ الدعوة الفردية والزيارة والرحلة والحلقة التعليمية.

---

(١) آل عمران: ١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢) واللفظ له.

(٣) التوبة: ١٢٢ .

٥ ـ السهرات الثقافية والترفيهية.

٦ ـ إقامة مسرحيات تاريخية واجتماعية هادفة.

٤ ـ الجهاد السياسي: وهو بذل الجهد لبناء الدولة الإسلامية على أسس من مبادئ الإسلام وقواعده العامة الشاملة، فتكون الحاكمية لله: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾(١).

٥ ـ الجهاد القتالي: وهو بذل الجهد لإعلاء كلمة الله عن طريق القتال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾(٢).

كلمات ومواقف في المجاهدة:

لما نزل قول الله: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**﴾(٣) صدع رسول الله بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا الكبير والصغير، والحر والرقيق، والذكر والأنثى، والإنس والجن، وبين مفاسد الشرك ومحاسن التوحيد، فآذته قريش وآذت من آمن به، وتلك سنة الله: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾(٤).

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**رجل جاهد بنفسه وماله**»(٥)، ويقول ابن تيمية: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، فاجتهد ـ أخي ـ لعمل ما ينفع في الآخرة لتكون من الزاهدين في الدنيا.

ثمار المجاهدة:

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(٦)، يقول ابن القيم: «علق ـ سبحانه ـ الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا»، والهداية ثمرة عظيمة وراءها منافع جليلة في الآجلة والعاجلة، وكلما ازداد المؤمن جهادا زاد هدى، ثم يزداد هذا الهدى هدى آخر: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ**

---

(١) يوسف: ٤٠.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الحجر: ٩٤.
(٤) الفرقان: ٣١.
(٥) أخرجه البخاري (٦٤٩٤).
(٦) العنكبوت: ٦٩.

تَقْوَاهُمْ﴾(١).

ومن ثمارها كذلك التقوى، التي يهبها الله للمجاهدين في سبيله ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾(٢)، وهل الفوز في الدنيا والآخرة إلا للمتقين: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(٣) فالجهاد مردوده على النفس عظيم ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾(٤)، يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله: «فلا يقفن أحد وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطا يطلب من الله ثمن جهاده ويمن عليه وعلى دعوته ويستبطئ المكافأة على ما ناله، فإن الله لا يناله من جهاده شيء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾، وإنما هو فضل الله أن يُعينه في جهاده وأن يستخلفه في الأرض، وأن يأجره في الآخرة بثوابه». فشمر ـ أخي ـ عن ساعد الجد، واتخذ الجهاد سبيلا.

(١) محمد: ١٧.
(٢) البقرة: ٢١.
(٣) يونس: ٦٢ـ٦٤.
(٤) العنكبوت: ٦.

١٠ـ التوبة

منزلة التوبة:

يقول ابن القيم: «منزلة التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[(١)]، وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة ﴿**لَعَلَّ**﴾ المشعرة بالترجي، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون**﴾[(٢)]، قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(٣)].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن ينجي أحدا منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[(٤)].

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

---

(١) النور: ٣١ . (٢) الحجرات: ١١ .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

حقيقة التوبة:

يقول ابــن القيم: «كثـير من الناس إنما يـفسر التـوبة بالعزم علـى ألا يعاود الذنب، وبالإقـلاع عنه في الحـال، وبالندم عليـه في الماضي، وإن كـان في حق آدمي فلابد من أمر رابع، وهو التحلل منه».

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة بل شـرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كـما تتـضمن ذلك ـ تتـضمن العـزم على فعـل المأمور والتـزامه، بل وتتضمن مقت من يتـركه ومقاطعته والتزام الأمـر به والنهي عن تركه، فإن العمل الصالح ـ المشـروط للتوبة في آية الفرقان ـ هو ضـد ما كان يأتيه من الـسوء، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعـزم والندم تائبا، حتى يوجد منه العـزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، هذه حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين . . .

حقيقة التوبة:

الرجوع إلى **الله** بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى مـحبـوب . . . ولهذا علق سـبحـانه الفـلاح المطلق على فعل المأمـور وترك المحظور بها، فقال: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(١)، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

عظيم فضل الله للتائب:

قال أحمد بن عاصم: هذه غنيمة باردة، أصلح ما بقي من عمرك، يغفر لك ما مضى، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأبواب السماء مشرعة للتائبين.

قال ﷺ: «**كل أمـتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قالوا: يـا رسول **الله**، ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»(٢).

قالت عائشة $: «أقلوا الذنوب، فـإنكم لن تلقوا **الله** ـ عز وجل ـ بشيء أفضل من قلة الذنوب». وكـان علي رضي الله عنه يبكي الليل في محـرابه حتى تخضل لحيته بالدموع ويقول: يا دنيا، غري غيري!

(١) النور: ٣١ .

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

قال الحسن عندما سـأله رجل: «يا أبا سعيد، كيف أصبـحت؟ قال: بخير، قال: كيف حالك؟ فتبسم الحـسن وقال: تسألني عن حالي؟ ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البـحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنـسان منهم بخشبة؟ على أي حال يكونون؟ قـال الرجل: على حال شديدة، قال الحـسن: حالي أشد من حالتهم».

قال الربيع بن خثيم لأصحابه: «تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء: الذنوب، والدواء: الاستـغفار، والشفاء: أن تتوب فـلا تعود» وحال الكثير منا اليوم كما قال عنه ابن حرب: إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس، ثم لا يؤثر الجنة على النار.

وحذر أبو الوفاء بن عقيل بقوله: احـذر ولا تغتر، فإنه ـ الشارع ـ قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحـد في مثل رأس الإبرة من الخـمر، وقد دخـلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارا على من غلها وقد قتل شهيدا.

كان الحسن بن عبد العزيز يقول: من لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع. قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يومـا فلا تقل خلـوت ولكن قل عـلي رقـــيب
ولا تحـسبن الله يـغـفل سـاعـــة ولا أن مـا تخفـيـه عنه يغـيـــب
ألم تر أن اليـوم أسـرع ذاهـــبـا وأن غـــدا للنـاظرين قـــريـــب

قـال عون بن عـبـد الله يحذرنا من طول الأمل: مـا أحـد ينزل الموت حق منزلته، إلا عد غدا ليس من أجله، كم من مسـتقبل يوما لا يستكمله، وراج غدا لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

قيل للشافعي ـ رحـمه الله: ما لك تكثر من إمساك العـصا ولست بضعيف؟ قال: لأذكر أني مسافر.

كان عطاء السلمي يقـول: رب ارحم في الدنيا غربتي، وفي القـبر وحدتي، وطول مقامي غدا بين يديك.

أضرار الذنوب:

قال ابن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا في الوجه، وظلمة في القبر، ووهنا في البدن، وضيقًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

قال أبو الحسن المزين: الذنب عقوبة الذنب، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة.

قال هشام بن حسان: كنت أمشي خلف العلاء بن زياد، فكان يتوقى الطين، قال هشام: فدفعه إنسان، فوقعت رجله في الطين فخاضه، فلما وصل إلى الباب وقف وقال: رأيت يا هشام؟ قلت: نعم، قال: كذلك المرء المسلم يتوقى الذنوب، فإذا وقع فيها خاضها.

سأل رجل ابن مسعود عن ذنب ألم به . . . هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأى عينيه تذرفان، فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب: كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلقه، فاعمل ولا تيأس.

كان رجل على حال حسنة، فأحدث حدثا أو أذنب ذنبا، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ إبراهيم النخعي، فقال: تداركوه وأعطوه ولا تدعوه.

قال رياح القيسي: لي نيف وأربعون ذنبا، قد استغفرت لكل ذنب مئة ألف مرة (أي أكثر من أربعة ملايين).

صور من التوبة:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة، وذكر أن الفضيل بن عياض كان شاطرا في قطع الطريق، وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جدارا، إذ سمع قارئا يقول: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**﴾(١) فقال : بلى، فتاب، وأقلع عما كان عليه، ورجع إلى خربة، فبات بها، فسمع سفارا يقول: خذوا حذركم، إن فضيلا أمامكم

---

(١) الحديد: ١٦ .

يقطع الطريق، فـأمنهم واستـمر على توبته، حـتى كان منه مـا كان من السـيادة والزهادة والعبادة، ثم صار علما يقتدى به، يهتدى بكلامه، وفِعاله.

قال إبراهيم بن بشـار: قلت لإبراهيم بن أدهم: كيف كان بدء أمـرك؟ قال: غير ذا أولى بك، قال: قلت: أخبـرني لعل الله أن ينفعنا به يوما، قال: كان أبي من الملوك المياسيـر، وحبب إلينا الصيد، فركبت، فثـار أرنب أو ثعلب، فحركت فرسي، فسمعت نداء من ورائي: ليس لـهذا خلقت ولا بذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحدا، فقلت: لعن الله إبليس، ثم حركت فرسي، فأسمع نداء أجهر من ذلك، يا إبراهيم، ليس لهذا خلقت، ولا بذا أمـرت، فوقفت أنظر فلا أرى أحـدا، فقلـت: لعن الله إبليس، فـأسمع نداء من قـربوس سـرجي بذاك، فقلت: أنبهت، أنبهت، جاءني نذير، والله لا عـصيت الله بعد يومي ما عصمني الله، فرجعت إلى أهلي، فخليت فرسي، ثم جـئت إلى رُعاة لأبي، فأخذت جبة كساء، وألقيت ثـيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق، فعـملت بها أياما، فلم يصف لي منها الحلال، فقيل لي: عليك بالشام.

قال مطرف بن عـبد الله: لأن أبيت نائما، وأصـبح نادما أحب إلي من أبيت قائما، وأصبح معجبا.

قال ابن سيرين: إني لأعـرف الذنب الذي حمل به علي الدين ما هو، قلت لرجل منذ أربعين سنة: يا مفلس.

قال ابن سـيرين: «إذا أراد الله ـ عز وجل ـ بعـبده خيـرا جعل له واعظا من قلبه يأمره وينهاه... فالحمد لله الذي أمهلنا، ومن العيوب سترنا... وإلى بابه: باب التوبة سيرنا..».

يا من يجيب دعـا المضطر في الظلم   يا كاشف الضـر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حـول البيت وانتبـهوا   وأنت يا حي يا قـيوم لم تنـــم
هب لي بجودك ما أخطأت من جرم   يا من إليـه أشار الخلـق بالكـــرم
إن كان عفـوك لم يسبق لمجتـــرم   فمـن يجود على العـاصين بالنعــم

وإذا فتح لأحدكم باب خير، فليسرع إليه، فإنه لا يدري متى يغلق عنه:

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدري السكون متى يكون

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:

١ ـ أن يتوب توبة نصوحا ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

٢ ـ أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له.

٣ ـ أن يعمل حسنات يمحوها لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾(١).

٤ ـ أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيا وميتا.

٥ ـ أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

٦ ـ أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

٧ ـ أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك.

٨ ـ أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيكفر بها عنه.

٩ ـ أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

١٠ ـ أن يرحمه الله أرحم الراحمين.

ثمرات التوبة:

١ ـ تكفير السيئات ودخول الجنة:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٢).

(١) هود: ١٤ .   (٢) التحريم: ٨ .

رتبت الآية الكريمة على التــوبة النصوح أمــرين، تكفير السـيئـات، ودخول الجنة، وقد بين الغزالي ـ رحمه الله ـ أن للتوبة ثمرتين:

إحداها: تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له.

الثانية: نيل الدرجات حتى يصير حبيبا لله.

وللتكفير درجات: فـبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعــضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فـالاستغفار بالقلب، والتدارك بالحسنات ـ وإن خلا عن حل عقد الإصرار ـ من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة.

٢ ـ تجديد الإيمان:

التوبة النصوح تجـدد الإيمان، وتقويه بعد ضعف، وتوقظه بعد رقود، وتـثبته بعد زعزعة، بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر حية، وجديدة، تحفز إلى الخير، وتزجر عن الشر.

ولتجديد الإيمان بالله في نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها ويعيشها:

منها: أن يعرف بره ـ سبحانه ـ في ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره ـ سبحانه.

ومنها: شهود حلمه ـ سبحانه ـ في إمــهال مرتكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيحدث له ذلك معرفة ربه باسمه الحليم، ومشاهدة صفة الحلم، والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفــة كرم ربه في قبول العذر منه إذا اعــتذر إليه بضعفــه وعجزه، وغلبة هواه، وشيطانه عليه، ونحو ذلك، فيــقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره.

٣ ـ تبديل السيئات حسنات:

ومن ثمار التوبة: ما ذكره الله ـ تعــالى ـ في كتابه من تبديل سيـئات التائبين حسنات وهو قــوله ـ تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾(١).

---

(١) الفرقان: ٧٠ .

وهذا من أعظم البشارة للـتائبين إذا اقترن بتوبتـهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قـال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت النبي ﷺ أفرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾(١).

وفي صحـيح مسلـم، عن أبي ذر قال: قـال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخـر أهل الجنة دخـولا الجنة، وآخـر أهل النـار خروجـا مـنهـا؛ رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كـذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كـبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيـئة حسنة، فيقول: رب قد عـملت أشياء لا أراها ها هنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه**»(٢).

٤ ـ انكسار القلب لله:

ومن ثمار التوبة: «انكسار القلب لله سـبحانه، والشـعور بحقـيقة العـبودية والضراعـة بين يديه جل وعلا، وفي هذا يقول ابن عطاء الـسكندري في حكمه: «ربما فتح الله لك باب طاعة ومـا فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعـصية فكانت سببا في الوصول، معصية أورثت ذلا لله وانكسارا، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا».

يقول ابن القيم: «إن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فإنه قد شارك من لم يذنب في ذل الفقر، والعبودية، والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله ـ سبحانه ـ أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه، ولأجل هذا كان «**أقرب مـا يكون العبـد من ربه وهو سـاجد**»(٣)؛ لأنه مقام ذل وانكسار بين يدي ربه.

وهذا. . والله أعلم هو السر فـي استجابـة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسـافر،

---

(١) الفتح: ١، ٢ . (٢) أخرجه مسلم (١٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢).

والصائم؛ للكسـرة التي في قلب كل واحد منهم، فإن غـربة المسافر وكـسرته مما يجده العبد في نفسـه، وكذلك الصوم؛ فإنه يكسر سورة النفس السبعـية الحيوانية ويذلها».

١١ ـ الثبات

معناه: الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وإلجام النفس وقسرها على سلوك الحق، وعـدم الالتفـات إلى نوازع النفس مع سرعـة التوبة حـال ملابـسة الإثم.

لماذا الثبات؟

١ ـ دليل سلامة المنهج والثقة فيه.

٢ ـ الثبات مرآة لشخصية الفرد، ودافع لطمأنة الناس من حوله.

٣ ـ الثبات ضريبة طريق المجد والرفعة.

٤ ـ بالثبات يتحقق الهدف.

٥ ـ طريق العـبادة والطاعة والـدعوة شاقـة ومحـفوفة بالمحـن والابتلاءات، وطويلة لا تنتهي إلا بنهـاية الحياة: ﴿**اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾(١)؛ لذلك لابد من الثبات على الطريق والاستمرار فيها ـ مهما طالت ـ ومقاومة المعوقات وتخطي العقبات ـ مهما كثرت.

٦ ـ إن العبرة عند الله بالخواتيم، فلا يكفي أن يستقيم الإنسان فترة من الزمن ثم ينكص على عقبيه؛ لذلك جاء التوجـيه الرباني للمؤمنين بالثبات على الإسلام حتى الممات، قـال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾(٢).

وفي الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «... **وإن الرجل ليعـمل بعمل أهل الجنة حتى مـا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فـيسبق عليـه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»(٣).

٧ ـ أحاديث رسول الله ﷺ التي تبين خفـة القلب وسرعة تحـويله وتقلبه

---

(١) الحجر: ٩٩. (٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

حتى شبهه بالريشة في خفته، فعن أبي موسى الأشعري # قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة، معلقة في أصل شجرة، يقلبها الريح ظهراً لبطن**»(١).

٨ ـ كثرة الفتن، وشدة التضييق ـ في عصرنا هذا ـ تدعو إلى ضرورة التواصي بين المؤمنين بالثبات على الحق الذي التزموه، والتمسك بالمنهج الذي ساروا عليه، مهما عظمت التبعات وكثرت التضحيات، ولهذا كان من وصية رسول الله ﷺ لأتباعه وجنوده عند اشتداد الفتن: «**يا عباد الله اثبتوا**»(٢).

من ثمرات الثبات:

الثبات شجرة راسخة الجذور وفرعها في السماء شامخ، تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها، ومن ثمراتها:

١ ـ النصر على الأعداء:

قال الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾(٣).

يقول صاحب «الظلال»: إن سؤالهم ﴿**مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**﴾ ليصور مدى المحنة المزلزلة، التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن تكون إلا محنة فوق الوصف تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب ﴿**مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**﴾.

وعندئذ تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة . . . عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله ﴿**أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾، إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون إلى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يثبتون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون أن لا نصر إلا

(١) أخرجه أحمد (٤ / ٤٠٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٦٥).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٧٥)، وصححه الألباني.
(٣) البقرة: ٢١٤ .

نصر الله، وعندما يشاء الله.

٢ ـ دخول الجنة:

ويالها من ثمرة شمر لها المشمرون، وسعى إليها العاملون، وهي مدخرة لأصحاب الثبات الذين ثبتوا على عقيدتهم ودعوتهم لم تزعزعهم شدة، ولم تغرهم شهوة، ولم يهنوا لمحنة أو لفتنة، فالثبات شرط للتحقق قبل دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾[(١)].

قال القرطبي: والمعنى أحسبتم يا من انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم ...لا؛ حتى ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ**﴾[(٢)] أي علم شهادة حتى يقع عليه الجزاء.

صور رائعة للثبات:

١ ـ ثبات النبي ﷺ مع كل محاولات صرفه عن الحق، والكبار يثبتون وإن لم يأت معهم أحد، حديث البخاري من رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضت علي الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده**» والنبي مع ثباته واثق بنصر هذا الدين. حديث حباب: «**ألا تدعو الله ... ما يصرفه ذلك عن دينه...**»[(٣)].

٢ـ ثبات عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي مع ملك الروم، وتقبيل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لرأسه.

٣ ـ ثبات ابن النابلسي أبي بكر محمد بن أحمد الرملي، وحواره مع جوهر الصقلي قائد العبيديين... في رميه بالسهم ... وذكر الإمام الذهبي أن العبيديين قتلوا أربعة آلاف من عالم وعابد ليردوهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت.

---

(١) آل عمران: ١٤٢ .   (٢) التوبة: ١٦ .

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤١).

صور من عدم الثبات:

١ ـ ضعف بشري يعتري بعض السالكين «حاطب».

٢ ـ نفاق أو ردة تعتري البعض فيذهب ثباتهم:

أ ـ الرجال بن عنفوة: من بني حنيفة، كان يتعلم القرآن من أبي بن كعب، ثم انقلب إلى بلده عند مسلمة.

ب ـ عبد الله القصيمي: كان عالما مدافعا عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب «كتابه البروق النجدية» رد فيه على الدجوي من علماء الأزهر وكان مولعا بقراءة صحيح البخاري ـ لكنه ارتد عن الإسلام، وقد ذكر أن من أسباب ذلك «الحسد»، «المبالغة في الثناء على النفس» نسأل الله الثبات.

عوامل الثبات:

١ ـ الدعاء: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**» «**اللهم يا مقلب القلوب ...**».

٢ ـ تدبر القرآن وحسن الصلة بالله تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾(١).

٣ ـ التثبيت من قبل الصالحين: «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، يحوطه من ورائه**»، قال أبو جعفر الأنباري: لما حمل أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنيت، فقلت: يا هذا: «أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك...، فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، فاتق الله ولا تجب...

٤ ـ صحبة الصالحين: وهي أكثر من الأولى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾(٢).

٥ ـ الاطلاع على سير الثابتين: ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾(٣).

---

(١) الصف: ٢. (٢) التوبة: ١١٩.
(٣) هود: ١٢٠.

٦ ـ الثقة بوعد الله ونصره «**أي المدينتين تفتح أولا...**»(١)، «**يا سراقة، اخف عنا**»(٢).

٧ ـ الحث على استدامة العمل الصالح ولو كان قليلا «**إن أحب الأعمال إلى الله ما دُووِمَ عليه وإن قلّ**»(٣).

٨ ـ الاحتراس لحالة الفتور «**لكل عمل شرة**»(٤).

٩ ـ الخوف الدائم من الانتكاسة وسوء الخاتمة.

عوامل هدم الثبات:

أ ـ الأمراض القلبية:

١ ـ التخوف على النفس ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٥)، الخوف على الولد: «**إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة**»(٦)، والتخوف على المنصب والجاه والتخوف على المال «**تعس عبد الدينار**»(٧).

٢ ـ العجب: قال ابن المبارك «العجب: أن ترى أن عندك شيئا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئا شرا من العجب» وهذا أصل مرض إبليس.

٣ ـ اليأس: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(٨).

٤ ـ التطلع إلى الشهوات: قصة عابد بني إسرائيل والمرأة التي قتلها ولها إخوة.

٥ ـ الغيرة والحسد.

٦ ـ التنطع.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٦٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).
(٤) أخرجه أ حمد (٢ / ١٨٨)، وصححه شعيب الأرناؤوط.
(٥) النساء: ٧٨ .
(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦)، وصححه الألباني.
(٧) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).
(٨) يوسف: ٧٨ .

ب ـ الأمراض السلوكية:

١ ـ الترخص والتساهل في أمر الصغائر: فعن ابن مسعود أن # رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه**»(١)، قال سليمان التميمي: (لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله».

٢ ـ الاستعجال: الدعوة شجرة، رحم الله من سقى تربتها، وغفر الله لمن استعمل ثمرتها، لذلك قالوا: من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة» «الحرقة المتأنية».

٣ ـ الإكثار من المزاح: قال ابن عقيل يصف طلبة العلم: غلب عليهم الجد وقل عندهم الهزل.

جـ ـ المؤثرات الخارجية:

١ ـ الفتن والابتلاءات والمحن.

٢ ـ اختلاف المسلمين وتفرقهم.

٣ ـ ضغط الأهل والولد.

من صور احتضار الصالحين:

١ ـ لما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: «بل واطرباه، غدا نلقى الأحبة، محمدا وحزبه».

٢ ـ لما طعن حرام بن ملحان رضي الله عنه بالرمح قال: «الله أكبر، فزت ورب الكعبة».

٣ ـ لما نزل بابن إدريس الموت بكت ابنته فقال: «لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة».

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٤٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧).

١٢ـ الثقة بالله تعالى وأثرها في العمل الإسلامي

إن الثقــة بالله ـ تعالى ـ موقف ينشــأ عما يقــوم بنفس المؤمن من أن الله حق وما عداه باطل، وهذا الموقــف يورث المؤمن حالة من الثقة المطلقــة بصحة الطريق الذي يسلكه، ،مقــبلا على ربه، عاملا في ســبيله، فلا يصيبــه في طريق الدعوة قنوط ولا يأس، ولا يعتريه قعود أو توقف: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾(١)، وفي الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي، فليظن عبدي بي ما يشاء**»(٢)، والرسول ﷺ يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»(٣).

والمؤمن لا يظن بربه إلا خيرا، وهو فيما عند الله أوثق منه مما في يده، وهذه الثقة الـتامة لم تفارق أصـحاب رسول الله ﷺ في أي وقت، وأذكر من بينهم عمـير بن الحـمام حين ســمع قول الـرسول ﷺ: «**قـومـوا إلى جنة عرضـهـا السموات والأرض**»، قال: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ . . بخ، فـقال رسول الله ﷺ: «**ما يحـملك على قولك: بخ بخ؟**»، قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكـون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قـرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حـييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحيـاة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التـمر، ثم قاتلهم حتى قتل(٤).

إن هذه الثقة التـامة فيمـا عند الله يحتاج إليها الدعـاة في كل زمان ومكان، ومهـما أطلق البـاطل تهديده على الدعـاة، وبغى في وجه كلمـة الحق، وتعدى حدوده وتحدى، فـإنه لن يخيف الدعاة ولن يمنعهم عن القيـام بواجبهم في تبليغ الدعوة ما داموا قد وثقوا في الله.

---

(١) الزمر: ٥٣ .
(٢) أخرجه أحمد (٣ / ٤٩١)، وصححه الأرناؤوط.
(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٩٠١).

وسائل تحقيق الثقة بالله:

١ ـ الاستمساك بحبل الله: فلا يتسرب الضعف إلى النفوس، والقرآن يحذر من ذلك: ﴿ **وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ** ﴾ (١)، ويبث القرآن الثقة في المؤمنين بإعلان أن النصر من عند الله ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾(٢)، ويقرر أن القلة المؤمنة الواثقة بربها كثيرا ما تتغلب على أعدائها: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾(٣)، ولقد علم الله المسلمين أن الدعوة ترتبط به ولا ترتبط بالدعاة إليها، وأن من عمل بها من الأشخاص أكرمه الله، ومن ترك العمل بها فقد أبعد الخير عن نفسه، إن الإيمان بالله ورسوله والجهاد بما غلا ثمنه من نفس ومال في سبيل الدعوة هو قمة الثقة، التي تجعل المؤمن ثابتا على طريق الدعوة حتى يأتيه اليقين.

٢ ـ الرجوع إلى الله وحسن الصلة به: والرجعة الحقيقية إلى الله ـ لا الرجعة اللفظية ـ هي المقصودة، إذ إنها توثق صلة المؤمن بالله فيصدق في عبوديته، ويرى نفسه وهو في معية الله أقوى من كل قوى الشيطان والطغيان، وبهذا يولد ولادة جديدة من عقيدته لا من رحم أمه، فينبعث بمعرفته بالله وحرارة إيمانه به في طريق دعوته، لا يرهبه طاغوت، ولا يمنعه ضلال؛ لأنه يشعر أنه قدر من قدر الله الغلاب الذي لا تصده قوة في الأرض إلا أن يشاء الله، وقد عبر عن هذا المعنى الشهيد سيد قطب فقال:

أخي إنني ما سئمت الكفاح ... ولا أنا ألقيت عني السلاح
وإن طوقتني جيوش الظلام ... فإني على ثقة بالصباح
أخي أخذوك على إثرنا ... وفوج على إثر فوج جديد
وإني على ثقة من طريقي ... إلى الله رب السنا والشروق
فإن أنا مت فإني شهيد ... وأنت ستمضي بنصر مجيد

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١). (٢) آل عمران: ١٢٦ .
(٣) البقرة: ٢٤٩ .

فإن عافني الشوق أو عقني ... فإني أمين لعهدي الوثيق
قد اختارنا الله في دعوته ... وإنا سنمضي على سنته
فمنا الذين قضوا نحبهم ... ومنا الحفيظ على ذمته
أخي فامض، لا تلتفت للوراء ... طريقك قد خضبته الدماء
ولا تلتفت ها هنا أو هناك ... ولا تتطلع لغير السماء

٣ ـ التوكل على الله في جميع الأمور والأحوال: فأنا أثق بقدرة الله على نصري إن بذلت الأسباب، وأن أوقن بأن فوق عسر المحن يسرا ربانيا، يتحقق بأخوة المؤمنين، ومراغمة الشياطين، وأن أحب المتقين وأكره الفاجرين، وبالجملة فينبغي أن أكون مع الله دائما وأبدا.

مع الله في سبحات الفكر ... مع الله في لمحات البصر
مع الله حال احتدام الخطر ... مع الله في الرهط والمؤتمر
مع الله في حب أهل التقى ... مع الله في كره من قد فجر

ومعية الله ليست قاصرة على بعض المؤمنين، ولكنها شاملة لكل المؤمنين الصادقين وخاصة العاملين ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾(١).

عدة الداعية:

الثقة بالله تعالى إحدى ثمار الاعتماد التام على الله، الذي يحفظ الدعاة وينصرهم، ويدافع عنهم، ولابد للداعية من الفهم الدقيق والإيمان العميق والاتصال الوثيق بالله تعالى، فبه تهون الصعاب، وتخف الآلام، وتزول الخشية من الناس: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

---

(١) النحل: ١٢٨.
(٢) آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

كيف تكون واثقا بالله؟

هناك طريقان لتحقيق الثقة بالله تعالى:

الأول: الإيمان باليوم الآخر:

وهذا الإيمان جـزء بل ركن من أركان العـقيدة الإسـلاميـة لا غنى عنه؛ لأن المؤمن مكلف بمناصرة الحـق والدعوة إليه ومقـاومة الباطل وإزهاقـه ما أمكن ولا يدفعه إلى ذلك إلا اليقين الجازم بأن هناك يـوما ينال فيه جزاءه عند ربه، ومن هنا فإنه يستمر في الجهاد ولا يتوانى عن العمل النافع لخدمة الآخرين في دنياه، ابتغاء ما عند الله في أخراه والإيمان باليوم الآخر واضح في قصص المرسلين التي وردت في القرآن الكريم، وبعـثت الثقة التامـة في قلوب المؤمنين والنبيين، فهـذا موسى يقول لبني إسرائيل مطمئنا بعد أن اتبعهم فرعون وقالوا: ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾(١)، قال لهم: ﴿ **قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾(٢)، وهؤلاء سحرة فرعون جـاءهم الوعيد بعد إيمانهم: ﴿**فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾(٣).

وهذا إبراهيم ـ عليه السـلام ـ بعد أن حطم أصنام قومـه وأظهر ضيـقه بهم وبأصنامهم ﴿ **أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾(٤).

وهذا رسولنا محمد ﷺ يعود من رحلة الطائف تدمى عقـباه، بعد أن آذاه أهلهـا، فـلا يزيد عن أن يتـجه إلى الله في دعـاء خـاشع: «... **إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**»(٥) ويأتيه ملك الجبـال ليستأمره أن يطبق عليـهم الأخشبين

---

(١) الشعراء: ٦١ .

(٢) الشعراء: ٦٢، ٦٣ .

(٣) طه: ٧١، ٧٢ .

(٤) الأنبياء: ٦٧ـ ٦٩ .

(٥) أخرجه الهـيثمي في مجـمع الزوائد (٩٨٥١)، وقال: «رواه الطبراني، وفيـه ابن إسحاق، وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات»، وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي.

ولكن الرسول ﷺ قال: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**»(١).

وهذا كان دأب صحابة رسول الله ﷺ، لقد رباهم على الثقة التامة في الله وفي رسوله، فلم يعودوا يحملون ما يحمله غيرهم من هموم الحياة هذا عبد الله ابن مسعود يعوده عثمان بن عفان في مرضه الأخير فيقول له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: فمن يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا**»(٢)، ولن يبلغ الداعية شيئا من أهدافه إلا بمثل هذه الثقة: ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾(٣).

الثاني: الثقة بالرسول ﷺ:

على الداعية أن يثق بأن دعوته دعوة الحق، التي جاء بها رسول الله ﷺ، ليخرج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وأن رسول الله ﷺ كان واثقا بنجاح دعوته أيما ثقة، فلم يتزحزح عن موقفه في أي وقت ولا تحت أي ظرف، وتتضح ثقته في نصر الله وعونه في كل سيرته، وإن كنا سنكتفي بذكر بعض الأمثلة، ففي هجرته التي جمع الشرك جمعه من أجل صده عنها ولو بالقتل، تتجمع جنود الشرك وأعوانه فوق الغار الذي ضم أبا بكر معه، يقول له أبو بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، ويطمئنه الرسول قائلا: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**»(٤)، وتلك الثقة المطلقة في الله هي التي ينبغي أن يضعها المؤمن أمام ناظريه وأن يقتدي فيها بالرسول ﷺ، وحين عرض أمر الإسلام على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٦٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٧٣).

(٣) الأعراف: ١٩٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١).

بني عامر بن صعصعة قالوا له: أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر لله يضعه حيث يشاء**»(١)، فأبوا عليه، وحين طلب سادة مكة منه أن يطرد المستضعفين من المؤمنين لعلهم يتبعونه أنزل الله ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

وهذه المواقف تبين ثقة الرسول بالدعوة وأنها منتصرة لا محالة، وهذه الثقة في نجاح دعوة الإسلام لا ينبغي أن تغيب عن أنظار الدعاة، وإلا فقدوا كل شيء، ففقدان الثقة يميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية، فيختل بنيانها وتزول معالمها، وقد كانت ثقة أصحاب رسول الله ﷺ ثقة تامة مطلقة، وقد تمثلت هذه الثقة في يوم العقبة، الذي حضره العباس بن عبد المطلب، الذي وقف قائلا قبل البيعة: يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فأعلن الأنصار أنهم لا يريدون غير الوفاء والصدق وبذل مهجتهم دون رسول الله ﷺ.

وتكلم رسول الله ﷺ فكان مما قال: «**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا الحق لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه نساءكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**»(٣)، فوافق الأنصار وتمت البيعة، التي جسدت الثقة في رسول الله وفي دعوته، حتى أنهم يبذلون أموالهم وأولادهم وأنفسهم في سبيل الله راضين مسرورين.

ومواقف السيرة وعبرها كلها شواهد على أن ثقة الصحابة والمسلمين من بعدهم برسول الله لم يعرف العالم لها مثيلا، وهذه الثقة بعينها هي التي جعلت

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٥٢) مكتبة الرحاب.
(٢) الأنعام: ٥٢ .
(٣) أخرجه أحمد (٣ / ٣٢٢)، وصححه الأرناؤوط.

الشاعر وليد الأعظمي يقول:

واهتف بهم أنا من جنود محمد | بايعته فيما يريح ويتعب
راياتها خفاقة وسيوفها | صفاقة وجنودها لا تغلب
واهتزت الدنيا لصوت محمد | الله أكبر شرقها والمغرب

الثقة بمؤسسة الدعوة: العمل الفردي جهده كثير، وعائده قليل، والعمل الجماعي ثمرته كثيرة وإن قل الجهد أحيانا، وقد حث الإسلام على الجماعة في كثير من الأمور، والداعية عضو في مؤسسته وعليه أن يثق بها كل الثقة؛ لأنه يعرف أسرارها، ويثق بمنهجها، وأنها تسير على نهج رسول الله ﷺ، وأن غايتها إظهار دين الله في الأرض، وهذه المؤسسة بمقدار نقائها وعمقها تستحوذ على ثقة كل مخلص وتعيد الفهم الصحيح للإسلام دينا ودولة، مصحفا وسيفا، عبادة وقيادة، وتمثله تجربة عملية حية تقدم نوعيات صادقة من المجاهدين المسلمين في سبيل الله، والثقة بأسلوب القيادة أمر لازم للعاملين في مؤسسة الدعوة، وخير مثال وقدوة في ذلك هو رسول الله ﷺ، فقامت العلاقة بينه وبين جنده على أساس التقدير له والحب المتبادل، والرحمة منه.

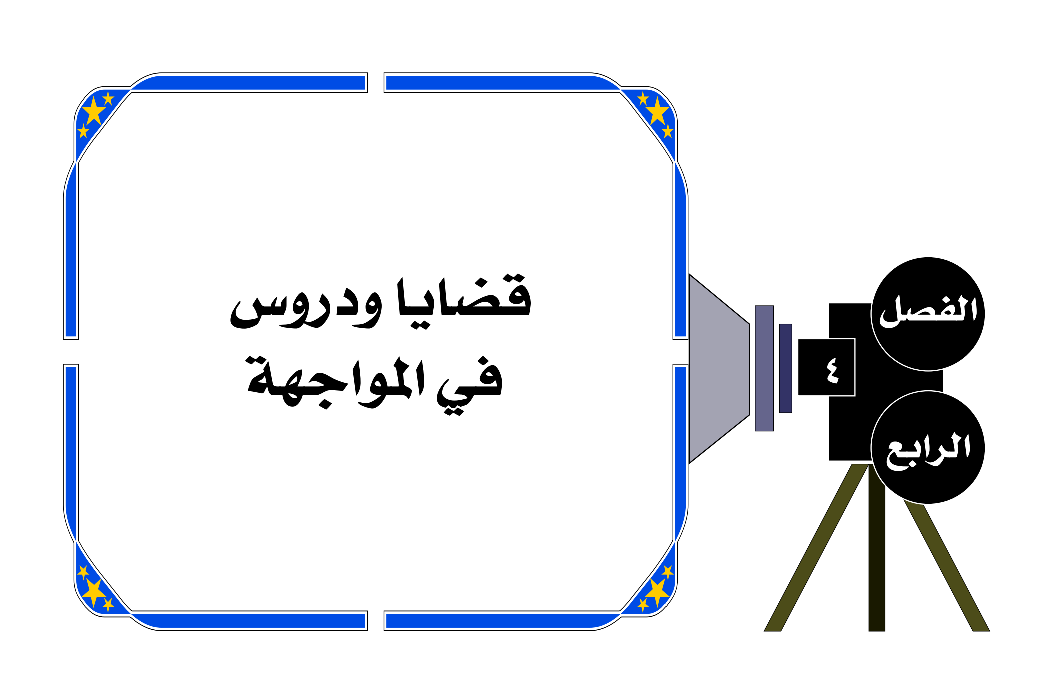
ومن مظاهر الثقة بالدعوة وقادتها: الدفاع عنها في مواطن الهجوم عليها، وعدم ضيقها بالنقد الموجه إليها، وهذه الثقة تؤدي إلى الثبات والتجرد، والعمل الجاد في سبيله، وعلى الداعية أن يبتعد عما يضعف الثقة كإعلان النصيحة وإشهارها، وكالتأفف من تكاليف الدعوة، وكسماع كلام المثبطين.

ثمار الثقة بالله وبرسوله:

الرضا بقضاء الله وقدره «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير...**»(١)، الحديث واطمئنان النفس وسكينتها؛ لأن الإنسان عرف غايته ومارس دوره الحق في الحياة، وعدم الندم على ما فات؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، ثم الأجر العظيم عند رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).


قضايا ودروس
في المواجهة
الفصل
٤
الرابع

١ ـ أثر شريعة الله في الحياة

يفتخـر دعاة الإسلام بما كانت عليـه الأمة قبل قرون، من اتسـاع في الرقعة الأرضية بناها وأحـاطها اتساع في نفوس المسلمين، يرددون قولة الخليفـة العباسي للسـحابة المارة فـوق قصره: أمطـري حيث شئـت فإن خراجك سـيحـمل إلينا، ويتغنون بالعدل والمرحمة التي سادت فـترات في تاريخ الإسلام، ولسنا ندعي غير الحق، الذي أيدته حـقائق التاريـخ بأن الأمة الإسلامـية ارتقت رقـيا عظيـما يوم تمسكت بشريعـة الله والتزمت منهاجـه الذي جاء به القرآن الكـريم والسنة النبوية المطهرة، وقـد تحقق فيهـا العدل، وأحست الرعـية به، وشاع بينها الخـير والرزق الوفير، وإن كانت هناك عثرات أحيانًا في مسيرة دولة الإسلام.

ولسنا ننكر أن الأمة الإسلامية اليوم في ذيل الأمم بعـد أن كانت في طليعتها قرابة ألف عـام، ولكننا كذلك لا ننكر دور الأمة الذي حـققتـه على مدى تاريخ طويل من حياتها فقد كانت فيها تحدو ركب البشرية، وتقود خطاه نحو الخير الذي يعم الإنسـانية كلهـا في مجـالات الحياة كلـها، من سيـاسة الحكم الـعادل، إلى إصلاح الطرقات حتى للحيوانات التي يشعر الحاكم المسلم أنه مسؤول عن إصلاح الطرق لها أمام الله، هذا فـضلا عن تيسيـر سبل الحياة للناس، وتحقـيق مطالبهم الضرورية لمعيـشة آمنة، لا خوف فيها على مال أو نـفس أو عرض وشرف، يجد فيهـا كل مسلم ما يكفيه وأحيـانا ما يغنيه مع إحساس بالعـدل حتى ولو كان بين أعظم الحاكمين وبين أفراد من الرعية غير معروفين.

وهذا عمـر بن الخطاب الخليـفة الذي هزّ العـروش وحطم التيـجان، والذي عرفته الأرض، وما جهله أحد من حكام ذاك الزمان ـ هذا الخليفة يلقى قاتل أخيه زيد بن الخطاب ـ أبا مريم السلولي: ويدور بينهما حوار قصير سريع يحمل أعظم الدلالة علي أن في الإسلام ـ وحده ـ العدالة.

يقول ابـن الخطاب لهذا الذي قـتل أخاه: والله لا أحبك حـتى تحب الأرض الدم المسفوح. فيردُّ أبو مريم السلولي مستفسرا: أتمنعني لذلك حقا؟.

يقول ابن الخطاب على الفور: لا.

يجيب أبو مريم السلولي: إذًا لا بأس، إنما يأس على الحب النساء.

فلا عدالة أعظم من عدالة الإسلام حين يحسها ويشعر بها في دياره الأنام، فإن بحثت عن الرحمة وعن الوفاء، وعن الصدق والتعاون والإخاء فحدث ولا حرج، فأنت في مجتمع يستظل بكتاب الله، ويسير على هدى من سنة رسول الله ﷺ، وأنت في مجتمع قائده ورائده وإمامه محمد بن عبد الله ﷺ الذي ما جار يوما ولا ظلم، ولا اعتدى أو انتقم، بل سمح لأناس من أتباعه أن يقتصوا منه إن شاؤوا وأرادوا، وصدق الله:

﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾(١).

وإننا حين نثق أعظم الثقة أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الطريق للمجتمع الأمثل الذي يسعد فيه الناس بالأمن والغنى، وتعلو فيه الكرامة وتنتشر بين أبنائه العزة، فلا خوف ولا ضعف ولا هوان ولا يأس ولا قنوط، إن المجتمع القائم على أساس من الشريعة الإسلامية هو مجتمع يسير على الصراط المستقيم: ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾(٢).

ولن يكون السير في مجتمع من المجتمعات على الصراط المستقيم مالم نتبع ما أنزل الله: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾(٣).

وهذا حق لله سبحانه لا يشاركه فيه أحد أو شيء، فالله هو الخلاق الرزاق، ولا ينبغي للناس بعد أن خلقهم الله ورزقهم أن يشرعوا لأنفسهم أو يتخذوا منهجا غير منهج الله، أو حكما غير حكم الله. وقد استنكر الله ـ سبحانه ـ على أناس إعراضهم عن حكمه وشرعه فقال ـ سبحانه: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾(٤).

وهذا الإعراض لا يعني غير الدمار، ولا يثمر غير الخراب والعثار، وهل

---

(١) الإسراء: ٩.
(٢) الملك: ٢٢.
(٣) الأعراف: ٣.
(٤) المائدة: ٥٠.

الجور والبغي والظلم والقهر وإهدار كرامة الإنسان وأخذ الناس بالحديد والنيران، في كثير من بلاد المسلمين غير أثر من آثار الإعراض عن حكم الله، والخروج عن منهجه وهداه؟

وإذا الشـريعة في البـلاد تعطلت — قـتل الشـبـاب وهُـتَّك النسـوان
وإذا الرجال عن الجهـاد تخاذلوا — نُزع الأمــان، وهدّم العـمــران
كل الحـقـوق تضـيع في أوطاننا — إن لم يسـاند حـقـهـا الرحـمن

ولقد أمر الله رسوله ﷺ، وأمر الأمة كلها من ورائه باتبـاع الشريعة؛ قال سبحانه: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾(١).

واتباع الشريعـة لا يكون إلا إذا صارت الشريعة مظلَّة تظلـل المجتمع في كل أنحائه، وجميع مجالات الحركة والسلوك فيه، فلا ترى الناس يتعاملون بالربا ولا ترى الكرامة مهدرة، والحقوق مضيـعة، والمنكر ذائعا والخمر شائعا، ثم بعد ذلك تجد الناس يـصلون ويصومون، إننـا إن فعلنا ذلك فقـد جزأنا الشـريعة نأخـذ ما نشاء، ثم نترك بعد ذلك مـا نشاء، تبعا للرغبات وسعيًـا وراء الهوى والشهوات: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾(٢).

ليست هذه هي الشريعة، أن نأخذ بعضـها، ولو أضفنا إلى هذا البعض بعضا آخر مثل قطع أيدي الـسارقين، وجلد ظهر القاذفين والشاربـين، لو أضفنا الحدود كلها لما كـان ذلك تطبيقًـا للشريعة، إن الشريعـة إحقاق للحق، وإظهـار للعدل، وإغناء للناس من الفـقر والضنك، وإعلاء لـكرامة المسلم في مجـتمـعه وبين بنى البشر كافة فلا ذلة ولا هوان، ولا صغار ولا امتهان.

إن الشريعة هي إعلان لعلاقة الإنسان المسلم بالله وبالناس المحيطين، وبالكون كله، علاقته مع مَنْ يشاركونه دينه أو يخالفونه، علاقته مع الأقربين أو الأبعدين، علاقته مع الحاكمين أو المحكومين، وكل هذه وضعت لها الشريعة أسسًا لا تختل، ومن ثم يكون الصراط المستـقيم المتمثل في شرع الله رب العـالمين، وينبغي أن ننبه

(١) الجاثية: ١٨. (٢) البقرة: ٨٥.

الأذهان إلى أمر هو من الأهمية بمكان، وقد سبقنا إليه الإمام ابن حزم حين قال: ينبغي للمسلم أن يكون له بيت يؤويه، وطعام وشراب ملائم، وكساء يكفيه صيفا وشتاء، ودابة يركبها فإذا سرق بعد ذلك طبق عليه الحد.

ومعنى هذا القول أن الضرورات التي لابد منها لحياة الإنسان من طعام وكساء ومسكن ملائم ووسيلة للتحرك مناسبة وعمل يدر على الإنسان ما يحقق به الأشياء السابقة، وما يزيد أحيانا كل هذه من الواجبات التي يلتزم بها الحاكم المسلم نحو كل فرد يعيش في بلاد المسلمين مع تحقيق الأمان من الأعداء والأمان من كل اعتداء في الداخل أو الخارج.

إن الإسلام رسالة هداية، تهتدي به النفوس، فتضع عن كاهلها إصر حياتها وأثقالها والأغلال فيستريح الناس، وليس الإسلام رسالة تهديد ولا وعيد، وما الحدود فيه والتعازير في شريعته إلا وسيلة أمن للمجتمع من أفراد لا يجدى معهم الخير والنصح والخوف من الله، فليكن في يد السلطان الذي يحكم بشريعة الله ما يردع الخارجين، ويقوم المعوجين، فكانت الحدود حماية للمجتمع من الجائرين وكفى أنها (حدود) فمن تعداها فقد أثم، وأصبح لزاما على من في يده سلطان الحكم بالشرع أن يعيد هذا الخارج على الحد إلى مكانه المقبول في المجتمع، إن كان خروجه يسيرا، فإن اشتط في الخروج عن الحد، وإن هدد وأصبح مكمن الخطر للناس في الأعراض أو الأموال أو الأنفس أو غيرها فليكن الحد رادعًا لغيره، وليذق جزاء ما اقترفت يداه ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾(١).

إن الحدود جزء من الشريعة وليست هي الشريعة، ونحن لا ندعو لسن الحدود في مجتمع الإسلام، ولكننا ندعو لتطبيق شريعة الله في الأرض ليستريح الناس بعد عناء، ويأمنوا بعد خوف، ويشبعوا بعد جوع.

حكى الشعراني في الميزان أن الأئمة الأربعة كلهم قالوا: «إذا صح الحديث فهو مذهبنا». وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة #: «لا يحل لأحد أن يقول بقولنا، حتى يعلم من أين قلنا»، وقال: «حرام على من لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي». وقال مالك #: «إنما أن بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي،

(١) النحل: ٣٣.

فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافقهما فاتركوه».

ولقد تواتر عن الشافعي # أنه سأله رجل فقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا، فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا! فأجابه: «أرأيت في وسطي زنارا!! أتراني خرجت من الكنيسة!! وفي رواية: فارتعد الشافعي واصفر لونه وقال: «ويحك! أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا رويت عن رسول الله ﷺ شيئًا، ولم أقل له: نعم على الرأس والعين، نعم على الرأس والعين!!».

وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل # يقول: «الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ» .. وقال لأبي داود: «لا تقلدني ولا مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا» أي من القرآن والحديث.

يا لله .. إن القلم إذ ينقل ذلك، على وجل من الله وحياء من رسول ﷺ أيحتاج أن نوضح أنه يجب تقديم كلام الله والرسول على ما سواهما!! ثم أو يجوز أن نرجح قول غيرهما كائنا من كان!!

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾(١).

ولو أن عالما من علماء الإسلام اليوم يجعل قوله كقول الله والرسول، لكان كافرا مرتدا! فضلاً عن أن يجعل قوله مقدما على قولهما، وهل يتصور أحد أئمة المذاهب المكرمين لو وقف بين يدي الرسول ﷺ أكان يرد عليه قوله أو يخالفه؟!

لا والله!! بل لا يقدر أن يرفع بصره إلى محياه إجلالا له وإكبارا، وكان الصحابة ينتظرون الرجل يأتي من البادية، ليسأله ﷺ كي يستفيدوا بجوابه، لأن الحياء منه كان يعقل لسانهم أمامه عن السؤال أحيانا، وكأن على رؤوسهم الطير!!

وإني أهدي إليك أيها القارئ الكريم، موعظة غالية للرسول ﷺ، فقد ثبت في كتب السنن ورجال الصحيح: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

فقال: «**تركتم على البيضاء: ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا. فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، وعليكم بالطاعة، وإن عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ، إنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قيد انقاد، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»(١).

قوانين البشر وشريعة الله ـ عز وجل:

القوانين هي التي تنظم حياة البشر، وتضع الضوابط التي يجب عليهم اتباعها حتى لا تكون الأمور فوضى يأخذ كل إنسان بحسب هواه، ويسير وفق مبتغاه فتضطرب الأمور وتتعارض المصالح ويختلف الناس، وقد يتقاتلون، ولذا فالقانون في حياة البشر لا غنى عنه لجماعة منظمة صغرت أو كبرت، كانت في بدو أو حاضرة. وقد يكون القانون هذا عرفا متبعا أو تشريعا ملزما أو عادة معروفة أو تقليدا من التقاليد التي تتوارث في حياة الناس، والمهم أن الناس ترتضيه، وتحتكم إليه ولا تخرج عنه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. فأين يكون موضع الشريعة بين هذه القوانين؟

وإذا كان ما قُلتهُ يمثل الخضوع لقوانين الناس وفيها الحق والباطل والقصور والضعف، والميل والتعصب للقوم أو للعرق أو للجنس أو لطائفة من الطوائف أو مهنة من المهن أو عشيرة من العشائر، فكيف يكون الناس حين يخضعون لشريعة الله المنزهة عن الباطل والظلم والضعف والهوى؟ كيف حالهم وشريعة الحق والعدل والإنصاف تحكمهم، وتدفعهم إلى الحياة التي تليق بالإنسان المكرم صاحب الحرية؟ إن الأمان والخير في شريعة الله، وبغيرها يظل الناس خائفين لا يستطيعون أن يفتحوا بابا لطارق في الظلام، ولا أن يلبوا نداء مستغيث تعرض للامتهان، ولا أن يحملوا من أموالهم شيئًا؛ لأن اللصوص يتربصون بهم كما هو حال الناس في بلد الرقي المادي أمريكا، رغم القوانين الأرضية والنظم الوضعية والأجهزة

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، عن العرباض بن سارية #، وقال: «صحيح»، وابن ماجه (٤٣)، عن ابن مسعود #، وصححه الألباني.

الاستخباراتية. فهل أغنى ذلك عن الناس شيئًا؟!

وأين هذا من شريعة الله التي قال مبلغها وحامل لوائها محمد ﷺ: «**والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(١) ؟ وهل ترى القوانين تزجر من اختفى وراء الأستار، أو احتجب في الظلام، أو أظهر خلاف ما يبطن؟ إن ذلك من اختصاص شريعة الله وحدها، الكفيلة بإصلاح السرائر والضمائر قبل إصلاح المظاهر؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور».

وقد يعجب الإنسان المسلم، المدرك لدينه، المطيع لتعاليمه ـ الذي وافق منهجه في الحياة كتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ ـ من اللاهين والعابثين، المتمسكين بمناهج البشر والسائرين على نظمهم؛ لأنهم يعبثون وفي الضياع يعيشون، ويظنون أنهم على خير، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، ومع عجب المسلم منهم وخشيته عليهم من عذاب الله وشفقته بهم، وطمعه في هدايتهم إلى الصراط المستقيم يدرك المسلم أن فضل الله عليه عظيم؛ إذ أكمل له الدين وأتمَّ له النعمة ورضي له الإسلام دينا: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾(٢).

ويا لها من نعمة، ويا له من دين لو كان له رجال عاملون مخلصون، كما كان الأولون رضوان الله عليهم أجمعين، الذين ما كانوا يخافون غير الله فعلت كرامتهم، وتمتعوا بحريتهم؛ لأنهم اطمأنوا على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم اطمئنانا مبعثه الدين، بحيث يكون المفرط فيه مسؤولاً أمام رب العالمين يوم الدين، وهو مسؤول أمام حاكم المسلمين في دنيا الناس، «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم**»(٣) حرمة دائمة غير موقوتة بجيل من الأجيال ولا بزمن من الأزمان «**إلى أن تلقوا ربكم**»(٤)، وهي حرمة عظيمة تزجر من في قلبه مثقال ذرة من إيمان أن يظلم نفسه بتعدي حدود الله وارتكاب ما حرم الله «**كحرمة يومكم هذا في**

---

(١) المائدة: ٣. (٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

(٣، ٤) حديث واحد أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

شهركم هذا في بلدكم هذه»[١] فإذا تمتع المسلم بحريته، ونعم باطمئنانه على نفسه وماله فإنه يدرك المسؤولية الملقاة عليه أن يتـمسك بحبل الله، وألا يحيد بنفسه عن منهج ارتضاه له مولاه، «**تركت فيكم مـا لن تضلوا بعده إن اعتـصمتم به كـتاب الله**»[٢] الذي يسره الله للناس أجمعين وجعله مـحفوظا ـ بحفظ الله ـ إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ومعالم هذا الطريق لا تخفى على السالكين ووضوحه بين أمام السائرين «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**»[٣] فلا اختلاط بين ما هو من أمر الجاهلية وما هو من أمر الإسلام، ولا لبس ولا غموض، ولا احتيال ولا ارتياب، فلا يختلط في الأذهان شرع الله الذي يطالب به المسلمون مع مبدأ سيادة ـ القانون الذي يصنعه الصانعـون فشتان شتان بين قـانون يصنعه البشر ليخـضعوا لسلطانهم طائفة من النـاس كثرت أو قلت ـ دون أن يخـضعوا هم لهـذا القانون فـهم فوق القانون مسيطرون، وعن سطوته ـ إن أخطؤوا ـ بعيدون.

أثر الشريعة في الحياة:

نقول: شتـان بين سيادة القانون المصنوعة بشـريًا، وبين شريعة الله التي تظلل الجميع حكاما ومحكومين فقراء ومترفين، يعيش الجميع في ظلالها إخوانا متحابين متماسكين متآلفين، فلا صراعات قومية ولا تكتلات حزبية أو وطنية ولا عصبيات طائفيـة أو عشائرية أو حـتى إقليمـية، ولكن تآلف يتمـاسك به المجتـمع ويعيش كالبنيان المرصـوص كل فرد في موضعه يؤدي دوره، ويقوم بواجبـه ويحسن عمله ويأخذ حقه وهو آمن على نفسه آمن على ولده آمن على ماله، آمن على عرضه؛ إذ لا مجال للأهواء، فالحكم لرب السماء ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[٤].

والأمـة الإسلامـية مـثخنة بالجـراح، والتصـارع يزيد هذه الجراح، ويؤخـر شفاءها، لأنه يبـدد الطاقات، ويلجئنا إلى الاستقطاب الدولي، فـلا نتخطى نحو

---

(١) حديث واحد أخرجه البخاري (١٧٤١) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٢، ٣) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

(٤) يوسف: ٤٠ .

المستقبل ونحن آمنون مطمئنون، ولكننا في ظل كتاب الله وشرعه، الذي يجعلنا إخوة متحابين، نستطيع أن نمد الأمة بترياق الشفاء ونسير بها نحو المستقبل ونحن آمنون مطمئنون، ولن يتم ذلك بغير استمرار البناء، وبغير الصبر على مشقات السير في الطريق وإن تجشمنا الصعوبات، وبذلنا في سبيل ذلك ما نستطيعه من تضحيات، لنجني ثمرة غرسنا أمنا ورغدا واطمئنانا على الأهل والنفس والمال والولد والعرض والوطن، فمن استطال الطريق ضعف مشيه، وإنما يقطع الطريق ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل.

ولنكن مدركين أن البلاء ـ إن تلقيناه كمسلمين ـ لن ينال منا، بل إنه يمحصنا، ويجعلنا ندرك ما نحن فيه من نعم الله وقت العافية فنحرص على الشكر، ونصبر على الضر، ونثبت في البأساء، وعند لقاء الأعداء، فيمكن الله لنا وهذا ما رسمه الإمام الشافعي للسالكين حين سئل: أيهما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكن حتى يبتلى. والمسلم الذي لا ييأس من روح الله ومن فضله هو صاحب همة عظيمة لا تستريح إلا بتحقيق المعالي، وعظام الأمور؛ لأنه يكره السفاسف ولا يشغل بها نفسه، إذ يعلم أن ذلك عيب ولا يليق بالمسلمين أن يكونوا متقاصرين عن بلوغ أسمى القمم في الحياة.

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين عن التمام

والناس أمام هذه المهمة صنفان: فمنهم من يحملون الحياة، يطورونها ويتقدمون بركبها، يعملون فيها بيقظة لا تعرف التغافل، وهمة لا تعرف التكاسل، وعزيمة لا يلحقها الملل، فيسعدون بعملهم، وتعب حياتهم في سبيل راحة غيرهم وتقديم العون للمعوزين، والمال للمحتاجين، ويسعدون غيرهم بثمرة كفاحهم، ومداومة جهدهم، لتحقيق الخير ونشر العدل والتراحم بين الآخرين، هؤلاء لا تستغنى عنهم الحياة، لأنهم جوهر تقدمها وقطب رُقيها، الذي من حوله تتحرك ومنه يتقدم.

ومن الناس من تحملهم الحياة، فهم كَلٌّ على غيرهم، وعالةٌ على منْ سواهم، وإن ملكوا المال، واشتهروا في العالمين. فذلك لا يغطي على قصورهم ولا يقلل أو يزيل من ضعفهم أمام شهوات الحياة ولذائذها يعيشون للمتعة، لا يعنيهم كدّ،

ولا يدفعهم نحو العمل النافع جد فالهزل حياتهم والاستمتاع غايتهم، ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(١).

هذان الصنفان نجدهما في ظروف الحياة المعتادة، وقت أن يعم الرخاء ويكون الأمان، وقد يكون الأولون قلة، والآخرون كثرة، ولكن الحياة تسير، والعجلة تدور، دونما كبير التفات إلى من يدفع العجلة ومن يعوق مسيرتها ويضع في طريقها العثرات.

ويظل الأمر هكذا حتى تتغير الأحوال، وينزل بالناس العسر وتتابع من حولهم المحن، وتشتد الفتن هنالك يزول اللبس وتظهر معادن الناس فتجد العنصر الأول أصلب عودا، وأقوى بنية، وأكثر تأبيا على الأحداث من العنصر الثاني، وقد تغير كبار الحوادث، وظلمات مخاوف بعضا من العنصر الأخير فيتغير حاله، ويكون ردءًا للعنصر الأول وعونا له في مواجهة مدلهمات الحياة وصعوباتها ولم يكن الشاعر العربي بغافل عن هذا المعنى حين دعا للشدائد التي تكشف عن معادن الرجال وتبين الغث من السمين والخبيث من الطيب فقال:

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

ومع اشتداد المحن، وتغلغل الفتن، تتطلب الحياة مداومة على اليقظة ، وشدة في المواجهة، وجرأة في القلوب، ويقظة في الأفئدة، وعملا متواصلا لا يعرف الراحة ولا يلجأ إلى السكون، ومتطلبات الحياة هذه تتمثل أقوى ما يكون في عمل المخلصين الصادقين والمعاني السابقة التي يحولها الصادقون المخلصون إلى سلوك قائم وعمل واقع، وهذا المعاني مستمدة ما توحي به الينابيع الدينية الصافية التي استقوْها من القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح الذين حققوا في حياتهم معاني الصلابة والثبات والقوة والشجاعة والصبر والاستعداد لملاقاة العدو، فتلك صفات لازمتهم في حياتهم فجعلتها بذلك مخالفة لحياة عامة الناس في الظروف المعتادة.

فهم قد حملوا أرواحهم على أكفهم، يجودون بها راضين إن استدعى الموقف، واقتضى الأمر، ليحموا من خلفهم ذرية ضعافا، وشيوخا كبارا، وعجائز

(١) محمد: ١٢.

من النساء، فكـانوا ذروة الناس؛ إذ ينشرون فيـها روح التكافل الصـادق والإيثار الناطق بجميل صنعهم؛ وكريم فعالهم.

وهم الذين بجهدهم وعملهم في خدمة أمتهم يخشى الأعداء بأسهم، فيدب في صفـوفهم الخـوف والتفـرق، وفي قلوبهم الهلع والتـمزق، فـيتـخاذلون ولا يثبتون، وهذا بعض من ظلال الآية الكريمة ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾[١].

فحياة السكون أشبه بالخمود والجمود، تحدث بعد حين أثرها في تخلف الأمة وتقهقرها، أما حياة الحركة النافعة فإنها هي الباعثة على التقدم، الدافعة إلى الرقي، وهل تتقدم أمة بغير حركة؟ وهل يكسب فـرد شيئا بغير حركة ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾[٢] ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[٣] الحركة حياة ناميـة والسكون نوم أو موت، ومـاذا يملك الموتى في حركـة الحيـاة؟ وماذا يملك النائمون من أمر أنفسهم أو أمر غيرهم؟

---

(١) الأنفال: ٦٠. (٢) الملك : ١٥.
(٣) التوبة : ١٠٥.

٢ ـ الوقاية من السهام

إن أمر الفتن وإثارة الزوابع بين المسلمين ليس جديدا، إنه قديم قدم الدين، فمنذ بعث الرسول ﷺ، والمكائد تلاحقه وتلاحق الصف المسلم معه، ألم تسمع قول الله يحكي حال المشركين مع رسلهم ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(١).

ألم يأتك نبأ الاضطهاد الذي وقع بالمسلمين في مكة؟

ألم يأتك نبأ الاضطراب الذي أحدثه المنافقون في المدينة؟

ألم يأتك نبأ الاستئصال الذي حاوله المشركون مع الدين حينا بعد حين؟

ليس إذن بجديد أمر هذه الفتن المتماوجة على عالمنا الإسلامي، ولكن الجديد فيها أن جهاز المناعة في أمتنا قد ضعف، فلم يعد يقوى الناس على مقاومة الفتنة بعد أن قل رصيدهم من الإيمان، وضعف عملهم بشريعة الإسلام، فظهرت الفتنة أكبر من حجمها، وأوسع من قدراتها ولسنا نقول جديداً إنْ أعلنا بملء أفواهنا أن الكيد للمسلمين لم يتوقف، بل يزداد خبثا ويبتكر لنفسه في المكر طرقا، ولن نملَّ من إعلان طريق الحفاظ على مقومات المسلمين، هي ـ بحمد الله ـ موجودة في الكتاب والسنة، إن شريعة الله فيها الخلاص من الفتن التي تحيط بالمسلمين، إذا ما لجأ هؤلاء المسلمون للشريعة يطبقون أحكامها، وينفذون تعاليمها، وهم بغير تطبيق الأحكام، وبغير تنفيذ لتعاليم الإسلام مثل أولئك الذين قال الله في حقهم:

﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾(٢).

والآية حقا نزلت في شأن اليهود، لكنها ليست قاصرة عليهم، ولا خاصة بهم، إنها تشمل كل من سار على دربهم وفعل فعلهم، فحمل الكتاب ظاهرا، وتخلى عنه سلوكا وعملا وتطبيقا وليس الذنب ذنب الأعداء الماكرين، فهم لن يتخلوا عن مكرهم، وهم لن يغفلوا ـ لحظة ـ عن تدبيرهم ولكنا ـ نحن الذين ـ تخلينا عن كثير من مظاهر الإسلام وفككنا كثيرا من عُراه فتخلخلت حياتنا،

(١) الذاريات : ٥٢ .

(٢) الجمعة : ٥ .

وتمزقت أواصرنا، واختلطت علينا الأمور، وتوغل الأعداء في حشايا مجتمعنا المسلم، وسيطروا على عقول كثيرين من المسلمين، من صفوة المثقفين أو السياسيين ووجوههم حسبما يريدون، وكيفما يحبون، حتى صرت تجد هؤلاء الساسة والمثقفين، يبادرون فيؤيدون الغربيين في كل أمر، وإن ناقض الدين، وهذا طه حسين، وهو علم من أعلام الثقافة المعاصرة يؤيد الغربيين في كل ما ذهبوا إليه، ويقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: إن الرقي الحضاري لن يتم لنا إلا إذا أخذنا بما أخذت به الحضارة الغربية بخيرها وشرها، وحلوها ومرها.

وإذا كان التأثر بالغربيين مسيطرا على صفوة المثقفين والسياسيين فما بالك بغيرهم، وقد كان هجوم الغربيين على المسلمين ذا شقين: جذب فئة بعينها تدعو إلى التقاليد الغربية وتأخذ أنفسها بها في سلوكها وتصرفاتها، وهؤلاء تفتح لهم الأبواب، وتعطى لهم الأموال، وتوزع عليهم المناصب والألقاب، وشق آخر هو تحجيم المسلمين، وإيقاف دفاعهم وسد السبل أمامهم، وإخماد أصواتهم فلا تعلو، وكسر أقلامهم فلا تكتب، وإيقاف كل عمل يظهر الإسلام أو يدافع عنه بين جماهير الناس، ولسنا في حاجة إلى دليل فكم مجلة إسلامية توقفت رغم نجاحها، أو حجمت رغم انطلاقها، أو منع الدعم عنها، أو فرضت عليها رقابة صارمة.

وهل أتاك ـ يا صاحبي ـ نبأ تأميم أوقاف المسلمين، وجعلها تحت سلطان الحاكمين؟ وهل يغيب عنك خبر (تطوير) الأزهر، وما جره ذلك من ضعف للغة وللدين على السواء؟

وهل أنت غير عليم بما كان من قبل حيث ألغيت الخلافة، ومزقت الأمة؟

وهل إضعاف سلطة المحاكم الشرعية، ثم إلغاؤها بعد ذلك لم تعرفه ولم يأتك خبره؟

وهل يغيب عنك ما دعا به عالم أزهري في كتاب مطبوع حين أعلن على الناس أن الإسلام لا صلة له بالحكم، وأخرج في ذلك كتابه المسمى: الإسلام وأصول الحكم، وكم من طعنات وجهت للدين أو للمخلصين له من أجل أن يشوهوا هذا الدين. كم من مسلم أوذى، وكم من مسلم طورد، وكم من بيت مسلم تهدم، وكم من عمل إسلامي توقف.

ناهيك بما يقدمه رجال الفن ونساؤه على السواء مما يشوه صورة الدين ورجاله بين الناس، حيث يشـون صورة مبجلة وكريمة لرجـال الدين غير المسلمين، ثم إن وجهوا الصورة نـحو رجال الدين المسلمين تجد الشره وحب الدنيا، وفـساد المظهر وسوء الجوهر، يبدُون كل ذلك للناس لينفروهم ويبعدوهم عن دينهم.

أرأيت إلى ذلك المستشار الأمريكي روبرت مـاكفرلين، الذي يأتي ليطلع البابا على نتائج قمة جنيف بين أمريكا وروسيا؟

يذاع هذا في حينه ويشاع بين الناس، ويمنع العاملون للإسلام من التعبير عن آرائهم في كثير من الاتفاقات التي تبرم والمعاهدات التي تقام، والصفقات التي تتم بين كثير من الدول الإسلامية وغيرها.

ويفتح الباب على مـصراعيه ليدخل منه البث التليفـزيوني بما يحمل من شر أخلاقي وفسـاد تربوي، كل بيت، ولا يتم ذلك إلا على مذبح الفضـيلة، ومأتم الشرف، وطعنات الاحترام والتوقير. وكم من أموال تنفق في سبيل ذلك.

إننا نزرع الشر بأنفـسنا ونشتريه بأموالنـا، ونفتح له مكانا يقيم فيـه في بيوتنا ليطل علينا كل حين مستهزئون بقيمنا وتقـاليدنا وعاداتنا في ملبسنا ومأكلنا وشربنا وتجمعنا وتـفرقنا، وكل ما يقدمـه دخيل علينا يأباه العرف عندنا والتقـاليد، ويأباه من قبل الدين والشريعة. فلماذا ينشر؟ ومَنْ منه يستفيد؟ ونعود فنقول: يا قومنا، عودوا إلى كتاب ربنا حتى لا تشقوا في الدنيا والآخرة، فهل أنتم سامعون؟

ولن تتوقف إثارة الشبهات في يوم من الأيام، ولم تتـوقف فيما مضى، فمنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة والشبهات تثار حول ما يدعو إليه بل تثار من حوله ـ لعلهـا تصرف عـنه بعض من تبعـوه، أو تمنع عنه بعض من يـفكر في الالتحـاق بركب الدين ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾(١) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٢) واتهموه تارة بالسحر وأخرى بالجنون، وغير ذلك من التـهم التي تلحق بالدعوة أو بالـداعية. ومـا زالت هذه الشـبهات تـثار لتلحق بالدعوة تارة، أو بالدعاة تارة أخرى، وهدفها الحديث كهدفها القديم (صد الناس عن سبيـل الله)، وهذا نوع من الابتلاء ليمحص الله به الصـادقين أصحاب

(١) الفرقان : ٢٥ .
(٢) الفرقان : ٥ .

اليقين من غيرهم.

ومنهج الله ينفي عن نفسه الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد، فهو لا تثبت أمامه شبهة وإن اتسعت دائرتها؛ لأنه الحق وغيره باطل. والله أخبر في كتابه بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(١)، ودور الدعاة هو كشف وبيان منهج الله كما هو بغير لبس ولا غموض ولا تحريف ولا تأويل، مع اليقين الجازم بأن غيره من المناهج لا بقاء له ولا ثبات له في الحياة.

وحين يستقر اليقين الذي لا يتزعزع في قلوب الدعاة، ويبثونه في عامة المسلمين من حولهم فإن الشكوك تزول ولا تبقى، وبقدر ما يكون اليقين عند الأفراد وعند الجماعات يكون الاطمئنان وتكون الاستقامة، ومن ثم النجاة واليقين نفهمه كما فهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قال: «اليقين ألا ترضى الناس بسخط الله، ولا تحسد أحدا على رزق الله، ولا تلوم أحدا على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره فإن الله بقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وهذا اليقين هو الذي جعل هوداً يستقيم على المنهج ولا تحصل له حالات الاهتزاز التي تصاحب الضعف البشري فقالها بوضوح لقومه: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢).

وصاحب اليقين لا يخاف الدوائر، ولذلك يصيب الحق، قال يزيد بن عبد الله ابن موهوب ـ من قضاة العدل: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها». فمن تعلق قلبه بمتاع الحياة من مال ومنصب وغيره وخاف من الناس فإنه يضعف أمام واجباته وتثقل عليه التبعات وربما باعدت بينه وبين الطريق القويم؛ لأنه يأوي إلى هوى الناس لا إلى أمر الله، والذين يأوون إلى أمر الله يدركون أنهم يأوون إلى ركن شديد فلا يخافون وهم يدلون الناس على الحق ويرشدونهم إلى الخير، ودليلهم في ذلك قول الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

---

(١) الأنبياء: ١٨.   (٢) هود: ٥٦.

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾(١).

وثقتهم في أن الله مؤيدهم متأصلة في قلوبهم مستمدة من هدي نبيهم أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة $ حين كتبت إلى معاوية #: أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وَكَلَهُ الله إلى الناس**»(٢) وحسبك شرا بمن هو موكول إلى الناس. وحسبك خيرا بمن هو موكول إلى الله. فأين عون السماء من عون البشر إن أعانوا.

إن اليقين ليس كلمة تقال باللسان أو بالقلم، كلا. إنه سمة قلب عرف الله، وتقرب إليه بالغدو والآصال، حتى صارت التقوى زاده، والصبر غذاءه والأمل في الجنة أمام ناظريه والخوف من النار بين عينيه. فحاد عن طريق الفجار، وسلك طريق الأبرار، لأنهم في نعيم ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾(٣).

إن اليقين يجعل المرء يعطي الدنيا قدرها ولا يعطيها أكثر مما تستحق، ويحاول أن يعطي الآخرة قدرها، لأنها ﴿ **خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾(٤) فلا تأخذ الدنيا منه غير ما به يعمرُها ويوجهها الوجهة الصالحة، ويرشد فيها إخوانه إلى الصلاح والفلاح. وهذا بعينه جزء مما يعمله من أجل آخرته، فبينه وبين الدنيا عمران بغير تعلق قلبي، وبينه وبين الآخرة تطلع وشوق وعزم على المضيّ في طريقها وسط صعاب الحياة التي لا تثنيه ولا تغريه لأنه له غاية لا يستريح إلا عندها ﴿**وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ**﴾(٥) ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**﴾(٦) ﴿**وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى**﴾(٧) وهناك يحصد المؤمنون الموقنون ثمار اليقين الذي خالط قلوبهم من قبل فعاشوا به سعداء في الدنيا، وهم يأملون أن تكون سعادتهم أكبر عند رب العالمين.

---

(١) آل عمران: ١٧٣.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصححه الألباني.
(٣) الانفطار: ١٣.
(٤) الأعلى: ١٧.
(٥) غافر: ٤٣.
(٦) يونس: ٤.
(٧) النجم: ٤٢.

٣. خلاف الفرعيات وتفريق الأمة

إن في الدين أصولا يجتمع الناس عليها؛ لأنها مطلوبة من كل مسلم كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، والتي هي أركان الإيمان، ومثلها في وجوب الأخذ بها أركان الإسلام، وكذلك كل ما جاء به في الدين في مسائل الشريعة والقوانين التي تيسر حياة الناس وتسهل التعامل بينهم، وأعني بهذا الجانب الأخير كل ما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

وإلى جانب هذه الأصول الثابتة المقررة نجد فروعا يختلف حولها المجتهدون لعديد من الأسباب ليس هنا مجال ذكرها إلا أنها كلها لا تخرج عن محور الأصول الدينية الثابتة.

ولنقرب هذه المسألة بمثل من الحياة: إن جميع العقلاء يتفقون على أن الإنسان ينبغي ألاَّ يحل إنسان بغير ثياب في أي مكان، ومعنى ذلك وجوب لبس الثياب على الإنسان، ومع هذا الأصل الذي يتمسك به الناس أجمعون بغير خلاف تجدهم يختلفون أعظم الاختلاف في نوعية الثياب التي يلبسونها ما بين صوف أو حرير أو كتان أو قطن، وغير ذلك من أنواع الملبوسات، ويختلفون كذلك في ألوانها ما بين أحمر وأبيض، وأسود، وغير ذلك ما لا يحصى من الألوان، ويختلفون كذلك في طول الثياب أو قصرها وطريقة تفصيلها وحياكتها، وطريقة لبسها والظهور بها، وكل ذلك مما تألفه الأنظار وتقبله العقول، ولا يخطر على بالها نكيرا إلا إذا رأت إنسانا قد تجرد من ثيابه، لماذا؟ لأنه تخلى عن أصل لا يمكن التخلي عنه.

فلماذا لا نأخذ هذا المثل الواقعي العملي مجالا نطبقه في أمور الدين، فما دام الإنسان متمسكا بالأصول، سالكا في الفروع ظل هذه الأصول وراجعا إليها فلماذا نلومه أو نعيبه أو نقول: إنه يفرق بين المسلمين؟

وإن أمر الخلاف أو الاختلاف سوف يبقى تصديقا لقول الله:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

شاء الله ـ سبحانه ـ ألا يكون الناس جميعا متفقين على ديانة واحدة، وشريعة واحدة، وملة واحدة، وهذا الخلاف هو في صلب العقيدة وطريقة العبادة وفي كل ما يختلف فيه دين عن دين.

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة، فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين، وأن يبلغ هذا الاختلاف حتى يكون في أصول العقيدة ـ إلا الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه، وهذا لا ينفي أنهم مختلفون مع أهل الضلال(١).

والخلاف مع أهل الضلال ومخالفتهم في مناهجهم وتصوراتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم أمر محبوب ومطلوب من المسلمين، يزدادون به ثقة في الدين، ويزدادون به عزة حين يعلون منهج رب العالمين، على أن هذا الخلاف مع هؤلاء الضالين ينبغي أن يكون تحت مظلة الدين لا يتجاوزها، فطريقة البعد عن المجادلة إلا بالتي هي أحسن، ودعوتهم إلى الشرع والدين بالحكمة والموعظة الحسنة هو ما ينبغي أن يكون، ومع اعتقادنا بفساد مناهجهم وتصوراتهم لمهمة الإنسان وعلاقته بالله والكون والحياة، فإننا لا نجعل دعوتنا إياهم لديننا منصبة على فساد تلك التصورات وبيان ما بها من أباطيل وأضاليل؛ إذ قد يكون ذلك ـ في بداية الأمر ـ حاجزا لهؤلاء عن قبول الدعوة، ودافعا لهم ليردوا عن باطلهم بما يستطيعون، فيصيبون المسلمين بما يكرهون، وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ ذلك ـ في قوله: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾.

فالله ـ سبحانه ـ يمنع أتباع الحق من سب آلهة الباطل المدَّعاة، حتى لا يجترئ أتباع الباطل، فيسبوا الله، وهذا لون من أدب الدعوة أو فقه الدعوة إن شئت.

وليس هذا مجال حديثنا اليوم؛ إذ إننا لا نتحدث عن الخلاف بين أتباع الحق وأتباع الباطل، ولكننا نتحدث عن الخلاف بين أتباع الحق وحده، الذين يجب عليهم أن يتخلقوا بأخلاق السلف الصالح ويتأدبوا بأدبهم في الخلاف الذي لا يصل

(١) في ظلال القرآن ٤ / ١٩٣٣، ط. دار الشروق.

ـ إن شاء الله ـ إلـى أصول الدين، وإنما هو من فـروع الدين، أو هو إلى فروعـه أقرب، والخلاف في الرأي بين أتباع الحـق له أسباب معروفة معـروضة فقد يصل إلى مجـموعة من العلمـاء من العلم ما لم يصل غيـرهم، والعقول تتـفاوت في الفهم وحســن الاستنباط ودقة القيـاس، وغير ذلك مما يجعل الناس يـتفاوتون في الحكم على قضية واحـدة، وقد أقر رسول الله ﷺ هذا التفاوت في الفهم حين أمر الناس أن يصلوا العصر في بني قريظة، فصلى بعضهم في الطريق قبل وصوله إلى بني قريظة؛ لأنه فهم أن رسول الله ﷺ إنما أراد الإسراع في السير نحو بني قريظة، وقد تحقق هذا المقصود، فلا ضير من الصلاة في وقتها، وأصرَّ آخرون ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة تنفيذا لأمر رسول الله ﷺ، وحين علم الرسول بما فعل هؤلاء وأولئك أقرَّ ﷺ الجميع على ما فعلوا(١) .

والمهم في الأمر: أن هذا الاخـتلاف في الرأي لم يكن مدعاة لمذمـة بعضهم بعضًا ولا لاتهام بعضهم لبعض، ولا لإثارة غـبار فتنة تفرق بين المسلمين ولا غير ذلك، وإنما حدث مـا حدث، وأقـره رسول الله ﷺ حين علم به وانتهى الأمر بذلك، وظلت المودة بين المؤمنين موجودة؛ والأخوة قائمة بينهم غير مفقودة.

وقد قـال ابن تيميـة: الخلاف في الأحكام أكثـر من أن ينضبط. ولو أن كلّ مسلمين اختلفا تشاجرا وتناهرا ما بقي بين المسلمين أخوة ولا عصمة.

وهذا ما نعنيه بأدب الخلاف، فلم يتـفق جميع المسلمين في وقت واحد على مسـألة من مسائل الفـروع فهذا من العـسير، واخـتلافهم ـ في مـثل هذه الأمور الفرعية ـ التي لا يتجاوزون فيها سياج الدين، أمر لا ضرر فيه، إن بقيت ـ بينهم ـ المحبة؛ واستمرت المودة، وتوثقت الأخوة، أما إن جرّ الخلاف في الفرعيات وراءه أحـقادا لا تموت، وضـغـائن لا تمحـا، وتراشق المسلمـون بألسنة حـداد، يسلب بعضهم بعضـا من الفهم والعلم والدين، ويبحث بعضهم وراء العـورات ليكشفها لا ليسـترها، وليفـضح بها أمـام الناس إخوانا في الدين وربما كانـوا من العاملين

---

(١) أخرجـه البخاري (٩٤٦)، ومـسلم (١٧٧٠) ، ولفظ البخـاري: عن ابن عمر ٪ قـال: قال النبي ﷺ : « **لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**» ، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقـال بعضهم: « لا نصلي حـتى نأتيها، وقـال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك ، فـذكر للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم» .

الصادقين المخلصين، الذين يعلم ما في قلوبهم رب العــالمين، إن جرّ الخلاف مثل ذلك فماذا بقى من المودة؟ وماذا بقي من الأخوة؟

لقد حدث خلاف بين السلف الصالح في مسائل كثيرة، ولكن نفوسهم كانت عظيمة، وقلوبهم كــانت عامرة بالتقوى فخــافوا الله فيما يقولون وفيــما يفعلون، والتمسوا للمخالفين عذرا، وقبلوا منهم ما به يقوى شأن الجماعة، دون أن يقيموا بينهم وبين هؤلاء أستاراً موهومة، وحججا مزعــومة، ليتفرق الجميع، بحجة أنهم لنا مخــالفون وعن أفكارنا بعيــدون. نقول: إن الخلاف بين السلف كان مــوجودا وحين يحسم الأمر يلتزم الجــميع ويصبحون طاقة عاملة، ويدا واحــدة يدفعون بها أعداء الله، ويرفعون بها راية الإســلام دون خوف من رأي قيل، أو موقف حدث ذات يوم. وهل تذكر ـ يا أخي المسلم ـ يوم الســقيفة وما كان فــيه من خلاف بين المهاجرين والأنصار حول الخلافة ومن أحق بها. وأولى بالقيام بشؤونها؟

وهذا عمر رضي الله عنه يختلف مع ابن مــسعود رضي الله عنه في أكثر من مائة مسألة فقهية، ومع هذا الخــلاف لم يعب أحدهما صاحبه، بل نسمع قول ابن مسعــود عن عمر رضي الله عنهما حين يقــول: «كان عمر للإسلام حــصنا حصينا يدخل فيه الناس ولا يخرجون» فيــأخذنا العجب من عظمة أخلاق هؤلاء الرجال، الذين ترعرعت التقوى في قلوبهم فأثمرت وأينعت تقديرا واحتراما.

هكذا كانوا في خلافاتهم لا يبحثون عن الزلات، ولا يتبعون السقطات، ولا يعدون على اللسان العثرات، ولم يكونوا ـ رضوان الله عليــهم أجمعين ـ يفتشون في العبارات من أجل إيقاد نيران العداوة، وإثارة النفور، وإبعاد الثقة، واعتقاد كل واحد أنه ـ وحده ـ على صــواب، وأن غيره على خطأ هو مصــدر الخطيئة، وبداية الفتنة، فأين: «قــولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطــأ يحتمل الصواب»؟ وأين : «إذا رأيتم قولي يخالف الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط»؟

ولنعلم أن كثيــرا من مسائل الخلاف تقوم على الرأي والرأي مشــترك، يأخذ كل بما يصل إليــه اجتهــاده، دون ما مطعن للآخرين، أو تمزيق لــوحدة المسلمين؛ لأن هذه المطاعن والتمزقات تدخل في تحــريش الشيطان بين المسلمين، الذي أخبر عنه الرسول الــكريم بقوله ﷺ: «**إن الشـيطان قــد أيس أن يعـبـده المصلون في**

جزيـرة العرب، ولكنه لم ييـأس من التحـريش بينهم»[1]، وكل سوء ينـبعث عن خلاف في الرأي هـو من هذا التحريض، الذي يـثير العـداوة، وينشر الأحـقاد، ويكشف عن حسـد دفين في القلوب، ويبعد بنا عن منـهج السلف الصالح الذين كان دينـهم أعظم من أن يمس، وأعلى من أن يدخل في باب حزازات الـنفوس، وأهوائها. هذا سعد بن أبي وقاص يحدث بينه وبين خالد شيء، ويأتيه من يحدثه عن خالد فيقول له سعد: «يا هذا إن ما بيننا لا يصل ديننا».

وإذا استعرضنا الاختلاف بين الصـحابة ـ رضوان الله عليهم ـ نرى من معالم أدب هذا الاختلاف:

١ـ أنهم كـانوا رضي الله عنه يتحـاشون الاخـتلاف، وهم يجدون مـندوحة عنه، فهم يحرصون كل الحرص على ألا يقوم ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

٢ـ وحين يكون للخلاف أسبابه التي تبـرره، كوصول سُنَّةٍ لأحدهم في الأمر دون غيره، أو كاخـتلافهم في فهم للنص أو غير ذلك من أسبـاب للخلاف، فقد كانوا وقافين عند الحـدود ويسارعون للاستجابة للحق، ويعـترفون بالخطأ دون أي شعور بالغضاضة، كما كانوا شديدي الاحترام لأهل العلم والفقه والفضل منهم، لا يجاوز أحد منهـم قدر نفسه، ولا يغمط حق أخـيه، وكل منهم يرى أن الرأي مشترك، وأن الحق يمكن أن يكون فيما ذهب إليه، وهذا هو الراجح عنده، ويمكن أن يكون الحق فيما ذهب إليـه أخوه، وذلك هو المرجوح، ولا مانع يمنع أن يكون ما ظنه راجحا هو المرجوح، ولا شيء يمنع أن يكون ما ظنه مرجوحا هو الراجح.

٣ـ لقد كـانت أخوة الإسلام بينهم أصـلا من أصول الإسلام الهـامة التي لا قيام للإسلام بدونها،وهي فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.

٤ـ لم تكن المسائل الاعتقادية الأساسية مما يجـري فيه الاختلاف، فالخلافات لم تكن لتتجاوز ما اصطلح عليه الفقهاء بعد ذلك بمسائل الفروع.

٥ـ كانت نظرتهم إلى اسـتدراكات بعـضهم على بعض أنها مـعونة يقدمـها المستدرك لأخيه، وليست عيبا ولا نقدا ولا تجريحا، ولا حطا من شأنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٢) .

الاختلاف ضروري: الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لابد منه؛ إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمالاً تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم، وما زال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك رضي الله عنه حين قال لأبي جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار، وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة»، وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم.

هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على (ما يصير به المسلم مسلما) كما قال زيد رضي الله عنه. ولقد كان الأئمة الفضلاء يتمسكون كل التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الله عز وجل أمرنا بذلك فقال: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾[(١)].

وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[(٢)].

فأمرنا ـ الله عز وجل ـ بطاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام... ثم طاعة أولي الأمر... فإن وقع الاختلاف سواء بيننا وبين ولي الأمر... أو فيما بيننا فقط... فلا يكون الرد إلا لله ورسوله.

فهذان الأصلان هما أساس كل بناء إسلامي، فالقرآن هو المصدر الأول لكل مسلم، والسنة هي المصدر الثاني، ولا خلاف بين أحد في ذلك.

---

(١) الشورى: ١٠. (٢) النساء: ٥٩.

٤ ـ في شأن توحيد الأهلة

اقتـضت الحكمة الإلهيـة أن يتفرق سكان الأرض على سطحـها؛ ليعـمروها ويقوموا بخلافة الله فيهـا، وتبع ذلك بالضرورة ـ اختلاف مواقع البلاد على الكرة الأرضية شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا.

واقتـضى نظام سير الكواكـب لاسيما الـشمس والقمـر اختلافـا وتفاوتا في مواقيت العبـادات المقدرة بشروق الشمس وغروبها وزوالهـا: كالصلوات الخمس، والمقدرة بثبوت الأهلة كالصوم، فتـشرق الشمس على قوم قبل أن تشرق على قوم آخرين بسـاعة وساعـتين وأكثر من ذلك على حـسب التباعـد بين الجهتين شـرقا وغربا، فبينمـا تكون بلاد في وقت المغرب تكون بلاد أخرى في وقت الشروق أو الزوال أو العـصر؛ لأن كل سـاعة من سـاعات الليل والنهـار هي طلوع الفـجر وشروق الشـمس، وهي وقت الضحى والزوال، والعصـر والغروب، وهي وقت ظلمة الليل، أوله ووسطه وآخره، على حـسب مواقع البلاد، ولذلك لا يمكن أن توحد مواقيت الـصلاة اليومية، ولا أوقات الإمسـاك والإفطار في أيام رمضان في جـميع الأقطار الإسـلاميـة، مـا دامت الأوضاع الكونيـة قـاضيـة بتفـاوت تلك المواقيت، وما دام هذا التفاوت هو الواقع والمشاهد(١).

وقد ربط الله ـ عـز وجل ـ الأحكام الشرعيـة التي تحتـاج للأزمات بالأهلة، فقال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ (٢).

ومن جملة الأحكام الشـرعية المرتبطة بالأهلة ثبوت بدء الصـوم في رمضان، وبدء الفطر في شـوال، فـأنيط الحكم الأول برؤية هلال رمـضـان، وأنيط الحكم الآخر برؤية هلال شوال.

ومن الأمـور التي تقتـرن بحلول شهـر رمضـان من كل عام مـا يلاحظ من التفاوت بين الدول الإسلامية في إثبات دخول أول الشهر، فمن البلدان: من يعلن

---

(١) انظر: توحيد بدايات الشهور القمرية، بحث للشيخ محمد علي السايس.
(٢) البقرة: ١٨٩ .

عن حلول الشهر في أول أيامه حقيقة، ومنهم: من يفعل ذلك بعد يوم أو يومين بدعوى أن الفريق الأول قد رأى الهلال؛ نظرًا لتيسر رؤيته له فيصوم، وأن ذلك لم يتح للفئة الثانية فأفطرت. وقس على ذلك حلول عيد الفطر من كل عام.

اختلاف العلماء حول توحيد الأهلة:

إذا رؤيت الأهلة ببلد من البلدان، فهل يجب الصيام أو الإفطار على عموم المسلمين، أو أن كل قطر له حكمه في الصيام والإفطار حسب مطلع قطره الذي هو فيه؟

هذا موضع خلاف بين العلماء على التفصيل التالي:

١ـ ذهب جمهور العلماء، ومنهم الإمامان أبو حنيفة وأحمد إلى أنه إذا رؤى في بلد لزم حكمه جميع الناس عملا بقوله ﷺ: «**إذا رأيتموه فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا**»، والخطاب للمسلمين عامة، ولا عبرة باتفاق المطالع واختلافها.

٢ـ وذهب الإمام الشافعي وجماعة من السلف إلى القول بالحكم باختلاف المطالع، وقالوا: إن الخطاب في الحديث نسبي، فإن الأمر بالصوم والفطر موجَّه إلى من وُجِدَ عندهم الهلال، أما من لم يوجد عندهم هلال فإن الخطاب لا يتناولهم إلا حين يوجد عندهم؛ وهذا قول له اعتبار من حيث الدليل النقلي والنظر الفلكي.

قال شيخ الإسلام: تختلف المطالع باتفاق أهل المعرفة، فإن اتفقت لزم الصوم، وإلا فلا، وهو القول الأصح للشافعية، وقول في مذهب أحمد.

في صحيح مسلم وسنن الترمذي: قال كريب: قدمت الشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم عدت إلى المدينة في آخر الشهر، فسألني ابن عباس متى رأيتم الهلال، فقلت: ليلة الجمعة وصاموا، فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، هكذا أمر رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: العمل على هذا عند أهل العلم[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٨٧)، والترمذي (٦٩٣).

سبب الاختلاف:

سبب اختلاف الفقهاء كما يقول ابن رشد[١]: عائد إلى وجود تعارض في الظاهر بين النظر العقلي والأثر المروي عن كريب مولى ابن عباس.

أما النظر: فهو أن البلاد إذا لم تختلف مطالعها كل الاختلاف، فيجب أن يحمل بعضها على بعض؛ لأنها في قياس الأفق الواحد، وأما إذا اختلفت اختلافا كثيرا فليس يجب أن يحمل بعضها على بعض.

وأما الأثر: فما رواه مسلم عن كريب أن أم الفضل بنت الحارث بعثته إلى معاوية بالشام، فقال: قدمت الشام فقضيت حاجتها، واستهل على رمضان وأنا بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمت المدينة في آخر شهر فسألني عبد الله ابن عباس، ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيته ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيته؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصاموا وصام معاوية قال: لكنا رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين يوما أو نراه، فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية؟ فقال: لا، هكذا أمرنا النبي ﷺ[٢].

فظاهر هذا الأثر يقتضي أن لكل بلد رؤيته قرب أو بعد، والنظر يعطي الفرق بين البلاد النائية والقريبة، وبخاصة ما كان نأيه في الطول والعرض كثيرا، وإذا بلغ الخبر مبلغ التواتر، لم يحتج فيه إلى شهادة.

الترجيح:

أميل إلى ترجيح القول بعدم اعتبار اختلاف المطالع في ثبوت بدء الصوم وإن تباعدت البلدان؛ شريطة أن تكون الأقاليم والبلدان مشتركة في جزء من ليلة الرؤية، أما البلدان التي لا تشترك في جزء من ليلة الرؤية كالبلاد الشرقية التي يدخل فيها الليل قبل دخوله في البلاد الغربية فيلزم عند اختلاف المطالع من رؤيته في الشرقي رؤيته في الغربي من غير عكس.

وسبب الترجيح ما يلي:

١ـ الحجة في حديث كريب: هو قول ابن عباس رضي الله عنه: «هكذا أمرنا

---

(١) بداية المجتهد ١/ ٢١٠ .
(٢) أخرجه مسلم (١٠٨٧).

رسول الله ﷺ» فهو لا يريد بقوله: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ أن عنده عن الرسول ﷺ حديثا خاصا بهذه المسألة يدل على عدم الصيام، بل مراده بتلك الأحاديث الآمرة بالصيام لرؤية الهلال، كما في الحديث الذي أخرجه الشيخان: «**لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له**»(١)، وهذا الحديث لا يختص بأهل ناحية على جهة الانفراد، بل هو خطاب لكل من يصلح له من المسلمين، فهذا اجتهاد صحابي.

وإذا كان اجتهادا فلا يكون قوله: «هكذا أمرنا رسول الله ﷺ» نصا في المسألة، وفهم الصحابي ليس بحجة إلا أن يكون إجماعا من الصحابة رضي الله عليهم، ولو وقع ذلك لما اختلف الفقهاء هذا الاختلاف.

٢ـ وحديث ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له**»(٢)، لا يختص بأهل ناحية على جهة الانفراد، بل هو خطاب لكل من يصلح له من المسلمين، فالاستدلال به على لزوم رؤية أهل البلد لغيرهم من أهل البلاد أظهر من الاستدلال به على عدم اللزوم.

٣ـ والصحابة رضوان الله عليهم لم ينقل عنهم أنهم كانوا إذا رأوا الهلال يكتبون إلى الآفاق، وذلك لصعوبة المواصلات في زمنهم؛ إذ قد لا يتيسر وصول الرسالة إلا بعد انقضاء رمضان؛ فلم يكن من السهل أن يعمم ثبوت الرؤية على جميع البلدان؛ لتعذر بلوغهم الخبر آنذاك.

وكلام جمهور الفقهاء يدور حول ما إذا أمكن تبليغ جميع البلدان بثبوت رؤية الهلال، بحيث يصلهم الخبر في ليلة الشهر الجديد قبل طلوع الفجر، وهو ميسر في عصرنا من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا والاتصال الحديثة.

٤ـ هذا وقد جاء في توجيهات المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد في القاهرة في جمادي الآخرة ١٣٨٦هـ، فقرة ب: «يرى المؤتمر أنه لا عبرة باختلاف المطالع وإن تباعدت الأقاليم متى كانت مشتركة في جزء من ليلة الرؤية

(١، ٢) أخرجه البخاري (١٨٠٧)، ومسلم (١٠٨٠).

وإن قل، ويكون اختلاف المطلع معتبرا بين الأقاليم التي لا تشترك في جزء من هذه الليلة».

٥ـ ومن الجدير بالذكر أن المجمع الفقهي المنعقد في مكة عام ١٤٠٦هـ، بشأن هذا الموضوع قد قرر: «أنه لا حاجة إلى الدعوة إلى توحيد الأهلة والأعياد في العالم الإسلامي، وأن تترك قضية إثبات الهلال إلى دور الإفتاء والقضاء في الدول الإسلامية، وأن الذي يكفل توحيد الأمة الإسلامية وجمع كلمتها هو اتفاقهم على العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ في جميع شؤونهم».

ثم عاد المجمع الفقهي، وناقش هذه المسألة مرة ثانية، وعدل عن هذا القرار، فقرر أنه: «إذا ثبتت الرؤية في بلد وجب على المسلمين الالتزام بها، ولا عبرة لاختلاف المطالع؛ لعموم الخطاب بالأمر بالصوم والإفطار».

٥ـ في مواجهة الأحداث

على درب السابقين:

لأحداث السيرة وقع في نفوس المسلمين، يتلقونها بالرضا والقبول، ويحاولون أن يقتدوا بالرسول ﷺ وصحابته في مواجهتهم للأحداث، وتحملهم للشدائد، وصبرهم على الآلام، وعضهم بالنواجذ على هذا الدين، ودروس السيرة وعبرها تكون بلسما عند البلاء، وحافزًا للهمم على تجاوز اللأواء وتضحية بكل غال أو رخيص، في سبيل إحقاق الحق، ونشر العدل، وبث الوعي والأمن، فلا يتسلل إلى عقولهم فكر شرود، ولا إلى حياتهم ظلوم كنود.

ومع هذه الأهمية للسيرة وأحداثها فإن الدعاة إلى الله، لا يأخذون منها إلا أحداثا قليلة ليؤيدوا بها أقوالهم أو يستشهدوا بها في بعض المواطن، دون أن يسقطوا هذه الأحداث على الواقع إلا في القليل، فتظل السيرة بعيدة بأحداثها الحيّة الراقية، الواعية عن واقع المسلمين الراكد الذي فيه غير قليل من الجهل وغير قليل من التخلف عن مسيرة الحياة.

والمتابع لخط الحركة النامي المتصاعد في أحداثها يجد أنها دائمًا في تقدم ورقي، ودائما في نماء نحو الأفضل ينتقل المسلمون ـ كل يوم ـ من عسر إلى يسر، ومن ضيق إلى سعة، ومن قلة إلى كثرة، ومن فقر إلى غنى، ومن خوف إلى أمن لست لك مخالفا في شيء من ذلك، بل وإني أوافقك في ضرورة إسقاط أحداثها على واقع المسلمين طالما أن ذلك ممكن، على ألا يغيب عن بالنا أن الأحداث إن تشابهت ـ أحيانا ـ فإن الرجال لا تتشابه مطلقا في الجلد والصبر والثبات وعلو الهمة، وغير ذلك من الصفات التي لا تغيب عن ذهنك وأنت تقرأ أو تسمع من سيرة هؤلاء الرجال، ولكنك لا تجد بعض هذه الصفات اليوم إلا في قليل ممن رحم الله. وحرى بنا وأولى لنا أن نتأسى بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من أن نتأسى بالشرقيين أو الغربيين أو من غيرهم من الذين يسيرون في فلكهم ويعتنقون فكرهم.

محنة الإفك:

ونحن ـ المسلمين ـ حين نقرأ السيرة لا نعدم أن نجد حلولا كثيرة لمشاكلنا المعاصرة بوجه من الوجوه ـ لأحداث السيرة، ونحن المستفيدون إن أسقطنا هذه الأحداث على واقعنا اليوم وعالجنا أحداثنا في ضوء المستجدات، وفي ضوء الأحداث السابقة، وبخاصة منها ما يتصل بحياة الصدر الأول.

ولسوف أضع بين يديك نموذجا يستفاد منه في كل عصر، وفي كل جيل، وفيه من الدروس والعبر ما لو أخذنا بعضها لاسترحنا كثيرا، وإنه درس «محنة الإفك» الذي كاد يحدث فتنة في الأمة الوليدة لولا لطف الله.

وقد صبر أمام هذا البلاء المسلمون الصادقون، دون أن ينال من عزمهم أو يزلزل شيئًا من يقينهم، فخرجت به الأمة منتصرة سليمة فلنتابع معا أحداث الإفك ولنستخلص عبرَه ودروسه ولنرَ هل تستفيد منه الأمة اليوم أو لا؟ أُم المحن هي تلك التي حدثت في السنة الخامسة للهجرة، إنها محنة كلفت أطهر النفوس سيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ آلاما لا تطاق إلا بعون الله تعالى، إنها محنة حلت بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق كانت ضحيتها أم المؤمنين عائشة $ وعن أبيها حيث تقول عن نفسها: «**لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم**»[1] وتقول: «**بكيت حتى أظن أن البكاء فالق كبدي**»[2].

إنها المحنة التي كادت تشعل نار الجاهلية بين سيد الأوس «أسيد بن الحضير» وسيد الخزرج «سعد بن عبادة»، إنها المحنة التي واجهتها عائشة رضي الله عنهما بصبر الكبار واستعانة الصادقين، فقالت: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾[3].

إنها بعد ذلك أُم الانتصارات حيث خرجت الأمة بعد ذلك منتصرة كاظمة لآلامها الكبار، محتفظة بوقارها، وجميل صبرها وهي بذلك تعبر عن حسن علاقاتها وظنها بالله «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**»[4] وإحسان الظن هو الذي يجعلنا نستشعر معية الله نترقب التأييد ولا نترقب المقت والأخذ، ونستشعر بأنه من نعم الله سبحانه؛ لأن الظالم لا يبقى والديان لا يموت، والصابر

(١، ٢) أخرجهما البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٣) يوسف: ١٨. (٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

لا ييأس، نعم إن البلاء مضمار يتسابق فيه الخلق فيسبق أقوام ويتأخر آخرون: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾(١).

البلاء من سنن الحياة:

إنه البلاء قد نزل وقد حلّ، فما مخرج منه إلا بالصبر، والبلاء الشديد يحتاج إلى عظيم الصبر، الذي لا يستطيعه إلا صفوة المتقين على اختلاف درجاتهم فقد قال ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة.. ابتلى على حسب دينه....**»(٢).

والبلاء في الأرض سنة من سنن الله في هذه الحياة، يصيب الناس في شدته أو في لين منه، ليمتحنهم الله، وليمحص عودهم، وينكشف مدى صبرهم وإيمانهم واحتسابهم، إن كانوا صادقي الإيمان، واثقين من معية الرحمن:

﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾(٣).

وليس البلاء قاصرًا على العصاة المذنبين، ولا على الكفار المجرمين، إن البلاء يصيب الكافرين والمؤمنين، ويصيب الطائعين والمذنبين، حتى أنه ليصيب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. فلا يدل على سخط الله وغضبه، كما لا تدل نعم المال والولد والشهرة والمناصب على رضا الله، فليس الابتلاء دليلا على غضب الله، وليست العافية دليلا على رضا الله، إنه سنة من سنن الله يبتلى بها عباده، كما قد يبتليهم بنعمه ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً** ﴾(٤).

وهل ابتلى أحد بمثل ما ابتلى به رسول الله ﷺ زورا وإفكا وبهتانا حين اتهمت طائفة من الناس زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما اتهموها به من الإفك؟

إن أعظم بلاء يصيب الشرفاء أن يتهموا في أعراضهم، وأن يلوكهم الناس

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وقال: «حسن صحيح»، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) العنكبوت: ٢، ٣. (٤) الأنبياء: ٣٥.

بألسنتهم ويقولوا عنهم بأفواههم ما ليس لهم به علم، وأين ذلك؟

في بيئة تحافظ على الأعراض وتحـافظ على الشرفاء، وعار شديد، وإثم أليم أن يلصق بهم شيء قـد يشين أعراضهم، فـإذا انضم إلى هذا كله الطهـر الشديد العظيم في بيت رسول الله ﷺ، وما عرف عنه من التوقي الشديد مما قد يصيب بعض الناس بالشكوك، ومـن الوضوح البين الذي يسـد به منافـذ الشيطان نحـو القلوب كان وقع الإفك عليه شديدا؛ لأنه ﷺ كان يتحرى أن يبتعد عن مواطن الشبهات؛ انظر إليه وقـد قام من المسجد مرة ليعيد إحـدى زوجاته إلى بيتها ورآه رجلان فـأسرعا في سيـرهما فقال لهـما: «**على رسلكمـا إنها صفـية**». فقالا: سبـحان الله! أو نظن بك ذلـك؟ قال ﷺ: «**إن الشـيطان يجري من الإنسـان مجرى الدم، وإني خـشيت أن يقذف في قلوبكما سوءًا أو شـيئًا**»(١)، هذا التوقي الشـديد من الشـبهـات ومن خطرات الظنون، التـي قد يقـذف بهـا في القلوب شيطان، كان دأب رسول الله ودِيْدَنه. كيف به إذا، وقـد جاءه خبر الإفك؟ كيف بأهله حين علـموا؟ وكـيف بالمؤمـنين الصـادقين من حـوله، وهم الذين يفـدونه بمهجهم وأرواحهم؟

الصبر الجميل:

إنه بلاء عظيم عمّ الصادقـين، دون أن يستطيعوا له دفـعا، ولا أن يستطيـعوا عنه حولا. وطال البلاء شـهرا كاملا، والناس يتـحدثون، والرسول ﷺ صابر محـتسب، وأم المؤمنين الطاهرة المبـرأة من فوق سـبع سموات لا تـدري مما يقول الناس شيئًا، وحين يُنقلُ إليها الخبر تحزن أعظم الحزن، وتبكي أحر البكاء، وهي ـ مع ذلك ـ تدرك أن الله ـ سبـحانه ـ لن يتخلى عنهـا برحمته، فكان الصـبر رغم الحـزن، وكان الأمل مـوجـودا وقت الضـجر والـضيق، وكـذلك كـان المؤمنون الصادقون، الذين هزتهم المحنة وزلزلتهم حزنا وكمدا على ما أصاب أطهر البيوت من سهام الشكوك، كـانوا يتطلعون إلى الله يرجون رحمـته أن يزيل عنهم الكرب الذي حلَّ بهم، والذي لم يقف عند القول باللسان، بل كـان يتحول بين المسلمين إلى حد السنان، حين صـعد رسول الله ﷺ على المنبر وقال: «**مَنْ يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت عـلى أهلي إلا خيرا**»، فقام أسيد بن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٨١).

حضير سيد الأوس فقال: أنا والله أعذرك منه. فقام سعد بن عبادة وقال لأسيد: كذبت والله لا تقتله، فثار الحيان، ولم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ونزل(١) . ومع وضوح الأمر، وقسم الرسول ﷺ على أنه لم يعلم على أهله إلا خيرا، فإن الأمر لم يحسم بهذا الموقف وبذاك القسم، بل كاد الأمر ينقلب إلى معركة بين المسلمين لولا أن الرسول ﷺ كبح جماح النفوس الثائرة، التي كادت تنفلت من قيد الطاعة لله وللرسول.

ولم يستطع أحد أن يقطع في القول بأمر من الأمور، حتى أبو بكر الذي طلبت منه ابنته أن يجيب عنها رسول الله ﷺ حين قال لها: «**إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن ألمت بذنب فاستغفري الله تعالى**» وتتجه أم المؤمنين إلى الصديق أبي بكر، إلى أبيها قائلة: أجب عني يا أبي. فلا يجيب.

فما بالك بغير أبي بكر من الناس، إنهم إن ظنوا بأنفسهم خيرا وبأمهم أم المؤمنين فلا يستطيعون أن يردوا هذا الاتهام، ولا أن يسكتوا الناشرين له، الآخذين في إذاعته، وقد عم وشاع.

وما كان لأم المؤمنين غير الصبر ملاذا وملجأ قالت: فوالله ما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾(٢) وكان عاقبة الصبر أن أنزل الله البراءة في سورة النور:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾(٣).

درس المحنة:

فكانت المحنة درسًا للأمة محصت به النفوس، وامتحن به الصادقون من المؤمنين، وظل الأمل وسط المحنة يتراءى لأصحابها يعلن أن الحق آت لا ريب فيه، «**فإن كنت بريئة فسيبرئك الله**» وظل الصبر هو سفينة النجاة في بحر المحنة الذي تلاطمت أمواجه واشتدت ظلماته.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٠) .
(٢) يوسف: ١٨. (٣) النور: ١١.

وحين كـفوا أيديهم عـمن كانوا يحـسنون لهم من المسـيئين جـاءهم التنزيل الحكيم يعلن:

﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(١).

فكانت الإجـابة: بلى: أحب أن يغـفـر الله لي، هكذا تحـدث أبو بكر وهو الذي كان قد أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة؛ إذ هو أحد الثلاثة الذين أجَّجوا نار الإفك بين الناس، تلك التي أحـمدها الله: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ ويعود أبو بكر لينفق من جديد كمـا كان ينفق من قديم على مسطح؛ لأن أبا بكر لا يتـبع الهوى، ولكنه يـتبع الحق في كل أمـوره وشـؤونه «إنما أنا متـبع ولست بمبتدع» وما أحوج الأمة إلى رجال يتبعون الحق في كل حين وفي كل مكان، حتى لا تزداد الأمة فساداً على فسادها، وضعفا عـلى ضعفها وفرقة جديدة تضاف إلى منازعـاتهـا القديمة، ومـا أحـوجنا أن ندرك ـ أن نردد دائمًـا في كل مـحنة تنزل بالمسلمين قول الحق: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾(٢).

إن محنة الإفك درس عظيم نضعه أمام المسلمين ليدركوا أن عليهم أن يوحدوا جهودهم، ويـزيلوا خلافاتهم ـ على الأقل في وقت المحن ـ ليحـموا دين الله من تقلبات الأهواء فلا يظهرون الدين بأنه يقـبل الشيء وضده؛ إذ ذلك ضرب يوجد عداوة بين المسـلمين، ويقف حاجزاً دون خـدمة هذا الدين من بعـض الصادقين، وإذا جاز لنا أن نخـتلف في بعض الآراء وقت الرخاء، فلا يجـوز لنا أن نختلف فيـها وقت الشـدة والبلاء وبخـاصة حين تلتـاع نفوس، وتضـيق صدور، وتجف حلوق، وتصمت ألسنة عـجزا عن بيان الكارثة، ثم بعـد ذلك كله يكون الخلاف في الرأي، ويقف بعض الناس يؤيدون الظالمين، ويناصرون الباغين، ولا ينصفون المظلومين، ولعل ذلـك درس لنا أجمـعين يرد بعـضنا إلـى بعض، ويعـيننا كلنا لنتـعاطف ونتعـاون ونحن نردد: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(٣)؟ بلى. إنَّا والله لنحب ذلك.

---

(١) النور: ٢٢. (٢) النور: ١١.

(٣) الإنسان: ٢٢.

٦ـ الإيمان بالقدر عزة للمسلمين

لا تظلم أقدار الله في تأخر المسلمين؛ لأن حركة الإنسان في الحياة يصنعها الإنسان نفسه، الذي لم يخلق ذاته، بل خلقه الله، وأيا كانت حركته في الحياة فإنها لا تخرج عن منهج الله، وليست مناقضة لقدر الله، وهذه مسألة قديمة خاضت فيها الفرق الإسلامية من قديم، وبعضها ضل طريق الهدى، وبعضها وصل إلى طريق سوي ومرضي، ولا ينبغي أن نخوض في بحر الخلاف حول مسألة انتهى بحثها من قرون، فإيمان الإنسان بالقدر خيره وشره، لا يلغى دور الإنسان ولا يلغى حرية اختياره لما يفعل ولما يدبر ولما يتجه إليه ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾(١).

والمؤمن الحق لا يترك ما أمر به من السعي والحركة في الخير وإنمائه ونشره وترك الشر والابتعاد عنه، لا يترك ذلك وربما ارتكب عكسه من أجل أمر لا يعلمه وغيب لا يدركه، ثم يقول: هذا قدري، لا وألف لا، إن هذا عجز يلوم الله عليه عباده ويحاسبهم على ما فرطوا فيه، وحرية المرء في تصرفاته لا يشك فيها أحد، لأنها أمر ملموس، يشعر به كل فرد في نفسه، ويحس به كل أحد في حركته، وينبغي أن يبحث عن سبب آخر لحالة التردي التي يعيشها المسلمون اليوم، أو بالأصح ينبغي أن يبحث عن مبرر آخر لهذه الحالة التي طالت، والتي ينبغي الخروج منها بأي طريق.

ويوم أن كان المسلمون مسلمين حقا ظهرت لديهم علوم باهرة، ظل العالم كله يستمد من قبسها حتى وقت قريب، وليست جهود ابن النفيس وابن الهيثم والبيروني وغيرهم ممن أبدعوا من علماء المسلمين بخافية على صاحب علم يقوده الحق، ويرشد إلى الخير. والإيمان بالقدر عنصر قوة للمسلم يدفعه إلى الحركة النامية في الحياة، ويمنعه من الوهن، ويجعله غير متخاذل إن ألمَّ به كرب أو نزلت به نازلة، غير بطر ولا متجبر إن تحقق له ما يرجوه.

إن الإيمان بالقدر ـ يا صاحبي ـ ثبات للمؤمن يعلو به عن كل خوف مما

(١) الإنسان: ٣.

يأتي، ويجعله يزداد ثقة في طريقه؛ لأن دليله آيات الله، وقائده محمد بن عبد الله ﷺ، وهو إن عاش متبعا منهج الله لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وإن عاش على غير ذلك كانت حياته ضنكا، وهو يوم القيامة أعمى، لأنه عمى عن الحق في الدنيا وظل حتى الممات كذلك.

ولكن أزيدك بيانا لهذا الأمر أقول: يمضي المسلم في طريق الحياة والإيمان بقدر الله يظله، فلا يتجبر بما أتاه الله، ولا يتكبر على غيره من البشر، ولا يبطر بالنعم، وإيمان الإنسان بالقدر يحميه من أن يذل أو ينهار أمام شدائد الحياة إن لم يصل إلى الغاية المبتغاة، إن إيمان المؤمن بقدرالله ميزان عادل يجعل حياة المؤمن مستقيمة لا تميل إلى الإفراط ولا إلي التفريط، فتطيش منه حينئذ إحدى كفتى الميزان فتختل حياته، ويتمنى لو وافته وفاته ليريح ويستريح، والقرآن الكريم يضع هذه الحقيقة أمامنا لنقيم عليها شؤوننا، ونتمسك بها في سيرنا يقول الله سبحانه:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1].

ومن هنا يكون حسن الاعتقاد في الله أهم العوامل التي ترطب القلوب فلا تجعلها الشدائد قاسية، فيتحمل المؤمن في صبر وجلد ما قدر له، دون أن يتزعزع أو يتزلزل، أو يضعف أو يهن ، أو يستسلم للظالمين ويخر للطغاة المتجبرين، إن الثبات في وجه الشدائد والملمات والكوارث والأزمات فريضة على المسلمين، مع أن الثبات قد يؤدي ببعض الأفراد إلى زوال حياتهم حين يعتدي عليهم الطغاة البغاة، والثبات مطلوب ومفروض وإن أدى إلى تلك النتيجة في بعض الأحيان؛ لأن مواقف الرجال تصنع الحياة والمبادئ التي يستمسكون بها هي طوق النجاة لكثير من الناس في أجيال متعاقبة، وإن أدت هذه المواقف إلى هلاك بعض الأفراد، وموقف الإمام أحمد بن حنبل في المحنة موقف عظيم؛ إذ رفض أن ينجو بنفسه ويهلك ـ من ورائه ـ جموعًا كثيرة من المسلمين. فاحتمل وصبر وثبت فكان الفرج بعد الكرب، والمخرج بعد الضيق، ومن أين يأتي الثبات والتحمل

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.

والصبر والتجلد ما لم يكن إيمان بقدر الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١].

وما لم يكن التجاء إلى الله، ورضا بقضائه، وصبر على البلاء، وتماسك أمامه بقوة الإيمان المستمدة من التعامل مع الله في السراء والضراء والشدة والرخاء.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

إن مما يجب علينا نحن المسلمين أن نثبت وأن نصبر وأن نتقي الله في أنفسنا وأولادنا وأموالنا وديارنا وأهلينا واثقين من نصر الله ومن تأييده وعونه، بعد أن نؤدي واجبنا في الثبات والصبر، ولم لا يكون الأمر كذلك والله سبحانه هو القائل ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٣] وهو القائل ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٤]، وهو القائل: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥]، وبعد الثبات والصبر والتقوى والاستعداد ومجانبة الوهن والضعف والاستخذاء، والبعد عن الفشل والتنازع والتناحر والتباغض ينزل الله نصره على المؤمنين، فيفرحون ويسرون، وكما جاءهم البلاء الذي قدره الله، فصبروا وثبتوا، يأتيهم النصر الذي ينزله الله فيفرحون ويشكرون، فإيمان المؤمن بالأولى لا يقل عن إيمانه بالثانية، والغلبة في النهاية للمؤمنين والنصر للصادقين الصابرين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٦].

وقد يظن البعض أن الغلبة لله ورسوله تكون في الآخرة: ولكنا نؤكد ما أكده الله لنا أنه ناصر رسله وأتباعهم المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[٧].

فالنصر في الدنيا للمؤمنين مؤكد في القرآن الكريم لا يحتاج منا إلى تأكيد بعد ما أكده الله ـ سبحانه. وفي مسيرة النصر وعلى الطريق المؤدية إليه لابد من

---

(١) القمر: ٤٩.
(٢) التغابن: ١١.
(٣) آل عمران: ١٢٠.
(٤) آل عمران: ١٨٦.
(٥) يوسف: ٩٠.
(٦) المجادلة: ٢١.
(٧) غافر: ٥١.

الصبر، واستشعار معية الله، والإيمان بما قدره وقضاه، والثبات على الحق، وفي سبيل ذلك قد يفقد بعض الأفراد أرواحهم أو أموالهم أو ديارهم أو بعضا من عشيرتهم، وكل هذا ليس خذلانا ولا هزيمة ولا وهنا، وإنما هو إحدى الحسنيين اللتين ذكرهما الله في كتابه في معرض رد المؤمنين على المنافقين:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾(١).

فالتربص والترقب من الطرفين موجود «فماذا يتربص المنافقون؟ إنها الحسنى على كل حال: النصر الذي تعلو به كلمة الله فهو جزاؤهم في هذه الأرض، أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله، وماذا يتربص المؤمنون من المنافقين؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين، أو ببطش المؤمنين كما وقع من قبل للمشركين، ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾، والعاقبة معروفة... والعاقبة للمؤمنين»(٢).

(والله قد كتب للمؤمنين النصر ووعدهم به في النهاية فمهما يصبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء فهو إعداد النصر الموعود، ليناله المؤمنون عن بينة وبعد تمحيص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله نصرا عزيز لا رخيصا، وعزة تحميها نفوس مستعدة لكل ابتلاء صابرة على كل تضحية، والله هو الناصر وهو المعين ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾)(٣).

إنهم يتوكلون ـ لا يتواكلون ـ على العزيز الذي لا يغلَب، القويّ المتين:

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٤).

لقد ردّ الله سبحانه أبرهة عن الكعبة، دون أن يكون بين أهل مكة نبي مرسل ولا مؤمن مصدق، ورد الله الأحزاب عن المدينة بعدما زلزل أهلها زلزالا شديدا فصبروا وثبتوا متوكلين على الله: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى

---

(١) التوبة: ٥٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣ / ١٦٦٥ ط دار الشروق.

(٣) المصدر السابق: ٣ / ١٦٦٤.

(٣) الحج: ٧٤.

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾(١).

وقد كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الصبر والثبات والتجلد والاحتمال؛ لأنه يعدهم إعدادا حسنا يظهر بهم وعلى أيديهم نور الله في العالمين. هذا خباب ابن الأرت يأتي إلى رسول الله ﷺ يستحثه على طلب النصر من الله والدعاء فيقول: ألا تدعو لنا!! ألا تستنصر لنا، وكان المشركون قد نالوا منه وبالغوا في تعذيبه مع إخوانه ممن آمنوا. ويذكر له الرسول ﷺ مثالا من تضحية الأولين بأنفسهم في سبيل الدين ثم يقول: «**والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعلجون**»(٢).

ما كان هذا الأمل العظيم الذي بشَّر به الرسول الكريم صاحبه ليتحقق إلا بعد صبر مرير وثبات طويل ثم يعقبه الفرج، ولتكن هذه الحقيقة ماثلة أمامنا دائمًا: **﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾**(٣).

(١) الأحزاب: ٢٥.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢).
(٣) الحج: ٤٠.

٧- فبما كسبت أيديكم

إن دار النعيم الذي لا يكدره شيء هي الجنة، ودار الجحيم الذي لا يخففه شيء هي النار، وكلتا الجنة والنار زمانهما في الحياة الآخرة، وليست في الحياة الدنيا التي يؤثرها البشر، وينشغلون بها عن غيرها لحبهم إياها، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[١]، والحياة التي نؤثرها مليئة بالخير والشر؛ لأنها دار الابتلاء الذي أخبر الله به في قوله: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[٢] ولأن الإنسان خلقه الله فيها حرا مختارا وميزه بالعقل وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين، وحدد له غايته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٣] وكشف له وسيلته ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[٤]، ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[٥].

وحتى يتضح الأخيار من الأشرار كان لابد من الابتلاء ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[٦] والله سبحانه أخبرنا بذلك فقال ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[٧] وليس بالضرورة أن يكون البلاء شرا في كل حال، لأنه قد يمحص الإنسان أحيانا، ويخفف من آثامه أحيانا أخرى، ويردعه عن غيه مرات ويعمل على رده إلى الله، إلى غير ذلك من الحكم التي قد نعلمها وقد لا نعلمها، ولكنَّ كثيرا من أنواع البلاء تصيب الناس بسبب معاصيهم وكسب أيديهم، وظهور فسادهم في كل مكان يصلون إليه ويحلون فيه، ولو رجعوا عن غيهم لصلح حالهم واستقام أمرهم، ولا ننكر أن من البلاء ما يقع بدون جريرة ارتكبت أو جريمة اقترفت، كما حدث مع أصحاب الأخدود الذين قال الله في حقهم: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[٨] ولكن

---

(١) الأعلى : ١٦، ١٧.
(٢) الأنبياء: ٣٥.
(٣) الذاريات: ٥٦.
(٤) آل عمران: ٣٢.
(٥) النور: ٥٤.
(٦) الأنفال: ٤٢.
(٧) محمد: ٣١.
(٨) البروج: ٨.

الكثير من البـلاء إنما هو بذنب من الذنوب، وقد ورد «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة».

والبشر تتعدد فـيهم النوازع، وتتباعد الأهواء والرغائب، فتجـد فيهم الخيرين وتجد فـيهم الفاسـقين العاصين، فإن كـثر الفسق وعـمت المعصيـة وجاهر الناس بالسيئـات ابتلاهم الله في أمنهم أو في رزقهم لعلهم يتضـرعون إلى الله ويعودون إليه تائبين مما اقـترفوا، نادمين على معصـيتهم، فإن لم يفـد ذلك في العصاة نزل بهم العذاب، وأحاطت بهم الشدائد، واجتاحـتهم المهلكات، وما قصة القرية في سورة الأعراف عنا ببـعيدة، فقد ابتلاها الله بفـسقها فضيق عليهـا في رزقها فلم ترجع عن غيّها، بل اسـتمرت في عصيان أوامر الله متـخذة الحيل والخداع، وقد جهل سكانها أن ذلك وإن انطلى على البشر، فـإنه لا ينطلي على الخالق ـ سبحانه ـ لأنه يعلم ما نخفى ومـا نعلن، ولما قامت جماعـة تنبه العاصين إلى معصـيتهم، وتحذرهم عذاب ربهم لم ينته العصاة، ولم يبتعدوا عن الخروج عن الطاعة المتعدين لحدود الله، فجاءهم بأس الله الشديد، وعذابه المهلك المديد، قال سبحانه:

﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(١).

والله ـ سبحانه ـ يسوق الخيـر للناس، وهو غنيّ عنهم، وهم محتاجون إليه؛ يتعطف عليهم بالرزق والنعمة فيقـابلون نعمته بالجحود والإعراض، وليست هناك نعمة تسـاق للإنسان أعظم من نعمة الأنبيـاء والمرسلين الذين يرسلهم رب العالمين ليبلغوا الناس أوامر الله، ويعرفوهم بصفاته وأسمائه، ليكون لهم من ذلك زاد في طريق الحياة فلا يـنحرفون ولا يبتعدون عن الحق والصـراط، فإذا ما كذَّبَ الناس المرسلين والأنبيـاء، وزاد منهم العـتو والسـفـه والكبـرياء أخذهم الله بـالبأسـاء والضراء، لعلهم يرجعون: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾(٢).

---

(١) الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٥.   (٢) الأعراف: ٩٤.

وبعد هذا الأخذ الشديد بالبأساء والضراء قد يرجع الناس عن غيهم فيتوبون إلى ربهم، فيكتب الله لهم النجاة، ويحميهم من شرور الحياة: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾(١).

فكان كشف العذاب، وإبعاد الخزي عنهم والعقاب، وإمتاعهم في حياتهم الدنيا بالطيبات من الرزق إنما هو بسبب إيمانهم ﴿ **لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾(٢)، والله ينجي العاملين من الشر، ويحميهم من الزيغ، ويحفظ عليهم بذلك إيمانهم فيقوى عندهم اليقين، ويتمكن من قلوبهم النور الواضح المبين، «**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان**»(٣)، وإنما كان استحواذ الشيطان عليهم ونسيانهم ذكر الله، ووقوفهم في حزب الشيطان، يكثرون أنصاره ويؤيدون أعوانه، وهم ـ بذلك ـ خاسرون كانوا كذلك؛ لأنهم تركوا ركنا من أركان الإسلام وفريضة من فرائضه، وبقدر ما يتمسك الإنسان بتعاليم الله واتباع أوامره، والتزام فرائض الدين، والأخذ بسننه يكون ابتعاد الشيطان عنه، وبالتالي يكون محصنا ضد الفساد والفسق والفجور والعصيان.

فإن فرط في جانب الدين من أي زاوية، فقد أصبح من جنود الشيطان وحزبه من جهة هذا التفريط حتى يعود عنه بالتوبة إلى الله، أو يستمر في تفريطه فيتسع عليه الخرق، ليظل على ما هو عليه فيكتب في الخاسرين، ويحشر في زمرة الفاسقين؛ لأنه أحبهم وسار على منوالهم، وأخذ في الدنيا نهجهم، وهكذا مصير المارقين عن حدود الدين، يعذبهم الله في الدنيا والآخرة فيبتليهم، فإن استمروا أخذهم أخذ عزيز مقتدر، قال ـ سبحانه: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾(٤).

(١، ٢) يونس: ٩٨. (٣) أخرجه أبو داود (٥٤٧).
(٤) النحل: ١١٢.

فالابتلاء هنا ليس بنزول العـذاب، ولكنه بالتضييق في الرزق وعدم اسـتتباب الأمن، ليلجأ الناس إلى ربهم بالتوبة، فإن كثـر الفسق وعم العصيان، ولـم يرجع الناس واستـمروا في جهـالتهم وضلالهم أخـذهم الله بالعذاب ودمرهم تدمـيرا. ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾(١).

وقوم لوط حين فشت فيهم الفاحشة وجاهروا بها، واستمروا على ما هم فيه من الخبائث والفسق، ولم يرعوا أمام نبـيهم وقالوا ما قصه القرآن الكريم: ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾(٢).

كان مصيرهم المعروف الهـلاك الشديد، والعقاب المبيد: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾(٣).

وقد يأتي البلاء في صـورة أمراض وأوجاع لم يعرفهـا الناس من قبل، لعل السادرين في غيهم يتوقفون ويرجعون إلى الله يتضرعون، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا**»(٤)، وهل أتاك نبأ الإيدز ـ عافنا الله وإياك؟ إنه دليل عـملي واقعي للذين يتشككون من غيـر الصادقين في السنة المطهرة، أعـرفه الناس من قبل؟ كـلا ولكنه ظهر واستـشرى وصار وحـشا مرعبا مفزعًا ما يكاد يظهـر في مكان، حتى يُستَنْفَرَ له الناس والأجهزة والأشعات وغيرها من كل ما هو جديد، والعاقل من يقول: انج سعد، فقد هلك سعيد.

والمرء قـد يحرم الرزق بالذنب يـصيـبه، فـالبلاء بـالتضـييق أو بالأمـراض والأوجاع أو بالخـوف والقهر والضنك، أو بالاسـتئصـال والمحق، وكله مما ارتكبه الإنسان وابتعد فيه عن منهج الرحمن: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٥)، ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

---

(١) الإسراء: ١٦. (٢) هود: ٧٩.

(٣) هود: ٨٢، ٨٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني.

(٥) الروم: ٤١.

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾(١).

وأخيـرًا نقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٢). والعاقل من اتعظ بغيره، ونعوذ بالله أن نقترف معصية أو أن نجر على أنفسنا أو على المسلمين سوءًا، بعد أن منَّ الله علينا بنعمه التي لا تحصى، وبصرنا بطريق الذين ظلموا أنفسهم، حتى لا نقع تحت طائلة عقابه في الدنيا ولا في الآخرة، وحتى لانكون من أصحاب هذه الآية. ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾(٣).

معاذ الله أن نكون من هؤلاء، وإننا لندعو أنفسنا وإخواننا أن يكونوا على الجادة سائرين بالصراط مستمسكين، وبالمعروف آمرين وعن المنكر ناهين، وتلك هي صبغة المجتمع المسلم يتشربها سُداهُ ولحمته فلا تنفصل عنه ولا تخرج منه، فحيثما كان المسلمون كانت معهم صبغة مجتمعهم، وسيطرت عليهم تعاليم دينهم وقاموا بواجبات ربهم، وأعانوا الطائعين وأخذوا على يد الظالمين فستتقيم لهم الأمور وتعتدل بهم للعدالة موازين: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(٤).

إن مجتمعنا يصطبغ بالصبغة الإسلامية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والدولة والمسلمين أجمعين، وذلك أمر فيه شرفنا وبه عزنا؛ إذ تتحقق فيه الخيرية لنا التي ذكرها الله في كتابه حين قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(٥).

ومع هذه الخيرية للأمة الإسلامية والتي بها تتفوق على جميع الأمم الأخرى يكون لنا الفلاح والفوز العظيم في الدنيا والآخرة إن نحن حققنا صبغة الإسلام في كل مجال وفي مقدمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٦).

---

(١) الشورى: ٣٠. (٢) يونس: ٤٤.
(٣) الانفطار: ٦. (٤) البقرة: ١٣٨.
(٥) آل عمران: ١١٠. (٦) آل عمران: ١٠٤.

أفلحوا لأنهم قاوموا الشر وحافظوا على مسيرة الخير، عاونوا الصالحين الخيرين، وقاوموا المفسدين فتحقق الفلاح لهم ولمجتمعهم من حولهم بفعلهم وحسن سلوكهم وسلامة مقصدهم وصدق توجههم، وأما الذين لا ينكرون منكرا، ولا يأمرون بمعروف، فاللعنة لهم والسخط يصيبهم والرحمة بعيدة عنهم، بل هم ملعونون، مذموم فعلهم، وهذا جزاؤهم لمخالفتهم ما أمر الله به:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[١].

وإذا ترك الشر فلم يقاوم حتى يفشو ويعم، فإن الهلاك هو المصير المحتم ولو هلك مع الهالكين صالحون قليلون، هذا ما بينه رسول الله ﷺ حين سألته أم المؤمنين زينب بنت جحش: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**نعم؛ إذا كثر الخبث**»[٢].

ولذا فإن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجاةً، أي: نجاة لسفينة هذا المجتمع، الذي يقاوم فيه الشر ويعاون فيه على الخير فينجو من الهلاك «**فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم** ـ أي منعوهم من أن يخرقوا نصيبهم ـ **نجوا ونجوا جميعا**»[٣]، إن الموج من حول سفينتنا مضطرب والرياح عاتية، ولا نجاة لنا إلا بالصبغة الإسلامية، والتمسك بالمناهج الربانية.

---

(١) المائدة: ٧٨، ٧٩.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٩٨)، ومسلم (٢٨٨٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

٨ـ منحة المحنة

الذين اكتووا بنار الباطل يعرفون قيمة الحق، والذين ذاقوا مرارة الظلم يدركون قيمة العدل، ويعلمون أن الساكت عن الحق شيطان أخرس، ويشيع فيهم القول المشهور: لعن الله قوما ضاع الحق بينهم، وما دامت كلمة الحق من الدين فنحن ـ بحمد الله ـ قائلوها، وللناس مبينوها؛ ليعلم الناس أن دين الله لا يكيل بكيلين، ولا يزن بميزانين، إنما هو ميزان واحد يزن به للناس أجمعين، إنه ميزان الحق والعدل نستمسك به ونعلنه؛ لأننا نعلم أن دين الله لا يقوم به إلا من يحيط به من جميع جوانبه، ولأننا نعلم أن اتباع الهوى ضلال مبين، وخسران أكيد، وأن ضياع الأمم إنما يبدأ حين يختفي الحق وينتفش الباطل أو يختلطان اختلاطا تزول معه معالم الحق، وتبقى به آثار الباطل، والله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿**وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(١).

وعاب الله على قوم أنهم يكتمون الحق مع علمهم به فقال سبحانه: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٢).

والحق هو ما جاء به الرسول من عند الله ليبلغه للعالمين ليعلموه ويعملوا به فيسعدوا في الدنيا والآخرة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾(٣).

والحق من أسمائه ـ سبحانه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى**﴾(٤) وبه قامت السموات والأرض: ﴿**مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾(٥).

وقد قرر المولى سبحانه أن كثيرا من الناس يكرهون الحق، قال ـ سبحانه: ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾(٦).

وليس صلاح الناس في اتباع أهوائهم ورغباتهم؛ إذ في هذه الأهواء فساد لهم أي فساد، ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾(٧) والله

---

(١) البقرة: ٤٢.
(٢) آل عمران: ٧١.
(٣) النساء: ١٧٠.
(٤) الحج: ٦.
(٥) الروم: ٨.
(٦) الزخرف: ٧٨.
(٧) المؤمنون : ٧١.

هو الحق المبين، وهو سبحانه لا يستحـيي من الحق، ونحن كذلك لا نستحيي من الحق؛ لأن فيه صلاحنا وفـيه خيرنا وفيه نجـاتنا؛ إذ الذين جادلوا بالباطل أهلكهم الله: ﴿ **وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾[(١)].

ولقد امـتن الله على المؤمنين، حين ذكرهم بنعـمة الأمن التي رزقـهم إياها، وهم الذين كان الفزع يـأخذ بمجامع قلوبهم، كانوا ـ من قبـل في مكة ـ مهددين في مستقرهم لا مأوى لهم، فـآوهم الله، وأزال عنهم الخوف ورزقهم من الطيبات ليشكروا أنعم الله قال ـ سبحانه: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[(٢)].

وبزوال الخـوف، ووجـود الرزق تسـكن النفس ويثـبت القلـب عند هجـوم المخاوف والابتـلاءات، ويستمر على ذلك شـاكرا نعم الله، مدركا فـضله، ذاكرا أسماءه، عارفا صفاته، مـوقنا أن في كون الله سننا صنعها الله، ونواميس أوجدها لعبـاده، فيـصل من ذلك كله إلى طمـأنينة القلب وهدوء النفس، وراحـة الخاطر والضمير، والله هو القائل: ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾[(٣)].

تطمـئن حين تلتـجئ إلى الله، تتـذلل إليـه، وتحتـمي به من شـرور الإنس والجن:

﴿ **قُلْ أَعُـوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِن شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾.

والإنسان قد يضـعف أمام الأحداث، ويجزع أمام المخـاوف، ولا يثبت أمام الابتلاءات، ولكن المؤمن الصـادق وإن خاف وجزع، وإن زلزلتـه الأحداث، وإن استـبعـد النصر ـ أحـيانا، ﴿ **وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ** ﴾[(٤)]، فإنك تجده ثابت الجنان مستقر الفؤاد، والمؤمن الصادق يظل له من إيمانه في قلبه رصيد، يجعله يتماسك ولا يذوب، ويثبت ولا يتراجع؛ لأنه يطمئن إلى

(١) غافر: ٥.
(٢) الأنفال: ٢٦.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) البقرة: ٢١٤.

حكم الله، ويطمئن إلى قدر الله، ويلتجئ في كل حين لمولاه ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(١) تطمئن لحكم الله الديني: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(٢):

فالحق منصور وإن انتفش الباطل، وزها الظالم، وتجبر على الناس البغاة المعتدون، فالمؤمنون يدركون أنهم ـ وهم على الحق ـ منصورون ولو بعد حين.

والصادقون من المؤمنين يطمئنون كذلك إلى حكم الله القدري: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

بهذا يأمن المؤمنون فلا يفزعون ولا يحزنون ولو فزعوا وجزعوا سرعان ما يعودون ليدركوا أن قدر الله غالب، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشرًا بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، وإن اجتمعوا على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وصدق الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٤).

وما دام الأمر كذلك فلم الجزع؟ وفيم الفزع؟ وإذا ما حفت بالإنسان الأحزان، وأحاطت به الآلام والمظالم والمخاوف فتضعضع منه الصبر ولان منه العزم، فإنه لا ينهار، لأن الإيمان يمده باليقين، وذكر الله يرد قلبه إلى الطمأنينة، فيزداد سكونه حينما يتدبر مثوبته أمام الله، وحينما يتذكر معية الله له ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٥) حينئذ تعود له عزة المؤمن المستعلي بإيمانه على كل ما حوله فيردد:

وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة　　فعند اللقا ذا الكدِّ يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي　　ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

نعم لم لا يرضى المؤمن بما أصابه، وهو يقرأ قول الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٦).

---

(١) الرعد: ٢٨.
(٢) الأنبياء: ١٨.
(٣) التوبة: ٥١.
(٤) القمر: ٤٩.
(٥) البقرة: ١٥٣.
(٦) يونس: ١٠٧.

إن المؤمن الصادق يعلـم علم اليقين أن الأمر كله لله، وأن قـدر الله غالب، وأن على الإنسان وهو لا يعـرف ما قدر له أن يأخذ بالأسبـاب، وأن يحاول قدْر جهده أن يتجنب البـلاء، فإذا ما أصابه البلاء ثبت وصبر، واحتـسب فقد أدّى ما عليه وما في استطاعته، ثم يفعل الله مـا يشاء لحكم يعلمها الله ولا نعلمها ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾(١)، وقد تخفى مصلحة الإنسان عليه فلا يدركها إلا فيما بعد، فيحمـد الله؛ لأن البلاء الذي أصابه كانت فيه النجـاة من شر أكبر، وألم أعظم، أرأيت إلى العبد الصالح الذي صحبه موسى ، حينما قتل الغلام، وهذا بلاء ظاهر ولكن هذا البلاء فيه نجاة من شر أعظم وأكبر وهو الشرك بالله، فالبلاء بقتل الابن أخف وطأة من البلاء بـالشرك، وفي هذا من فضل الله بعـباده ما فـيه ممالا تدركه الأبصار ولا تستبينه البصائر:

﴿ **وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا .فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا** ﴾(٢).

فالإنسـان تعترضه غـيوم وهموم، ومـحن وفتن وابتلاءات شتى، وفيـها من الحكم ما لا يعلمها إلا الله، وبها يتميز الطيب من الخبيث والصادق من الكاذب، فالصادقون صابرون ينتظرون من الله تفريجـا للكرب وكشفا للحجب، لا ييأسون من الفرج: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾(٣)، ﴿ **وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ**﴾(٤).

الصادقون من المؤمنين يعلمون أن في المحنة منحـةً، وأن مع العسر يسرا، هم ـ فقط ـ يتذللون إلى الله ـ لا لسواه ـ يرجون مثوبـته ويطلبون رحمته، ويستنزلون ـ بالدعاء ـ نصره.

قالوا:

أتشكو إليه مـا ليس يخفى عليه   فقلت: ربي يرضى ذل العبيد إليه

إن أقدار الله تجري على الناس في أوقات أرادها الله، وهي أليق الأوقات التي

---

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) الكهف: ٨٠، ٨١.
(٣) يوسف: ٨٧.
(٤) الحجر: ٥٦.

تجري فيها الأقدار، فلا يلومنَّ أحد عصره، ولا ينـدبن أحدٌ حظه، ولكن ليكن الثبات والصبر والاحتساب مع الأمل في الفرج والخروج من الضيق وتحقيق اليسر الذي يسعد به الصالحون، ويرون أنه نعمة من الله له بها يشكرون.

ومع هذا فلابد من أخذ الأمور بجد وحزم واتباع منهج الله الذي بينه كتابه وسار عليه رسوله ﷺ، فقد أمر الله سبحانه بإعداد القوة فقال: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[1] وقال لنا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾[2]، والرسول ﷺ بين أن القوة الرمي فقال: «**إلا أن القوة الرمي، إلا أن القوة الرمي**»[3] ، وقال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا**»[3] .

وإعداد القوة للأعداء يشمل كل قوة في كل مجالات الحياة المختلفة؛ اقتصادية واجتماعية حربية وغيرها، ويوم أن نفعل هذا سيصلح أمر هذه الأمة في آخرها كما صلح في أولها، ولن يخاف الناس من جوع، وسيأمنون من الخوف.

---

(١) الأنفال : ٦٠ .
(٢) النساء : ٧١ .
(٣) أخرجه مسلم (١٩١٧).
(٤) أخرجه البخاري (٢٨٩٩) .

٩ـ معية الله تعالى

إن الإنسان ليس وحده في هذا الكون، إن معه خلائق آخرين، فملائكة الله مبثوثة في كل مكان علمناه أم جهلناه، والجن ترانا دون أن نراها، وفوق الجميع إله قادر لا يخفى عليه شيء من أمر الخلائق، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، يعلم ما نخفى وما نعلن، ما نظهر وما نبطن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(١)، ومع هذه المعية العامة التي فيها من معاني العلم والإحاطة ما فيها مما ليس لنا به إحاطة ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾(٢) مع هذه المعية هناك معية خاصة لطوائف من الموحدين، وفئات من المؤمنين، معية التوفيق والسداد والحفظ يتفضل الله على هؤلاء بها فتحدث أثرها في القلوب والأرواح والنفوس، وتحيى من المسلمين العزائم ليشمروا عن ساق الجد والاجتهاد؛ ليصلوا إلى الدرجات التي بها يتحقق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٣). وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤) والله مع الصابرين، فدرجات التقوى وإحسان الأعمال والصبر على الشدائد والمشقات والابتلاءات كلها تمحيص للعبد يرفعه الله تعالى بها إلى أن يكون أهلا لمعيته.

نوعا المعية:

معية الله لعباده تعبير تكرر في آيات كثيرة من كتاب الله ـ عز وجل ـ منها قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(٥).

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾(٦).

---

(١) الحديد: ٤.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) النحل: ١٢٨.
(٤) العنكبوت: ٦٩.
(٥) التوبة: ٤٠.
(٦) المجادلة: ٧.

وعند النظر في مجمـوع الآيات المباركات التي ورد فيهـا هذا التعبير بصـيغه المتنوعة، وسياقاته المتعددة نجد أن معية الله للإنسان نوعان:

النوع الأول: معية مراقبة ومحاسبة وعلم بكل ما يصدر عن الخلق من قول أو فعل أو خاطرة، أو فكرة لا تزال مستكنة في الصدور بحـيث لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وهذا النوع يشـمل الخلق جمـيعـا، وهو المراد بقول الله تعـالى: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾(١).

ومن نتائج هذه المعية وتوابعها تسجـيل أعمال الخلائق وتصرفاتهم وإحصاؤها عليهم حـتى يحاسبوا عـليها، وينال كل مخلـوق ما يستحق من جـزاء في اليوم الآخر، يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾(٢).

والنوع الثاني:

معـية حفظ ورعـاية، ونصر وعناية، وتأييـد وحماية، وهذا النوع من المعـية خاص بأولياء الله تعالى وأصفـيائه من الأنبياء والمرسلين، ومن المؤمنين الصادقين، وإلى هذا المعنى أشـار رسول الله ﷺ في قوله: «**يا أبا بكر، مـا ظنك باثنين الله ثالثهما**»(٣).

وقد سجل القرآن هذه الواقعة وسماها نصرا، فقال سبحانه: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾(٤).

ومن المواضع التي وردت فيهـا المعية بهذا المعنى، ما جرى مع سـيدنا موسى عليه السـلام حين خرج مع قومـه مهاجـرًا وطاردهم فرعون بجنوده كي يعـيدهم

(١) الحديد: ٣، ٤.
(٢) المجادلة: ٦.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) التوبة: ٤٠.

خاضعين لسلطانه، يتعرضون للإذلال والمهانة، وملأ الخوف قلوب بني إسرائيل وعبروا عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1]، فطمأنهم موسى مؤكدا لهم أن معية الله له ستكون سببا في النجاة ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2] وقد كان كما قال، فكانت نجاة موسى ومن معه، وهلاك فرعون وجنوده: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾[3].

منعة المعية الإلهية:

في الحديث القدسي: «... **إذا تقرب إلى العبد شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**» فسبحان الله العظيم، الغني عن الخلق أجمعين، وهو يتودد لعباده، ويتحبب إليهم وما على العباد إلا أن يقبلوا عليه، ويطيعوا شرعه ودينه، ويحققوا في أنفسهم هذه الصفات التي ذكرنا (التقوى والصبر والإحسان) فيقوى منهم الجنان، ويثبت على الصدق اللسان؛ لأن العبد يستشعر وهو في معية الحق ـ سبحانه ـ عظمة الله وقوة الله، وضعف البشر والكائنات أمام قدرة الله المطلقة، ومشيئته غير المقيدة، فيتحمل العبد المعاناة ولا يشكو إلا إلى مولاه، ويكون صادقًا في تعامله مع الناس؛ لأنه يدرك أن الحق يراه: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4]. فلا تضعفه محنة ولا تزلزل كيانه نقمة، ولا يحزن لنعمة افتقدها، ما دام إيمانه بالله لا يفارق قلبه وذكر الله لا يخاصم لسانه، فكل شيء في الحياة يهون، وكل صعب يحتمل حتى يزول، قال معاذ رضي الله عنه عند موته: «اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولا لنكح الأزواج، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الليل، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

وهذه من علامات الطريق الموصلة إلى معية الله، فيدرك الإنسان نعمة الله عليه، حتى في الشدة التي يكابدها، نعمة الله عليه أن جعله مظلوما يترقب النصر والعزة، ولم يجعله ظالماً يترقب الأخذ والذلة، نعمة الله عليه، حيث قصر ابتلاء

---

(١) الشعراء: ٦١.
(٢) الشعراء: ٦٢.
(٣) الشعراء: ٦٣ـ ٦٦.
(٤) الأنعام: ١٠٣.

المرء على شيء بعينه ولم يجعله عـاما مطلقا، ولم يجعل عذابه بالابتـلاء ساحقا ماحقا، ينظر المظلوم إلى ظالمه مشفقا، لإدراكه أن الله يمهل ولا يهمل، وأن أخذه للظالمين شديد، «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١).

﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾(٢).

والظالمون لا يعـجزون رب الأرض والسـماء، فـأين قـوتهم من قوة العـزيز القـهّار، وأين جـبروتهم من كـبرياء الجـبار، الله رب العـالمين، وهم ضعـاف لا يقدرون على أتفه المخلوقات بل أحقرها: ﴿ **وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾(٣).

وبعدها مـباشرة الآية التـالية: ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾(٤). وفي الآية مؤكدان يزيلان ما قد يتـبادر إلى أذهان الشاكّين في القدرة أو في عظمة المقدرة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (فإن) أداة توكيد (واللام) الداخلة على خبرها كذلك تفيد التوكيد، وهذا يؤدي إلـى تثبيت الحكم بقوة الله الغالب الذي لا يُغلب ونفى أي شك حول هذه القـوة والغلبة. وآيات القرآن الكريم الـدالة على ضعف الناس أجمعين أمام رب العالمين، مالك يوم الدين، آيات القرآن هذه كثيرة منها: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ** ﴾(٥).

﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾(٦).

﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦).
(٢) هود: ١٠٢.
(٣) الحج: ٧٣.
(٤) الحج: ٧٤.
(٥) الملك: ١٦، ١٧.
(٦) الأنعام: ٦٥.
(٧) النحل: ٤٥.

إلى غيـر ذلك من الآيات التي تكشف ضعف الإنسان، وتبين عـجزه، ومع ذلك فهو خصيم مبين: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾(١).

ولكن هذا الخـصم العاجز الضـعيف (الإنسـان) سرعان مـا يذهب، وتمضي أجيال وراء أجيال تقيم في الأرض حينا ثم يصحبـها الترحال لتلقي ربها فيجازيها على ما قدمت من خير أو شر، فـلا شيء مضيع وإن تأخر، ولا شيء مهمل وإن كان فيه إمـهال، والصابرون المتقون، المحسنون، هم الذين يصـمدون أمام أحداث الحياة لا لطلب دنيـا ومغنم، وإنما طلبا لرضوان الله ورفع الإصـر عنهم في الدنيا والآخرة.

آثار الشعور بالمعية:

إن شعور العبد بمعية الله له وبمراقبته الدائمة لكل ما يصدر عنه وإحساسه بأنه يعـيش في كنفه ويسـتظل بحمـايته، كل ذلك يـنتج آثاراً هائلة في سلوك العـبد وتصرفاته، وفي نظرته لـلأحداث التي تجري في علاقاته بالآخـرين الذين يتعامل معهم، ومن هذه الآثار المهمة:

١ـ شدة الحرص على طاعـة الله تعالى، والحذر الشديد من معصـيته، وتلك نتيجـة حتمية لشعـور المؤمن الصادق بأن الله معه يراقب سلوكـه، ويحصى عليه أعماله، وسيجازيه عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

والوصول إلى هذه المنزلة يجعل المؤمن نصـيراً للحق والعدل، ولا تأخذه في الله لومة لائم، كما يحفظه من السقوط في شـراك العصبية أو العنصرية أو الدفاع عن البـاطل، والتخلي عن الحق مـجاملة للخلق، كـما حـدث من أولئك الذين عناهم الله بقوله: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾(٢).

٢ـ القدرة علـى مواجهـة الشدائد والمحن مـستـعينا بالله وواثقًـا من وعده، ومطمئنًا إلى مـعيته، فـيشعر بـالأنس وإن كان وحيدًا، وينتظر الفـرج في أوقات الضيق، ويرى في المحن منحا، وفي العسر يسرا، مصداقا لقول رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك،**

(١) النحل: ٤. (٢) النساء: ١٠٨.

إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[(١)].

٣ـ رفض الذلة وعدم قبول الدنية؛ لأنه لن يقبل الذلة من أعزه الله بالإيمان وهو سبحانه القائل: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[(٢)]، ولن يقبل الذلة والهوان من كان مع الله ومعتزًا بحماه، ألم يقل الله لأوليائه برغم ما أصابهم من قرح وجرح: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[(٣)].

٤ـ القوة والشجاعة بحيث لا يخاف الطغاة، ولا يخشى بأسهم، ولا يرهب الأعداء مهما ملكوا من قوة؛ إذ كيف يخاف بطش الطغاة من كان في معية القوي الذي لا يغلب، ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يهابون الموت ولا يرهبون الأعداء، وذلك ثقة منهم في وعد الله، وانتظارا لما أعده لهم من النعيم المقيم والدرجات العلا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**» قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

(٢) المنافقون: ٨. (٣) آل عمران: ١٣٩.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٠١).

١٠ ـ أمتنا الموؤودة على أرض فلسطين

أحبتي في الله:

ماذا أقول . . . ومن أين المبتدى. . . وقد دهانا ما يلجم اللسان، ويفطر الجنان. . . ويعجز اللسان!

جل الخطب، وعظم المصاب. . . . وانفض الأحباب. . . وتولت الدنيا عن سادتها، . . . إلى حقارتها. . . واستدار الدهر موليا. . . وحل البلاء عاديا.

غير أني أعتذر إلى الله بهذه الكلمات. . . وأبرأ إليه بتلك العبارات فأستذكر كتاب الله وأقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

ولا تحول عن حال، ولا قوة على تحول إلا بالله. . . وقد علمت، وعلمتم، أن الإنشاء لا يفك القيد. . . ولا يحرر الأرض، ولا يقيم المجد. . . كما أن ضروب الكلام، لا تبدي ولا تجدي في إحياء موؤودة، . . . ولا في رد مسلوب. . . وأن أفانين البلاغة لا تبلغ العلياء. . . ولا تدفع الشقاء. . . وأي بلاء. . . وأي خطب أعظم وأفجع مما حل بنا. . . حتى تحييه الكلمات. . . وتبعثه العبارات.

ولله در القائل الصائل:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أحبتي في الله:

تذكروا تلك الموؤودة إذا سئلت. . . بأي ذنب قتلت. . . . ؟!

ليت شعري، أي موؤودة هي. . . وأي مسلوبة تلك. . . التي جل مصابها . . . وعظم خطبها. . . ؟!

أترونها فتاة وضاء. . . أو غادةً حسناء. . . يحزن لوأدها ذووها، وينتحب لمصابها أهلوها؟!

أم هي امرأة حصينة. . دينة أمينة. . ضاع بوأدها بنوها، وشقي بفقدها ذووها. . . وأظلم بيتها. . . ونعاها زوجها، وتلظى مرارة فقدها. . . واحتمل هول مصابها. . . . ؟!

تالله لو كان الموؤودة بعض ما سبق لحزنا وامتعضنا . . . . واستحق علينا ديننا أن نهب رياحًا. . . وندفع نواحا. . ونضمـد جراحا ونواسي مصابا . . . ونصلح معابًا. . . وندفع ارتيابًا عن هذه الفئات، ونقيل عنهم تلك النكبات.

غير أن الخطب أعظم، والمصاب أجل. . . وموؤودتنا أكبر من ذلك كبيرًا. . . ونكبتها أعظم قيلاً. . . وأوحد مثيلاً. . . !!

ولله درّ القائل:

فلو كان سهمًا واحدًا لاتقيته ولكنـه سهـــم وثـان وثالـث

إذن من هي تلك الموؤودة. . وما خبر هذه المسلوبة. . . .

إنها أمة الإسلام. . .

فادمعي يا عين. . . . !!

وتفطر يا قلب. . . . !!

وذوبي يا نفس. . . !!

واهتف يا لسان. . . إنا لله وإنا راجعون. . . !!.

يالله. . ! يا للعجب. . . لا للخطب. . يا للمصاب الجلل على تلك الموءودة . . . وهذه الضائعة المسلوبة. . . !!

إنها والله لتـستحق أن نخط اسـمها بدمـوعنا ونخضب نحـورنا بدمائنا . . . ونقيض لها بأموالنا وأنفسنا.

إنها أمة الإيمان. . . إنها أمة القرآن. . . . إنها أمة: لا إله إلا الله.

أمة ﴿**لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**﴾(١) .

أمة ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾(٢).

أمة ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ** ﴾(٣) .

أمة ﴿ **وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً**﴾(٤).

(١) المائدة: ٥١ . (٢) البقرة : ٢١٧ .
(٣) التوبة : ٣٢ . (٤) النساء : ٨٤ .

أمة ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ....﴾[(١)] .

أمة ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[(٢)] .

أمة ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ....﴾[(٣)] .

أمة ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ....﴾[(٤)].

أمة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[(٥)]!!

أمة ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[(٦)].

أمة ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ﴾[(٧)]!!

أمة ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾[(٨)] !!

أمة ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾[(٩)]. . . !!

أمة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[(١٠)].

أمة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾[(١١)] !!

أمة ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[(١٢)].

انظروا. . . وأبصروا أي أمة تلك التي وئدت. . . ونكست أعلامها وطمست. . . إنها أمة الإسلام، وأمة نبي العزة والكرامة محمد. . .

أمة «**إن الله يغار، وغيرة الله أن تؤتى محارمه**»[(١٣)].

أمة «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق...**»[(١٤)].

---

(١) البقرة :٢١٨ .
(٢) النساء : ١٤١ .
(٣) آل عمران :١٣٩ .
(٤) المجادلة : ٢١ .
(٥) البقرة :١٤٣ .
(٦) الأنفال :١ .
(٧) الأنفال :٤٦ .
(٨) التوبة :٤١ .
(٩) الأنبياء :١٠ .
(١٠) الأنفال : ٣٣ .
(١١) الجمعة :٢ .
(١٢) الحج : ٧٨ .
(١٣) أخرجه البخاري (٥٢٢٣) ، ومسلم (٢٧٦١) .
(١٤) أخرجه مسلم (١٥٦) .

أمة «**إني مباه بكم الأمم يوم القيامة**»(١).

أمة «**ثم رفع سواد عظيم فقلت: ما هذا؟ فقيل: هذه أمتك**»(٢).

أمة «**سيدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب...**»(٣).

أمة «**ستقاتلون اليهود، حتى يقول الحجر والشجر: يا مسلم خلفي يهودي تعال فاقتله**»(٤).

فلسطين صبرا إن لـلفوز موعـدا فإلا تفوزي اليوم فانتظري غـدا
أيمسي عبيد العجل للناس سادة وما عرفوا منهم على الدهر سيدا
يريدون في تهويدها كل حيلة ويأبى لها إيمانها أن تهـودا

أحبتي :

أين نحن من جثث وأشلاء الموتى في الأرض المقدسة....

أين نحن من الله إن سألنا عن الأمة الموؤودة في فلسطين ﴿ **بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾(٥)؟

أين نحن من الصراط وجهنم... ومن العذاب المقيم لمن خذل الله ورسوله... وضيع قدسه وفلسطينه؟! أين وأين؟!

أحبتي في الله، لقد فاحت رائحة الشهداء.. تزكم نفوس اليهود وتعطر آناف الباسلين الصامدين من المجاهدين.

أحبتي في الله: طال الليل... وادلهم الظلام... ونفذ الطعن... وعظم الجرح .. واتسع الخرق على أمة الإسلام.

وأصابها أعداؤها في مقاتلها... وعدو عليها نهارًا وجهارًا في ناحية المعمورة من الصين إلى الفلبين وأوزباكستان فأفغانستان فطاجكستان فالشيشان....

مرورًا بجاليات المسلمين في أوربا وأمريكا وإستراليا حتى نفذ الطعن وتهيأ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠٩١) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٨٤) .
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) ، ومسلم (٢٢٠) .
(٣) انظر : تخريج الحديث السابق . (٤) انظر: صحيح مسلم (٢٩٢٢) .
(٥) التكوير: ٩.

الوأد في الأرض المباركة في فلسطين.

لقد تجمعت الذئاب... وامتدت المخالب وحيكت الشباك هناك في أرض الأقصى... مفاوضات... طاولات... تنسيقات أمنية صفقات مشبوهة... جثث... أشلاء... قتلى... جرحى... طعنى... موتى... عرض يهتك... يهودي يملك... مسلم يقتل.. حرم يستباح.... آلام وجرحى... ثكلى... موتى... أرامل... أيتام.... كهول.... أطفال.... فالله الله في فلسطين.... والله الله لأمة الإسلام.

وا إسلاماه....، وا قدساه.....، وا عرباه.....، وا صلاحاه...، وا حطيناه....

هل من مغيث... هل من مجيب....؟!

بشراه: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، لا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر**»(١) صدقت يا سيد خلق الله أن العزة لله ولدين الله ولو كره الكافرون والمتهودون والمنافقون فالله الله.... لا إله إلا الله ... لا ناصر إلا الله هلموا إخواني...

ولا نريد في هذه السطور أن نكتفي بتكرار كلام يعرفه ويسمعه الجميع كل يوم... ولا أن نقتصر على استعراض معلومات وحشد أفكار نظرية؛ فلا واقعية الإسلام، ولا إلحاح الظرف الفلسطيني العصيب... يسمحان بأي قدر من الترف الفكري الذي لا يترجم على أرض الواقع. ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يعزَّ الإسلام والمسلمين.

من أجل ذلك نريد أن نعقد مقارنة بين تعامل الأمة الإسلامية (المتبعة للرسول والمحبة له) مع الملف الفلسطيني بتداعياته... وبين تعامل الرسول ﷺ مع قضايا مشابهة واجهتها الأمة في حياته ﷺ... وسنأخذ مثلا (غزوة تبوك) التي وقعت في العام التاسع الهجري، وكانت آخر غزوة خرج فيها ﷺ.

الدارس لغزوة تبوك وما سبقها من استعداد وتحفيز عالٍ للأمة بكل طاقاتها..

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٣/٤)، وصححه الألباني.

يدرك دون عناء خطورة الموقف الذي كـان يواجهـه المسلمون حـينذاك.. حينـما مُست كرامة الأمة من قبل أقـوى دول الأرض (الروم)، والتي كانت تقتسم النفوذ في العالم مع دولة الفرس، فجهزَّ رسول الله ﷺ ثلاثين ألف مقاتل (في جيش هو الأضخم على مستـوى غزوات وسرايا العهد النبوي)، وحـفَّز المؤمنين للجهاد بأموالهم قبل الخروج بأنفسهم؛ نظرًا لحالة العسرة الشديدة التي كانت تمر بها الأمة آنذاك.. وظهرت نماذج البذل الرفيعة في أمة الإسلام بصور غير مسبوقة...

لقد جـيَّش رسول الله ﷺ الأمة بكامل طاقـاتها للخـروج إلى تبوك؛ لأن الدولة الرومـانيـة العظمى (في ذلك الوقـت) قتلـت رجلين فـقط من المسلمين، وجـمعت جـيوشًـا على أطراف الدولة الإسـلاميـة.. أي أنهـا لم تدخل الدولة الإسلامية بعد...

ترى... لو كان ﷺ حيًـا بين أظهرنا، وحـدثت مشكلة تبـوك في وقت متزامن مع مـا تمرُّ به فلسطين اليوم من محن... ولم تكن له طاقـة إلا أن يتوجه لمكان واحـد.. أتراه يختـار تبوكًا أم يـختار فلـسطين؟! لأننا نريد أن نخلص من ذلك إلى نتيـجة مـهمة... هي أنه إذا جـيَّش الرسول كل تلك الإمكـانيات لحل مشكلة تبوك، وكانت مشكلة فلسطين أكثر إلحاحًا وخطورة... فإن التحرك لحلِّها ونصرة شعبها سيكون أوجب، وبطاقة مضاعفة..

وللمـوازنة بين إلحاح مـشكلة تبوك وإلحـاح مـشكلة فلسطين لابد أن نعقـد المقارنة التالية بين المشكلتين:

١ـ غزوة تبـوك كانت لمقـتل رسولين من المسلمين في أرض الشـام، كانا في طريقهما إلى قيـصر، (رجلين فقط!).. أما فلسطين فقد استشـهد من أهلها أكثر من أربعة آلاف ٢٠٪ منهم أطفال تحت (١٦سنة) وذلك منذ بدء انتـفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ فقط!.

٢ـ في تبوك... كان الجيش الروماني يتـجهز لحرب رسول الله ﷺ، ولم يدخل الجزيرة العـربية بعد.. بل كان في أرض الشام، ولم تـكن الشام ولا تبوك أرضًا إسلامية آنذاك.. أمـا فلسطين الإسلامية فيعيث فيهـا الجيش اليهودي القذر فـسادًا... أي أن الجـيش اليهـودي بالفـعل في أرض إسلامـية، وهو لا يحـتل فقط.. بل يستبدل بأهل فلسطين أهله وأبناءه من بني إسرائيل!.

٣ـ في تبـوك... لم يخرج مـسلم من داره، أمـا في فلسطين فـقد أخـرج ملايين الفلسطينيين من ديارهم منذ أكـثر من خمسين عامًـا!! وربنا يأمرنا (وعلينا الطاعة) فيقول: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(١).

٤ـ تبوك كـانت تهديدًا، ولم يحدث بعدُ قـتال... أما فلسطين فتـعاني من حرب ضارية قـائمة بالفعل.. وربنا يأمرنا.. وعلينا الطاعة، فـيقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(٢).

٥ـ تبوك لم تكن بها مـقدسات إسلاميـة.. بل كان بها ديار الظالمين.. ديار ثمود!! أما فلسطين ففيها الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى رسول الله ﷺ شتـان ـ في اعتقادي ـ بين الموقـفين .. لا شك أنه لو كان ﷺ حيًا بين أظهرنا لاختار فلسطين على تبوك.. إن كان لابد من الاختيار؛ فقضية فلسطين أشد خطورة.. وكلتا القضيتين خطيرة..

وعلى هذا القـدر يجب أن تنظر الأمة كـلها إلى قـضيـة فلسطين وواجبـاتنا نحوها..

---

(١) البقرة : ١٩١ .
(٢) البقرة: ١٩٠.

١١. نصرة فلسطين واجبة

هناك عدة أسباب ترفع درجة دعم إخواننا في فلسطين بكل الوسائل المتاحة من مستوى التفضل أو النافلة الاختيارية إلى مستوى الوجوب الحتمي الذي لا يمكن أن ينفك عنه المسلم إذا أراد صلاح آخرته ودنياه..

أولاً: فريضة شرعية:

قامت المعركة بيننا وبين اليهود حينما اغتصبوا أرضنا، وشردوا أهلنا، وسفكوا دماءنا، وانتهكوا حرماتنا، وأقاموا ما أقاموا من مجازر تشيب لهولها الولدان وتقشعر منها الأبدان، وهذه الحرب مقدسة؛ لأنها حرب الدفاع عن الأرض، والدفاع عن العرض، والدفاع عن المقدسات، والمفروض في المسلم أن يدافع عن أرضه ووطنه ـ أرض الإسلام ـ ويقاتل حتى الموت دفاعا عنها، وإذا خر قتيلاً فهو شهيد في سبيل الله.

ولا خلاف بين العلماء في أن من لم يجاهد من أهلها لتحريرها بكاملها آثم... وبالتالي فإن على أهل فلسطين أن يجاهدوا حتى يحرروها بكاملها، فإن لم يكف أهل فلسطين لتلك المهمة ـ كما هو واقع أمامنا اليوم ـ تعيَّن الجهاد على الأقطار الإسلامية المجاورة أو ما تسمى دول الجوار... وهكذا، حتى يشمل كل مسلمي الأرض.. فرض على المسلمين في كل الأرض أن ينصروا إخوانهم في فلسطين، وهم يرون ما يصيبهم يوميًا وعلى مدار أكثر من خمسين سنة!!

روي أبو داود عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته**»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٤)، وأحمد (٤/ ٣٠)، والطبراني في الأوسط (٨٦٤٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٣٨): «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن»، وضعفه الألباني.

فالرسول ﷺ أمرنا بنصرة المسلمين المظلومين (بل إننا مأمورون فوق ذلك بنصرة أي مظلوم، لو كان من غير المسلمين). ولا ظلم أوضح مما يصيب إخواننا في فلسطين؛ ففي خمس سنوات فقط (من عام ٢٠٠٠م إلى ٢٠٠٥م) دُمِّر قرابة ٤٠ ألف منزل**!!** وأكثر من أربعين ألف جريح.. إلى جانب أعداد الشهداء التي تجاوزت ٤ آلاف شهيد.

ثانيًا: واجب النخوة:

إذا لم يجد المسلمون في الوجوب الشرعي دافعًا كافيًا (وهذا غير مقبول**!**).. أفلا تتحرك النخوة الإنسانية في الصدور أمام حجم الظلم والعدوان الرهيب الواقع على أهل فلسطين (أيا كانت صلتنا بهم)؟**!**

إن النخوة الإنسانية قد تحمل بعض الكافرين على التحرك لنصرة المسلمين المظلومين**!** ونرى ذلك في الواقع كثيرًا.. وفي التاريخ أكثر.. ولابد أن نتذكر أن فيها المسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى رسول الله ﷺ.

وهي الأرض التي بارك الله عز وجل فيها للعالمين، وفي أكنافها يرابط المجاهدون الصادقون إلى يوم القيامة... فقد روى أحمد في مسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء** (أي: مشقة) **حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**». قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس**»(١).

وهي أرض المحشر والمنشر... كما روى ابن ماجه عن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، أفتنا في بيت المقدس.. قال: «**أرض المحشر والمنشر...**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٢٤٨): «رواه عبد الله وجادة عن أبيه، والطبراني ورجاله ثقات»، قال الأرناؤوط: «صحيح لغيره» دون قوله: «قالوا: يا رسول الله، وأين هم... إلخ».

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٧)، وقال البوصيري في الزوائد: «صحيح ورجاله ثقات»، والطبراني في الكبير (٣٠٣٣)، وأبو يعلى (٧٠٨٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٧٢): «رجاله ثقات»، وحسنه العجلوني في كشف الخفاء (٩٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٣٤٥).

ولعل الله عز وجل قد وضع كل هذه الصفات العظيمة في هذه الأرض لأنه يعلم ـ سبحانه ـ بسابق علمه أنها ستظل بؤرة صراع إلى يوم القيامة.. طمع فيها قبل ذلك الفرس، ثم الرومان... ومرت الأيام فغزاها الصليبيون.. ثم تعاقبت القرون فطمع فيها الإنجليز فاليهود... وستظل بؤرة صراع إلى يوم القيامة؛ فمن رحمة رب العالمين بالمسلمين أن جعل فيها كل هذه الصفات لتهفو إليها نفوس المسلمين؛ فلا تحتل فلسطين إلا وتحركت نفوس المسلمين إليها.

ولذلك فإن فلسطين تعد مقياسًا لإيمان الأمة؛ فلو تحركت الأمة بحميَّة في قضية فلسطين فهذه دلالة على قوة الإيمان، وإذا تخلفت الأمة عن نصرة قضية فلسطين فهذه علامة على ضعف إيمان الأمة... ولا يأتي نصرٌ مع ضعف الإيمان.

ثالثا: الأمن القومي:

وجود قوة إسلامية كبيرة تقف في مواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين هو من ضرورات الحفاظ على الأمن القومي.. ليس لفلسطين فقط، ولا لدول الجوار وحدها، ولكن للعالم العربي والإسلامي بكامله...

وإن لم يقوَّ ذلك الرأس الجهادي الموجود الآن، وإن أنهك وأضعف المشروع الإسلامي في فلسطين.. وإن سقطت المقاومة، التفت اليهود إلى ما وراء فلسطين من سائر بلاد العالم العربي والإسلامي.

ولم يعد سرًا أن اليهود قد بنوا مخططهم الاستعماري على أساس التوسع وعدم الاكتفاء بفلسطين.. ولا يحاول اليهود إخفاء ذلك، وإلا لما بقيت خريطة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات مرسومة على جدار الكنيست، ومشفوعة بالنصوص الدينية المزعومة، التي تؤكد هذا الحق لهم.. وما احتلال سيناء منَّا ببعيد، ولا غزو لبنان منَّا ببعيد... وما يزال احتلال الجولان واقعًا مريرًا يراه المسلمون بأعينهم. وإذا ترك للقوة اليهودية أن تنمو دون مقاومة فما نشك مطلقًا أن بعض المشركين من بني هاشم قد حوصروا مع رسول الله ﷺ وأصحابه في شعب أبي طالب ثلاث سنوات ذاقوا فيها مرارة الجوع والحرمان...، وما تحملوا ذلك إلا نصرة لمحمد ﷺ لمجرد أنه من قبيلتهم!! تحركت نخوتهم القبلية له

ﷺ مع عدم إيمانهم برسالته.. وحملتهم تلك النخوة على ذلك الصبر العجيب الذي قد يفهم من المسلم صاحب العقيدة لا من المشرك!

ثم إن الذي تحرك لنقض الصحيفة ورفع ذلك الظلم كان خمسة من مشركي قريش (ليس فيهم مسلم واحد!!)، وكان منهم «المطعم بن عدي» وآخرون... لم تحتمل نفوسهم الحية رؤية المظلومين دون أن ينصروهم..

تُرى.. أيأتي زمان على أمة الإسلام.. نتمنَّى فيه أن ترتفع أخلاق المسلمين إلى أخلاق العرب القدامى.. من أمثال «المطعم بن عدي» ومن معه ممن تحرَّكت نخوتهم للمسلمين؟!

وإذا كان من المشركين قديمًا من تحرَّك لرفع الحصار عن المسلمين، وتمزيق الصحيفة الظالمة.. فمن يمزِّق اليوم صحيفة المقاطعة الظالمة.. التي تلتف اليوم حول رقاب أبناء فلسطين؟!

قديما حينما سمع عمر بن عبد العزيز أن مسلما في بلاد الروم قد استذل وأهين، فأرسل إلى ملك الروم يقول له: أما بعد: فقد بلغني أنّ عندكم أسيرًا مسلما فعلتم به كذا وكذا، فإذا بلغك كتابي هذا فخل سبيله وإلا غزوتكم بجنود أولها عندك وآخرها عندي!

هناك خلى سبيل المسلم، وأطلق سراحه.

كانت وراءه دولة تستطيع أن تشد أزره، وتحمي ظهره، وعندنا الآن بضع وأربعون دولة، ولكن لا تشد الأزر ولا تحمي الظهر.

عندما سمع المعتصم أن امرأة في بلاد الروم... في عمورية استغاثت حينما ضربت أو أهينت، فقالت: وا معتصماه.. وا معتصماه، وبلغت هذه الاستغاثة مسامع الخليفة العباسي، فقال: لبيك.. لبيك أختاه! وأمر بالتجهيز لمعركة قادمة والإعداد لفتح عمورية، وكانت واقعة من وقائع الإسلام.

والآن ليس لنا (معتصم) فنقول: وا معتصماه.. وا خليفتاه، لنا (معتصمون) كثيرون ولكن لا يغنون شيئًا، ولا ينجدون مستنجدا، ولا يغيثون ملهوفا.

أمسى المسلمون كما كانوا في آخر عهد الأندلس طوائف شتى، وطرائق قددا، يُبْكى عليهم كما بُكى على أمثالهم:

مما يـزهدنـي في أرض أنـــــدلس ألقاب معتصم فيـها ومعتضــــــد
ألقاب مملكة في غيـر موضعـهـا كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

أينكر العرف العالمي المعاصر على شعب أن يحرر أرضه؟!

أجُرِّم الفـرنسيـون لأنهم حاولوا ونجـحوا في تحرير بلادهم من الألمـان عندما احتلوها؟!

أجرِّم الجزائريون لأنهم حرروا بلادهم من فرنسا؟!

أجرِّم الليبيون لأنهم حرروا بلادهم من إيطاليا؟!

لماذا لا تجرَّم دول العالم التي احـتلت عندما تكافح لتحرير نفـسها (بل يكرم أبناؤها ويعدون أبطـالا)؟!.. بينما يجرم الفلسطينيـون الآن... ويوصم أبطالهم بالإرهاب؟! ويتحالف على ذلك القريب والبعيد.. والمسلم وغير المسلم؟!

لا ينكر العرف أبدًا مشروع المقاومة التي تبنته حماس وتبنَّاه ـ من وراء حماس ـ الشعب الفلسطيني بأغلبية ساحقة!.

إن قضـية فلسطين قـضيـة حيـة، لا يمكن أن تموت أبدًا، ولا يمكن أن نسلم بضـيـاع جزء من فلسـطين، وإذا كان (مناحـم بيجن) قـال: أنا أحـارب إذن أنا موجـود، فإن الشـيخ (أحمـد ياسين) قال: أنـا أقاوم إذن أنا موجـود، ولابد أن تستمر المقاومة، والمقاومة بالحق ستنتصر على المحاربة بالباطل.

رابعًا: خصوصية فلسطين:

أرض إسلامـية يحتلهـا العدو.. فإن لأرض فـلسطين خصوصـية إسلامـية تُضاعف الهمم لتحريرها، وتلهب الأشواق للاستشهاد على ترابها ـ أرض فلسطين أرض خـاصة، ليـست ككل أراضي المسلمين.. في أنهم سـيفكرون في دولتـهم الكبرى من النيل إلى الفرات... وإن أقاموها فسيفكرون فيما بعدها... وأحلام اليهود لا تتوقف عن التوسع.

ومما يؤكد رغبة اليهود في بسط الهيمنة وإحكام الحصار على العالم الإسلامي كله.. ما قـاموا بالتخطيط له فور قـيام دولتهم في منتصف القـرن الماضي، ففي أعقاب عام ١٩٤٨م أعلن (بن جوريون) على الملأ المخطط الإسرائيلي الذي عرف

بإستراتيجية (شد الأطراف)، ويهدف هذا المخطط إلى حصار العالم العربي عن طريق:

ـ إقامة تحالفات إسرائيلية مع أهم الدول ذات الأصول العرقية غير العربية، والتي تحيط بالعالم العربي... وكانت أولى الدول التي توجهت إليها أنظار اليهود في ذلك الوقت: تركيا وإيران (قبل قيام الثورة الإسلامية) وأثيوبيا.

ـ إلى جانب استثارة المشكلات العرقية لدى الأقليات التي تعيش في الأقطار العربية، عن طريق توثيق الاتصالات مع زعماء تلك الأقليات (الأكراد في العراق ـ سكان جنوب السودان ـ الموارنة في لبنان ـ الدروز والأكراد في سوريا ـ.....).

ولم يأت عام ١٩٦٠م حتى وقفت (جولدا مائير) وزيرة الخارجية الإسرائيلية آنذاك لتعلن بفخر: «لقد نجحنا في إقناع الدول المحتلة بالدول العربية لإقامة (حلف الدائرة)؛ ليشكل سورًا حول تلك الدول»!.

وظلت هذه الإستراتيجية حاكمة للعقل الإسرائيلي إلى وقتنا هذا.. ولنا أن نلاحظ الحرص اليهودي المستمر على التحالف مع أطراف العالم الإسلامي لشدِّها إليه، ومن ثمَّ حصار الأمة كلها، لا فلسطين وحدها، ونأمل ـ في ذلك الصدد ـ متانة العلاقات الإسرائيلية مع دول مثل الهند بل موريتانيا! ولاحظ مدى إلحاح إستراتيجية الحصار على تحركات السياسة الخارجية الإسرائيلية عندما تعلم أن إسرائيل كانت أول دولة تقيم جسورًا من العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع الجمهوريات الإسلامية التي تحررت من السيطرة السوفيتية أوائل التسعينيات.

ولا يفوتنا أن ندرك أن اليهود لا ينجحون في التحالف مع دول إسلامية، أو استثارة النعرات العرقية في بعض هذه الدول إلا عندما يغيب المنهج الإسلامي عن توجيه النظرة السياسية لتلك الدول داخليًا وخارجيًا، وتسمى النظرة الدنيوية والمناهج العلمانية.

نحن ـ إذًا ـ لا نتفضَّل على إخواننا في فلسطين عندما ننصرهم أو نقدم لهم الدعم.. وإنما ننصر أنفسنا في المقام الأول، ونسعى للنجاة من سياسة الحصار التي تلتف حول رقابنا دون أن نشعر.. وها هي تتم الآن لإرغام الشعب الفلسطيني على نبذ المقاومة، والتخلي عمَّن يرفعون لواءها، ليُهدم حائط الدفاع الأول الذي يواجه الطغيان الصهيوني.

من التاريخ.. نستمد الأمل!

إذا اقتربت النفوس من الإحباط لحرج الموقف الذي يمر به إخواننا في فلسطين، ولتكالب قوى الأرض على حصار حكومة حماس... فلا بد لنا من استرجاع مواقف من تاريخ أمتنا كانت فيها أشد ضيقًا، وكان الحصار على المؤمنين وقتها أكثر إحكامًا، والاحتلال أثبت أركانًا.. ومع ذلك خرج المؤمنون من أزماتهم لا خروج الكفاف بلا نصر أو هزيمة، ولكن خروج المنتصر العزيز بربه.. الواثق في السيادة والغلبة على عدوه، ومَنْ وراء عدوه..

درس من الأحزاب:

عندما اشتد الحصار على المدينة من الأحزاب ضاقت النفوس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، واجتمع على المسلمين البرد والجوع والخوف.. وافتقدوا كل مقومات النجاة الماديَّة ـ فضلاً عن الانتصار والغلبة ـ إذا برسول الله ﷺ لا يبشرهم فقط بالنجاة من حصار قريش وحلفائها.. بل يبشرهم بسيادة العالم!!

كما روى أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن صخرة شقت على المسلمين وهم يحفرون الخندق، فجاء ﷺ يعينهم فأخذ المعول فقال: «... **بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا**»(١).

وهي بشارات لا يتحملها (بالنظر إلى مرارة الواقع) إلا قلب المؤمن الصادق وعقله... أما المنافقون فقالوا: ﴿... **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾(٢)!!

وتخيل الآن أن هناك ما يبشر المقاومين المسلمين أبطال فلسطين لا بالخروج من

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٠٣)، وضعفه الأرناؤوط.

(٢) الأحزاب: ١٢.

أزمتهم الراهنة فقط. . بل بسيادة الأرض وأستاذية العالم!

وهذا وهم وخيال في نظر الكثيرين إلا إنه حق لا ريب فيه في نظر المؤمن الصادق ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..**﴾[1].

ومن شك في ذلك فليراجع إيمانه... ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾[2].

وإذا استطال المسلمون احتلال اليهود لفلسطين، والذي قارب على الستين عامًا.. فلقد احتلَّ الصليبيون قديمًا أرض فلسطين مئتي عام!! وكان احتلالهم استيطانيًا كاليهود.. أي أنهم ما جاؤوا بالجيوش فقط، وإنما جاؤوا أيضًا بأهليهم وأموالهم!.. وتوالت أجيال من الصليبيين على أرض فلسطين.. وما يئس المسلمون الصادقون. . بل جاهدوا عدوَّهم طويلاً حتى كتب الله لهم النصر.

فلئن كان أجدادنا قد حرَّروها بعد مئتي عام من الاحتلال.. فإنَّا ـ بحول الله ـ اليوم على تحريرها أقدر ومن استعادتها أقرب.

واجبنا نحو فلسطين:

تحريك القضية: لابد من الاهتمام الحقيقي بإحياء قضية فلسطين وحتميَّة نصرتها في قلوب من حولنا من المسلمين وغير المسلمين.. لابد أن ننشر هذه المفاهيم التي مرَّت بنا في الصفحات السابقة في عقول العالمين، حتى تتضح الرؤية، ويتحرك الناس لنصر القضية تحركًا مبصرًا مؤثرًا.. وما أكثر وسائل الاتصال ونقل المعلومات التي يجب علينا حسن الاستفادة منها لتعريف العالم بعدالة قضايانا، وإحياء همم المسلمين عبر الأقطار؛ فقد تحرك همَّة مسلم في أقصى الأرض برسالة إلكترونية، أو موقع هادف، أو مداخلة عبر الفضائيات... فيؤدي من الأدوار ما لم تكن أنت تستطيع أداءه، فيوضع ذلك كله في ميزانك عند الله!

---

(١) النور: ٥٥. (٢) الحج: ١٥.

الجهـاد بالمال: إذا كان كل يهـودي في العالم يعـتبر إسـرائيل وقيـام إسرائيل وانتصار إسرائيل قضيته الأولى، ويبذل في ذلك ما يبذل، إذا كان هذا شأن اليهود في أنحاء العالم، فما بالنا نحن المسلمين؟

نحن نعرف أن اليهود أبخل الناس بمال، ومع هذا رأينا اليهود في عصرنا هذا يبذلون من أموالـم الملايين لنصرة إسرائيل.

اليهـود الذين وصفهم القرآن أحـرص الناس على حياة، يبذلون من أنفـسهم ودمائهم ويتحدون أمة الإسلام هنا وهناك. أقل من أن يستفرغ المسلمون في خارج فلسطين ممَّن عافاهم الله من الاحتلال والتشـريد ووقف الرواتب شهورًا متوالية.. لا أقل من أن يستـفرغ أولئك المسلمون جـهدهم في الجهـاد بالمال دعمًا لصـمود إخـوانهم، وسدًا لحـوائجهـم الملحَّة التي قـد لا تتسـع هذه الصفـحات الموجـزة للتـفصـيل فـيهـا.. وإنما نكتـفي بالإشارة إلى بعض الأمـثلة كنفـاد الأدوية من المسـتشـفيـات، وعـدم تقاضي الآلاف من الموظفين لـرواتبهم، هذا إلى جـانب التهـديدات الإسرائيلـية بوقف توصـيل بعض الإمدادات الحـيوية (كالـوقود) إلى مناطق السلطة الـفلسطينيـة بسبـب تأخر سـداد المسـتـحقـات التي على الجـانب الفلسطيني.. لعدم وجود أموال!!

كل ما سبق (وهو قليل جدًا من كثيـر مفزع!!) من تداعيات وقف المساعدات الدولة؛ عقابًا على اختيار الشعب لحـماس... أفإنْ حاصر العالم الغربي فلسطين أنشـاركه نحن بإهمـال فريضـة «الجهـاد بالمال».. تلك الفـريضة الشـرعيـة التي سيحاسب كل منَّا (فرديًا) أمام الله على القيام بها أو التقصير فيها؟!

ولا يستـهينَنَّ أحد منَّا بما يمكـننا تقديمه لفلسطين، فقـد ضرب أحد قـيادات حمـاس مثلا بالشعب المصـري (مع كل الضغوط الاقـتصادية المعروفـة التي تحيط بالشعب المصري)، فقـال: إن كل مصري لو أخرج جنيهًا واحـدًا في الشهر لجمع الشعب المصري ما يقارب (٧٠ مليون جنيه شـهريًا!!) وهوما يشكل عُشر الميزانية الفلسطينية على حد قول المسؤول الفلسطيني)!!

تُرى..أيعجز كل منا أن يخرج من ماله في سبيل الله لفلسطين (عشرة دراهم شهـريًا)؛ فنكفل وحـدنا إخواننا (فـضلاً عـمّا يمكن أن تقـدمه سـائر الشـعوب الإسلامية وغيرها)؟!

وتأكد أننا ننفق أمـوالاً كثيرة في أمور أفـضل ما يقال عنها: إنـها من الترف الزائد جدًا عن الحد!! فضلاً عن النفـقات في أبواب الحرام التي نهانا الله عنها.. ولأضرب مـثلاً بالتـدخين فقط، وليـسأل المدخن نفـسه: كم ينفق على انتـحاره بالسجـائر شهريًا دون أن يلتـفت إلى حاجة أسرتـه أو إلى ضغوط المعيـشة؟! ألا يصلح الجهـاد بالمال في قضية فلسطـين وسيلة فعَّالة للإقـلاع عن التدخين، ورفع همم العقول والنفقـات؟ ألا يذكر العبد موقفًا بـين يدي رب العالمين، لا يملك فيه أن تزول قدماه حتى يسأل عن: «... **عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟**»(١)...

ليمسك كل منا الآن ورقة وقلمًا، وليقرر فـيها كم سيخرج شهريًا لفلسطين، وليُلزم نفـسه بهذا القـدر، ثم ليُداوم عليـه (مهـما كـان قليلاً.. فهـو أحب إلى الله!).. ولا تسوف بعـد أن يأتيك المال، وتنتظر حتى آخـر الشهـر فتعـجز عن الأداء؛ فالشيطان لن يدعك.. فبادر بهزيمته، وثقلْ ميزانك عند ربك..

ولا يحـتجَّ أحدٌ بأن المال قـد لا يصل إلى فلسطـين في ظل الحصـار الدولي المفـروض الآن على تدفـق الأمـوال للأراضي الفلسطينيـــة؛ فـوالله ليـصلنَّ المال لإخواننا بقوة إيماننا، وصدق إخلاصنا لله أننا نجاهد بهذا المال في سبيله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾(٢).

لابد من همم عـاليـة.. لابد من قلوب ونفوس تـؤثر ثواب الله على متـاع الدنيا الزائل.. لابد من أرواح تسعى للتجارة مع الله..

لقد أخـرج أبو بكر الصدِّيق ماله كله في ساعـة العُسرة.. وأخرج عـمر بن الخطَّاب نصف ماله.. وجـهَّز عثمـان بن عفَّان مـئات الرواحل بكل ما يحتـاجه ركابها من متاع.. وجادت نفوس المؤمنين الصادقين بالقليل والكثير..

من منا مثل عثمان بن عفان رضي الله عنه؟!

من منا أبو بكر الصـديق، أو عمر بن الخطاب، أو عـبد الرحـمن بن عوف رضي الله عنهما ؟!

من منَّا يجهز جيش العسرة؟! من منَّا... يشتري الجنة؟!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦)، وحسنه الألباني.
(٢) العنكبوت: ٦٩.

٣ـ المقاطعة: من المؤسف أن تفتر همم المسلمين في الثبات على مقاطعة اليهود والأمريكان والإنجليز. ومع أن جرائمهم متواصلة في مختلف ديار المسلمين: في فلسطين وفي العراق وفي أفغانستان وغيرها... إلا أن المسلمين ما زالوا يقبلون (إلا من رحم الله) على شراء منتجاتهم!

ولست أدري كيف تسمح نخوة المسلم أن يتعامل مع من يذبحون إخوانه ليل نهار؟! وحتى إن لم تكن المقاطعة واجبًا شرعيًا... ألا توجد في النفوس نخوة تجاه نزف الدماء الطاهرة صباح مساء؟!

لقد تحمَّس الكثيرون لمقاطعة البضائع الدنماركية أثناء أزمة الرسوم المسيئة لرسول الله ﷺ، ووزِّعت قوائم السلع بكل الوسائل.. ولكنني أسأل: ما وزن البضائع الدنماركية أصلاً في التعاملات التجارية لعموم المسلمين؟! لقد كان اختبارًا سهلاً!.. فلا وزن يُذكر لبضائع الدنمارك في الاستعمال اليومي للفرد المسلم أو البيت المسلم..

أما الاختبار الحقيقي الصعب فهو أن يدعى المسلمون لمقاطعة منتجات كتلك التي تغزو بها أمريكا أو بريطانيا (أو إسرائيل!!) أسواقنا، وتغمر بها كل تفاصيل حياتنا اليومية... صغيرة كانت أو كبيرة... مثل ذلك النوع من المقاطعة لا يصبر عليه إلا الصادقون حقًا.

سنة .. لا بدعة!! ومن أعجب العجب أن تسمع من يصف مقاطعة المنتجات الأمريكية والإسرائيلية... بالبدعة التي لا أصل لها في الشرع!!

هذا والله هو الوهن حقيقة!! كيف يمكن لمسلم أن يرى مثل هذا الرأي؟! إن المقاطعة ليست مجرد أمر مباح تمارسه متى شئت، وتتركه متى شئت.. بل هي سنَّة نبوية، وعبادة تتقرَّب بها إلى رب العالمين سبحانه وتعالى... وإليك الدليل من سنَّة النبي ﷺ.

كان بنو حنيفة يسكنون منطقة اليمامة التي كانت تسمَّى (ريف مكة)، لكثرة ما تمد به مكة من الغذاء والحبوب.. وفي العام السابع الهجري أسلم سيِّد بني حنيفة «ثمامة بن أثال»، ثم أتى مكة للعمرة.. وأمام زعماء قريش أقسم قائلاً: «لا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ».

مع أن مكة بالنسبة لثمامة وقومه سوقٌ رائجةٌ، تدر عليهم ـ بلا شك ـ الأرباح الوفيرة إلا أن ثمامة رضي الله عنه لم يتصوَّر أن يتاجر مع قوم يحاربون الله ورسوله ﷺ (حتى وإن كانوا في مدَّة صلح الحديبية!).

وقد أورد البيهقي رحمه الله في سننه أن مقاطعة ثمامة لقريش طالت: «. . . حتى جهدت قريش؛ فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام. . ففعل رسول الله ﷺ»(١).

ولو رأى رسول الله ﷺ في مقاطعة ثمامة لقريش إثمًا لنهاه عنها. . إلا أنه ﷺ لم يتجاوز أن أشفق على قريش، فأمر ثمامة بفك الحصار، وكان سكوته ﷺ عن نهيه إقرارًا له على ما فعل؛ ذلك أن السنَّة هي ما ورد عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. . كما عرفها أهل العلم.

فليست المقاطعة ـ إذن ـ أمرًا مباحًا . . بل هي سنَّة نبوية، تواجه بها الأمة طغيان عدوها (إن أعجزتها المقاومة بالسلاح) وتردع ذلك العدو عن التمادي في استباحة حرماتها.

وشتان بين موقف الصحابي الجليل «ثمامة بن أثال» رضي الله عنه وما فيه من دلالات الولاء الكامل لأمته، وحسن الفقه لأولويات دينه. . وبين من تهون عليه قضايا أمته ودماء إخوانه في سبيل وجبة شهيَّة، أو مشروب اعتاده، أو ثوب أو حذاء من إنتاج أمريكي أو يهودي!!. . ويشعرك إذا حدثته أن نهاية العالم عند ترك هذه السلع التي أحبَّها وتعلَّق بها!!

وكما ذكرنا منذ قليل . . فالأمر لا يتعلق بضروريَّات الشرع فقط، بل إنه انعكاس لعمق النخوة في شخصيَّات مسلمي اليوم، ومقياس لحرارة الدماء التي تجري في عروقهم. . وسأضرب لك مثلاً يدلك على واقعية ما أقول:

لو كنت في بيتك ودخل عليك جارك (حتى لو كان مسلمًا)، فاعتدى عليك بالسب والضرب، وآذاك أمام زوجك وأولادك. . ولم تتمكن أنت من الرد عليه لسبب أو لآخر. . وكان هذا في أول اليوم. . . أفتطيب نفسك ـ لو كان جارك

---

(١) أخرجه البيهقي (٩/ ٦٦) ،وحسنه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ٤٢) .

هذا تاجرًا ـ أن تشتري منه طعام العشاء في آخر اليوم؟!.

هل يجرؤ أحـد على لومك (أو اتهامك بمخالفـة السنَّة!) إذا قاطعتـه وأمرت أولادك بعدم الشراء منه. . .؟!

أفرأيت إن كان جارك هذا غير مسلم، ودخل عليك، فذبح زوجك وأبناءك. وأهانك وسرق مالك. . بل أخرجك من دارك!! وفي لحظة واحدة وجدت نفسك في العراء. .!! وأنت لا تستطيع ـ لسبب أو لآخر ـ أن تثأر لنفسك، وأن تستعيد حقك. . وبينما أنت هائم على وجـهك في الطرقات إذ أدركك الجوع. . أيمكنك أن تأتي متجره فتبتاع منه ما يسدَّ جوعك؟! أيقبل عاقل هذا الأمر. . .؟!

إن التفسير الوحيد لكوننا لا نزال نشتري منتجات اليهود والأمريكان والإنجليز هو أننا لا نشعـر حقيقـة بأن الذين في فلسطين إخوة لنا فـعلاً، ولا نحس برباط العقيدة الذي يجمعنا بهم، ولا نتذوق اجتـماعنا حول كتاب واحد، واتجاهنا نحو قبلة واحدة، وسجودنا لإله واحد ـ سبحانه وتعالى.

لا يمكن أن يتذوَّق كل تلك الروابط من يبيع ويشـتري من أعدائنا مع ضراوة الحرب بيننا وبينهم.

أنا أعلم أن هناك بعض المنتجات الضروريَّة الـتي نضطر لشرائها منهم؛ لعدم وجـود بديل لها (بسـبب تأخـرنا الصناعي والتكنولوجي!!). . ولكن مـثل هذه المنتجات لا تشكل إلا نسبة قليلة من إجـمالي ما نشتري من أعدائنا، والأغلب لا يدخل إطلاقًا في باب الضرورات، ولا يقترب من حد الاحتياج!

وإذا شكك البعض في جدوى المقاطعة، وتأثيرها على اقتصاديات أعداء الأمة فقد لمس الجـميع الأثر البليغ لمقاطعـة الدنمارك عندما التفت حولهـا الأمة. . فمن باب الأولى أن يقاطع من يستبيحون ديار المسلمين ودماءهم وأعراضهم ليل نهار!

٤ـ الدعاء: ليس الدعاء أمرًا هامـشيًا في قضية فلسطين. . كـما أنه ليس أمرًا اختيـاريًا؛ إن شئنا قمنا به وإن شئنا تركناه. . كـلا. . إن الدعاء ركن أساسي من أركان النصـر. . وسبب أكيد من أسـباب التمكين. . وما ترك رسـول الله الدعاء أبدًا، ومـا يئس منه قط، مهـما تأخـرت الإجابة، ومـهمـا طال الطريق أو عظم الخطب. . وكان ﷺ أشدَّ ما يكون دعـاءً ورجاءً وخشوعًا وابتـهالاً عند مواقف

الضيق والشدة.. يفزع إلى ربه، ويطلب عونه، ويرجو مدده وتأييده.. رأينا ذلك في بدر... وفي أحد.. وفي الأحزاب.. وفي سائر أيامه ﷺ.. وفلسطين تحتاج إلى دعاء لا ينقطع، ورجاءٍ لا يتوقف..

- فمن أدراك أن طائرة يهودية تقصف، فيصد قصفها بدعائك؟!

- من أدراك أن مخططًا يهوديًا يدبر في الظلام، فيحبط بدعائك؟!

- ومن أدراك أن شابًا فلسطينيًا أطلق حجارة أو رصاصة فأصابت هدفها بدعائك؟!

- لابد من دعاء ملح مستفيض متكرر على مدار اليوم والليلة..

- دعاء في القنوت وفي السجود..

- دعاء مع يقين في الإجابة..

- دعاء ليس فيه عجلة ولا يأس..

- دعاء مع حضور للقلب، وتضرع وانكسار لله عز وجل..

- دعاء من مؤمنين يتحرَّون المال الحلال، ويتحرَّون الأوقات الفاضلة، ويتحرَّون الأحوال الشريفة..

- دعاء في جوف الليل وقبل الفجر..

- دعاء يجتمع فيه أهل البيت، وأهل العمل، وأهل المسجد..

٥- العودة إلى الله: جعل الله عز وجل قضية فلسطين مقياسًا دقيقًا لإيمان الأمة.. فهي تسقط في براثن الاحتلال - أيًا كان هذا الاحتلال - إذا ابتعد المسلمون عن دينهم، وفقدوا هويتهم، ولم يتبعوا شرع ربهم.. كما أنها تعود إلى سلطان الإسلام إذا عاد المسلمون إلى دينهم، وتمسكوا بشرع ربهم وسنة نبيهم ﷺ.. فلحظات ارتفاع المقاومة للاحتلال ولحظات النضال والجهاد والقوة هي لحظات الإيمان.. أما إذا ظهر الاستسلام والخنوع فهذه إشارة إلى غياب الدين من حياة المسلمين.

لابد من عودة كاملة غير مشروطة إلى الله عز وجل.. فلا يستقيم أن يرفع المسلمون أيديهم إلى الله عز وجل يدعونه أن يعيد إليهم فلسطين، وأن يرفع عنها

البلاء.. وهم لا يقدمون عملاً، ولا يركبون خيلا، ولا يرفعون سيفًا، ولا يتمسكون بقرآن، ولا يحفظون سُنَّة، ولا ينتجون غذاءهم ودواءهم وسلاحهم، ولا يُحكِّمُون شرع الله عز وجل في حياتهم..

ولن يتغير حالنا من ذلة إلى عزَّة ومن ضعف إلى قوة، ومن هوان إلى تمكين.. إلا إذا اصطلحنا مع ربنا، وطبقنا شرعه، وتبنا من ذنوبنا، وأخرجنا الدنيا من قلوبنا، وعظمت الجنة في عقولنا.. ساعتها.. ستصبح كلُّ حركة وكل سكنَةٍ في حياتنا دعمًا لقضية فلسطين..

ـ ستصبح صلاتنا في جماعة وقراءتنا للقرآن وذكرنا وصيامنا..وجميع شعائر ديننا وطاعاتنا.. ستصبح كلها دعمًا لفلسطين..

ـ وسيصبح بر الوالدين وصلة الرحم ورعاية الجار وحفظ الطريق وعون الملهوف.. وسائر أخلاق المؤمنين.. ستصبح كلها دعمًا لفلسطين..

ـ وكذلك سيصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس الخير، ودعوة الآخرين إلى الفضيلة.. سيصبح كل ذلك أيضًا دعمًا لفلسطين..

وهكذا تتحول حياتنا ـ بكل تفاصيلها ـ إلى دعم متواصل لفلسطين، يوم يحسن المسلمون العودة إلى ربهم، والاعتصام بحبله المتين.

إن قضية فلسطين قضية إسلامية تمامًا.. وهي ستعود حتمًا إلى الإسلام والمسلمين في يوم من الأيام، ولكن المهم.. من الذي سيعيدها؟!.. أو قل: من الذي سيعود إلى الله.. فيعيد الله إليه فلسطين؟!!

وأخيرًا.. على المسلمين العمل، وليس عليهم النتيجة.. ولا يحاسبنا الله عزَّ وجلَّ إلا على ما قدَّمنا من عمل، ولا يسألنا: هل تحققت النتيجة من وراء ذلك العمل أم لا..

هذه قضية لا بد أن يفقهها المسلمون جيِّدًا، وخاصة في مثل هذا الظرف الحرج الذي تمرُّ به فلسطين وحكومة حماس حاليًا.. ذلك أن البعض قد يقول: إن حكومة حماس لن تصمد تحت وطأة الضغوط والحصار المفروض من الخارج والداخل.. وستسقط عاجلاً أو آجلاً.. ومن ثمَّ فجهود الدعم التي نسعى جميعًا

لإحيائها وتقـويتها لن تجدي في تغيير النهاية البـائسة التي تنتظر تلك الحكومة في نهاية الطريق!!

في ضوء المفهوم المهم الذي لا يجب أن يغـيب عن عقل المسلم ووجدانه (أنه مطالب بالعمل دون النتيجة) يمكننا أن نقـول: حتى لو سقطت حكومة حماس.. أيؤثر ذلك على عـملك لله عـزَّ وجلَّ؟!.. لقد لام الله المؤمـنين يوم قعـدوا عن القتال لإشاعة مقتل الرسول ﷺ وخاطبهم محذرًا: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[1].

واعتمد على هذه الآية الصديق رضي الله عنه، فقـرَّر الحقيقة الخالدة يوم مات رسول الله ﷺ بالفعل، وخاطب الأمة قائلاً: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت...».

أن نعمل لله لا لحماس.. وسواء قامت حكومة حماس أو سقطت (نسأل الله لها الثبـات بالطبع!) فنحن نعمل لله عزَّ وجلَّ.. الذي يراقب أعمـالنا، ويجازينا عليها لا على النتائج التي تترتب عليها.

أما النصر والتـمكين للإسلام والمسلمين (في فلسطين وفي غيـرها...) فهذا من شأنه وحده ـ سبحانه وتعالى ـ يأتي به كيفما يشاء.. ومتى يشاء.

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

١٢ ـ الأسرة والمجتمع المسلم في وجه التحديات

مسألة الأسرة المسلمة من الموضوعات الحساسة والخطيرة والتي ينبغي التوقف عندها كثيرًا، ولا سيما في مثل هذه الأيام بالذات وذلك لثلاثة أسباب:

أولاً: إن الهجمة التغريبية لم تعد مخططات وآليات عمل نظرية فقط، بل تحولت إلى ممارسات ميدانية، تنال من تماسك الأسرة وبنيانها الاجتماعي والفكري.

ثانيًا: إن الأدوات المستخدمة في هدم الأسرة أضحت من أبناء جلدتنا القريبين منا وبشكل لا يمكن حمله على محمل النوايا الحسنة، ونستطيع أن نستشف ذلك من اطلاعنا على المصادر المالية لبعض الوسائل الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية.

وثالثها هو الأهم: ثورة الاتصالات المرعبة التي جعلت إمكانية أن يتحول البيت المسلم ـ لا سمح الله ـ بما يشبه «الكابريه» أو «الماخور» والعياذ بالله فقط بمجرد ضغطة زر على جهاز التحكم التلفازي، أو طباعة بعض المواقع الساقطة على شبكة الإنترنت، هذا المجون الذي كان بعيدًا عنا في السابق أصبح قريبًا، وإذا حفظ الله البيوت الإسلامية الملتزمة من هذا الطوفان، فلا نتوقع أن كل البيوت الإسلامية ستنجو من هذا الطوفان اللاأخلاقي المدمر، وحسب معطيات الواقع المنظور، فإن القادم سيكون أخطر، وهو موضوع ما عاد ينبغي السكوت عليه، ومن الخطورة بمكان أن يواجهه الدعاة بالآليات والوسائل التقليدية، فالمعركة معركة هوية وصراع حضاري مدعوم بقوة إعلامية هائلة، وما يضعف المقاومة لدى الأسرة المسلمة هو اضمحلال وضعف باقي أدوات التوجيه والمتمثلة في البيت والمدرسة، فالمدرسة تتعرض للهجوم على مناهجها، والبيت هو الآخر مشغول بالضغوط الاقتصادية وتوفير لقمة العيش الشريفة والرزق الحلال، وأصبح من الضروري الآن الحديث ليس بشكل تجزيئي من خلال مشاريع منفصلة تعمل كالجزر المنعزلة والمتناقضة أحيانًا، بل ضرورة وجود البيئة الحاضنة للمشروع التربوي الإسلامي، وهذه قضية كبيرة جدًا تحتاج إلى جهود كل المخلصين.

أيصلح هذا الشباب لما صلح له محمد بن القاسم الذي انطلق من الجزيرة العربية

إلى بلاد لا يعرفها، يقود الجيوش المسلمة لتنشر الإسلام في الهند وبنجلاديش.

هذه البلاد مدينة بالفضل في أسلامها لمحمد بن القاسم ، ومن ذهب إلى كراتشي وركب القطار متجها إلى داخل باكستان، يجد هناك محطة مكتوبًا عليها: محمد بن القاسم.

كان عمر محمد بن القاسم حين قاد هذا الجيش: سبع عشرة سنة، وقال فيه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى   لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة   يا قرب ذلك سؤدد من مولد

أصبح شبابنا يتلقى من التوجيهات ما يفسد عليهم فكرهم، ودينهم وسلوكهم.

هذه الصحف المصورة التي تنشر الصور العارية أو شبه العارية، التي اتخذت فيها المرأة للإثارة وللإعلان، والموضوعات التي تكتب ماذا فيها إلا الغثاثة والفساد.

ماذا يعرض على شاشة التلفاز: الأفلام، المسلسلات، القصص، الأدب المكشوف الذي أصبح يغزونا من يمين وشمال من هنا وهناك؟

ماذا يقدم في المسارح، والإذاعات، ومواقع الإنترنت؟

ماذا يشغل الفتاة المسلمة اليوم؟

هل كان يشغلها ما كان يشغل أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه يوم كانت تعرض نفسها للخطر، وهي تذهب لرسول الله ﷺ في غار ثور؟!

الفتاة المسلمة اليوم يشغلها سماع الأغاني الرخيصة التي تدور حول: الحب والغرام والهجر والوصال.

ماذا يشغلها؟ يشغلها رؤية الأفلام والمسلسلات، وماذا فيها؟

ماذا يشغلها اليوم...؟ تشغلها (الموضات) العصرية.

ما الذي يشغل الأسرة اليوم؟

للأسف نجد معظم الأولاد يعيشون في فراغ كبير لا يجد من أهله من يملؤ

فراغه، ولا يجد من مجتمعه ما يملؤ فراغه، فراغ في الوقت وفراغ في النفس أكبر.

نفسه فارغة من المثل العليا، من الأهداف العظمى التي كان يعيش لها أمثال: علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، ومحمد بن القاسم، وغيرهم من شباب الإسلام.

شبابنا الأولون ـ الذين فتحوا البلاد، وحكموا العباد، ونشروا فيها العلم والإيمان، والعدل والإحسان، والذين انطلقوا إلى أرض الله المصحف في يد والسيف في يد، لا يبغون إلا رضاء الله ونشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، كانت عندهم مُثُل عليا، كانت لهم أهداف كبيرة، تعيش فيهم، ويعيشون فيها، لم يكن عندهم فراغ، لا في أنفسهم ولا في حياتهم، فهل استطعنا في عصرنا هذا أن نعيش أولادنا وشبابنا في مثل هذه الأهداف؟

للأسف، هذا الشاب تجده في أيام الدراسة يركب سيارته الفارهة، ويمشي في الشوارع متسكعا، أو يجلس في بعض الطرقات يلتهم الغاديات والرائحات، في ندوات عقدت في أكثر من بلد كانت الشكوى المرة والإحصاءات والأرقام المزعجة عن الشباب الذي يتناول المسكرات، والمخدرات، دع الذين يشربون السجائر وغيرها.

الشباب الذي أصبح كل همه أن يسمع الأغاني، ويقلد الممثلين والمغنين، هذا الشباب مصيبة كبيرة على نفسه وعلى أهله ووطنه وأمته.

هؤلاء الشباب لأي شيء يصلحون؟ أيصلح هذا الشباب لما صلح له أسامة ابن زيد الذي قاد الجيش الإسلامي وفيه كبار الصحابة، وهو ابن الثامنة عشرة من عمره.

ويأتي السؤال: مَنْ المسؤول عن ضياع أولادنا؟

هل الأسرة هي المسؤولة ؟ هل الآباء؟ هل الأمهات؟ هل هؤلاء المشغولون عن أبنائهم وبناتهم؟

هل المسؤول هو المجتمع: التوجيه.. الإعلام.. الثقافة.. الصحافة.. الإذاعة.. التليفزيون.. المسارح.. السينمات؟

هل المسؤول مجالس رعاية الشباب المكونة في كل البلاد، وكل عملها الرياضة والكرة، وتشجيع الناس على أن يكونوا متفرجين ومنقسمين؟

هل المسؤول: العلماء والخطباء الذين لا يهتمون بهذه النواحي كثيرا، ولا يوجهون الناس التوجيه الحسن؟

من المسؤول؟

الكل مسؤول.. يجب أن نعترف بهذه الحقيقة. كلنا مسؤولون، بداية من الآباء والأمهات إلى أعلى المسؤوليات، كما قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته**»(١).

الشباب يفتقد حسن التوجيه، الشباب بحاجة إلى القدوة.

نحن في حاجة إلى البيئة الصالحة التي تساعد الشباب على أن ينمو نموا حسنا.

وأول ما ينبغي أن تفهم الأسرة دورها في الحياة وأن يفهم المجتمع دوره.

أولاً: دور الأسرة:

١ـ قداسة الحياة الأسرية:

الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها، وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف، ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق، ويفرض حد الزني وحد القذف، ويجعل البيوت حرمتها بالاستئذان عليها، والاستئذان بين أهلها في دخولها.

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة، ويقيم نظام البيت على أساس قوامة أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامة، منعًا للفوضى والاضطراب والنزاع..

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز فوق التوجيهات العاطفية، وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته.

٢ـ الزواج عبادة:

المحافظة على الحياة وطلب امتدادها إلى قيام الساعة من تعاليم الإسلام، فقد رغب في الزواج لهذا الغرض، واستحب أن يكون الزوجان آباء، وأن يكون لهم بعد الأولاد أحفاد: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾(١).

والزواج ليس التقاء لمزيد من الإنتاج الحيواني، فالأسرة في الإسلام امتداد للحياة والفضيلة معا، امتداد للإيمان والعمران على سواء.

فليست الغاية إيجاد أجيال تحسن الأكل والشرب والمتاع، إنما الغاية إيجاد أجيال تحقق رسالة الوجود، ويتعاون الأبوان فيها على تربية ذرية سليمة الفكر والقلب شريفة السلوك والغاية.

وتدبر موقف أبي الأنبياء إبراهيم بعد ما أنعم الله عليه بالأولاد، إنه يقول: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** ﴾(٢).

إنه يريد أولادًا يركعون لله ويسجدون.

ومن دعاء عباد الرحمن عندما يختارون أزواجهم ويؤسسون بيوتهم: ﴿ **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾(٣).

٣ـ وظيفة البيت:

الإسلام يهيب بالمؤمنين أن يؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير، فالمؤمن مكلف بهداية أهله، وإصلاح بيته، كما هو مكلف بهداية نفسه وإصلاح قلبه.

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله، واجبه أن يؤمن

---

(١) النحل: ٧٢. (٢) إبراهيم: ٣٩، ٤٠.
(٣) الفرقان: ٧٤.

هذه القلعة من داخلها، واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً ـ ولابد من الأم المسلمة، فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة، ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء، وكان ينظم البيوت ، ويقيمها على المنهج الإسلامي، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾(١).

ووظيفة البيت الأولى: الحفاظ على الإيمان والعبادة والخلق الشريف، والمسلك القويم، والتقاليد الراشدة، والمثل العالية، والأبوان شريكان في أداء هذه الوظيفة.

وقد طلب الإسلام من الأب أن يصلي النوافل في بيته حتى يألف أبناؤه الركوع والسجود، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورا**»(٣).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قضى أحدكم صلاته في مسجده فليجعل لبيته نصيبا من صلاته، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً**»(٤).

وجاء الأمر بتعليم الأولاد الصلاة منذ نعومة أظفارهم، فعن سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**علموا الصبي الصلاة لسبع سنين واضربوه عليها ابن عشر سنين**»(٥).

والرسول ﷺ كان يصلي في الليل واليتيم خلفه والعجوز خلفهما.

---

(١) التحريم : ٦ .

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١)، ومسلم (٧٨١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٢)، ومسلم (٧٧٧).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧٨).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، وقال: «حسن صحيح»، وقال الألباني: «حسن صحيح» .

وكما ينبغي تعليم الأطفال الصلاة ينبغي أيضًا ـ الاهتمام بتكوين شخصيتهم لتكون قوية قادرة على مواجهة الحياة، ولذا يقول رسول الله ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

ثانيًا: دور المجتمع:

لا صلاح للأسرة وأفرادها إلا في مجتمع يساعدها على النمو السليم، والتكيف الصحيح، والسلوك القويم، فالمجتمع هو التربة التي تنبت فيها بذرة الفرد، والأسرة، وتنمو وتترعرع في مناخها، وما كانت الهجرة النبوية إلى المدينة إلا سعيا إلى مجتمع مستقل، تتجسد فيه عقائد الإسلام وقيمه وشعائره وشرائعه.

ودور المجتمع في الحفاظ على الأسرة مهم وخطير، فينبغي أن يحافظ على المشاعر، والأخلاق الإسلامية، والعادات والتقاليد القويمة.

ودوره مع المشاعر الإسلامية يتمثل في:

١ـ تثبيت هذه المشاعر وتقويمها، وإشاعتها بكل الوسائل الإعلامية والتربوية: المسجد، والمدرسة، والكتاب، والصحيفة، والإذاعة، والتلفاز، والسينما والإنترنت، وكل وسيلة تعين على تحقيق هذه الغاية.

٢ـ تجسيد هذه المشاعر في واقع ملموس وأوضاع عملية، فمشاعر التراحم والمودة بين المسلمين يجب أن تتجسد في تواصل وتزاور وتكافل.

٣ـ ألا يسمح للمشاعر المضادة للمشاعر الإسلامية بالظهور والتأثير في المجتمع المسلم.

ومهمة المجتمع مع الأخلاق كمهمته مع المشاعر فهي مهمة ذات ثلاث شعب:

١ـ التوجيه: ويكون بالنشر والدعاية ومختلف وسائل الإعلام والتثقيف، والدعوة والإرشاد.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وقال: «حسن صحيح» ، وأحمد (١/٣٠٣)، وصححه الألباني.

٢ـ التثبيت: ويكون بالتعليم الطويل المدى، والتربية العميقة الجذور على مستوى الأسرة والمدرسة والجامعة.

والحماية تكون بأمرين:

١ـ برقابة الرأي العام اليقظ الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكره الفساد، وينفر من الانحراف.

٢ـ وبالتشريع الذي يمنع الفساد قبل وقوعه، ويعاقب عليه بعد وقوعه، زجرا للمنحرف وتأديبا للمستهتر.

وبهذه الأمور من التوجيه والتثبيت والحماية تسود أخلاق الإسلام.

مهمة المجتمع مع الآداب والتقاليد:

فواجب المجتمع أن ينقي آداب المجتمع وتقاليده مما دخل عليها من أمور غريبة عن طبيعته المتوازنة المعتدلة ، سواء في ذلك ما أدخلته عصور الانحطاط الفكري، والتخلف الحضاري، الذي أصاب العالم الإسلامي لعدة قرون وما زحفت به علينا الحضارة الغربية الحديثة من بدع منكرة في الأزياء والأثاث، والمآكل والمشارب، والأعراس، ومختلف المناسبات، والعلاقات بين الرجال والنساء... وغير ذلك.

ففي الأسرة نجد مثلا ـ هناك من لا يسمح لخاطب ابنته أن يراها مجرد رؤية، مع مخالفة ذلك للأحاديث الصحيحة، وفي مقابل هذا نجد منْ يدع للمخطوبة الحبل على الغارب لتخرج مع خاطبها وحدهما، متأبطا ذراعها، غادين رائحين.

وهناك من الأزواج من يعامل امرأته كأنها قطعة أثاث في البيت، لا يستشيرها في أمر، ولا يعترف لها بحق، ولا يراعى لها شعورا، ويرى ذلك من الرجولة.

وعكس هذا من جعل زمامه في يد امرأته، فلا شخصية له، ولا أثر لقواميته على الأسرة ، بل تغدو الزوجة هي الآمرة الناهية..

وهناك في مجال الميراث: من يحرم البنات من ميراثهن الشرعي الذي كتب الله لهن، ليخص بذلك أبناءه الذكور، كأنما يستدرك على الله تعالى في حكمه. وعلى النقيض من ذلك من يريد أن يسوي بين الابن والبنت، خلافا لما فرض الله عز وجل في كتابه.

وعلى المجتمع أن يحمي هذه الآداب والتقاليد بعد ذلك بالقانون والتشريع، فليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تترك فيه المؤسسات المشبوهة: الصحفية والسينمائية والإعلامية، تخرب كيان الأمة، وتسلط عليها ريحا سموما فيها عذاب أليم، تدمر كل شيء بالمقالات المضللة، والأخبار الزائفة، والقصص الماجنة ، والصور الفاجرة، والأغاني الخليعة، والمسرحيات الداعرة، والأفلام الهابطة ، والمسلسلات المطعمة بالأباطيل.

مقومات النجاح:

كلما أسست الأسرة على تقوى **الله**، وكلما كان كتاب **الله** هو الدليل العملي لها، كلما اقتربت الأسرة من النجاح والسعادة والسير الآمن غير المتغير، وإذا كان من كلمة في هذا الموضوع فأنا أود الحديث عن مبادئ وليس عن وسائل فالوسائل كثيرة ومتغيرة، والمبادئ ثابتة وراسخة وهي قادرة على توليد الوسائل، ومن أهم المبادئ:

أولاً: ضرورة الاعتقاد أن بناء الأسرة المسلمة يتم بين الرجل والمرأة لتحقيق سبب وجود الإنسان بهذا الكون وهو العبور الآمن إلى الجنة، وهذا يتطلب أن ينشغل الزوجان بشكل أساسي بما يعنيهم على تحقيق هذا الهدف الرئيسي فإن حصل الاتفاق على هذا الهدف فلا يعنيهم لا سعة العيش ولا ضيقه، ولا نوع الأثاث ولا فخامة السيارة، ولا غيرها من الأسباب الزائلة وهي ليست دعوة للفقر وإهمال الدنيا، وإنما هي دعوة لوضع كل شيء في حجمه الحقيقي، فكلما كانت الغايةُ عظيمةً كانت المشاكلُ الصغيرةُ لا اعتبار لها، بينما العكس كلما كانت الغايةُ دنيويةً وصغيرةً كانت المشاكل الصغيرة سوراً عظيمًا يهدم كيان الأسرة.

ثانيًا: الأسرة المسلمة دائمًا توجد البدائل التربوية السليمة لكل الوسائل والبيئات التربوية السيئة، وهذا يستدعي تكاتف الأسرة مع بعضها البعض وعمل بنية جماعية صالحة قوامها الأخوة في **الله** والرعاية الجماعية للأبناء من خلال إقامة النوادي والمؤسسات التربوية الثقافية للأبناء.

ثالثًا: استخدام تقنيات العصر في صلاح البيت المسلم، واستخدام الأساليب العلمية الصحيحة سواء إدارة شؤون المنزل وإدارة الميزانيات وتحديد الأولويات

ومواجهة الالتزامات المادية والأدبية عبر برامج واضحة لا بأس لو كانت مكتوبة ومخططًا لها.

رابعا: الاهتمام بشؤون الأمة وتربية الأبناء مع الاهتمام بشؤون المسلمين ومتابعة أخبارهم والتألم لمصابهم والفرح لأفراحهم ومشاركتهم الشعورية والوجدانية، وتعليم الأطفال والأبناء عبادة الدعاء للمسلمين والبعد عن الأنانية.

خامسًا: تكريس القيم الجيدة لدى أفراد الأسرة مثل: الذاتية والإيجابية والمشاركة الاجتماعية، والحرص على إتقان العمل والتفوق والاستفادة من الأوقات وتوثيق شبكة العلاقات الإنسانية.

سادسًا: رصد المؤثرات السلبية على الأسرة ومواجهتها والتقليل من آثارها وتقوية الوازع الديني، والإحساس المرهف بالضمير الإنساني، وتفعيل الرقابة الذاتية، وتجديد الزاد الإيماني.

سابعًا: إتقان فن التربية للأبناء ومراعاة الفروق العمرية والاطلاع على أحدث الوسائل التربوية والاستعانة بالمتخصصين واستشارة أهل الذات وخبراء التربية وعدم الاهتمام بالذات البدني على الذات النفسي والإيماني والروحي والموازنة بين الحقوق والواجبات وتحمل التبعات والمسؤوليات[1].

(١) للاستزادة انظر: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، للدكتور يوسف القرضاوي، وأيضا خطبة الجزء الرابع

١٣ ـ تكريم الإسلام للمرأة

من فضائل الإسلام على المرأة أن أعاد إليها كرامتها، وفي تاريخ الإسلام على مر عصوره أروع الأمثلة للمرأة المسلمة التي كفل الإسلام حقوقها، وجعل لها من التكريم والعز ما يعجز القلم عن وصفه، فقد روى أبو داود في سننه أن أم هانئ بنت أبي طالب أجارت رجلا من المشركين يوم الفتح، فأتت النبي ﷺ فذكرت له ذلك، فقال ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت**»(١).

فهي في شريعة الإسلام من نفس النوع الذي خلق منه الرجل بدليل قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿**بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾(٣) ما يفيد أن الرجل والمرأة من معدن واحد.

فلا مجال للتفريق بين الذكورة والأنوثة في عمل الخير، سواء في الدعوة إليه أو الاشتراك فيه، وهذا نوع من المساواة؛ لأن الغنم في الثواب يقابله الغرم في العقاب حين المعصية، لذلك برأ الإسلام المرأة في اللعنة التي ألصقها بها أتباع اليهودية والنصرانية وغيرهما.

وأقول للأخوات: من أنتن لولا الإسلام والإيمان والقرآن؟ أنتن بالإسلام وبالإيمان والقرآن شيء وبدونهما والله لا شيء، ولعلكنَّ تعرنني أسماعكنَّ قليلا، لتعرفن تلك النعمة التي أنتنَّ تعشنها في هذه الأيام، يوم تسمعن.

حال المرأة في عصور الجاهلية، وأنتنَّ تتبوأن نعمة الهداية، كيف كانت المرأة؟ كانت سلعة تباع وتشترى، يُتَشَاءهم منها وتزدرى، تُباع كالبهيمة والمتاع، تكره على الزواج والبغاء، تورث ولا ترث، تُملك ولا تَمْلك، للزوج حق التصرف في مالها ـ إن ملكت مالها ـ بدون إذنها، بل لقد اختلف فيها في بعض الجاهليات،

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦).
(٢) النساء: ١. (٣) آل عمران: ١٩٥.

هل هي إنسان ذو نفس وروح كـالرجل أم لا؟ ويقرر أحـد المجامع الروسيـة أنها حيوان نجس يجب عليه الخدمة فـحسب، فهي ككلب عقور، تمنع من الضحك ـ أيضًا؛ لأنها أحبولة شيطان، وتتعدد الجاهليات، والنهاية والنتيجة واحدة. جاهلية تبيح لـلوالد بيع ابنته، بل له حق قـتلها ووأدها في مـهدها، ثم لا قـصاص ولا فيمن قتلهـا ولا دية، إن بُشِّر بها ﴿ **ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾(١).

وعند اليهود إذا حاضت تكون نجسـة، تنجس البيت، وكل ما تمسه من طعام أو إنسان أو حيـوان، وبعضهم يطردها من بيتـه؛ لأنها نجسة، فـإذا تطهَّرت عادت لبيتها، وكان بعضهم ينصب لها خيمة عند بابه، ويضع أمامها خبزًا وماء كالدابة، ويجعلها فيها حتى تطهر.

وعند الهنود الوثنيين عُبَّـاد البقر يجب على كل زوجة يموت زوجـها أن تحرق جسدها حية على جسد زوجها المحروق.

وعند بعض النصـارى: أن المرأة ينبـوع المعـاصي، وأصل السـيئـات، وهي للرجل باب من أبواب جهنم، هذا كله قبل بعثة محمد ﷺ.

مكانة المرأة في الإسلام:

وهل أتاكنَّ أيتها المؤمنات المسلمات القانتات، بل هل أتاكنَّ يا بنات حواء في هذا العالم كله أنباء ما جاء به نبي الرحـمة والهدى محمد ﷺ من التعاليم في حقِّكنَّ، فحمدتنَّ الله على ما تبـوأتنَّ به من هذه النعمة. بعد تلك المهانة والذلة، يأتي رسول الله ﷺ ليرفع مكانة المرأة، ليُعلي شأنها، فإذا به ﷺ يبايع النساء بيعة مـستقلة عن الرجال، وإذا بالآيات تتنزل، وإذا المرأة فيـها إلى جانب الرجل تكلَّف، كمـا يكلف الرجل إلا فيما اخـتصت به. ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾(٢) ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**

---

(١) النحل: ٥٨، ٥٩.
(٢) النساء : ١ .

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(١) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾(٣) صفات صالحة في الرجال، ما ذكرها الله إلا وذكر في جانبها النساء، والصالحة كذلك ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(٤) ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾(٥) ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾(٦) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾(٧).

وإذا برسول الله ﷺ بعد مدة ليست باليسيرة يقول: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(٨) وإذا به ﷺ بعدها يقول في خطبته الشهيرة: «**استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان**»(٩) يعني أسيرات، ثم يقول ﷺ رافعًا شأن المرأة، وشأن من اهتم بالمرأة على ضوابط الشرع: «**خياركم خياركم لنسائهم، خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(١٠) صلوات الله وسلامه عليه. «**من كانت له أنثى فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله ـ عز وجل وتعالى ـ بها الجنة**»(١١). ثم يقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : «**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**» وضمَّ بين أصابعه صلوات الله وسلامه عليه(١٢).

ثم يقول ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم لا يفتر، أو كالصائم لا يفطر**» (١٣). أمٌّ مكرَّمة مع الأب، أمرنا بحسن

---

(١) الحجرات: ١٣ . (٢) النحل: ٧٢ . (٣) النحل: ٩٧ .
(٤) التوبة: ٧١ . (٥) النور: ٢٦ . (٦) المائدة: ٣٨.
(٧) النور: ٢ .
(٨) أخرجه أبو داود (٢٣٦) ، والترمذي (١١٣) ، وحسنه الألباني .
(٩) أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (٥/ ٧٢) ، وحسنه الألباني.
(١٠) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه (١٩٧٧) وصححه الألباني.
(١١) أخرجه أبو داود (٥١٤٦) ، وأحمد (١/ ٢٢٣) ، والحاكم (٧٣٤٨) ، وقال: «صحيح الإسناد» ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، وضعفه الألباني.
(١٢) أخرجه مسلم (٢٦٣١) .
(١٣) أخرجه البخاري (٥٣٥٣) ، ومسلم (٢٩٨٢) .

القول لهما ﴿**فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ**﴾ وحسن الرعاية ﴿**وَلا تَنْهَرْهُمَا**﴾ وحسن الاستماع إليهما والخطاب ﴿**وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ وحسن الدعاء لهما ﴿ **وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾(١).

أم مكرمة مقدمة على الأبِّ في البرِّ. «من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(٢). يأتي جاهمة إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد في سبيل الله من اليمن، قد قطع الوهاد والوجاد حتى وصل إلى رسول الله ﷺ وقال: أردت يا رسول الله أن أغزو وجئت لأستشيرك، فقال ﷺ: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم، قال: «**الزمها، فإن الجنة تحت رجليها**»(٣) أو كما قال ﷺ. بل أوصى ﷺ بالأم وإن كانت غير مسلمة. فها هي أسماء تقول: «قدمت أمي عليَّ، وهي ما زالت مشركة، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: قدمت أمي وهي راغبة أفأصلها؟ قال ﷺ: «**نعم صلى أمك**»(٤).

ليس هذا فحسب، بل أنزل الله فيك سورة كاملة باسم سورة النساء، وخصَّك بأحكام خاصة، وكرَّمك، وطهَّرك، واصطفاك، ورفع منزلتك، ووعظك، وذكَّرك، وجعلك راعية ومسؤولة، وأرجو من الله ـ عز وجل ـ أن تكوني كذلك، فالأمل ـ والله ـ فيكن ـ أيتها المؤمنات المتعلمات ـ كبير، والمسؤولية ـ والله ـ عليكن عظيمة وجسيمة. راعيات في المدارس، راعيات في البيوت، فلتكنَّ قدوات في المظاهر، وقدوات في المخابر، قدوات في القول، وفي العمل، وفي كل أموركن؛ فإن النبي ﷺ الذي رفع شأنكن بهذا الدين يقول: «**ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة**»(٥).

منذ بزوغ فجر الرسالة ـ يا أيتها المسلمة ـ والمرأة مُكرَّمة معزَّزة تقوم بدورها

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

(٣) أخرجه النسائي (٣١٠٤)، وأحمد (٣/ ٤٢٩)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٧١٥٠).

إلى جانب الرجل تؤازره، تشد من عزمه، تقوي همَّته، تناصره، تحفظه إن غاب، تسرُّه إذا حضر إليها، ثم تنال بعد ذلك نصيبها في شرف الدعوة إلى الله ـ عز وجل، وتنال نصيبها من الإيذاء في سبيل الله. فها هي سمية، منْ سمية ؟! سمية أول شهيدة في الإسلام، وهاهو ابنها وزوجها يُعذَّبون، يلبسون أدراع الحديد، ثم يُصهرون في الشمس، في رمضان مكة، وما أدراكم ما تلك الرمضاء؟! ثم يمرُّ ﷺ وهم يعذَّبون بالأبطح، وهو في بداية دعوته لا يملك لنفسه شيئًا بل لا يملك ما يدفع به عنهم وعنها، فيقول: «**أبشروا آل عمار وآل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»[٢].

وذات يوم بالعشي يأتي أبو جهل إلى سمية، فيسبها، ويشتمها، ويتكلم بكل كلمة وقحة ومهينة، وهي ثابتة بإيمانها، راسخة بيقينها، لا تلتفت إلى وقاحته، ولا تنظر إلى سفالته، وإنما رنت عينها مباشرة إلى جنانٍ عالية، وإلى منازل زاكية، في دار النعيم والرُّضوان والتكريم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكن من أهلها، نظرت إلى هناك ولم ترد عليه ليتقدم ـ أخزاه الله ـ إلى تلك العجوز الضعيفة الكبيرة فيطعنها بالحربة في موطن عفَّتها، لم يرحم ضعفها ولا عجْزها لتسقط؛ فتكون أول شهيدة في الإسلام، ثم يموت زوجها بعد ذلك بالعذاب فيحتسبها، ثم يحتسبه أبناء هذا الرجل، ويشاء الله أن يعيش ابنها عمار حتى يرى قاتل أمه يوم بدر مجندلا على الأرض.

أخواتي المؤمنات؛ ونعمت المرأة في ظل الإسلام قرونًا، ولا زالت تنعم بذلك حتى جاءت جاهلية هذا القرن والذي قبله، فوأدت المرأة وأدًا معنويًا، أمثل خطرًا من وأد الجاهلية. فإن الموؤودة في الجنة كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

أما موؤودة هذا القرن فهي التي وأدت نفسها، وباعت عفَّتها، وأهدرت حياءها، لا تجد الجنة، ولا تجد ريحها، كاسية عارية، مائلة مُميلة، لا تجد عرف الجنة، وإن ريح الجنة ليوجد من مسافة كذا وكذا، أصغت بأذنها إلى الدعاة على أبواب جهنم، فقذفوها في جهنم، فشقيت وخسرت دنياها وأخراها، فهي تعض

(١) أخرجه الحاكم (٥٦٦٦)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

أصـابع الندم هنا ويوم القيـامـة، نسأل الله ـ عـز وجل ـ أن يتجـاوز عنًّا، وعن العاصـيات من أمة محـمد ﷺ. يا أمة الله تأتي جـاهلية هذا القـرن في صور متعددة؛ في صورة المشفق عليك، الضاحك ظاهرًا، وهو يريد قتلك باطنًا.

إذا رأيت نيُوبَ اللَّيثِ بارزةً فـلا تَظُنّنَّ أنَّ اللَّيث يبتسـمُ

جاءت هذه الجاهلية في صورة المشفق عن طريق مجلة، أو عن طريق صفحة جريدة، أو أغنية فاجرة، أو مسلسل، أو تمثيلية، أو جهاز استقبال، يريد منك أن تكوني عاهرة، سافرة، فاجرة، يريد أن تكوني بهيمة في مِسْلاخ بشر، حاشاك يا ابنة الإسلام، ويا حفيدة سمية وأسماء.

اسمـعي لقائلهم سـمع الكبار يوم يقـول وهو أحد الكفار الـذي يتربص بك وبأخواتك وبـالمؤمنين الدوائر: لا تستـقيم حالة الـشرق الإسلامي لنا حـتى يُرفع الحجـاب عن وجه المرأة، ويُغطَّى به القـرآن، وحتى تؤتى الفـواحش والمنكرات. خاب وخسر.

ويقول الآخر: مزِّقيه مزِّقيه بلا ريث، فقد كان حارسًا كذابًا ـ يخاطب بذلك الحجاب

ويقول الآخر: إلى متى تحملين هذه الخيمة؟

ويقول آخر: ينبغي أن تبحثي عن قائد يقودك إلى المدرسة والكليَّة.

ويقول آخر: لا بد أن نجعل المرأة رسولاً لمبـادئنا، ونخلِّصها من قيود الدين، خاب وخسر.

ويقول الآخر: إن الحجاب خاص بزوجات رسول الله ﷺ.

فأين تنطلي مثل هذه الأمور؟ وأين هذا من القرآن؟ إنه لم يعرف القرآن، ولو عـرف القرآن لقـرأ قول الله في القـرآن: ﴿**يَا أَيُّهَـا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَـاءِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[(١)].

ويقـول أحدهم ـ وهو قـاسم أمين، من الذين تأثروا بالغـرب: إن الحجـاب

(١) الأحزاب: ٥٩ .

ضرر على المرأة؛ فهو معرقل لحياتها اليومية يضرب بالآيات عرض الحائط، ويحكِّم عقله، وينظر إلى الغرب الهائم. فعامله الله ـ عز وجل ـ بما يستحق.

وآخر يقول: كأس وغانية تفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع؛ فأغرقوهم في الشهوات والملذَّات.

كيف جاءت أمور إهانة المرأة في العصر الحاضر؟ إنها لم تأتنا إلامن أعداء الإسلام، على طريقة من ؟! على طريقة الذين رُبُّوا على أفكار أولئك.

يخرج سعد زغلول منفيًا مُرتبًا له من مصر إلى بريطانيا أيام الاحتلال، ليعود من هناك وهو بطل وزعيم وطني قومي، وقد رُتِّب له الأمر، فإذا بسرادق النساء في استقباله، وإذا بزوجته صفية زغلول ـ انتسبت إليه، ولا تنسب إلى أبيها، على طريقة الغربيات الكافرات ـ تأتي معه على ظهر الباخرة، وتصل إلى هناك، ولمَّا وصلت إلى هناك، وجاؤوا لاستقباله إذا الأمر مرتب، ينزل وينطلق مباشرة إلى سرادق النساء، إلى سرادق الحريم المحجبات فتقوم هدى شعراوي ـ عاملها الله بما تستحق ـ تقوم إليه محجبة، فينطلق إليها ليمد يده ـ وقد مدَّ اليهودي قبل ذلك يده فدفع ثمن ذلك نفسه ـ يمد يده إلى حجابها ويرفع ذلك، وهي تضحك وتصفِّق، ويضحك ويصفِّق، ثم يصفِّق النساء ليُعْلِنَّ الرَّذيلة من ذلك اليوم، وليبدأن في تقليد الكافرات، هذا هو عمله.

ثم قامت بالدور بعد ذلك هدى وصفيَّة، انطلقا في مظاهرة ظاهرها وهدفها مناوأة الاحتلال الإنجليزي، وانطلقا إلى ميدان الإسماعيلية، ليقفا في ذلك الميدان محجبات سود كالغربان، كما أمر النبي ﷺ ولكن لحاجة في أنفسهن، رمين الحجاب ودُسْنَهُ بالأقدام، ثم أحرقنه في تلك الساحات، ليُعلنَّ التمرد على القيم والأخلاق الإسلامية، فماذا كان بعد ذلك؟! حصل في مصر ما حصل، حصل فيها أن بدأ التغريب هناك على يد هؤلاء، وبين أيادي المؤمنات، وعلى مرأى من المسلمين والمسلمات.

ماذا حصل؟! انطلقوا مباشرة، فإذا بالرجل ينطلق إلى جنب المرأة مباشرة، وإذا به يعمل معها، وإذا بها يخالطها في المدرسة تلميذًا ومعلِّمًا فيما بعد، وإذا بالأمور تنفرط، وإذا بنا نئن ونشكو من اختلاط، من رذيلة، ومن طهر وعفاف

يوأد، وإذا الفساد ينتشر، وإذا الداعية يطيح هنا وهناك، فإذا الآذان صُمَّت، واتجهت تقلّد الغرب حتى في لباسها، قامت تقلدهم في الموضة والأزياء، جاءت هذه الصراعات فاستنفذت البيوت واستنفذت ميزانيات الأسر، حتى أنك لترى التي بلغت الخامسة عشر لا زال لباسها من فوق ركبتها، وتقول: لا زلت صغيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما ـ والله ـ ذكرت من هؤلاء سواء هدى، أو قاسم، أو زغلول أو غيرهم من الدعاة هنا وهناك إلا نماذج للدعاة على أبواب جهنم الذين ألقوا بحجابهم، وداسوه بالأقدام إنما يتحدون مشاعر المسلمين، والذين يكتبون لتحرير المرأة، والذين وقفوا بذلك الميدان وسموه ميدان التحرير، إنما هو التحرر من الفضيلة والخُلُق والطُّهر ولا شك، يكتبون، والله يكتب ما يُبيتون هم وأذنابهم إلى يوم يبعثون، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١) ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(٢).

أختي المؤمنة؛ هل هؤلاء ومن على أدرابهم من الكُتّاب والراقصات والعاهرات أهلٌ لأن يكُنَّ قدوة للصالحات المؤمنات القانتات الصابرات الخاشعات؟ نعوذ بالله من الانتكاس، ونسأل الله الثبات حتى الممات. أنت الطهر، وأنت الفضيلة، وأنت السُّمُوُّ، والطهر لا يقتدي بالرجس والمهين، والفضيلة لا تقتدي بالرذيلة، والسمو لا يقتدي بالسُّفل، خابوا وخسروا وتعسوا وانتكسوا. أغيظيهم وقولي بلسان حالك ومقالك:

دعهم يعضوا على صُمِّ الحَصَى كمدًا ... من مات من غيظه منهم له كفن

آمالنا في المسلمة المتعلِّمة والمعلِّمة:

آمالنا في المسلمة في كل مكان وآمالنا في المسلمة في هذه الجزيرة أن تكون أقوى من التحديات، تعتز بدينها، تتمسك بعقيدتها ومبادئها وأخلاقها، بل وتدعو إليها، فذلك من دينها.

---

(١) الأعراف: ١٧٩. (٢) الحج: ٤٦.

ها هو رسول الله ﷺ يخبر ليلة الإسـراء أنه كما قال: «**فلما كانت الليلة التي أسْرِيَ بـي أتت عليَّ رائحة طيبـة، فقلت: مـا هذه الرائحة الطيـبة يا جـبريل؟ قال: هذه رائحة مـاشطة بنت فرعون وأولادها**»(١) أتدرون ما خبر هذه المرأة؟ وما خبر هذه الماشطة؟ اسـمعنَ إليها؛ فلعل فيـها ما يثبت المرأة أمام شهـواتها، وأمام رغباتها، والتـرغيب والترهيب عمومًا. هذه كـانت تمشط بنت فرعون، ذات يوم من الأيام، وبينمـا هي تمشِّط بنت فرعون ـ وهو الذي يقـول: أنا ربكم الأعلى ـ وإذا بالمِدْرَى يسـقط من يديها ـ المشط أو المفْـرق التي تفرق به الشـعر يسـقط من يديها، ويوم سقط من يديها قالت: باسم الله ـ وقد كانت تخفي إيمانها قبل ذلك ـ فقالت بنت فرعون: أبي؟ قالت: باسم الله ربي، ورب أبيك، وربك رب العالمين جميعًا.

فقالت: إذًا أخـبره بذلك، قالت: افعلي، فذهبت وأخبـرت أباها، فجاء في تكبُّره وتجـبُّره، ووقف عندها، وقال: أو إنَّ لك ربًا غيـري؟! قالت: ربي وربك ورب الجميع رب الـعالمين سبحانـه وبحمده، فاغتـاظ، وقال : أما أنت بمنتـهية؟ قالت: لا، فقال: إذًا أعـذب أو أقتل، قالت: ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾(٢) فانطـلق يعذبها، أوتـد يديْها ورجليْـها، وصنف عليـها أنواع العـذاب، فكانت تمزج حلاوة إيمانهـا بمرارة العذاب، فـتطفو حـلاوة الإيمان على مرارة العذاب، فـتشتاق وتقـول: إنما هي ساعات، وإلى جنات ونهر، في مـقعد صدق عند مليك مقتـدر. يرسل عليها العقارب لتلسعـها علَّه أن يصل إلى قلبها، ثم يقول: أما أنت بمـنتهية؟ فتـقول: ربي وربك الله رب العالمين، فيـعود ليرسل عليها الحـيَّات لتنهشها، ثم يقـول: أما أنت بمنتهية؟ فـتقول: ربي وربك الله رب العـالمين، ينوِّع عليـهـا العـذاب، ويصنف عليـها ذلك، وهـي راسخـة بإيمانهـا وعقـيدتها، قـد علمت إنما هي سويعـات، ثم تعود إلى الله ـ عز وجل ـ فـماذا حصل؟

---

(١) أخـرجه ابن حـبان (٢٩٠٤)، والطبـراني (١١/ ٤٥٠) (١٢٢٧٩)، وقـال شعـيب الأرناؤوط: «إسناده قوي».

(٢) طه: ٧٢.

قال: إذًا أقتلك وأحرقك بالنَّار، قالت: ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فأمر ببقرة من نحاس، قيل: إنها قدر على صورة بقرة، وقيل: إنها بقرة أُذيبت، ثم جيء بها وبأولادها ووقف على طرف هذه النار، ثم أخذ واحدًا من أولادها، وقبل أن يأخذه قالت: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: أن تجمع عظامي مع عظام أولادي، ثم تدفننا في ثوب واحد، قال: ذلك لك علينا من الحق، ثم رمى الولد الأول فوقعت، فوقف أخوه الثاني وقال: اصبري يا أماه، فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت، ثم رمى بالثاني، فقال الثالث: اصبري يا أماه؛ فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت. ويرمى بهم واحدًا بعد الآخر، وهي تقول: ربي وربك الله رب العالمين. لم يبق سوى طفل على ثديها رضيع لم ينطق بعد في شهوره الأولى، فما كان منها إلا أن ترددت أن تلقي بنفسها مع أولادها من أجل هذا الرضيع، ويشاء الله، فيطلق الثدي وينطقه الله الذي تعبده؛ ربها ورب كل شيء، فيقول: يا أماه اقتحمي؛ لعذابُ الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فتقتحم مع طفلها لتلقى الله ـ عز وجل، راسخة ثابتة بإيمانها؛ فعليها رحمة الله ورضوانه.

لم يقف الأمر عند ذلك، بل كانت آسيا بنت مزاحم زوج فرعون، والتي ربت موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والتي قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾(١) كانت تراقب الموقف وهي مؤمنة، ولم تعلن إيمانها بعد؛ خوفًا من أن يفتنها عن دينها، ولما رأت من الماشطة ما رأت، فقوي في قلبها إيمانها، وتعلقت بربها؛ رب العالمين. فجاء إليها ليخبرها متبجحًا وقد علمت ما حصل، فقال: فعلت بالماشطة كذا وكذا، فقالت: الويل لك، ما أجرأك على الله! الويل لك ما أجرأك على الله! الويل لك، ما أجرأك على الله!

قال: لقد اعتراك جنون الماشطة، قالت: بل آمنْتُ بالله ربي ورب الماشطة، وربك رب العالمين. آمنت بالله رب العالمين، فذهب إلى والدتها، وقال: لأذيقنَّها ما ذاقته الماشطة أو لترجع، فجاءت أمها ـ برحمتها وشفقتها عليها ـ تعرض عليها

---

(١) القصص: ٩ .

أن تتنازل عن دينها ـ وهي إنما تتنازل عن الجنة التي عرضـها السموات والأرض ـ فماذا كان منهـا؟ قالت: يا أماه أما أن أكفر بالله، فـوالله لا أكفر بالله، عندها بدأ في التعذيب، أوتد يدْيها ورجـليها، وعرَّضها لأشعة الـشمس، ووكَّلَ من يعذبها يصنف عليها أنواع العذاب ويقول: أما أنت بمنتهـية؟ فتقول: لن أنتهي حتى ألقى الله ـ أو كما قالت ـ فيأتي بعد ذلك، ويقول: لأرمينك بكذا وكذا من الصخور ـ يهـدِّد ـ قـالت: لا أرجع عن ذلك أبدًا، فـماذا يحـصل بعـد ذلك؟ كـان الذين يعذبونها في حرارة الشمس ينصرفون عنها ويذهبون بعيدًا عنها؟ فإذا ذهبوا، نزلت الملائكة لتظلَّها بأجـنحتها، ثم يرجع إليـها ويعرض عليـها مرة أخرى، فـترفض فيرمي بالصخرة عليها لتلقى الله ـ عز وجل ـ ثابتة بإيمانها . هذا خبر من قبلنا من الأمم.

خبر من بعد البعثة: إن الخبر ليستلزم أن نقف عند خديجة $ تلك المؤمنة صاحـبة الثراء، وصـاحبة الجـاه، وصاحبـة المال، التي تزوجت رسول الله ﷺ وكانت أول مؤمنة به،وآزرته في مـحنته، وثبتته يوم خـاف، ويوم عاصرت نزول القرآن من أول لحظاته، كانت أول مثبت للنبي ﷺ، وهي التي جاء النبي ﷺ منها الولد، وكان يذكر ذلك لها بعد موتها رضي الله عنهما و ﷺ .

كانت معه حين أنزل عليه الوحي، وجاء إليـها يرتعش خائفًا مرتعدًا؛ لما رأى جبريل وهو يقول لـه: اقرأ، وهو يقول لها: «**زملوني، دثِّروني**»، فيقول لها: والله يا خديجـة لقد خشـيت على نفسي، قالت: كـلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمل الكلَّ، وتُقْرى الضَّيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق(١).

وقفت معه ﷺ فقاسـمته شدَّته ومحنته، ومـا تراجعت عن ذلك مع أنها صاحبة الجاه، وصاحبة السـؤدد، وصاحبة المال، فزادت ذلك سؤددًا ومالاً وجاهًا يوم ارتقت لأن أفقـد ولدي خير لي من أن أفـقد حيـائي وديني، إن الله خاطب رسـوله فقـال: ﴿**يَا أَيُّهَـا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَـاءِ الْمُـؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْـهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ**﴾(٢)، ووالله ما أنا بخير منهن. فتخلقي بأخلاق أهل الإسلام، وارجعي

(١) انظر: البخاري (٣) ، ومسلمًا (١٦٠) .
(٢) الأحزاب : ٥٩ .

إلى سير هؤلاء الأعلام. وادعي إلى الله ـ عز وجل ـ فإنك مسؤولة عن علمك، ماذا عملت به أيتها المؤمنة فما عسى يكون الجواب؟ المرأة المسلمة على ثغرة عظيمة. فالله الله أن تؤتي البيوت من قبلك. والله الله أن يؤتي الإسلام من قبلك. والله الله أن يؤتي أبناء المسلمين من قبلك. ها هي مثل لك؛ لأن الخير يستمر في الأمة إلي قيام الساعة والأمثلة كثيرة في هذا العصر والذي قبله.

أختي المسلمة:

إن الأمة تنتظر منك الكثير والكثير. اعلمي أخيرًا أن طريق الجنة صعب، وأنه محفوف بالمكاره، لكن آخره السعادة الدائمة؛ أخبر بذلك من؟ أخبر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم، يقول: «**إن الله ـ عز وجل ـ لما خلق الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر ما أعددت لعبادي الصالحين فيها، فذهب؛ فإذا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فرجع إلى ربه، وقال: يا رب وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها**»، لما فيها من النعيم، ثم حفَّها الله بالمكاره، بما تكره النفس من التكليف، من الأوامر، من النواهي، من الضوابط الشرعية التي يتنقل الإنسان بينها وفيها، حفَّها بهذا كله. ثم قال: «**ارجع فانظر إليها، فنظر إليها، فإذا هي حفَّت بكل ما تكرهه النفس، فرجع إلى ربه، وقال: وعزتك وجلالك قد خشيت ألا يدخلها أحد**»(١). النفس يا أيها الأحبة، والله لا يدخلها إلا من زكَّى نفسه. اسمعوا إلى الله وهو يقسم، مرات بعد مرات، يقسم بالضحى، وله أن يقسم بما شاء ﴿**وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ**﴾(٢)، ثم يقول هناك: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾(٣) ثم الجواب يأتيك بعد هذه الأقسام المتعددة المغلظة العظيمة من الرب العظيم يقول: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ فوالله لن يفلح إلامن زكَّى نفسه بالإيمان بالله، والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وطريق النار سهل، ولكنه محفوف بالشهوات،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، وقال: «حسن صحيح»، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) الضحى: ١، ٢.

(٣) الشمس: ١ ـ ٨.

وآخره الشقاء الأبدي السرمدي الذي لا يزول.

«**لـمَّا خلق الله النار** ـ في نفس الحديث السابق ـ **قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب إليها، فإذا هي سوداء مظلمة، يحطم بعضها بعضًا، ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالت صُفْر، فرجع إلى ربه وقال: وعزتك وجلالك ما يسمع بها أحد فيدخلها، ثم حفَّها الله بالشهوات، وبكل ما تشتهيه النفس، وبكل ما ترتاح له النفس، وبكل ما تهواه النفس، ثم قال: ارجع فانظر إليها، فرجع فنظر إليها، فإذا هي قد حفت بكل ما تشتهيه النفس، فرجع إلى ربه وقال: لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها**»(١). إن التعامل مع الله عظيم، وإن المتعامل مع الله لا يخيبه الله رجلاً كان أو امرأة.

فيا أيتها المؤمنة انوي الخير، واعملي الخير، فوالله لن تزالي بخير ما نويت الخير، وما عملت الخير. اسمعي قول النبي ﷺ: «**من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشر حسنات، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة**»(٢). فضلا من الله ومنَّة.

فيا ويل ويا ثبور من غلبت آحاده عشراته. حسنة واحدة، أو سيئة واحدة تغلب عشرات الحسنات. يا ويل من كان حاله على ذلك. فانتبهن وتقربن إلى الله ـ عز وجل ـ بما يرضى الله. تقربن إليه بالفرائض؛ فإن أحب ما يتقرب به إلى الله الفرائض، ثم تقربن بالنوافل؛ فإنه لا تزال المرأة تتقرب، والرجل يتقرب بالنوافل حتى يحبه الله، «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(٣). فالهمَّة الهمة؛ فإنها طريق إلى القمة. أسرعي ولا تنظري إلى الخلف، لا تنظري إلى أي عائق، واعلمي أن شبرًا بذراع، وأن ذراعًا بباع، وأن مشيًا بهرولة. فضلا من الله ومنَّة. اصبري، وجدِّي، ولا تسأمي، ولا تملي بالنصح، بالدعوة، بالقيام، بما أوجب الله عليك، فلا تنظري إلى لوم لائم، ولا

---

(١) سبق تخريجه. (٢) أخرجه مسلم (١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

إلى عتاب عاتب، ولا إلى هوى نفس أو شيطان.

وإذا اجتمعت عليك هذه كلها، فانظري إلى منازل زاكية في جنان ورضوان.

أدنى أهل الجنة فيها من يأتي بعد ما دخل أهل الجنة، فيقول الله له: «**ادخل الجنة، فيقول: يا رب وقد أخذ الناس منازلهم وسكنوا مساكنهم ـ يخيل إليه أنها ملأى ـ فيقول الله: ألا ترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا؟ قال: بلى رضيت يا رب، قال: فإن لك مثله ومثله ومثله ومثلَه، وفي الخامسة يقول: رضيت يا رب رضيت. فيقول: ولك عشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك وأنت فيها**»[1].

قولي خيرًا، وادعي خيرًا، وتكلمي خيرًا أو اصمتي؛ فكم كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان، وإن المرء ليقول الكلمة من سخط الله يكتب الله ـ عز وجل ـ له بها سخطه إلى أن يلقاه.

وأخيرًا: توبي إلى الله، واستغفري الله؛ فإن الشيطان قد قطع على نفسه عهدًا، فقال: وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، والله يقطع العهد على نفسه ـ ورغمت أنف إبليس ـ وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩) .

١٤ ـ المعاشرة والطاعة بالمعروف

يقول الشهيد سيد قطب: «البيت مثابة وسكن. . . ويبدأ الإسلام أولا بتصوير العلاقة البيئية تصويرًا رفافا شفيفا يشع منه التعاطف، وترف فيه الظلال، ويشيع فيه الندى، ويفوح منه العبير:

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾[(١)]، ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [(٢)]، فهي صلة النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، وهي صلة المودة والرحمة، وهي صلة الستر والتجمل. . وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق. . »[(٣)].

وفي هذه الكلمات القلائل أحببت أن أذكر شيئًا من الوصايا لمن أقبل على الزواج ذكورًا وإناثًا، وهي من باب التذكير لمن نسيها والتعليم لمن جهلها.

أولاً: صورة مشرقة من بيت النبوة:

سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما كان النبي ﷺ ـ يصنعُ في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله ـ تعني خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[(٤)].

* **السعادة في الاختيار الصحيح**: شرع الله عز وجل من أسباب السعادة، وجبل النفوس عليه الارتباط برباط الزوجية، فهو من أعظم أسباب السعادة في هذه الحياة، وحصول الطمأنينة، والسعادة، والسكينة، متى تحقق الوئام بين الزوجين، وكتب التوفيق لهما، لذا امتن الله تعالى على عباده بهذه النعمة فقال: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[(٥)]. روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن

(١) الروم: ٢١ . (٢) البقرة : ١٨٧ .
(٣) السلام العالمي والإسلام، ٦٧، ٦٨.
(٤) أخرجه البخاري (٦٧٦) . (٥) الروم : ٢١ .

عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(١).

* **الزواج تاج الفضيلة:** الزواج صلة شرعية تبرم بعقد بين الرجل والمرأة بشروطه وأركانه المعتبرة شرعًا، ولأهميته قدمه أكثر المحدثين والفقهاء على الجهاد؛ لأن الجهاد لا يكون إلا بالرجل، ولا طريق له إلا بالزواج، وهو يمثل مقامًا أعلى في إقامة الحياة، واستقامتها، لما ينطوي عليه من المصالح العظيمة، والحكم الكثيرة، والمقاصد الشريفة.. وقد عظم الله تعالى من شأن الزواج، حتى سماه بالميثاق الغليظ، أي العهد الشديد ـ الوفاء والالتزام القائم على الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان ـ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾(٢).

فاعلم يا أخي، أن زوجتك أمانة في عنقك سوف تسأل عنها يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: «**استوصوا بالنساء خيراً**»(٣) متفق عليه.

وإن تزوجت فكن حاذقًا ... واسأل عن الغصن وعن منبته
واسأل عن الصهر وأحواله ... من جيرة وذي قربته

تبادل الهدية: سيما هدايا الزوج للزوجة إحدى أسباب غرس أسباب المحبة بينهما. قال رسول الله ﷺ: «**تهادوا تحابوا**»(٤).

حقوق الزوجة على زوجها:

«الزواج في حقيقته عبارة عن شركة بين رجل وامرأة من أجل بناء الجيل الصالح، الذي يعبد ربه ويبني ويعمر الحياة، فأصل الزواج في الإسلام حلول المودة والألفة والإيثار بين اثنين..، ومن أجل دوام العشرة بينهما جعل الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٧). (٢) النساء: ٢١.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب في المفرد (٥٩٤)، وأبو يعلى (٦١٤٨)، والبيهقي في الشعب (٨٩٧٦)، وحسنه الألباني عن أبي هريرة #.

لكل من الرجل والمرأة حقوقًا لدى الآخر يجب القيام بها».

أولاً: الإحسان في المعاملة والمعاشرة بالمعروف:

الزوجة أمانة عند الزوج، فيجب عليه إحسان معاملتها قولاً: بكلام حسن وعفة لسان، وفعلاً: بمعاملة كريمة. لقوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾(١)، وقول النبي ﷺ: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**»(٢) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه في الحديث المتفق عليه عن النبي ﷺ أنه قال: «**استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**»(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله**»(٤) .

ثانيًا: صون الزوجة والغيرة عليها واحترامها:

الغيرة على الزوجة أمر فطري في النفوس، سأل سعد بن عبادة رضي الله عنه رسول الله ﷺ قال: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فقال النبي ﷺ: «**أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله، حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن**»(٥) .

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه روضة المحبين، بعد أن ذكر أنواعًا من الغيرة منها المحمود والمذموم: وملاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع:

١ـ غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتضيع حدوده.

٢ـ وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه.

٣ـ وغيرته على حرمته أن يطلع عليها غيره.

فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما

---

(١) النساء : ١٩ . (٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩) .

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣١) ، ومسلم (١٤٦٨) .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) أخرجه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

من خداع الشيطان، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها.

ثالثًا: إعفاف الزوجة:

وهذا حق مقرر للزوجة، ثابت في السنة النبوية، ففي الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟**» فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «**فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه**»(١).

فأخبر ﷺ أن للزوجة على زوجها حقا، بل إن هذا الحق يعد أيضًا من أنواع العبادة التي يثاب عليها الرجل، وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «... **وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر**»(٢).

رابعًا: حفظ أسرار الزوجة:

وهذا حق يعد من الحقوق المشتركة بين الزوجين. أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة: الرجل يفضي إلى المرأة، وتفضي إليه، ثم ينشرها سرها**»(٣).

خامسًا: النفقة الزوجية:

قال الله تعالى: ﴿ **أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾(٤)، وقوله سبحانه: ﴿ **وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾(٥)، والآيتان وإن كانتا في إيجاب النفقة للمعتدة فهي للزوجة التي لم تطلق أولى وألزم.

وقال الله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٣٧).

(٤) الطلاق: ٦.

(٥) البقرة: ٢٣٣.

أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[١]. قال الإمام ابن كثير: معلقًا على هذه الآية ﴿ **وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ أي: المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ).

وعند أبي داود، أن النبي ﷺ سئل عن حق الزوجة فقال: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تهجر إلا في البيت**»[٢].

وعند هذا الحق يتبادر إلى الذهن أن هندًا زوجة أبي سفيان قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه، وهو لا يعلم، فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[٣]. وأن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «**ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**»[٤].

سادسًا: احتمال هفوات الزوجة وغض الطرف عنها:

أخي الزوج: ينبغي أن تعلم أنه ليس من سمة البشر الكمال، بل الأصل في البشر الخطأ والزلل، ولذلك من الحق والعدل أن تغض طرفك عن الأخطاء الصغيرة والهفوات العابرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**»[٥].

فالزوج العاقل الكريم لا يعاتب زوجته عند أدنى هفوة، ولا يؤاخذها بأول زلة، بل يلتمس لها المعاذير، ويحملها على أحسن المحامل، ومن ثمَّ يقدم لها النصح بقدر المستطاع.

سابعًا: تعليمها أمور دينها:

قال الحق سبحانه: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾[٦] قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها. روى مسلم، أن النبي ﷺ إذا أوتر يقول: «**قومي فأوتري يا عائشة**»[٧].

---

(١) النساء: ٣٤.
(٢) أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، وحسنه الألباني.
(٣) البخاري (٢٢١١)، ومسلم (١٧١٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٥) سبق تخريجه.
(٦) طه: ١٣٢.
(٧) أخرجه مسلم (٧٤٤).

وفسر ابن عباس ٪ قوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(١) بقوله: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار. وكان ﷺ يعلم نساءه أمور دينهن، وزوج رجلاً من الصحابة امرأة على ما معه من القرآن.

ثامنًا: العدل بين النساء إن كن أكثر من واحدة:

والأصل في هذا الحق قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ٪ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(٣) .

وفي البخاري : أن النبي ﷺ كان يطاف به محمولاً في مرضه كل يوم وكل ليلة فيبيت عند كل واحدة منهن، ويقول: «**أين أنا غداً؟**» ففطنت لذلك امرأة منهن فقالت: إنما يسأل عن يوم عائشة، فقلن يا رسول الله: قد أذنا لك أن تكون في بيت عائشة، فإنه يشق عليك أن تحمل في كل ليلة، فقال: «**وقد رضيتن؟**» فقلن: نعم، قال: «**فحولوني إلى بيت عائشة**»(٤).

* **تذكر**: أيها الزوج قول المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحديث المتفق عليه: «**إن أحق الشروط أن توفوا بها ما استحللتم به الفروج**»(٥).

*** العلاقة مع ذوي القربى:**

على الزوج القدوة أن يحرص على احترام أسرة الزوجة وإكرامها وخاصة والديها بحيث يشعرون وكأنه ابنهم، وذلك بجانب بره وإحسانه لأسرته وخاصة

---

(١) التحريم : ٦ .   (٢) النساء : ٣.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٢٧) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٥٠)، ومسلم (٣٤٤٣)، ولفظ البخاري: «عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: «**أين أنا غدا أين أنا غداً**» يريد يوم عائشة، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها. . .».

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٢١) ، ومسلم (١٤١٨) .

والديه، قال الله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾(١) الآية.

قيل: أنت تسب امرأتك إذا امتدحت امرأة أخرى أمامها.

ـ الزوج الصالح أبٌ بعد أبٍ.

* **حذاري!!** احذر أخي الزوج أن تكون من الذين هم داخل بيوتهم من أفظ الناس وأغلظهم، وخارجها من ألطف الناس وآنسهم.

حقوق الزوج على الزوجة:

أولاً: الطاعة بالمعروف:

المعروف: ما أقره الشرع وأمر به، فهي تطيعه في غير ما نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾(٣).

واعلمي ـ أختي المسلمة ـ أن رفضك طاعة زوجك يعرضك لغضب الله تعالى ولعنته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت أن تجيء، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح**»(٤).

واسمعي إلى ما قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ بهذا الصدد: قال: «وينبغي للمرأة العاقلة إن وجدت زوجًا يلائمها، أن تجتهد في مرضاته، وتتجنب كل ما يؤذيه، فإنها متى آذته أو تعرضت لما يكرهه أوجبت ملالته، وبقي ذلك في نفسه، فربما وجد فرصته فتركها أو آثر عليها، فإنه قد يجد وقد لا تجد هي ومعلومٌ أنَّ الملل للمستحسن قد يقع، فكيف للمكروه».

---

(١) النساء: ٣٦. (٢) البقرة: ٢٢٨.

(٣) النساء: ٣٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٣٧)، ومسلم (١٤٣٦).

ثانيًا: القرار في المنزل وترك الخروج منه إلا بإذن الزوج:

قال الله ـ تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ** ﴾(١)، وهذا وإن كان خطابًا لنساء النبي ﷺ فهو إرشاد لبقية نساء الأمة بالتأسي بهن، والتأدب بآدابهن.

ثالثًا: صون العرض والمال: لقوله ﷺ: «**والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها**»(٢).

رابعًا: خدمة البيت: والدليل على المطالبة لخدمة الزوج في البيت ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الزاد أن النبي ﷺ قسم الأمر بين علي وفاطمة، حين اشتكيا إليه الخدمة، فحكم على فاطمة بالخدمة الباطنية (أي الخدمة داخل البيت) وحكم على علي بالخدمة الظاهرة (أي خارج المنزل).

خامسًا: التزين للزوج: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فلما قدمنا ذهبنا لندخل، فقال: أمهلوا حتى ندخل ليلاً ـ أي عشاءً ـ لكي تمتشط الشَّعثة، وتستحد المُغيَّبة»(٣).

سادسًا: مراعاة مشاعر الزوج: عليك أن تبتعد عما يؤذيه من قول أو فعل أو خلق، وعليك كذلك مراعاة ظروفه المالية والاجتماعية. قال الشاعر:

إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

سابعًا: حفظ أسرار الزوج وعدم إفشائها: وهذا الحق يعد من الحقوق المشتركة بين الزوجين، قال الله ـ تعالى: ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾(٤) فسر بعض المفسرين قوله: ﴿ **حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾ أنهن الحافظات بما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويتحتم ستره من بواطن وأسرار، وفي الحديث: «**إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه**»(٥).

---

(١) الأحزاب: ٣٣. (٢) أخرجه البخاري (٨٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٧٩)، وأخرجه مسلم (٧١٥).
(٤) النساء: ٣٤. (٥) أخرجه مسلم (١٤٣٧).

* **تذكرى..** أختي المسلمة قول النبي ﷺ: لما عرضت عليه النار ورأى أكثر أهلها النساء، فقال: «**رأيت أكثر أهلها النساء**» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «**يكفرن**». قيل: يكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير ـ الزوج ـ ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»(١).

* **كوني لبقة:** اللباقة يعني: الكلمة المناسبة، ورد الفعل الذكي.

أو بعبارة أخرى: أن المرأة اللبقة هي التي تلبس لكل حال لبوسها، وتستطيع أن تحول الموقف المضاد بذكاء الكلمة والفعل إلى صالحها.

ومما نقش في ذاكرة التاريخ مما يدل على لباقة بعض النساء:

أن خالد بن يزيد بن معاوية وقع يومًا في عبد الله بن الزبير منافس بني أمية اللدود، وأقبل يصفه بالبخل، وكانت زوجته رملة بنت الزبير أخت عبد الله بن الزبير جالسة فأطرقت ولم تتكلم بكلمة، فقال لها خالد: ما لك لا تتكلمين؟! أرضىً بما قلته أم تنزهًا عن جوابي؟! فقالت: لا هذا ولا ذاك، ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال؟ إنما نحن رياحين للشم والضم! فأعجبه قولها ورجاحة عقلها.

* **أخيّة:** احذري الصفات غير المرغوبة لدى الزوج، واحرصي على تقديره وتوقيره. جاء في تفسير ابن الجوزي عند قوله تعالى: ﴿**وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾(٢) قالت ابنة سعيد بن المسيِّب: «ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلمون أمراءكم...» فهل لك في ابنة ابن المسيب أسوة.

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله: وينبغي للمرأة أن تصبر على أذى الزوج كما يصبر المملوك.

قال بعض العرب: لا تنكحوا من النساء ستة: «لا أنانة، ولا منانة، ولا حنانة ـ وهي التي تحن إلى زوج آخر ـ ولا حداقة ـ وهي التي ترمي إلى كل شيء بحدقتها فتشتهيه وتكلف الزوج شراءه ـ ولا براقة ـ وهي التي تكون طوال النهار في تزيين وجهها ليكون براقًا ـ ولا شداقة ـ وهي كثيرة الكلام».

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥٢). (٢) البقرة: ٢٢٨.

* **من كنوز الحكم:** المرأة الجميلة تملك القلوب لكن المرأة الفاضلة تسرق العقول.

ـ رب جميلة بدون دين يصونها جرَّت على أسرتها الويلات.

وقيل: جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر مجوسي!

قيل: قال عبد الله بن جعفر لابنته: يا بنية إياك والغيرة، فإنه مفتاح الطلاق وإياك والمعاتبة فإنها تورث الضغينة.

قيل: ثلاثة أشياء تسقط قيمة المرأة: حبُّ المال، والأنانيَّة، وحبُّ السيطرة، وثلاثة ترفعها: التضحية، والوفاء، والفضيلة.

قال رجل للحسن: ممن أزوج ابنتي؟ قال ممن يتقي الله؟ فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

أخي الزوج: لئن كنت بالأمس وحدك فالآن أتى من يشاركك، ولئن كنت في الماضي تفكر لنفسك فالآن تفكر لك ولغيرك، ومنذ العقد وإلى أن تخلو بزوجتك ليلة الزفاف فإنه يحدوك الأمل المشرق والمستقبل الباسم في السعادة، فخذ بزمام الأمر، وابحث عنها في مظانها.

ـ **وأخيرًا:** أخي الزوج: لتقف قليلاً مع نفسك بعد أن أصبحت ربًا لأسرة وعلى عتبة مرحلة جديدة في حياتك.. لابد أن تكون واعيًا لحجم ومقدرات الأمانة والمسؤولية التي صرت مكلفًا بها.

١٥ ـ أحكام السفر المباح

الحديث عن السفر والسياحة هو حديث الساعة، لولوع الناس بالسفر، وقد كان السبب في اختيار هذا الموضوع جملة أسباب مقسمة على هذه العناصر:

١ـ اضطرار الناس اليوم للسفر في زماننا هذا، وكثرة الاحتياج إليه إما للتجارة، أو لطلب العلم، أو لأداء المناسك، أو غير ذلك من احتياجات، وكل هذا له آداب وأحكام.

٢ـ جهل عوام الناس وخواصهم من غير المتخصصين في العلم الشرعي بآداب السفر وأحكامه.

٣ـ التأكيد على شمولية الإسلام ومواكبته لمتطلبات العصر.

٤ـ التأكيد على صلاحية الإسلام وأحكامه لكل زمان ومكان وبخاصة أدب السفر وأحكامه.

٥ـ كثرة الأسئلة التي ترد إلى البرامج الفقهية عبر وسائل الإعلام المختلفة المتضمنة في معظمها السؤال عن بعض أحكام السفر وما وقع فيه من أخطاء، وبخاصة أحكام الصيام وقصر الصلاة، وغيرها.

٦ـ تجرؤ البعض على الفتوى في بعض القضايا المتعلقة بأحكام السفر بدون علم أو روية في الفتوى، مما يحدث خللا ذريعا وخلافات بين الناس تحتاج لإبداء الصواب من الآراء حسما لمثل هذه النزاعات والخلافات بإظهار وجه الحقيقة، في مثل هذه الآراء.

من أجل هذا وغيره رأيت لزامًا على ذكر بعض الأحكام والآداب المتعلقة بالسفر المباح والسياحة الجائزة.

فوائد السفر:

اعلموا ـ رحمني الله وإياكم ـ أن السفر له فوائد كثيرة أشار إليها الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ في قوله:

تغرب عن الأوطان تكتسب العلا   وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريج همٍّ واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل: في الأسفار ذل وشدة وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واش وحاسد

فالشافعي ـ رحمه الله ـ عدّ من فوائد السفر خمس فوائد: وهي: انفراج الهم، واكتساب المعيشة، وحصول العلم، والآداب، وصحبة الأخيار والأماجد. وقال الثعالبي: من فضائل السفر، أن صاحبه يرى من عجائب الأمصار، ومن بدائع الأقطار ومحاسن الآثار ما يزيده علمًا بقدرة الله تعالى، وقال أبو الحسن القيرواني: كتب إلى بعض إخواني: مثل الرجل القاعد كمثل الماء الراكد، إن ترك تغير، وإن تحرك تكدر، وفي هذا يقول الشافعي أيضًا:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني وجدت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

وقال أيضًا:

ارحل بنفسك من أرض تضام بها ولا تكن من فراق الأهل في حرق
فالعنبر الخام روث في مواطنه وفي التغرب محمول على العنق
والكحل نوع من الأحجار تنظره وفي أرضه وهو مرمي على الطرق
لما تغرب حاز الفضل أجمعه فصار يحمل بين الجفن والحدق

آداب السفر:

من عزم على السفر فليبدأ بالتوبة من المعاصي، ويخرج من مظالم الخلق، ويقضي ما أمكنه من ديونهم، ويرد الودائع ثم يستحل ممن كان بينه وبينه مماطلة في شيء أو مصاحبة. ويكتب وصيته ويوكل من يقضي دينه ما لم يتمكن من قضائه ويترك لأهله ما يلزمهم من نفقة ونحوها. ويستحب له أن يطلب رفيقًا موافقا راغبا بالخير عارفًا في الشر، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، ويستحب السفر يوم الخميس، لحديث كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «**قلما كان رسول**

الله ﷺ **يخرج في سفر إلا في يوم الخميس**»(١).

والسنة أن يخرج باكـرًا، لحديث صخر بن وداعـة أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم بارك لأمـتي في بكورها، وكـان إذا بعث سـرية أو جـيـشا بعـثـهم من أول النهار**»، وكان صخر تاجرا فكان يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله»(٢).

ونهى عن سفـر الإنسان لوحده، لحـديث عبد الله بـن عمر رضي الله عنهـما قال: قـال رسول الله ﷺ: «**لو أن الناس يعلمـون من الوحدة مـا أعلم ما سـار راكب بليل وحده**»(٣) . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراكب شيطان، والراكبـان شيطانان، والثلاثة ركب**»(٤) . والسنة أن يؤمـروا أحدهـم، لما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «**إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**»(٥)، قال نافع: فقلت لأبي سلمة: فأنت أميرنا.

أحكام السفر:

ومن أحكام السفر اجتناب الطريق عند الراحة فالمسـافر قد يحتاج إلى الراحة بعض الوقت أثناء الطريق، خـصوصا آخـر الليل، فعليه أن يجـتنب الطريق، لما أخرج مالك في الموطأ حديث خـالد بن معدان يرفعه: «**وعليكم بسير الليل فإن الأرض تطوى بالـليل مـا لا تطوى بـالنهـار، وإياكم والـتـعـريس عـلى الطرق** ـ والتعريس نزول المسافر آخر الـليل ساعة للاستراحة ـ **فإنها طرق الدواب ومأوى الحيات**»(٦).

ومن أحكامه أيضا: أن الرسول ﷺ كان في سفره إذا عـلا على شرف كبر، وإذا هبط واديا سبح، فيشرع للمسافر التكبير إذا ارتفعت به الأرض، والتسبيح إذا

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٥) ، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦) ، والـترمذي (١٢١٢) ، وقال : «حسن» ، وابـن ماجه (٢٢٣٦) ، وصححه الألباني .

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٨) .

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، والترمذي (١٦٧٤)، وقال : «حسن صحيح» ، وحسنه الألباني.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨) ، وقال الألباني : « حسن صحيح» .

(٦) مالك في الموطأ (١٧٦٧) .

انخفضت به الأرض.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: **(كنا إذا صعدنا كبرنا، وإذا نزلنا سبحنا)**[١]. قال أهل العلم: التكبير عند أشراف الجبال استشعار لكبرياء الله عندما تقع عليه العين من عظم خلق الله، إنه أكبر من كل شيء، وأما تسبيحه في بطون الأودية فقيل: إنه مستنبط من قصة يونس عليه السلام وتسبيحه في بطن الحوت قال تعالى: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾[٢] وقيل: معنى التسبيح عند الهبوط: استشعار تنزيه الله تعالى عن صفات الانخفاض والضعة والنقص. وإذا خاف المسافر من قوم أثناء سفره دعا بما رواه أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا خاف قوما قال: «**اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»[٣].

ومن أحكام السفر: المسح على الخفين، فعن صفوان بن عسال قال: أمرنا رسول الله ﷺ إذا كنا على سفر ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن[٤]، فيجوز للمسافر أن يمسح على الجوارب وهو مسافر ثلاثة أيام بلياليهن، يبتدأ المسح من أول مسحة يمسحها.

ومن الأحكام: التيمم، فإن الله جعل التراب بدلا عن الماء عند انعدامه أو تعذره، فالمسافر قد ينقطع به الماء فلا يجوز له تأخير الصلاة، بل يتيمم بالتراب ويصلي، فيضرب الصعيد ضربة واحدة بيديه يمسح بهما كفيه ووجهه، والتراب يرفع الحدث الأصغر والأكبر.

ومن أحكام السفر أيضًا: جواز الفطر في رمضان قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[٥]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ: «**خرج إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر فأفطر الناس**»[٦]، والإنسان مخير بين الصيام

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣). (٢) الصافات: ١٤٣.

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٣٧)، وأحمد (٤/ ٤١٤)، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه الترمذي (٩٦)، والنسائي (١٢٦)، وحسنه الألباني.

(٥) البقرة: ١٨٥.

(٦) أخرجه البخاري (١٩٤٤)، ومسلم (١١٣).

والفطر بحسب مقدرته، فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن حمزة بن عمر الأسلمي قال للنبي ﷺ أأصوم في السفر؟ وكان كثير الصيام، فقال: «**إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر**»(١). وعن أنس بن مالك قال: «كنا نسافر مع النبي ﷺ فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم»(٢).

ومن أحكام السفر وهذا من رخص الله ـ عز وجل ـ علينا قصر الصلاة وجمعها، فإن المسافر يجوز له أن يقصر الصلاة ويجمعها ما دام مسافرا حتى يرجع إلى بلده، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كنا نسير مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة لا نخاف إلا الله ـ عز وجل ـ نصلي ركعتين**»(٣)، وعن موسى بن سلمة الهذلي قال: سألت ابن عباس، كيف أصلي إذا كنت بمكة إذا لم أصل مع الإمام؟ فقال: «**ركعتين، سنة أبي القاسم** ﷺ»(٤).

فالمسافر يجوز له قصر الرباعية ركعتين، وله الجمع أيضًا سواء جد به السير أم لم يجد؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن عامر بن واثلة أن معاذ بن جبل أخبره: أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فكان رسول الله ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء قال: فأخر الصلاة يوما ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعًا ثم دخل، ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعًا(٥).

ويسقط عن المسافر السنن الرواتب التي كان يصليها مقيما وهي: راتبة الظهر، والمغرب، والعشاء، وباقي السنن التي كان يحافظ عليها حال إقامته يصليها في السفر أيضًا. أما راتبة الفجر والوتر فما كان يدعهما رسول الله ﷺ حضرا ولا سفرا.

ومن أحكام السفر، جواز أداء النوافل وكذلك الوتر على الدابة أو السيارة وهي تسير، وإن لم تكن إلى جهة القبلة عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «**كان النبي ﷺ يصلي على راحلته حيث توجهت به، يومئ إيماءً صلاة الليل إلا**

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٦).
(٣) أخرجه النسائي (١٤٣٥)، وأحمد (١/ ٣٦٢)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه مسلم (٦٨٨). (٥) أخرجه مسلم (٧٠٥).
(٦) أخرجه مسلم (٧٠٠).

الفـرائض، ويوتر على راحلتـه»(٦). وعن جـابر بن عبـد الله «**أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته نحو المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة**»(١).

ومن أحكام السفر، أن المصلي حال الجـمع يصلي بأذان واحد وإقامتين. وإذا صلى المسافر خلف إمام مقيم فإنه يتم الصلاة معه.

ثم هاهنا بعض الأحكام والآداب المتـعلقة برجوع المسـافر من سفـره: ينبغي للمسافر سرعة العودة إلى أهله إذا قضى حاجته من سفره، عن أبي هرير ة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**السفر قطعة من العـذاب؛ يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى أحدكم نهمته فليعجل إلى أهله**»(٢) .

وجاء النهي من طرق الرجل أهله ليلاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أطال أحـدكم الغيبـة فلا يطرق أهله ليـلاً**»(٣)، وفي رواية: «**نهى أن يطرق أهله ليلا**»(٥)، وفي رواية: «**حتى تسـتحد المـغيبـة وتمتشط الشعثة**»(٤). وهذه كلها روايات البخـاري ومسلم. وفي رواية أبي داود قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفـر لما ذهبنا لندخل قال: «**أمهلوا حـتى تدخلوا ليلا، لكي تمتشط الشعثة، وتستحد المغيبة**»(٦). وفي رواية له: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحسن ما دخل الرجل على أهله إذا قدم من سفر أول الليل**»(٧).

ولا بأس بالخروج لتلقي المسافر، يقول السائب بن يزيد رضي الله عنه: «أذكر أني خرجت مع الصبيان، نتلقى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع عند مقدمه من تبوك»(٨).

ويسن للمسافر أن يدعو بما كان يدعو به رسول الله ﷺ إذا رجع من سفر،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٩) .
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠١) ، ومسلم (١٩٢٧) .
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٤) .
(٤) أخرجه البخاري (١٨٠١) ، ومسلم (٧١٥) .
(٥) أخرجه البخاري (٥٢٤٦) ، ومسلم (٧١٥) .
(٦) أخرجه البخاري (٥٠٧٩) ، ومسلم (٧١٥) .
(٧) أخرجه أبو داود (٢٧٧٧) ، وصححه الألباني .
(٨) أخرجه البخاري (٤٤٢٧) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بظهر المدينة قال: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**»(١)، فلم يزل يقول ذلك حتى قدمنا المدينة.

ومن السنة، أن يبدأ المسافر عند رجوعه بالمسجد فيركع فيه ركعتين، فعن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ حين أقبل من حجته دخل المدينة، فأناخ على باب مسجده، ثم دخله فركع فيه ركعتين، ثم انصرف إلى بيته قال نافع: فكان ابن عمر كذلك يصنع»(٢)، وعن كعب بن مالك رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس»(٣).

ومن فضل الله أن الأعمال التي كان يعملها العبد من الأعمال الصالحة والتي تفوته بسبب سفره، فإنها تكتب له وإن لم يعملها،روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمله مقيما صحيحا**»(٤)، وأيضًا المسافر مستجاب الدعوة فعن أبي هريرة يرفعه: «**ثلاث دعوات مستجابات، لا شك فيهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**»(٥).

كيف تدعو إلى الله في السفر؟

لا يشك مسلم في أهمية الدعوة إلى الله تعالى في السفر كالحضر، فالمؤمن الصادق يحمل قضيته معه، لا ينساها، ولا يغفل عنها.

وربما يكون سفره في الأمصار على مدى الأعصار سببًا عظيمًا لنشر الخير للغير، والتأثير في الخلق، ودعوتهم إلى ربهم، فبالسفر تزداد خبرته، وتصقل موهبته، وتنمو معرفته بالناس وطبائعهم وأحوالهم وواقعهم ووقائعهم، فيقف على موطن الخلل عندهم، ويسبر أغوار مجتمعهم، ليلمس بيده مكامن النقص ومواطن الكمال، فهو كالنحلة الطيبة، لا تقع إلا على الطيبات ولا تنتج إلا الطيبات، وكالنور في الفجر حيثما سطع أشرقت به البلاد واستيقظت منه العباد.

(١) أخرجه البخاري ٣٠٨٥)، ومسلم (١٣٤٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٨٢)، وأحمد (٢/ ٢٩)، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٨١)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).
(٥) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وحسنه الألباني.

فمن الوسائل المفيدة في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في السفر:

١ـ إلقاء المواعظ القصيرة في المساجد المطروقة، فحالما أدركته الصلاة ألقى كلمة قصيرة ومؤثرة، وهي بذرة مباركة تلقى في قلوب المستمعين، وستنبت ـ بإذن الله ـ ولو بعد حين!

وأنا أعرف أحد حفاظ كتاب الله تعالى وهو من الدعاة المباركين، كان سبب هدايته من بعد غوايته وسقوطه في براثن المخدرات والفجور والفواحش والغناء وترك الصلوات وغيرها من الطامات كلمةً قصيرةً من داعية مبارك سمعها منه في سفر، فهل من معتبر؟!

٢ـ نشر الكتب والأشرطة والمطويات في كل مكان يكون فيه؛ في المساجد، والمتنزهات، والفنادق، والاستراحات، والمهم أن تترك خلفك ما يذكر بك، وما يكون سببًا في هداية غيرك، وستقطف ـ بإذن الله ـ هذه الثمرة اليانعة، في يوم الحصاد، عندما تقف بين يدي مولاك في يوم المعاد.

٣ـ الحرص على الخلق الطيب، والمعاملة الحسنة، والابتسامة الصادقة، واللمسات الحانية، والكلمات الرقيقة، والكرم الفياض، والعفو والصفح، وغيرها من الأمور التي جاء الإسلام بها، ورغب فيها، وحثَّ عليها، وقد تؤثر بفعلك أكثر من قولك، فانتبه!

٤ـ استغلال الأطفال في الدعوة إلى الله تعالى، بإنكار المنكر، والأمر بالمعروف، ونشر الرسائل الدعوية بين البرية، فهذا طفل ينكر على مدخن أو سامع للغناء، وهذه طفلة تأمر بالحجاب، وهذا آخر يرسل بالكتاب، وآخر بالشريط، وأخرى بغيرها من الوسائل الدعوية المباركة، والمهم أن نحمل الهم، فليست النائحة الثكلى كالمستأجرة.

٥ـ الوقوف مع أهل الأزمات على مدى الطرقات، فإن رأيت من خذلته مركبته، وقفت معه، فأصلحتها من عطب إذا علمت السبب أو أوصله إلى مبتغاه، أو على أقل تقدير أمنته من خوفه، ونصرته حال ضعفه، ثم وهبته هدية دعوية أو كلمة رقيقة، أزالت همه، وأذهبت غمَّه، فكم لها من الأثر! والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

٦ـ نشر المجلات الإسلامية المباركة في الاستراحات، والشقق المفروشة، ومحلات الحلاقة، وأماكن الانتظار، لتكون بديلاً لذلك السم الزعاف من المطبوعات السيئة المنتشرة في أكثر البلدان.

٧ـ توزيع النشرات التعريفية بالمؤسسات الخيرية الإغاثية والدعوية، والدال على الخير كفاعله.

٨ـ زيارة العلماء والدعاة وطلاب العلم، والتعرف عليهم، والوقوف على أحوالهم وأعمالهم، والتنسيق معه للاستفادة منهم، وكذلك زيارة المؤسسات الخيرية للوقوف على احتياجاتها، والمساهمة في نصرتها.

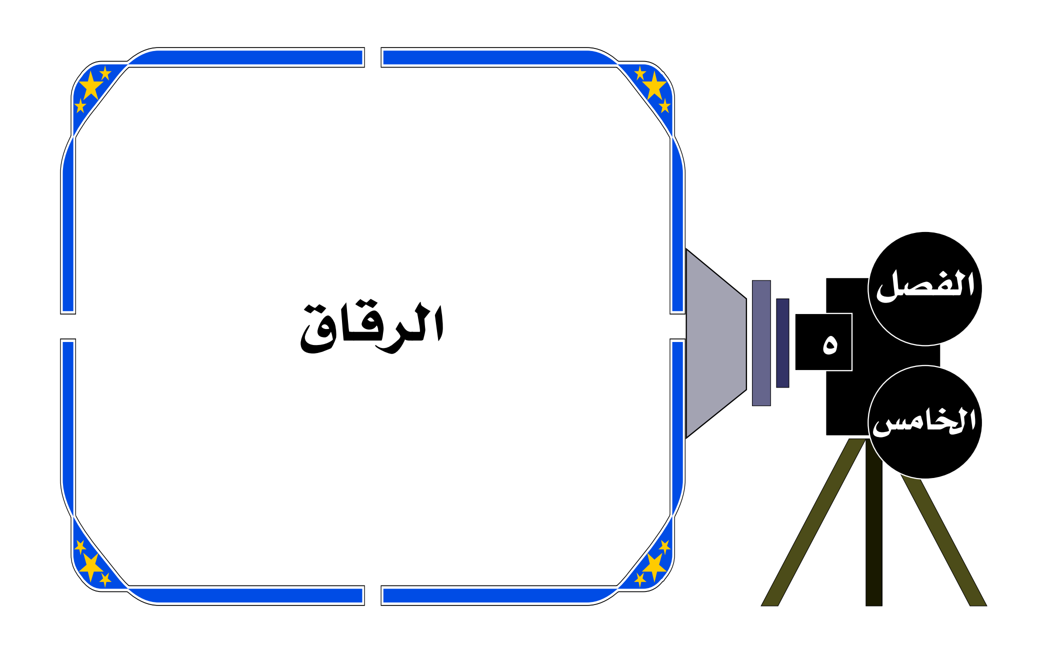
٩ـ تعليم الأهل أحكام السفر، وتطبيقها عليهم.

١٠ـ تذكير الأهل بالدعاء للمسلمين، وتنبيههم أن دعاء المسافر مستجاب، فترفع همة الأهل، ليشعروا بهموم المسلمين.

١١ـ دراسة المنكرات التي يقف عليها المسافر، ورصدها، لتقديمها للدعاة والعلماء والمصلحين؛ ليقوموا بواجب الإصلاح، كلٌّ بحسبه، ومن موقعه.

١٢ـ تفقد أحوال المساجد، والتعرف على ما ينقص فيها، ومحاولة توفير احتياجاتها، ولو لم يكن إلا توفير المصاحف، فكم في ذلك من خير!

ولن يعدم المؤمن الطريقة الصحيحة في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ في السفر، فعلى قدر صدقه مع ربه، واهتمامه بدينه، وحرصه على نشر الخير للناس، يفتح عليه من ربِّه، وتأتيه الوسائل والسبل التي لم تكن له على بال، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



الرقاق
الفصل
٥
الخامس

١. محبة الله تعالى

قال عنها ابن القيم[١]: «هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام».

علامة المحب:

قال ابن القيم: «المحب الصادق: لابد أن يقارنه أحيانا فرح بمحبوبه، ويشتد فرحه به، ويرى مواقع لطفه به، وبره به، وإحسانه إليه، وحسن دفاعه عنه، والتلطف في إيصاله المنافع، والمسار والمبارَّ إليه بكل طريق، ودفع المضار والمكاره عنه بكل طريق».

وقال: «قرة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه بخلاف المطيع كرها، المتحمل للخدمة ثقلا، الذي يرى أنه لولا ذلّ قهره لما أطاع، فهو يتحمل طاعته كالمكره الذي أذله مكرهه وقاهره، بخلاف المحب الذي يعد طاعة محبوبه قوتا ونعيما، ولذة وسرورًا، فهذا ليس الحامل له ذُلّ الإكراه».

وقال أيضًا: «المحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله، فحبه لله وبالله ومع الله».

وقال ابن قدامة: «علامة المحبة: كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة، ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه».

قال بعضهم:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه   هذا محال في القياس بديع

---

(١) انظر: منزلة المحبة في كتابه مدارج السالكين (٣/ ١٠).

تعريف المحبة:

قال ابن القيم: «لا تحدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضح منها؛ فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً، وجفاءً، فحدُّها وجُودُها، ولا توصف المحبة بوصفٍ أظهر من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فحدودهم، ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب إدراك الشخص، ومقامه، وحاله، وملكهِ للعبارة[(١)].

ومما قيل في المحبة وتعريفها ما يلي[(٢)]:

١ـ الميل الدائم بالقلب الهائم.

٢ـ إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

٣ـ موافقة الحبيب في المشهد والمغيب.

٤ـ مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

٥ـ استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

٦ـ سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب.

٧ـ ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك، وروحك، ومالك، ثم موافقتك له سرًا، وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

٨ـ الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

٩ـ سفرُ القلب في طلب المحبوب، ولهجُ اللسان بذكره على الدوام.

١٠ـ المحبة أن يكون كلكَ بالمحبوب مشغولاً، وذلك له مبذولاً.

أقسام المحبة:

١ـ محبة عبادة: وهي محبة التذلل، والتعظيم، وأن يقوم بقلب المُحبِّ من إجلال المحبوب، وتعظيمه ما يقتضي امتثال أمره، واجتناب نهيه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ١١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣/ ١٣ ـ ١٨) حيث ذكر حدًا للمحبة.

وهذه المحبة أصل الإيمان والتوحيد، وهي التي يترتب عليها من الفضائل ما لا يمكن حصرُهُ وعدُّهُ.

ومن صرف تلك المحبة لله فهو المؤمن الموحد، ومن صرفها لغير الله فقد وقع في المحبة الشركية؛ حيث أشرك بالله ـ عز وجل.

وذلك كمحبة المشركين الذين يحبون آلهتهم، وأندادهم كمحبة الله، من شجر، أو حجر، أو بشر، أو ملك أو غيرها كمحبة الله أو أكثر؛ فهذه المحبة أصل الشرك، وأساسه.

٢ـ محبة لله ـ عز وجل: كمحبة ما يحبه الله من الأمكنة، والأزمنة، والأشخاص، والأعمال، والأقوال، ونحو ذلك؛ فهذه المحبة تابعة لمحبة الله.

٣ـ المحبة الطبيعية: ويدخل تحت هذه المحبة ما يلي:

أ ـ محبة إشفاق ورحمة: كمحبة الوالد لولده، وكمحبة المرضى، والضعفاء.

ب ـ محبة إجلال وتعظيم دون عبادة: كمحبة الولد لوالده، وكمحبة التلميذ لمعلمه وشيخه، ونحو ذلك.

ج ـ محبة الإنسان ما يلائمه: كمحبة الطعام، والشراب، والنكاح، واللباس، والأصدقاء، والخلطاء، ونحو ذلك.

فهذه المحاب داخلة في المحبة الطبيعية المباحة، فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب الطاعة، وإن صدت عن محبة الله، وتُوسلَّ بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإن لم تعن على طاعة ولا معصية، فهي في دائرة المباحات.

فضائل محبة الله:

محبة الله ـ عز وجل ـ أشرف المكاسب، وأعظم المواهب، وفضائلها لا تعد ولا تحصى، ومن تلك الفضائل ما يلي:

١ـ أنها أصل التوحيد وروحه: قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: أصل التوحيد، وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله، والتعبد، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق جميع

المحاب، وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها؛ بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه(١).

٢ـ أن الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الطعام، والشراب، والنكاح: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ففي قلوب بني آدم محبة لما يتألهونه ويعبدونه، وذلك قوام قلوبهم، وصلاح نفوسهم، كما أن فيهم محبة لما يطعمونه، وينكحونه، وبذلك تصلح حياتهم، ويدوم شملهم.

وحاجتهم إلى التأله أعظم من حاجتهم إلى الغذاء؛ فإن الغذاء إذا فقد يفسد الجسم، وبفقد التأله تفسد النفس»(٢).

وقال ابن القيم: «فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب، وغذاء الأرواح، وليس للقلب لذة، ولا نعيم، ولا فلاح، ولا حياة إلا بها.

وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، والأذن إذا فقدت سمعها، والأنف إذا فقد شمه، واللسان إذا فقد نطقه!

بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره، وبارئه، وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح.

وهذا الأمر لا يصدق به إلا مَنْ فيه حياة، وما لجرح بميت إيلام»(٣).

٣ـ تسلي المحب عند المصائب: فالمحب يجد من لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد من مسِّها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ المحب بكثير من المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخليِّ (العاري من المحبة) بحظوظه وشهواته، والذوقُ، والوجدُ شاهد بذلك، والله أعلم(٤).

٤ـ أنها من أعظم ما يحمل على ترك المعاصي: فهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته، ومعاصيه؛ فإن المحب لمن يحب مطيع، وكلما قوي سلطان

(١) القول السديد ص (١١٠).
(٢) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٢٣٠).
(٣) الجواب الكافي ص (٥٤١ ـ ٥٤٢).
(٤) مدارج السالكين (٣/ ٣٨).

المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة، وسلطانها.

وفرقٌ بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حبُّه لسيده. فالمحب الصادق عليه رقيبٌ من محبوبه يرعى قلبَه، وجوارحه.

وعلامة صدق المحبة شهودُ هذا الرقيب ودوامُه.

وهنا لطيفة يجب التنبه لها، وهي: أن المحبة المجردة لا توجب هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه؛ فإذا قارنها الإجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس، وانبساط، وتذكر، واشتياق.

ولهذا يتخلف أثرها وموجبها، ويفتش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم؛ فما عمرَ القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه.

وتلك من أفضل مواهب الله للعبد، أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(١).

٥ـ أنها تقطع الوساوس: فبين المحبة والوساوس تناقض شديد كما بين الذكر والغفلة؛ فعزيمة المحب تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره، وذلك سبب الوساوس.

وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغًا لوسواس الغير؛ لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحبُّ والوسواس؟!

لا كان من لسواك فيه فيها يقسِّم فكره ويوسوس (٢)

٦ـ تمام النعيم، وغاية السرور: فذلك لا يحصل إلا بمحبة الله ـ عز وجل ـ فلا يغني القلب، ولا يسدُّ خلته ولا يشبعُ جوعته إلا محبته، والإقبال عليه ـ عز وجل ـ

---

(١) طريق الهجرتين ص (٤٤٩ ـ ٤٥٠). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٨).

ولو حصل له كل ما يلتذ به لم يأنس ولم يطمئن إلا بمحبة الله ـ عز وجل.

قال ابن القيم: «وأما محبة الرب ـ سبحانه ـ فشأنها غير الشأن؛ فإنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها، وفاطرها، فهو إلهها، ومعبودها، ووليها، ومولاها، وربُّها، ومدبرها، ورازقها، ومميتها، ومحييها؛ فمحبته نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوتُ القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن؛ فليس عند القلوب السليمة، والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذُّ ولا أطيب، ولا أسرُّ، ولا أنعم من محبته، والأنس به، والشوق إلى لقائه.

والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه فوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتمُّ من كل نعيم، واللذة التي تناله أعلى من كل لذة.

إلى أن قال: ووجدانُ هذه الأمور، وذوقها هو بحسب قوة المحبة، وضعفها، وبحسب إدراك جمال المحبوب، والقرب منه.

وكلما كانت المحبة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر كانت الحلاوة، واللذة، والنعيم أقوى.

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف، وفيه أرغب، وله أحب، وإليه أقرب وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يعرف إلا بالذوق والوجْد.

ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدم عليه حُبًا لغيره، ولا أنسا به.

وكلما ازداد له حبًا ازداد له عبودية، وذلاً، وخضوعًا، ورقًا له، وحرية من رق غيره»(١).

صفات المحبوبين لله:

الله ـ عز وجل ـ يُحبُ ويُحَبّ، قال الله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾(٢).

وإليك فيما يلي إجمالاً لبعض صفات الذين خصهم الله بالمحبة:

١ـ التوابون. ٢ـ المتطهرون.

---

(١) إغاثة اللهفان ص (٥٦٧). (٢) المائدة : ٥٤ .

٣ـ المتقون. ٤ـ المحسنون.

٥ـ الصابرون. ٦ـ المتوكلون.

٧ـ المقسطون.

٨ـ الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بينان مرصوص

٩ـ الأذلة على المؤمنين. ١٠ـ الأعزة على الكافرين.

١١ـ المجاهدون في سبيل الله.

١٢ـ الذين لا يخافون في الله لومة لائم.

١٣ـ المتقربون بالنوافل بعد الفرائض.

الأسباب الجالبة لمحبة الله:

١ـ قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به.

٢ـ التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

٣ـ دوام ذكر الله على كل حال باللسان، والقلب، والعمل، والحال.

٤ـ إيثارُ محابِّ الله على محابِّ النفس عند غلبات الهوى.

٥ـ مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها.

٦ـ مشاهدة برِّه، وإحسانه، وآلائه، ونعمه الظاهرة، والباطنة.

٧ـ انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

٨ـ الخلوة بالله وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بآداب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩ـ مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايبُ الثمر، وألا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمْتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

١٠ـ مباعدة كلِّ سببٍ يحول بين القلب، وبين الله عز وجل(١).

اللهم إنا نسألك حبك، وحب من يحبك، وحبَّ العمل الذي يقربنا إلى حبِّك.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ١٨ ـ ١٩).

٢ ـ الخوف من الله

الخوف: تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل.

قال تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** ﴾[(١)].

قال القرطبي: المعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية.

وقال محمد بن علي الترمذي ـ رحـمه الله: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه شهوته.

وفي الحديث القدسـي، قال تعالى: «**وعزتي لا أجـمع على عبـدي خوفين وأمنين، إذا خـافني في الدنيا أمنتـه يوم القـيامـة، وإذا أمنني في الدنيا أخـفتـه يوم القيامة**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليـلا ولبكيتم كثيرا، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين**»[(٣)].

وقال يزيد بن حـوشب محدثًـا: ما رأيت أخوف من الحـسن وعمر بن عـبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما.

وكان عمر بن الخطاب يسأل حذيـفة.. أنشدك الله: هل سماني لك رسول الله ﷺ، يعني في المنافقين؟ فيقول: لا ولا أزكي بعدك أحدًا.

قال يونس بـن عبيـد عن الحسن: مـا رأيت أطول حزنا من الحـسن، وكان يقول: نضحك ولعل الله قد اطلع على أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا.

وهذا عمر بـن الخطاب رضي الله عنه وهو يسير بين الرجاء والخـوف يقول: لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنـة كلكم أجمعون إلا رجلا واحـدًا، لخفت أن أكـون هو، ولو نادى منادٍ: أيهـا الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحدًا لرجوت أن أكون هو.

---

(١) الرحمن :٤٦ .

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٤٠)، والبيهقي في الشعب (٧٧٧)، وحسنه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤ ١٠)، ومسلم (٢٣٥٩)، والخنين: بكاءك صوت فيه غنه.

قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز: يكون في الناس من هو أكثر صوما وصلاة من عمر، وما رأيت أحدا أشد خوفا من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد ثم رفع يديه فلم يزل يبكي حتى يغلبه النوم، ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعًا يديه يبكي حتى تغلبه عيناه.

وحين دخل العلاء بن محمد على عطاء السلمي وقد غشي عليه، فقال لامرأته أم جعفر ما شأن عطاء؟ قالت: سجرت جارتنا التنور، فنظر إليه فخر مغشيًا عليه، ولهذا كان سفيان يبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

العلاقة بين الخوف والمراقبة والمعرفة:

إن قوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع عن المحظورات، ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فكف أيضًا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى.

عن يحيى بن الفضل قال: سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر: أنه بينما هو ذات ليلة قائم يصلي إذ بكى فكثر بكاؤه ففزع له أهله، فسألوه ما الذي أبكاك؟ فاستعجم عليهم، فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم وأخبروه بأمره، فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك قد روعت أهلك؟ قال له: مرت بي آية من كتاب الله عز وجل، قال: ما هي؟ فقال: قول الله عز وجل: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1] قال: فبكى

---

(١) الزمر: ٤٧.

أبو حازم واشتد بكاؤهما، قال: فقال بعض أهله لأبي حازم جئنا بك لتفرج عنه فزدته، قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه، والمسلم في هذه الدنيا بين أمرين يملآن جوانحه ويضفيان عليهما من نبعه ألا وهما: الخوف والرجاء: الخوف من الله، والرجاء فيما عند الله.

قال الحسن: الرجاء والخوف مطيتا المؤمن.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله: إن الخوف إن أدى إلى القنوط واليأس من رحمة الله فهو مذموم، بل إساءة أدبٍ على رحمة الله تعالى، التي سبقت غضبه، وجهل بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الخشية أبدًا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

وعن سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر ماء مبردًا فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية من كتاب الله ـ عز وجل ـ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا، شهوتهم الماء.

وقد قال الله ـ عز وجل ـ عنهم: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾[2].

قال محمد بن واسع: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم.

وها هو الثوري يقول: ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي، لأني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما، فالرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود، فطول الأمل داء عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب، فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء ويئس من برئه الحكماء والعلماء، وما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

---

(١) سبأ: ٥٤.
(٢) الأعراف: ٥٠.

قال أبو بكر المزني: إن استطاع أحدكم ألا يبيت إلا وعهده عند رأسه مكتوب فليفعل، فإنه لا يدري لعله أن يبيت في أهل الدنيا، ويصبح في أهل الآخرة.

يا من بدنياه انشغل وغره طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

قال الفقيه السمرقندي: من عمل الحسنة يحتاج إلى خوف أربعة:

١ـ خوف عدم القبول. ٢ـ خوف الرياء.

٣ـ خوف التسليم والحفظ. ٤ـ خوف الخذلان في الطاعة.

قال سعيد بن المسيب: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت، وقال مكحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

فضيلة الخوف:

وهو من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهو فرض على كل أحد، قال تعالى: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[2].

وعن عائشة $ قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾[3] أهو الذي يزني، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: «**لا، يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، ويخاف ألا يقبل منه**»[4].

قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

وقال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلبا إلا خرب.

---

(١) آل عمران: ١٧٥. (٢) البقرة: ٤٠.

(٣) المؤمنون: ٦٠.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وحسنه الألباني.

الدواء الذي يستجلب به الخوف:

وذلك يحصل بطريقين: أحدهما: أعلى من الآخر. مثاله: أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حيَّة، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها ليلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها هرب الصبي، وخاف مرافقة أبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

إذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة، وزوال الغفلة يحصل بالتذكر والتفكر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله ـ تعالى ـ وهو خوف العلماء العارفين، قال الله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾(١).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دعى رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير أهل الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله. قال: «**أوغير ذلك يا عائشة؟ إن الله عز وجل خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»(٢).

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾(٣)، فإنه علق المغفرة على أربعة شروط يبعد تصحيحها.

ولما حضرت سفيانَ الثوري الوفاةُ جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أراك كثير الذنوب، فرفع شيئا من الأرض، وقال: والله لذنوبي أهون عندي من

---

(١) آل عمران: ٣٠. (٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

(٣) طه: ٨٢.

هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت.

وعن يزيد الرقاشي قال: إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب عز وجل: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب، لو أن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعاما ولا شرابا، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحاري يخورون كما تخور البقر.

علامات الخوف من الله:

١ـ يتبين في لسانه فيمتنع عن الكذب والغيبة.

٢ـ يخاف في أمر قلبه، فيخرج منه العداوة والبغضاء والحسد.

٣ـ يخاف في أمر بطنه فلا يأخذ إلا طيبا حلالا.

٤ـ يخاف في أمر بصره، فلا ينظر إلى الحرام ولا إلى الدنيا.

٥ـ يخاف في أمر قدميه فلا يمشي في معصية.

٦ـ يخاف في أمر يده ، فلا يمدن يده إلى الحرام .

٧ـ أن يكون خائفًا في أمر طاعته فيخلص في الطاعة ويخاف النفاق والرياء، ففعل ذلك يجعله من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣).

---

(١) الزخرف :٣٥ .

٣ـ الدعاء يزيل الهموم

أشعر بوحشة الطريق وجرأة الناقمين، وفتور الناصرين، وضعف الهمة حتى ضاق صدري، وانعقد لساني، وتوقفت جوارحي، وكاد الشيطان يتغلب عليَّ لأبتعد عن المسلك الذي وسع كثيرا من الناس، مسلك الدين القويم، والصراط المستقيم والمحجة الواضحة التي ترك محمد ﷺ الناس عليها، وإنما ذلك لنفرة مما أراه في مسيرة الحياة، حيث يعلو الظلم، ويعمّ الشر ويجاهر الناس بالمنكرات ولا يفاخرون بالصالحات مع أن الأصل القويم ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾[١]، و«**بادروا بالأعمال سبعا...**»[٢] و﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾[٣] ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾[٤] إلى غير ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالخير والنفور بالبعد عن الشر، وكأن أمر الناس القائم اليوم لا صلة له بهذه التعاليم الربانية والأقوال المحمدية ولم أجد ما يطمئن قلبي، ويزيل الهم عن نفسي والغم من قلبي، فهل دواء لهذا الداء حتى نستشعر الطمأنينة في قلوبنا، والسلامة في مسيرنا، والرشاد في تصرفاتنا، والتخلص مما يكبل خطواتنا على الطريق؟

المصارحة بداية التقويم، والصدق في إبداء ما في النفوس علامة الثقة بين الخلان، وإظهار الضيق من المنكرات بداية التغيير، والاقتداء بالمرسلين والصالحين منهجًا يبعث الطمأنينة في القلوب، وإبعاد العنت عن الناس؛ لأن الله ـ سبحانه ـ ما أراد لأحد عنتًا ولا مشقة، ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ....**﴾[٥].

هذا آدم أبو البشر مع زوجه حين ساءهما ظهور سوآتهما بعد ما عصيا أمر ربهما: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٦].

هذا أبو الأنبياء إبراهيم حين ألقى في النار قال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»[٧]

---

(١) البقرة : ١٤٨ .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) ، وقال : «حسن غريب» ، وضعفه الألباني .

(٣) آل عمران : ١٣٣ . (٤) الحديد : ٢١ .

(٥) البقرة : ٢٢٠ . (٦) الأعراف : ٢٣ .

(٧) أخرجه البخاري (٤٥٦٤) .

فجاء الأمر الله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[(١)]، وهذا موسى حين استغاثه الذي من شيعته لنصرته أمام عدوه ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⁽١٥⁾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ...﴾[(٢)].

قال نوح عليه السلام اتجه إلى الله داعيًا: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾[(٣)]، فجاءه نصر الله سريعا بجنود لا قبل لأحد بها: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ⁽١١⁾ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ⁽١٢⁾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ⁽١٣⁾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[(٤)].

وهذا أيوب عليه السلام نزل به البلاء فاتجه إلى الله أن يرفع عنه بلاءه وأن يرزقه العافية في ضراعة ظاهرة، وثقة تامة برحمة الله وعونه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾[(٥)].

وهذا يونس ضاق ذرعا بقومه فغضب منهم وخرج من بينهم يضرب في الأرض بعيدًا، فيركب السفينة ثم يلقى في اليم فيلتقمه الحوت، في هذا الوقت العصيب والسجن الذي لا مثيل له على وجه الأرض والظلمات الدامسة التي يعلو بعضها بعضا يعلو صوت ذي النون: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ⁽٨٧⁾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(٦)].

وهذا زكريا يدعو ربه: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ⁽٨٩⁾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[(٧)] وهكذا كانت هذه القدوات البارزة على طريق الدعوة إلى الله تلتجئ إلى الله بالدعاء والضراعة فينزل الله عليها السكينة فلا تشعر بإيذاء الناس؛ لأن إرضاء الله قوى بصيرتها، وأنار الطريق أمام الناظرين، وهذا محمد ﷺ يبين ذلك بقوله: «**إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي**»[(٨)] لا يبالي المؤمن مما يراه

(١) الأنبياء: ٦٩.
(٢) القصص: ١٥.
(٣) القمر: ١٠.
(٤) القمر: ١٤.
(٥) الأنبيا: ٨٤.
(٦) الأنبياء: ٨٨.
(٧) الأنبياء: ٨٩، ٩٠.
(٨) سبق تخريجه.

ويظل على دعوته إلى الله واستمساكه بنوره فيهتدي، ومما يقرب المؤمن إلى الله أن يطيل الضراعة والدعاء فتلك الصلة بين المؤمن وربه كفيلة أن تبعث الطمأنينة وتزيل الآلام ، فالتجئ يا أخي إلى الله فإنه هو الذي يفرج الكربات، ويزيل ظلام المدلهمات.

وهو الذي يثبت القلوب، ويبعث فيها الصبر والاطمئنان.

وهو الذي ينجي ركاب السفينة حين يحيط بها الموج من كل جانب، وتعلوها ظلمات فوق ظلمات.

وهو المنقذ وهو الناصر المؤيد وهو الذي يخذل الأعداء، ويلقي في قلوبهم الرعب وهو الذي ينصر المستضعفين، فيجعلهم الوارثين في الأرض بالتمكين.

وهو الذي يذل الطغاة المتجبرين ويريهم من بطشه الشديد، واستدراجه المكين ما به يتزلزلون، وعن غطرستهم يتراجعون.

إنه الله العادل الرحيم، ذو القوة المتين، الذي وعد بنصر المظلومين ولو بعد حين.

إنه الله الذي لا يُسدُّ سبيله أمام السالكين إن سدت السبل، ولا يغلق بابه أمام القادمين عليه إن غلقت الأبواب.

إنه الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف عنه السوء.

إنه هو الذي لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، السميع العليم القائل في الكتاب الكريم: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾(١).

لا عجب إذًا أن يتجه الناس إلى الله بالرجاء وأن يجأروا إليه بالدعاء، وأن يتضرعوا بين يديه ـ سبحانه ـ كاشفين عجزهم وذلهم، واحتياجهم إلى الله، وافتقارهم إلى عونه ورضاه، فيمنَّ الله عليهم ويرفع عنهم القهر، ويزيل عنهم الظلم، ويجعلهم أعزة في الأرض بعد ما كانوا فيها أذلاء، يعتدي عليهم الأخساء.

﴿ **قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ**

(١) غافر : ٦٠ .

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾(١).

وقد اعتاد البشر في الأغلب الأعم ـ أن يتقربوا إلى الله في الزلات، وأن يدخلوا في حماه عند الشدائد والنكبات، فإذا ما جاءتهم القوارع كان الدعاء وكانت الضراعة لله أن ينصر المظلومين، ويرفع المستضعفين ويمكن لهم في الأرض، ثم حينما يتحقق لهم الرجاء، ويزيل الله عنهم البلاء تراهم في غيهم يعمهون، وعلى عادتهم الأولى يسيرون.

ولكن بعضا من الناس ليسوا على هذه الوتيرة، إنهم يعرفون الله في الرخاء، ويخافون الله وهم في الخفاء، ويقومون بأمره في السراء والضراء.

ونحن نحدث الناس أجمعين، نكشف منهج الله للغافلين والمستبصرين، ونعلن أن التوبة إلى الله والأوبة يرفع الله بها العذاب، ويزيل عن الناس السوء والعقاب، وذلك قول الله: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾(٢).

خرج قوم يونس إلي الصحراء يعجون إلى الله بالدعاء أن يرفع الله عنهم الكرب والبؤس والعذاب فاستجاب الله دعاءهم، وكشف عنهم عذاب الخزي في الدنيا ومتعهم فيها؛ لأنهم جميعهم عادوا إلى ربهم وصدقوا معه، وأخلصوا له، فنجوا من الشر الذي كان ينتظرهم، ونحن علينا أن نسلك نفس الطريق، أن نلجأ إلى الله وأن نخلص له وحده، وأن نصدق معه في أقوالنا وأعمالنا في سرنا وعلانيتنا، في كل أمر من أمورنا مدركين قول نبينا ﷺ: «**سلوا الله كل شيء حتى الشسع، فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر**»(٣)، ولندرك أن الإجابة محققة، وأن صاحب الدعوة لا يرد خائبا؛ لأنه دعا الله الغني الحميد، القوي المتين، والرسول ﷺ قال: «**ما من مسلم يدعو الله ـ عز وجل ـ بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**» قالوا: إذًا نكثر.

---

(١) الأنعام: ٦٣. (٢) يونس: ٩٨.

(٣) أخرجه أبو يعلى في سنده (٤٥٦٠) عن عائشة $ وقال حسين أسد: إسناده صحيح.

قال: «**الله أكثر**»(١).

وكان الدعاء من نهج المرسلين، ومن أعمال الصالحين الذين يتقربون إلى الله به، ويتوجهون إليه ضارعين أن يرفع عنهم البلاء والشقاء.

نعم أيها الأحباب، كان الدعاء سلاحا لا يضبط ولا يصادر، يقرب العبد من الرب، فيشعر بالأمان ويشعر بالاطمئنان، ويسعد وهو في مناجاة ضارعة للرحمن.

ألم يقل الرسول ﷺ فيما ترويه عائشة رضي الله عنها: «**لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة**»(٢) أي يتصارعان ويتدافعان.

من هنا كان هذا التضرع والدعاء والتذلل والخضوع لله يزيل الكرب ويكشف السوء، وهاك جملة صالحة من مأثور الدعاء.

ثناء على الله وتضرع وتذلل بين يديه:

اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت الله لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم لك الحمد كله لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت ولا مباعد لما قربت، ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك في السماء والأرض اللهم ارحمنا برحمتك، واغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين، وأنت رب المستضعفين وأنت رب العالمين، إنك أنت أحق من ذكر،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، وقال الأرناؤوط: «إسناده جيد».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤٩٨)، والحاكم (١٨١٣)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٣٩).

وأحق من عبد، وأرأف من ملك وأعظم مـن سُئل، وأكرم من أعطى، أنت الملك الذي لا شـريك لـك، والفـرد الذي لا ند لك، كل شيء هـالك إلا وجـهك، القلوب لك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت، والدين ما شرعت.

نِعَمُ الله لا تحصى وحمده لا يحد ولا يعد:

اللهم ربنا ولك الحمد.... حـمدًا كثيرًا طيبًـا مباركًا فيه كمـا ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ملء السـموات وملء الأرض وملء ما بينهـما وملء ما تشـاء من شيء بعـد، اللهم لك الحـمـد خـالدًا مع خلودك، لا منتـهى له دون علمك، ولا أجـر لقـــائله إلا رضــاك، والنظر إلى وجـهك الـكريم، في جنات النعيم، ولك الحمد كما ينبغي لجلالك وجمالك وكلامك، ولك الحمد كما ينبغي لجمـيع أسمائك الحسنى وصـفاتك العلا ما علمنـا منها وما لم نعلم وكمـا ينبغي لوحدانيـتك وإلاهيتك وربوبيـتك ورحمـانيتك، ورحـيميـتك وملكك وملكوتك وأوليتك وآخريتك وظـاهريتك وباطنيتك، ولك الحمد عـدد ما أحاط به علمك، وخط به قلمك وأحصاه كتابك، وبلغ فيه لطفك، وأدركه بصرك ووسعته رحمتك ورضيته نفسك أهل الثناء والمجد، وأحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

اللهم لك الحمد بما خلقـتنا ورزقتنا وكفيتنا وهديتنا وآويتنا ونصـرتنا وسترتنا وفرجت عنا. لك الحـمد بالإيمان، ولك الحمـد بالإسلام، ولك الحمـد بالقرآن، ولك الحمد بالإخوان والأعوان.

لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث، أو سر أو علانية، أو خاصة أو عامـة، أو شاهد أو غائب أو حي أو ميت. لك الحمد، جـمعت فرقتنا وأحسنت مكاناتنا ومن كل ما سألناك ربنا أعطيت، بل أعطيتنا من قبل أن نسأل، والحمد لله الذي يطعم ولا يُطْعَمُ، مَنَّ علينا فهـدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، والحمد لله غير مـودع ربي ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام وسقى من الشراب، وكسا من العرى، وهدى من الضلال، وبصر من العمى، وفـضل على كثير من خلقه تفضـيلاً، الحمد لله رب العالمين.

الالتجاء إلى الله والاعتصام به:

«أعوذ بعـزة الله وعظمتـه، وبعزة الله وقـدرته، وبعزة الله وسلطانـه، وبعزة جلال الله، وبعزة الله من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما تحت الثرى، ومن شر كل دابة ربنا آخذٌ بناصيتها إن ربنا على صراط مستقيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ملجـأ كل هارب، ومأوى كل خائف، لا حـول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، نقى بها أنفسنا وديننا وأهلنا ومالنا وجميع شأننا، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العـظيم ننجوا بها من إبليس وخـيله ورجله وشيـاطينه ومردته وأعوانه وجميع الإنس والجن وشرورهم».

«اللهم لا يهزم جندك، ولا يخلف وعدك، سبـحانك وبحمدك، تحصنت بالله الذي لا إله إلا هو، إلهي وإله كل شيء واعتـصمت بربي ورب كل شيء، وتوكلت على الحي الذي لا يموت، واستدفعت الشـر كله بلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، حسبي الله ونعم والوكيل، حسبي الرب من العبـاد، حسبي الرب من العباد، حسبي الخالق من المخلوقين، حـسبي الرزاق من المرزقين، حسبي الله وكـفى وسمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى، لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

صلوات على النبي محمد ﷺ:

اللهم صلِّ على سيـدنا محمـد وعلى آله وأصحابـه وأزواجه وذرياته، اللهم صل على محمد نور الهدى والقائد المصطفى، اللـهم ارفع درجته، وأكرم مقامه، وثقل ميزانه، وأبلغ حجته وأظهر ملته.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد ﷺ معلم الناس الخير، نبي الرحمة الذي لا نبي بعده، اللهم صل على محمد خير البرية، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا، اللهم أبلغه منا السلام كلما ذكر السلام عليه.

اللهم صلِّ على محـمد ﷺ صلاة تكون له رضا وله جـزاء، ولحقه أداء، وأعطه الوسيلة والـفضيلة والدرجـة الرفيعـة والمقام المحمـود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، اللهم أجـز نبينا عنا بما هو أهله، وأجزه أفضل ما جـزيت نبيا عن قومه، ورسولا على أمته، وصل يـا ربنا على جميع إخوانه من النبيين والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وعنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أحـينا على سنتـه، وتوفنا على ملتـه، واجـعلنا من أهل شـفـاعتـه، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، واسقنا من كأسه غير خزايا ولا نادمين.

اللهم اجعل نبينا لنا فرطا إلى الجنة، واجعل حوضه لنا موعدًا لأولنا وآخرنا، بأبي أنت وأمي يا رسول الله:

آسيت أيتامـا، كفلت أرامـــــلاً   أسعدت محرومًا رحمت العاني
أنقذت مسكينًا، حـميت مشـردًا   أسـعفت مكروبًا هديت الجـاني
إن كان شكرك في لساني ناطقـا   فالحـب قبل ملأ جـنانـــــــي

تنزيه لله واستنجاد به:

سبحان من تعطف بالعز وقال به، سبحان من لبس المجد وتكرم به، سبحان من لا ينبـغي التسـبيح إلا له، سـبحان ذي الـفضل والنعم، سـبحـان ذي المجد والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء علمه.

اللهم أنت التـواب الرحيم لا إله غـيرك، الأول ليس قـبلك شيء، الذي لا يموت، وخالق ما يرى وما لا يرى والآخر ليس بعدك شيء وأنت الحي القيوم، يا إلهي، يا من بيده ناصيتي، يا عليما بضري ومسكنتي، ويا خبيرًا بفقري وفاقتي.

يا سميع الدعاء، يا سابغ النعم، يا دافع النقم يا نُور المتوحشين في الظلم، يا أرحم الراحمين، إليك يا رب نصبت وجهي، ومددت يدي، فـبرحمتك استجب دعائي وبلغـني مناى ولا تقطع رجائي، واكـفني شر أعدائي، اللـهم إني أسألك بأنك أنت الله إله إلا أنت الأحد الصمـد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، أن تزيل كربنا وتكشف السوء عنا، وتأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

لا إله إلا الله العظيم الحلـيم، لا إله إلا الله رب العـرش العظيم، لا إله إلا الله رب السمـوات ورب الأرض ورب العرش الكـريم، لا إله إلا أنت سبـحانك إني كنت من الظالمين، حسـبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجـعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني خيرًا منها.

اللهم رب السـموات السبع ومـا أظللن، ورب الأراضين السبع ومـا أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين.

اللهم إني أسألك عيشة نقية وميتة سوية، ومردًا غير مخزٍ ولا فاضح.

اللهم اجعلني صبورًا، واجعلني شكورًا، واجعلني في عيني صغيرًا وفي أعين الناس كبيرًا.

اللهم إني أسألك أن ترفع ذكري، وتضع وزري، وتُصلح أمري، وتطهر قلبي، وتحصن فرجي، وتنور قلبي، وتغفر لي ذنبي، وأسألك الدرجات العلا من الجنة آمين.

اللهم فارج الهم، وكاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك، وفرج عنا الهم، واكشف عنا السوء والغم.

استسلام لأمر الله وإظهار الافتقار إليه:

اللهم لا حول ولا قوة إلا بك حين نزول ملك الموت لقبض أرواحنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا أدخلنا مع أعمالنا في قبورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا طال في يوم القيامة قيامنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا اشتد في أرض المحشر وقوفنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا تطايرت صحائفنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله إذا ضرب الصراط على الجحيم وسار العبيد والنار تنادي: هل من مزيد؟ ونادى النبيون والملائكة، اللهم سلم، اللهم سلم، اللهم سلم، اللهم يا من وسعت رحمتك كل شيء نسألك أن تتغمدنا بواسع رحمتك، فسبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، وسبحانك وبحمدك على عفوك بعد مقدرتك سبحانك ما أعظمك.

اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي، ويقينا صادقًا حتى أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبت لي، ورضًا بما قسمت لي يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أسألك مسألة المساكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، خضعت لك رقبتي، وفاضت لك عيناي، ونحل لك جسدي، ورغم لك أنفي، اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا، وكن بي رؤوفا

رحيمًا، يا خير المسؤولين، ويـا خير المعطين، يا أرحم الراحمين، اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي.

إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عـصمة أمـري، وأصلح لي دنياي التي فيـها معـاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليهـا معادي، واجعل الحـياة زيادة لي من كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر.

اللهم هذا الدعاء، وعليك الإجابة، وهذا الجـهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

اللهم يا إلهي خيرك على نازل، وشرى إليك صاعد، فكم من ملك كريم قد صعد إليك بعمل قبيح، أنـت مع غنائك تتحبب إلي بالنعم، وأنا مع فقري إليك وفاقتي إليك أتمقت إليك بالمعاصي، وأنت في ذلك تجبرني وتسترني وترزقني.

اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين سلمًا لأوليائك حربا على أعدائك نُحب بحبك من أحبك، ونُعادي بعداوتك من خالفك.

اللهم إني أسألك فعل الخيـرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت بعبادك فتنة فتوفني غير مفتون.

اللهم إني أسـألك حبك، وحب من يحـبك، والعمل الذي يبلغنـي حبك، اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي ومالي وأهلي ومن الماء البارد.

اللهم إني أسـألك من الخير كله عـاجله وآجله ما علمت منـه وما لم أعلم، وأعـوذ بك من الشر كله عـاجله وآجله مـا علمت منه ومـا لم أعلم، اللهم إني أسألك من خـير ما سـألك عبدك ونبـيك، وأعوذ بك من شـر ما عاذ به عـبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليـها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قـرب إليها من قول أو عـمل، وأسألك أن تجعل كل قـضاء قضيـته لي خيرًا.

اللهم اقسم لنا من خشـيتك ما تحول به بيننا وبين معاصـيك ومن طاعتك ما

تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا.

اللهم ! إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها. وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

اللهم أرنا في اليهود وأعوانهم، والصليبيين وأنصارهم، والشيوعيين وأشياعهم، والمتآمرين على دينك وأصحابهم، والظالمين وأنصارهم عجائب قدرتك.

اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك. أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي.

اللهم إني أعوذ بك من الطعن والطاعون والوباء وعظيم البلاء، في النفس والأهل والولد.

اللهم كما بعثت فينا نبيك محمدًا ﷺ فاعمر لنا منازلنا ولا تؤاخذنا بسوء فعلنا، ولا تهلكنا بخطايانا يا أرحم الراحمين.

اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك.

رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسر الهدى لي. وانصرني على من بغى عليّ، رب اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطواعًا لك مخبتًا، إليك أواها منيبا. رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري.

اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان.

٤ ـ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر

«**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» ليس مجرد مقولة شائعة، ولكنه حديث صحيح رواه مسلم والترمذي وابن ماجه، وغيرهم[(١)]. والكلام يدور بيننا في فهمه لا في نصه، إذ النص مسلم به مقبول، وأما الفهم المتبادر منه سواء وافق الواقع عند الأكثرين أو خالفه وناقضه عند الأقلين، فإنه مجال حديثنا، ومحور الحوار بيننا، وخير لنا أن نسترشد بفهم الأولين لهذا الحديث، فلعل ذلك يكفي مطلبنا ويروي غلتنا.

قال ابن المبارك: إن الحسن يقول: قال النبي ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فالمؤمن يتزود، والكافر يتمتع، والله إنْ أصبح فيها مؤمن إلا حزينا. وكيف لا يحزن من جاءه عن الله أنه وارد جهنم، ولم يأته أنه صادر عنها؟ هذا تفسير وبيان لمعنى الحديث.

وتفسير آخر جاء على لسان الحافظ ابن حجر قاضي القضاء في قصة لطيفة حدثت له، ذكرها الإمام المناوي في فيض القدير قال: لما كان قاضي القضاة الحافظ ابن حجر يمر بالسوق يوما في موكب عظيم وهيئة جميلة، هجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار، وأثوابه ملطخة بالزيت وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته، وقال: يا شيخ الإسلام، تزعم أن نبيكم قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. فأي سجن أنت فيه؟ وأي جنة أنا فيها؟

فقال (ابن حجر): أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في سجن، وأنت بالنسبة لما أعِدَّ لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة.

فالكافر لا يفكر في آخرة، ولا يخشى عاقبة فينطلق من كل قيد، والمؤمن يفكر في الآخرة، ويخشى العاقبة فيخاف سوء المصير، فلا تكون حياته إلا منضبطة بضابط الأوامر والنواهي.

وهو يشعر أن هذا الانضباط طريق يصل منه إلى الجنة المرجوّة عند الله في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وابن ماجه (٤١١٣).

الآخرة، فكأنما هو في سجن في الدنيا بالنسبة لما أعد له هناك من جنات النعيم في الآخرة، وأما الكافر مهما سفلت حياته في الدنيا فإن حياة الآخرة أشق ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾(١) وفي آية أخرى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾(٢) هذا بالنسبة لما هو عليه في الدنيا.

وأزيد الأمر وضوحا في ضوء الفهمين السابقين للحديث فأقول: الدنيا مرتع الكافر، لأنه لا ضابط يحده، ولا نظام يمنعه من أن يتعدى الحدود، ويتجاوز ما لا ينبغي له تجاوزه، فما دام بعيدا عن رقابة الناس فهو يفعل ما يشاء متى شاء يريد أن يحصل لنفسه كل لذة، وكل متعة قبل أن يأتيه الموت، وهو يظن أن الموت نهاية، فلا بعث في يقينه ولا حساب، ولا جزاء ولا عقاب، ولذا قال الله ـ سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٣).

والدنيا سجن المؤمن بمعنى أنه يعيش وفق ضوابط وأوامر أنزلها الله سبحانه، وأمر بها وبينها رسوله ﷺ، فهي تمنعه من أن يضل أو يضل أو يذل أو يُذل أو يظلم أو يُظلم، أو يجهل على الناس أو يجهل عليه الناس، ضوابط تبين له واجبه نحو ربه، ونحو الخلق أجمعين، القريبين منهم والبعيدين، تبين له صلته بالخالق، وصلته بالكون من حوله، تكشف له مستقبله بعد الموت، وتوضح له الطريق الذي يسلكه في الحياة، ليفوز عند الحساب، ويأمن العقاب وينال الأجر من الله والثواب.

وهذه الأوامر الكاشفة، والبينة الواضحة تجعل طريق الحياة نورا، وضياء لا يضل فيه المؤمنون، ولا يبغونها عوجا كالكافرين، وتلك هي الحياة الحقة حياة الخير والحق والجمال، حياة لا غموض فيها، ولا شك يحتويها، ولا بهتان أو زور يكتنفها ويغطيها واقرأ ـ إن شئت ـ قول الله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

إنها ليست سجنا للمؤمنين بالمعنى الذي يفهمه عامة الناس بل هي مقدمة

---

(١) الزمر: ٢٦. (٢) فصلت: ١٦.
(٣) محمد: ١٢. (٤) الأنعام: ١٢٢.

عندهم لجنات النعيم وهم في دنياهم يسعدون فيها باتباع منهج رب العالمين، فلا يعرفون الضلال، ولا يصل إليهم الشقاء، تطمئن نفوسهم بذكر الله ويعيشون حياتهم في رحابة الدين، تتسع أمامهم آفاق الأرض والسماء، ينظرون فيها ويقولون واثقين مطمئنين: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[(١)].

يرتكنون في الحياة إلى جذور عميقة في تاريخ الإنسانية منذ دعا الأنبياء إلى عبادة الله الواحد القهار، فالمؤمنون من أتباع محمد ﷺ، يدركون أنهم سائرون في طريق المرسلين والشهداء والصالحين، والأنبياء والصديقين ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾[(٢)]، ثم تتسع أمامهم آفاق الطريق ورحابة الحياة وهم يدركون أن الدنيا مقدمة للآخرة، وأن الخلود في النعيم، بعد الموت والبعث والحساب والجزاء ـ لا نهاية له ـ تكريما من الله لهم، ومنة من منه العديدة ونعمه العظيمة عليهم، فكيف تكون الحياة لهم سجنا... وكيف يكونون فيها مسجونين بحسب أنهم إن ضاقوا بأمر فوق طاقتهم صبروا، وإن جاءتهم النعماء لم يبطروا بل هم مسجونون بحسب فهم الناس لمعنى الحديث؟ إنهم إن ضاقوا بأمر فوق طاقتهم صبروا، وإن جاءتهم النعماء لم يبطروا بل هم يشكرون، ولذا فأمرهم كله لهم خير... فلا يأس ولا قنوط ولا فرح ولا بطر، بل صراط مستقيم فيه يسيرون، ومن نور القرآن لحياتهم يستمدون: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾[(٣)].

وهل تتفق روح الحياة ونور الهداية مع السجن؟!

وإذا كان الكفار يبغونها عوجا، ويعبون من اللذات عبًا، لا يتحرون حلالا ولا حراما، وإنما هي الشهوات تحركهم والأهواء ترغبهم فيعملون ما يشتهون، ويظنون أنهم طلقاء، فسوف ينالون الجزاء: ﴿**يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾[(٤)].

---

(١) آل عمران: ١٩١. (٢) البقرة: ٢٨٥.
(٣) الشورى: ٥٢. (٤) الحج: ١٩ ـ ٢٢.

وهم يرون هذا الجزاء بعيدا، والله ـ سبحانه ـ يقرر أنه قريب ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾(١) ،فهم في غيهم يعمهون وفي ضلالهم يرتعون، دون أن يعرفوا طعم الحياة الطيبة التي يعرفها المؤمنون ـ حتى وإن عاشوا فقراء في المادة فهم أغنياء بالشعور والإحساس والاطمئنان لوعد الله والثقة فيما أخبر به، فيعملون الصالحات ويكونون وقافين عند حدود الله، فتطيب لهم الحياة، فيسعدون، وإن ظن الجاهلون أنهم متعبون مكدودون:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٢).

وإحساس المؤمن أنه في غنى عما في أيدي الناس، وأنه يتجه بالسؤال إلى الله، وشعوره بأن الله يغنيه عن الخلق وعما عندهم، فيوجد في قلبه إحساسا وشعوراً بالرضا والسكينة؛ لأنه طهر قلبه من الأحقاد والضغائن، وارتفع فوق السفاسف والصغائر، وعلم أن الإيمان جوهرة في القلب تزيح عنه الهموم، وتكشف من طريقه الغيوم، فيحيا القلب بالذكر، وقوة الحق، والإرادة والهمة في الأخذ بتعاليم هذا الدين إيجابا بعمل الصالحات وسلبا بترك الذنوب والسيئات، فيتطهر القلب، وتحيا النفس، ويستقر الفؤاد فلا يتزعزع ولا ينحرف ولا يعوج؛ لأن نور البصيرة غلب عليه فأزال عنه الغش، وأبعد عنه الضباب ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٣).

وقلوب المؤمنين ـ بفضل الله ـ لا تعرف العمى فهي تعيش في نور الحق، تتقوى بضياء الإيمان ومعرفة الرحمن، فهي في حياة طيبة دائمة، لا تعرف موت القلب، فموت القلب يحذر منه المؤمنون أشد الحذر، وقد يقبلون على موت الجسد بمحاولة الاستشهاد، ولكنهم يفرون من كل ما يؤدي إلى موت القلب فرارهم من الأسود المفترسة. ولكن أيموت قلب شهد أن لا إله إلا الله، وعلم أن الله قاهر فوق عباده؟ أيموت قلب أدرك أن الكون والحياة ملك لله؟ أيموت قلب نقش فيه حب الله وسطرت تعاليمه فلا يزال صاحبه يذكر الله باللسان أو بالفعال؟

---

(١) المعارج :٦ . (٢) النحل: ٩٧.

(٣) الحج :٤٦ .

أيموت قلب أدرك أن الله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم؟ أيموت قلب عرف الله وأحبه فأحبه الله ووفقه «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها....**»[١]؟!.

حياة القلوب بمعرفة الله وذكره، تؤدي إلى الطمأنينة في الدنيا والسعادة في الآخرة: ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٢]، ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾[٣].

وحين يصل المسلم إلى هذه المرحلة فإن الفتنة لا تضره، وواقع الناس لا يغرّه؛ لأن في صدره من قوة الإيمان واليقين ما يرد عادية الفتن، وفي عمله وسلوكه ما يجعله مطمئنا لوعد الله، لأنه يدرك أن الفتنة امتحان وبلاء وسنة من سنن الله في خلقه، ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾[٤] ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾[٥].

ولسنا ننكر ـ مع هذا كله ـ القوة المادية العلمية لغير المسلمين في عصرنا هذا، وأنها قد تكون بالنسبة لبعض المسلمين بابا من أبواب الفتنة.

وواجب المسلمين أجمعين والقادرين منهم على وجه الخصوص أن يوجهوا الأمة إلى الأخذ بالأساليب العلمية والإدارية النافعة للأمة من أي جهة شرقية أو غربية، ولو تضافرت جهود الكتاب وأرباب الأقلام على بيان أهمية هذا الأمر ونادت به في محافلها وندواتها وكتبت به في صحفها، وساعدت في بث الفهم الصحيح الذي يدفع الأمة نحو الرقي، وتركت مهاجمة الإسلام والمسلمين، لعد هذا الصنيع لهم، ولكانوا ممن يسعى لسد باب هذه الفتنة.

وعلى العموم، فإن الحديث عن جنة الكافر بالمعنى الذي ذكرناه، وسجن المؤمن بالمعنى الذي ذكرناه كذلك لا يمنع المؤمنين من أخذ أبواب التقدم والرقي من أي جهة، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) المطففين: ٢٦.

(٤) الأنفال: ٤٢.

(٥) العنكبوت: ٢.

٥ـ الحرص النافع والحرص الفاجع

أنواع الحرص:

الحرص على ملذات الدنيا وشهواتها من أكبر أسباب ترك المعروف ومقارفة المنكر؛ لأن المرء يحرص على تحقيق لذته من أي طريق، لا يبالي في ذلك بحرام أو حلال؛ لأن دافعه هو الحرص على تحقيق اللذة وحدها، ولو أنه تأمل أن الشهوات والملذات غير المنضبطة بضوابط الشريعة إنما تورد صاحبها موارد التهلكة؛ لأنه يبغي ويجور، ويظلم ويعتدي، ليحقق عرضا من أعراض الحياة، حينا من الدهر، ثم يبقى له بعد ذلك الندم والخسران على ما فرط في جنب الله، وفي حق نفسه، إلى أن يلقى الله فلا يجد غير ما قدمت يداه.

ومتاع الحياة قليل نعم، ولكن لا غنى عنه، وهو يتمثل في أمور تميل لها الفطرة البشرية، وقد بينتها الآية القرآنية: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾(١)، فمتاع الحياة الذي بيّنته الآية لا يمكن الاستغناء عنه، ولو تصورنا ذلك حادثا فكيف يمكن تصور الحياة.

والسائر في أي طريق يتبع بدقة اللوحات الإرشادية التي يضعها المشرفون على الطريق، يفعل ذلك وفي يقينه أنه ناج بهذا الاتباع، وأنه إن خالف عن التعاليم، قد يضل أو يتعرض لأخطار هو في غنى عنها، وليس ذلك بمانع له من أن يتزود بحاجته من أي مكان يمر عليه ويأخذ منه ما يريد.

وطريق الحياة مثل غيره، لابد فيه من لوحات وعلامات إرشادية تتبع وإلا ضاع فيها الإنسان، والله ـ سبحانه ـ واهب الحياة تفضل علينا بمنّه وكرمه، فأرسل لنا رسولا وحفظ لنا كتابا، وحدّ لنا حدودا، وحرم أشياء وأحل أخرى، وسكت عن أشياء رحمة بنا من غير نسيان، فإن لم نتبع أوامره، ونَسرْ على منهجه، ونأخذ كتابه بقوة ضللنا طريقنا، وحاقت بنا الأخطار في الدنيا والآخرة.

---

(١) آل عمران: ١٤.

ومتـاع الحياة الذي ذكرته الآية ضـروري لاستكمال طريق الحيـاة ما في ذلك شك، ولكن تحصـيله مقـيد غيـر مطلق، مقـيد بأن يؤخذ من الحـلال وينفق في الحلال بغير إسراف، وأن يعطي صاحبه حق الله فـيه كما في الأموال، ومقيد في النساء بقـول الرسول الله ﷺ: «**وإنكم اسـتحللتم فـروجهن بكلمـات الله**»[١]، ومقيد في الأولاد بالرعاية والتربية وضـرب الأسوة لهم والقدوة الصالحة أمامهم، فإذا حـرص الإنسان على تحقـيق متاع الحـياة دون خروج عن هذه الضـوابط فإنه بذلك لم يحد، ولم ينحرف ولم يرتكب منكرا ولم يفارق معروفا.

الحرص الفاجع:

وأما الذي يحرص على تحـقيق هذا المتاع بعيدا عن هذه الضوابط الـشرعية، جاعلا الدين خلف ظهره، والدنيـا أكبر همه، وتحصيل ملذاتها غايتـه، فإنه بغير شك واقع في المخالفات، لا يـلبث يسيرا على ذلك حتى يحـيد وينحرف ويضل ضلالاً بعـيدا، فالدين هو العـاصم وإنما يحقق المرء الشـرف لنفسه باتبـاع تعاليم الدين، وبغيـر هذه التعالـيم لا يتم تحصيل شـرف حقيـقي، ولا يكون ما حقـقه الإنسان مما يظن فيه الشرف إلا فسادا كبيرا وضلالا مبينا، فالشرف لا يتم عن غير طريق الدين إلا بالمكر والغش والزور والبهتـان والنفاق والرياء، وكلها أثواب بالية سرعان ما تزول عن المتسربل بهـا فتظهر عوراته وتنكشف ـ أمام الناس ـ سوْءاته، فيلعنه يومئذ اللاعنون، وينصرف عنه المحـبون المؤيدون؛ لأن زيفه ظهر، وخداعه ما استـتر، ولربما طال هذا الفساد، ولم يبـد أمام الناس ولكنه حتمـا سينكشف، وسيزول الزيف وتظهر الحقيقة.

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفـى على الناس تُعلَم

وسواء انكشف أمره في الدنيا أم لم ينكشف فإن فساد أمره باقٍ، وابتعاده عن دينه هو سبب الضلال والانحراف، ومن هنا كان قول الرسول ﷺ الذي يحمل التحـذير من الوقوع في هذا الخطأ بضـرب مثل تشبـيهي توضيـحي يقرب المعنى ويوضح ما يلحق بالناس من أضرار إن هم أرادوا تحـقيق مكاسب مادية أو معنوية

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

عن غير طريق الدين، يقول ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١)، وما أراك تجهل مصير قطيع من الغنم ينقض عليه ذئبان جائعان، أي فساد يلحق بهذا القطيع من قتل وتمزيق وجراح وخوف وفزع وتبعثر وتشتت؟ وكذاك يكون الدين إن حرص صاحبه على تحقيق المكاسب المادية والمعنوية (المال والشرف) إن لم يلتزم في تحقيقهما طريق الدين وسبيل المؤمنين.

فالحرص على المال ـ إن كان من طريق مباح ـ يجعل المرء منشغلا بهذا الطريق الذي لا نهاية له، فحب المال فطرة في النفوس لا تشبع من جمعه، هكذا شاء الله وأخبر بذلك رسوله ﷺ حين قال: «**لوكان لابن آدم من واد مال لابتغى ثانيا، ولو كان له ثان لابتغى ثالثا، ولا يملؤ عين ابن آدم إلا التراب**»(٢) فالمنشغل بجمع المال منشغل بأمر لا يفرغ وعمل لا ينتهي، ولن يكون انشغاله إلا على حساب تضييع أمور أمر بها الدين، من صدقة وسماحة حتى في البيع والشراء والاقتضاء، وإنظار المعسرين، ووضع بعض الدين عن المدينين. إلى غير ذلك مما يلغيه حرص المرء على ماله فيضيع منه ثواب عظيم، وربما ارتكب آثاما غير قليلة، فلا ود له بين الناس ولا محبة؛ لأنه لا يألف ولا يؤلف، ومن قديم عبر عن ذلك شاعر جاهلي بقوله:

ومَنْ يكُ ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يُستَغْنَ عنه وينمم

والإنسان الذي جعل حياته كلها حرصا على الجمع والتكديس للأموال هل ضمن أياما ينفق فيها ماله، أم أنه يجمع وكفى، فصار جمع المال هدفه، وتكديسه غايته؟ إن سعيه ـ في هذه الحالة ـ باطل، وجهده غير مشكور، بل هو جهد منكور وقديما قيل لأحد الحكماء: إن فلانا جمع مالا. فقال: فهل جمع أياما ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال الحكيم: ما جمع شيئا.

الحرص والبذل:

كان عبد الواحد بن زيد يقول: الحرص حرصان: حرص فاجع وحرص نافع.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وأحمد (٣/٤٥٦)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٨).

فأمـا الحرص النافع فهـو الحرص على أمور الدين، واتـباع طريق المرسلين، والسير في سبيل الصالحين المتقين، الذين جعل الله من أولى صفاتهم، إنفاقهم في السراء والضراء، فقال ـ سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾(١).

وجعل الله من أهل البر والخير فئـة من الناس تعطي المال للأقارب والمستضعفين فقال ـ سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٢).

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ...﴾(٣) الآية.

وهل يتفـق الحرص مع الحث القوي عـلى بذل المال في نفع المسلمين وإعطاء البائسين؟! إن الحـرص على المال ـ فساد لـدين المرء لا لأن المال في ذاته حرام أو مكروه، ولكن الحرص والشره للمال هو الذي يحول سلوك المرء إلى أمر محرم أو على الأقل مكروه، ومن هنا يكون الفـساد الذي ينمو بنمـو الحرص.. ولا يقف عند حد مـحدود، ثم ما يلبث صاحـبه أن يحمل إثمـه على ظهره يلقى به ربه ـ ويترك من خلفه ـ ماله يضيعه الورثة بعد ما نالوه غنيمة باردة من حريص ذميم.

يا جـامع المال أيامـا تفـرقـه — جمعت مالا ففكر هل جمعت له
مـا المال مـالـك إلا يوم تنفـقـه — المال عنـدك مـخـزون لوارثـه

عاقبة الحرص الفاجع:

ونأتي إلى الحرص الفاجع، الذي ينكب به صاحبـه جماع الأموال، حيث لا يبالي من أين جمع؟ ولا فيم أنفق؟ فالمال محور حـياته؛ حيثما وجد هذا المال من حلال كان أم حرام لا يحقق من أين اكتسبه؟ ولا يفكر فيم ينفقه؟ والذين ينشرون بين الناس المخدرات فيجـمدون العقول، ويسممون الأجـساد، وقد ينشرون ـ مع ذلك ـ الفاحشـة حيث لا شرف ولا فضيلة، ولا ابتعـاد في حياتهم عن الرذيلة،

(١) آل عمران: ١٣٣.
(٢، ٣) البقرة: ١٧٧.

فأي طريق يأتي منه المال فهو طريقهم، وطريق الإنفاق الحلال لا يعرفونه، وطريق الإنفاق الحرام لا يجهلونه، فقد يأتيهم المال من حرام ثم يكون إنفاقه ـ إن أنفق ـ في الحرام، فيحصدون آثاما ويجنون ـ يوم يجنون ـ علقما وحطاما.

وأي شر في جانب المال أعظم من قول الرسول الكريم ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر ؆: «**اتق الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»(١)، ولحرصهم على المال، وبخلهم به قطعوا الصلات وفجروا في الأرض فـفسد حالهم، وساء مصيرهم، هذا فساد الحرص على المال أو قل ـ وأنت صادق ـ بعض فساده، فأما فساد الدين بالحرص على الشرف والمكانة المعنوية بين الناس فأمره أوضح؛ إذ قد يتخذ الإنسان السلطان والمال والجاه وسائل لتحقيق هذه المكانة، وقد يكون في اتخاذه لهذه الوسائل محقا، وقد يكون على الباطل.

وكلما ازداد حرصه على تحقيق الشرف والمكانة بين الناس لم يبال في سبيل ذلك بالوسائل المشروعة، فالحرص يدفعه إلى تحقيق غايته دون النظر إلى سلامة وصحة وسيلته، فيندفع في طريق بعيد عن الدين فيفسد ويهلك، ولا يوفقه الله ليكون مع الصالحين في جنات النعيم: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٢).

وكان يزيد بن عبد الله يقول: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها» أي لم يلتزم طريق الحق دائما في الوصول إلى غايته وتحقيق رغباته، فهو لا يرى غير غايته التي سيكسب من ورائها جاها وشهرة، وفي سبيلها يضحي بكل ما يستطيع ولو كان ذلك على حساب الدين واليقين، ولذا تكون فجيعة العاقبة خزيا وخذلانا وحسرة وندامة، وهذه إحدى غايات الشرف التي يحرص كثير من الناس على تحقيقها، وهي الإمارة فلينظر كيف بين رسول الله ﷺ عاقبة الوصول إليها. قال ﷺ: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة**»(٣)، فالإمارة في الدنيا يتحلب لها

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).
(٢) القصص: ٨٣.
(٣) أخرجه البخاري (٧١٤٨).

لُعاب كثير من الناس طمعا في الشهرة والمجد والصيت العريض، فهم ينعمون بخيراتها في الدنيا كما ينعم الطفل بالرضاعة من أمه، ولكن مصير هؤلاء المنعَّمين حين يأتي فطامهم، ويحين حسابهم، والندم والخزي إن لم يأخذوها بحقها «**فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة**».

ومثل هذه الولاية والإمارة لا تزيد في عز الإنسان، وإن ازدهت مناظره، ولمعت أمام العيون مظاهره، فإن ذل المعصية يجعل قلبه مكبوتا، وعضده مفتوتا، وقد وصف الحسن البصري أمثال هؤلاء من قديم فقال: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية في رقابهم» فأين من رقابهم يفرون، وكيف من ذلهم يتطهرون؟

وأشد ضررا من هؤلاء، وأعظم ذنبا مَنْ اتخذ دينه مطية لبلوغ الشرف والرفعة في الدنيا، ينافق به، يجعله في خدمة هواه وخدمة أسياده من ولاة السوء، يصلح الدين عنده لكل أمر، ويوافق كل حال يرضي عنها السلطان، فإن غضب السلطان بعد الرضا فالدين ـ عند هؤلاء ـ محرم، يحلون منه ما يشاؤون ويحرمون وقتما يريدون، فيبيعون دينهم بثمن بخس ومتاع قليل، وربما باعوا دينهم بدنيا غيرهم فخسروا في الدنيا وفي الآخرة.

وقد لا يفعل العلماء ذلك وإنما يريدون أن يحققوا مكانة بين الناس وأن يشار إليهم بالبنان فهم العلماء والناس جهال، وهم العارفون والناس على ضلال، ومثل هذا الإحساس عند العلماء قتال، يحبط الله به الأعمال، فيكون الخسران، ولذا كان الحسن البصري يحذر: لا يكن حظ أحدكم من عمله أن يقول الناس عنه: عالم.

ونصح السرى السقطي الجنيد فقال: «أخشى أن يكون حظك من الدنيا لسانك»، وكل هذه أدواء وأمراض يبتلى بها الإنسان في الحياة: ﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(١).

---

(١) الأنفال: ٤٣.

٦ـ البكاء من خشية الله

الطاعة توجب القرب من الله ـ سبحانه وتعالى، وكلما ازداد القرب من الله قوي الأنس به، والعكس صحيح.. فالمعصية توجب البعد عنه سبحانه وتعالى، وكلما ازداد البعد عن الله قويت الوحشة. هذه الكلمات هي مجمل الإجابة على أسئلة الكثيرين:

لماذا نشعر بقسوة ووحشة في قلوبنا؟ لماذا نشعر أننا بعيدون عن الله عز وجل؟

لماذا لا نستشعر حلاوة الإيمان؟ لماذا جفت أعيننا عن البكاء من خشية الله؟

لماذا تمر علينا العبر والعظات وعيوننا جامدة كأننا جمادات وأحجار؟

هذه الكلمات هي مجمل الإجابة..

والإجمال يحتاج إلى تفصيل، فقف معي على تفصيل حول عبادة من أجل العبادات، عبادة حرم منها الكثيرون، وغفل عنها الكثيرون إلا من رحم الله، عبادة لو علم الخلق فضلها لما كان حالهم كما ترى.

إنها عبادة البكاء من خشية الله ـ عز وجل، وما أعظمها من عبادة! نقف وقفات مع هذه العبادة العظيمة، وقفة، نعلم فيها فضل البكاء من خشية الله وثمراته.

ووقفة أخرى نعلم فيها سبب جفاف أعيننا عن البكاء من خشية الله.

فضل البكاء من خشية الله وثمراته:

١ـ البكاؤون من خشية الله يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: قال رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم: «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[(١)]، فيوم يشتد الكرب على الخلق، وتدنو الشمس من الرؤوس، ويغرق الناس في عرقهم، يكون الباكون من خشية الله ضمن سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

٢ـ لا يدخلون النار، ولا تمسهم: قال رسول الله ﷺ: «**لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرْع**»(١). فكما أن رجوع اللبن في الضرع بعد حلبه أمر يستحيل وقوعه فكذلك دخول الباكين من خشية الله النار أمر يستحيل وقوعه. قال رسول الله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار...**»، وذكر منهما: «**عين بكت من خشية الله**»(٢).

٣ـ البكاؤون من خشية الله يفوزون بحب الله تعالى لهم: قال رسول الله ﷺ: «**ليس شيء أحب إلى الله ـ تعالى ـ من قطرتين وأثرين....**»، وذكر من القطرتين: «**قطرة دموع من خشية الله تعالى**»(٣). فاللهم ارزقنا حبك ولا تحرمنا فنكون من الخاسرين.

٤ـ البكاؤون خشية لله يفوزون بشجرة طوبى في الجنة: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته**»(٤)، وقد وصف النبي ﷺ شجرة طوبى فقال: «**شجرة في الجنة مسيرة مئة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»(٥).

٥ـ البكاؤون خشية لله يفوزون بطاعة النبي ﷺ في أمره بالبكاء: سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما النجاة؟ قال ﷺ: «**أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك**»(٦). فمن امتثل هذا الأمر فاز بشرف طاعة النبي ﷺ.

٦ـ البكاؤون يحظون بالاقتداء بالأنبياء الذين أنعم الله عليهم: قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٣)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٣١٠٧)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه الترمذي (١٦٣٩) وقال: حسن، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي (١٦٦٩)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢٣٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٥٢): «رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وحسن إسناده»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٢٩).
(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٧١)، وضعفه الأرناؤوط.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وقال: «حسن»، وصححه الألباني.

وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾(١). تتلا عليهم آيات الله، فتلقى الآيات قلوب أفضل البشر، تخر القلوب ساجدة، ثم تهوى الأبدان، وتلامس الهامات الثرى.. وتسيل دموع الشوق والمحبة والإجلال.. ودموع الخوف والخشية.. فاللهم ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾(٢).

٧ـ يزيدهم الله إيمانا: فمعتقد أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والبكاء من خشية الله من أشرف الطاعات وأحبها إلى الله ولها أثرها البين في زيادة الإيمان.

٨ ـ البكاؤون يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون ويجعل لهم مخرجًا من كل ضيق: قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾(٣).

٩ـ البكاؤون يجعل الله لهم من أمرهم يسرًا: قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾(٤).

١٠ـ البكاؤن يتذكرون بكاءهم في الدنيا وخوفهم من ربهم ـ عز وجل ـ بعد دخولهم الجنة: فما أعظمها من لذة وما أجمله من موقف ذلك الذي حكاه الله عنهم، قال تعالى: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ . فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ . إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾(٥).

سبب جفاف العين عن البكاء:

بعد أن وقفنا على فضل البكاء من خشية الله، لماذا نجد عيوننا جامدة، وكأن الموعظة لم تؤثر فيها إلا من رحم الله؟

إنه الداء العضال عباد الله.. الداء الذي يستحق المصاب به أن يعاقبه الله في الدنيا والآخرة.. إنه داء المعصية، فالمعصية حائل بين العين وبين البكاء، فمن آثار المعاصي والذنوب:

---

(١) مريم: ٥٨ .
(٢) الفاتحة: ٦ ، ٧.
(٣) الطلاق: ٢، ٣ .
(٤) الطلاق : ٤ .
(٥) الطور : ٢٥ ـ ٢٨ .

١ـ الوحشة التي يجدها العاصي في قلبه.. يجد وحشة بينه وبين الله..، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة..، والله إنها لوحشة لو اجتمعت لها لذات الدنيا بأسرها ما حركت منها شيئًا.. نسأل الله العافية.

٢ـ الظلمة التي يجدها العاصي في قلبه.. وهذه الظلمة ليست مجازًا أو تشبيهًا.. إنها ظلمة حقيقية يحس بها العاصي كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم.. فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة..

وتقوى هذه الظلمة في القلب حتى تظهر على العين..

فإذا ظهرت على العين جف الدمع، وقست العين..

ثم تقوى هذه الظلمة حتى تعلو الوجه وتصير سوادًا يراه الناس..

فما أقبح المعاصي وأدنسها!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، وضيقًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق».

٣ـ وهن القلب ومرضه، فيصير القلب مريضًا ضعيفًا، ولكن المعصية لا تتوقف توهن القلب أكثر وأكثر، وتمرضه أكثر وأكثر حتى يموت القلب، فيصبح ميتًا أسود مربادا نعوذ بالله من ذلك.

٤ـ تطبع على قلب صاحبها حتى يصير من الغافلين، فقد قال تعالى: ﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾(١)، فالقلب يصدأ من المعصية كما يصدأ الحديد والنحاس، فإذا زادت المعصية غلب الصدأ.. ويزيد الصدأ ويزيد حتى يصير رانًا.. ثم يغلب حتى يصير قفلاً على القلب.. قال تعالى: ﴿**أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾(٢) فيصير القلب في غشاوة، فيتولاه الشيطان ويسوقه حيث أراد.

وللمعاصي آثار أخرى في الدنيا والآخرة ينبغي لطالب النجاة أن يقف عليها ويتأملها حتى يكون منها على حذر.

---

(١) المطففين: ١٤. (٢) محمد: ٢٤.

السبل الميسرة للبكاء من خشية الله ـ عز وجل:

ما أشد قسوة قلوبنا ما أضعفنا في طريق السالكين إلا من رحم الله، لقد كان السلف يبكون من خشية الله، وتفيض أعينهم من الدمع، شوقًا له وحبًا دون أن يحصوا الأسباب الميسرة للبكاء من خشية الله، أو يرمقوها، ويحفظوها..

كانت أنهار الدموع المخلصة لا تتوقف من مآقيهم، استشعروا حلاوة الإيمان، وذاقوها، واستمتعوا بالبكاء من خشية الله دون أن يحصوا سبله؛ لأنهم طهرت قلوبهم فتفضل المنان عليهم وفتح عليهم من أبواب بركته وفضله، نسأل الله أن يفتح علينا.

يقول أحد السلف: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها» يقصد حلاوة الإيمان..

وآخر يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف»، لكن حال المرضى أمثالنا ـ إلا من رحم الله ـ أن يبحثوا عن الأسباب المعينة والجالبة للبكاء من خشية الله، يبحثوا عن الدواء بعد أن ملأ الداء القلب واستشرى في البدن.

ولا يكفي علم هذه السبل دون العمل بها، فعلمها دون العمل بها قد يستوي فيه البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا تقرأ هذه السبل إن كنت تنوي غير العمل بها، فقد كان سفيان الثوري يقول: «قالت لي والدتي: يا بني، لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة». فهيا واستعن بالله تعالى.

١ـ الإخلاص لله عز وجل في الرغبة في البكاء: قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾(١). وقال رسول الله ﷺ: «**ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب**»(٢). فاسأل نفسك عبد الله لماذا تبكي؟ ولماذا تريد أن تبكي؟

هل تقصد بذلك وجه الله ـ تعالى: أم من أجل أن يقول الناس باكٍ..

---

(١) البينة: ٥.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٤)، والحاكم (٧٨٦٢)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٤٦): «رواه أحمد وابنه ورجال أحمد رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥).

تقيّ.. خاشع؟ هل تريد بذلك ثواب الله أم ثواب الناس؟

اعلم أن البكاء من خشية الله عبادة من العبادات، إن خلصت فيه النية قبل، وزكا، ونمت بركته.. وإن قصد به غير وجه الله ـ تعالى ـ حبط، وضاع، وخسرت صفقته. ولا يخدعنك الشيطان فتظن أنك كامل الإخلاص كبعض الجهال من أهل زماننا إذا سمع أحدهم من يتحدث عن الرياء والعجب ظن أنه بمنأى عن ذلك..

لا تكن كذلك فتكون كالمريض الذي يخدر موضع الألم حتى إذا ضاع الشعور به ظن أنه قد شفي، وأن المرض انتهى ولا يشعر أن المرض يقرض جسده قرضًا..

واعلم ـ أخي ـ أن الإخلاص عزيز.. قال أحد السلف: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر».

وكان من دعاء بعض السلف: «اللهم إني أستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت».

فاحذر أن تكون منافقًا وأنت لا تشعر، مرائيًا من حيث لا تعلم.

هذا هو الحسن البصري التابعي العالم العابد يقول لنفسه التي بين جنبيه: «تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين، وتفعلين فعل الفاسقين المنافقين المرائين، والله ما هذه صفات المخلصين»، وهو من هو!

وهذا يوسف بن أسباط يقول: «ما حاسبت نفسي قط إلا وظهر لي أنني مراء خالص».

وعابد الحرمين.. الفضيل بن عياض.. كان يقول عن قول الله تعالى: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ**﴾[(١)]: «إذا كان يسأل الصادقين عن صدقهم مثل إسماعيل وعيسى عليهما السلام، فكيف بالكاذبين أمثالنا؟» فبماذا ننعت أنفسنا؟

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من خلصت نيته في الحق

(١) الأحزاب : ٨ .

ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله».

علامات إخلاص البكائين من خشية الله:

١ـ ألا تجد في نفسك محبة أن يمدحك الناس لبكائك أو يُثنوا عليك، فإن أصابك هذا المرض ووجدت في نفسك حب مدح الناس لك والثناء عليك، فالعلاج أن تجيب على الأسئلة التالية، ثم تتبعها بماء الإخلاص:

س: هل سينفعك العباد يوم القيامة؟

س: هل سيقف معك أحد أثناء العرض على الله في مدحك ليمدحك أمام الله ويدافع عنك؟

س: هل تعلم أن الممدوح عند الناس قد يكون من شر الناس عند الله؟ فمدح الناس لك ليس مقياسًا لقبول طاعتك.

فلا تنشغل بمدح الناس أو ثنائهم فتتعب نفسك وتضر دينك ويحبط عملك كله.

٢ـ ألا تجد في قلبك عجبًا بطاعتك: قد يبتعد الباكي عن أعين الناس، أو يداريه عنهم طلبًا للإخلاص، ولكن يتسرب العجب بالعمل إلى نفسه ويرى أنه قد عمل شيئًا عظيمًا.

فإن أصابك مرض العجب بالطاعة، فالعلاج أن تجيب على الأسئلة التالية:

س: من صاحب الفضل عليك في هذا الأمر؟

س: من الذي رزقك شرف البكاء من خشيته؟

س: هل المعقول فيمن يعطي شيئًا لم يخترعه أو يصنعه أن يعجب به، أم يبادر بشكر المعطي على تفضله وإنعامه؟

س: هل تضمن حالك غدا؟

س: هل تضمن أنك ستستمر على الطاعة؟

س: هل تعلم أيختم لك بالخير أم بالشر؟

س: فهل يعقل أن تعجب بعمل أنت في شك من دوامه؟ نسأل الله الثبات.

٣ـ ألا تجد في قلبك استصغارًا للآخرين أو احتقارًا لهم؛ لأنك صاحب

طاعة لم ينالوا شرفها.

وإن أصابك مرض احتقار الآخرين، فالعلاج أن تجيب على الأسئلة التالية ثم تلحقها بسابقتها:

س: هل تعلم أن من تزدريه قد يكون أتقى لله منك، وأطهر قلبًا وأخلص نية وأزكى عملاً؟

س: هل تضمن أن الله قد قبل منك طاعة البكاء من خشيته؟

س: لعل الله قبل من هذا الرجل عملاً فأدخله به الجنة، وأنت لم يقبل منك الله صرفًا ولا عدلاً؟

فإن أجبت على هذه الأسئلة وتخلصت من أمراض الإخلاص المذكورة فلا تظن أنك قد حققت الإخلاص، فتكون كالمريض الذي أخذ الدواء فظن أنه قد شفي.

اتهم نفسك دائمًا.. واحذر أن تكون مرائيًا من حيث لا تعلم، واعلم أن من ادعى أنه حقق الإخلاص فهو رأس المرائين، نعوذ بالله من ذلك.

٢ـ الدعاء: قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[2]، وكان من هدي النبي ﷺ أن يدعو الله عز وجل أن يعينه على الطاعة، فقد كان من ذكره دبر كل صلاة: «**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[3].

فادع الله ـ عز وجل ـ أن يلين قلبك، وأن يرزقك نعمة البكاء من خشيته، واغتنم أوقات الاستجابة وأحوالها: كوقت السحر، وساعة الجمعة وهي آخر ساعة بعد العصر قبل صلاة المغرب ، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود، وفي

(١) غافر: ٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩) ، والترمذي (٢٩٦٩) ، وقال: «حسن صحيح» ، وابن ماجه (٣٨٢٨) ، وصححه الألباني .

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) ، والنسائي (١٣٠٢) ، وصححه الألباني .

السفر، وأثناء الصيام، ووقت الإفطار، وغيرها من أوقات وأحوال الاستجابة.

٣ـ السعي لتحصيل حلاوة الإيمان: فإن من ثمرات حلاوة الإيمان البكاء من خشية الله «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١).

وقد ذكر النبي ﷺ أحوال تحصيل حلاوة الإيمان فقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(٢).

فحب الله ـ عز وجل ـ يجلب حلاوة الإيمان، ومحبته ـ سبحانه ـ تكون: بمطالعة أسمائه وصفاته، وآثار فضله وإنعامه على خلقه، ورحمته بهم، وقراءة كلامه ـ القرآن الكريم ـ بتدبر، والتقرب إليه بالنوافل، ودوام الذكر بالقلب واللسان، والخلوة به في الثلث الأخير من الليل لمناجاته وتلاوة كلامه، وطاعته فيما أمر به والابتعاد عما نهى عنه.

وحب النبي ﷺ يجلب حلاوة الإيمان، ومحبته تكون: بمطالعة سيرته، ومعرفة شمائله وأخلاقه، والتشبه به في الظاهر والباطن، وطاعته فيما أمر به، والابتعاد عما نهى عنه.

وكذلك حب عباد الله الصالحين حبًا مجردًا من أغراض الدنيا «**لا يحبه إلا لله**» يجلب حلاوة الإيمان.

وبغض الكفر بمعرفة مظاهره، وصور الشرك، وعواقب الكفر للحذر منه، ومعاداة الكفار والبراء منهم.. كل ذلك يجلب حلاوة الإيمان، فاحرص على ذلك تكن من الراشدين ـ بإذن الله.

٤ـ تعلم العلم الشرعي: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ**

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) فاطر: ٢٨.

يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[(١)].

وقال أحد السلف في تفسير هذه الآية: من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علمًا ينفع؛ لأن الله نعت العلماء فقال: ﴿**قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ....**﴾ الآية.

فالعلم الشرعي يورث في القلب خشية ورهبة.. وعلم العقيدة والتوحيد خصوصًا يزيد الإيمان ويورث في القلب ما لا يورثه غيره من العلوم.

٥ـ ذكر الموت، وما بعده من أهوال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات: يعني الموت**»[(٢)].

ويقود التفكر بالموت إلى التفكر فيما بعده من أهوال القبور والبرزخ وأهوال يوم القيامة وأهوال النار نعوذ بالله منها.

قال النبي ﷺ عندما سمع صوتًا مرتفعًا: «**هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفًا فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها**»[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيها السفن لجرت**»[(٤)].

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إن أهل النار يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين يومًا، ثم يقول: ﴿**إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾[(٥)] فلا يجيبهم مثل الدنيا، ثم يقول: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾[(٦)]، ثم ييأس القوم، فما هو إلا الزفير والشهيق، تشبه أصواتهم

---

(١) الإسراء: ١٠٧، ١٠٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (١٨٢٣)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٢٤)، وقال الألباني: «ضعيف وصح مختصراً، دون ذكر قوله: ثم يبكون الدم إلى... كهيئة الأخدود».

(٥) المؤمنون: ١٠٧.

(٦) المؤمنون: ١٠٨.

أصوات الحمير، أولها شهيق وآخرها زفير».

وقال الحسن البصري: «يحق لمن يعلم أن الموت مورده، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده أن يطول حزنه».

وقال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾(١)، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴾(٢).

٦ـ **زيارة القبور، واتباع الجنائز:** قال رسول الله ﷺ: «**إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإن في زيارتها تذكرة**»(٣)، وفي رواية: «**فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة**»(٤)، فالقبور هي الواعظ الصامت، فأكثر من زيارة القبور يرق قلبك وتدمع عينك من خشية الله تعالى.

قال الأعمش: «إنا كنا لنشهد الجنازة فلا ندري من نعزي من القوم» أي لأن كل من يسير في الجنازة يبكي، فلا تستطيع تمييز أهل الميت من غيرهم.

٧ـ **قراءة القرآن بتدبر،** والإكثار من الذكر: قال تعالى: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾(٦)، وقراءة القرآن لها أثر كبير في طرد الشيطان، ورقة القلب، وبكاء العين.. ولم لا، والقرآن كلام الله تبارك وتعالى؟

فاقرأ القرآن وكأنه عليك أنزل، واهتم بتفسيره قدر المستطاع، واعلم أن القلوب الميتة تحيا بالذكر ـ خاصة القرآن ـ كما تحيا الأرض الميتة بنزول المطر.

٨ ـ **سماع القراءة الخاشعة للقرآن الكريم:** عن طريق الشرائط المسجلة، فاستمع إلى تلاوة من يجوب بك بحار الخشية، وابك ولا تمنع دموعك.. مع أصحاب التلاوة الخاشعة، فستجد لذلك ـ بإذن الله ـ أثره العظيم في لين القلب ورقته.

---

(١) فاطر : ٣٤. (٢) الطور : ٢٦.

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٧)، وأبو داود (٣٢٣٥)، واللفظ له.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٢٣٧)، وقال شعيب الأرناؤوط: «صحيح بطرقه وشواهده».

(٥) الحشر : ٢١. (٦) محمد : ٢٤.

٩ـ الإكثار من قراءة كتب الرقائق، وسماع المواعظ عن طريق الدروس أو الشرائط المسجلة. وكتب الرقائق: احرص على أن تكون من أهل السنة المستدلين بالكتاب والسنة وأقوال السلف.

واحرص على حضور مجالس الوعظ لمن عرف بموافقة السنة واستدلاله بالصحيح من الأحاديث، فالمواعظ سياط تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن.

كان الحسن البصري إذا خرج إلى الناس فكأنه رجل عاين الآخرة، ثم جاء يخبر عنها، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئًا.

وكان سفيان الثوري يتعزَّى بمجالسه عن الدنيا.

وكان أحمد لا تذكر الدنيا في مجالسه، ولا تذكر عنده.

فإن عجزت أن تجد مجالس للوعظ، فإن الله رزقنا نعمة لم يعطها لسلفنا وهي نعمة الشرائط المسجلة، فاحرص على سماع شرائط المواعظ لمن عرف بموافقته لأهل السنة والاستدلال بالصحيح من الأحاديث وحسن الأسلوب والصدق في التعبير.

١٠ـ محاسبة النفس: أمر الله عز وجل عباده أن يحاسبوا أنفسهم، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾(١).

وأقسم ـ تعالى ـ بالنفس اللوامة فقال: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإنَّ محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهلكه**»(٣).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل

---

(١) الحشر: ١٨. (٢) القيامة: ١، ٢.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ١٦٥) (٥٨٨٢)، والأوسط (٧٣٢٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٦٢): «رواه=

يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه». فطوبى لمن حاسب نفسه فعلم ذنوبه وتقصيره، ففاضت عيناه من خشية الله، وخوفًا من تقصيره، وقد قال النبي ﷺ: «**وابك على خطيئتك**»(١).

١١ـ الخشوع في الصلاة: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع**»(٢). فما أجملها من صلاة يستشعر صاحبها أن هذه الصلاة هي آخر عهده بالدنيا.. أناشدك بالله أن تصلي ركعتين وتخيل أنك ستموت بعدهما مباشرة.. استشعر هذا جيدًا.. كيف تكون هذه الصلاة؟ ما تأثيرها في نفسك؟ هل شعرت بتغيير بعدها؟

تخيل أن كل صلواتك بهذه الصورة.. هل سيلين قلبك إن صلى كل صلواته صلاة مودع؟ لو كان القلب صخرًا للان بفضل الله وإنعامه...

فما أجملها من نصيحة من خير البشر وحبيب رب العالمين ﷺ: «**إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع**»!

١٢ـ الخوف من عدم قبول الأعمال: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾(٣)، أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟، قال: «**لا يا بنت أبي بكر، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يتقبل منه**»(٤). فكن على خوف ألا يتقبل منك.

= أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة...» وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١)، وأحمد (٥/ ٤١٢)، وحسنه الألباني.

(٣) المؤمنون: ٦٠.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٨)، وحسنه الألباني.

١٣- الإقلال من الضحك: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[١]. وموت القلب يمنع دمع العين.

١٤- الزهد في الدنيا: فإن حب الدنيا سبب في قسوة القلب، والصد عن سبيل الله. والزهد فيها سبب في لين القلوب وخشوعها، وبكاء العيون ودموعها..

وهيا نقف وقفة سريعة نعلم فيها كيف كان عيش النبي ﷺ وكيف كان طعامه وكيف كان شرابه ولباسه وأثاثه..

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ»[٢].

وقالت أيضًا: «إنا كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار»[٣].

ولما سُئلت عن طعام رسول الله ﷺ قالت: «**الأسودان: التمر والماء**»[٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «**ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا - أي واسع رقيق - حتى لحق بالله** »[٥].

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدَّقل - أي التمر الرديء - ما يملأ به بطنه**»[٦].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**كان فراش رسول الله ﷺ من أدم - أي جلد - حشوه ليف**»[٧].

وعن أبي بردة قال: «**أخرجت إلينا عائشة كساءً وإزارًا غليظًا فقالت: قبض**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وقال: «غريب»، وابن ماجه (٤٢١٧)، وصححه الألباني .
(٢) أخرجه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠) .
(٣، ٤) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢) .
(٥) أخرجه البخاري (٥٣٨٦) .
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٧٧) .
(٧) أخرجه البخاري (٦٤٥٦) .

روح النبي ﷺ في هذين»[١].

وقال سيد الزاهدين محمد ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٢].

فإن جمدت عيناك بعد كل هذا فعليك بـ

١٥ـ التباكي: والتباكي دون البكاء في المنزلة والمرتبة، ولكنه سبيل البكاء لأن المتباكي ممن يجاهد نفسه ويحاسبها ، وممن يسعى لتحقيق مرضاة الله عز وجل، والله عز وجل يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾[٣].

فمن جاهد نفسه في التباكي وأخلص في ذلك فهو على الطريق بإذن الله.

قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس ابكوا؛ فإن لم تبكوا فتباكوا**»[٤]، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (ابكوا، فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا، لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ويبكي حتى ينقطع صوته).

مطالعة أحوال البكائين: فإنها تدفع باغي الفلاح للتشبه بهم.

خرج عمر يوما إلى السوق ومعه الجارود[٥] فإذا امرأة عجوز فسلم عليها عمر، فردت عليه، وقالت: هيه يا عمير، عهدتك وأنت عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سمعت عمر، ثم قيل: سمعت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر.

فقال الجارود: لقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته، فأشار إليه عمر أن دعها، فلما فرغ قال: أما تعرف هذه؟

قال: لا.

قال: هذه خولة ابنة حكيم التي سمع الله قولها، فعمر أحرى أن يسمع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥٣) ، ومسلم (٢٩٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) . (٣) العنكبوت : ٦٩.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) **الجارود**: رجل من الصحابة وسمي **الجارود**؛ لأنه فر بإبله إلى أخواله من بني شيبان وبإبله داء ففشا ذلك الداء في إبل أخواله فأهلكها.

كلامها، أشار إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾(١) وهي خولة هذه».

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

مع أحوال البكائين:

أخبار البكائين من خشية الله كثيرة ونقف على بعضها:

١ـ سيد البكائين والناس أجمعين محمد ﷺ: لم يكن بكاؤه بشهيق ورفع الصوت، ولكن كانت عيناه تدمعان حتى تسيل الدموع، ويسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل.

كان ﷺ يبكي عند سماع القرآن: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ علي**»، فقرأت عليه بسورة النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾(٢)، فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان(٣).

وكان يبكي في الصلاة: قال علي بن أبي طالب #: «لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح»(٤).

وعن عبد الله بن الشخّير رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي بنا وفي صدره أزيز ـ أي صوت البكاء ـ كأزيز الرحى غلت ـ من البكاء»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان ليلة من الليالي قال ـ أي النبي ﷺ ـ: «**يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي**»، قلت: «والله إني أحب قربك، وأحب ما يسرك»، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: وكان جالسًا فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: «يا

---

(١) المجادلة : ١ . (٢) النساء : ٤١ .

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٢٥) ، وصححه الأرناؤوط .

(٥) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، وأحمد (٤/ ٢٥) ، وصححه الألباني .

رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»(١).

وكان يبكي عند القبور: قال البراء بن عازب رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر فبكى، حتى بل الثرى، ثم قال: «**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**»(٢).

٢ـ صحابة النبي ﷺ جملة: كان الصحابة بكائين من خشية الله، وقد تعلموا هذا الهدي من النبي ﷺ، وعظهم رسول الله ذات يوم قائلاً: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» فغطوا وجوههم يبكون ولهم خنين(٣).

فالصديق رضي الله عنه: اشتهر عنه البكاء في الصلاة، حتى أن السيدة عائشة لما قال النبي ﷺ: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» قالت: «إنه رجل رقيق إذا قام في مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس»(٤).

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان بكاؤه يسمع من آخر الصفوف، قال عبد الله ابن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف يقرأ ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** ﴾(٥).

وعثمان بن عفان رضي الله عنه: كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد منه**»(٦).

وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يُقدم له طعام فيقول: «أعطينا ما

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).
(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٢٠).
(٥) يوسف: ٨٦.
(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وحسنه الألباني.

أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا» ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

وسلمان الفارسي رضي الله عنه: يقول: «أبكاني ثلاث: فراق الأحبة محمد وحزبه، وهول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي رب العالمين حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة».

وأم أيمن رضي الله عنهما حاضنة رسول الله ﷺ: يزورها أبو بكر وعمر بعد وفاة النبي ﷺ فتبكي.. يسألانها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، فتقول: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

والحسن البصري: يؤتى بكوز من ماء ليُفطر عليه.. يدنيه من فيه.. ثم يبكي ويقول: «ذكرتُ أمنية أهل النار قولهم: ﴿**أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ**﴾، وذكرت ما أجيبوا ﴿**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[1].

وإبراهيم النخعي: يبكي في مرضه فيسألونه عن سبب بكائه فيقول: «وكيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهذه وإما بهذه؟».

وأخيرا: ها قد انتهى لقاؤنا أخي الحبيب، أو كاد أن ينتهي.

فهل دمعت عينك؟ هل ارتجف قلبك؟ إن كانت الإجابة بالنفي فدعني أسألك..

هل ضمنت الجنة أخي؟

هل ضمنت النجاة من النار؟

فما بالي أراك وكأنك أمنت هذا المشهد.

قال رسول الله ﷺ: «**يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيها السفن لجرت**»[2].

---

(١) الأعراف: ٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

دموع في الخدود غزيرة متتابعة، والوجه الجميل قد امتلأ بالأخاديد، يبكون حتى تنتهي دموعهم، ولكن الألم مستمر والخطب عظيم، فيبكون الدم .

أخي، قف أمام المرآة، وتخيل وجهك وقد شوهته الأخاديد والدم يسيل من عينيك، تخيل نفسك واسألها. . يا نفس. . متى تبكين؟

أتبكين الدموع اليوم فتثابين، أم تبكين الدم غدًا حيث لا ثواب ولا أجر على البكاء؟

يا نفس، أنت أمام خيارين، فاختاري ما يسرُّك.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

٧. كفى بالموت واعظًا

قال الإمام الغزالي:

«اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه».

وكما يقول: «فجدير بمن كان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه.. وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى، ويراها في أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت».

والموت لا ريب فيه، ويقين لا شك فيه ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ**﴾(١)، فمن يجادل في الموت وسكرته؟! ومن يخاصم في القبر وضمته؟! ومن يقدر على تأخير موته وتأجيل ساعته؟! ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(٢).

فلماذا تتكبر أيها الإنسان وسوف تأكلك الديدان؟!

ولماذا تطغى وفي التراب ستلقى؟!

ولماذا التسويف والغفلة وأنت تعلم أن الموت يأتي بغتة؟!

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾(٣)، ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾(٤)، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٥).

---

(١) ق: ١٩.
(٢) الأعراف: ٣٤.
(٣) آل عمران: ١٨٥.
(٤) الرحمن: ٢٦، ٢٧.
(٥) القصص: ٨٨.

حقيقة الموت:

أخي المسلم: يخطئ من يظن أن الموت فناء محض وعدم تام، ليس بعده حياة ولا حساب ولا حشر ولا نشر ولا جنة ولا نار؛ إذ لو كان الأمر كذلك لانتفت الحكمة من الخلق والوجود، ولاستوى الناس جميعًا بعد الموت واستراحوا، فيكون المؤمن والكافر سواء، والقاتل والمقتول سواء، والظالم والمظلوم سواء، والطائع والعاصي سواء، والزاني والمصلي سواء، والفاجر والتقي سواء، وهذا مذهب الملاحدة الذين هم شر من البهائم، فلا يقول ذلك إلا من خلع رداء الحياء، ونادى على نفسه بالسفه والجنون. قال تعالى: ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾(١) وقال سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾(٢).

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

فالموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها له، والانتقال من دار إلى دار، وبه تطوى صحف الأعمال، وتنقطع التوبة والإمهال، قال النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٣).

الموت أعظم المصائب:

والموت من أعظم المصائب، وقد سماه الله مصيبة في قوله سبحانه: ﴿**فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ**﴾(٤) فإذا كان العبد طائعًا ونزل به الموت ندم ألا يكون ازداد، وإذا كان العبد مسيئًا ندم على التفريط وتمنى العودة إلى دار الدنيا، ليتوب إلى الله تعالى، ويبدأ العمل الصالح من جديد. ولكن هيهات هيهات!! قال تعالى: ﴿**وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ**﴾(٥) وقال سبحانه: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ**

---

(١) التغابن: ٧ . (٢) يس: ٧٨، ٧٩ .
(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وقال: «حسن غريب»، وحسنه الألباني .
(٤) المائدة : ١٠٦ . (٥) فصلت : ٢٤ .

الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(١) .

قد مضى العمر وفات ... يا أسير الغفلات
حصِّل الزاد وبادر ... مسرعا قبل الفوات
فإلى كم ذا التعامي ... عن أمور واضحات
وإلى كم أنت غارق ... في بحار الظلمات
لم يكن قلبك أصلا ... بالزواجر والعظات
بينما الإنسان يسأل ... عن أخيه قيل مات
وتراهم حملوه ... سرعة للفلوات
أهله يبكون عليه ... حسرة بالعبرات
أين من قد كان يفخر ... بالجياد الصافنات
وله مال جزيل ... كالجبال الراسيات
سار عنها رغم أنف ... للقبور الموحشات
كم بها من طول مكث ... من عظام ناخرات
فاغنم العمر وبادر ... بالتقى قبل الممات
واطلب الغفران ممن ... ترتجى منه الهبات

عبرة الموت:

يروى أن أعرابيًا كان يسير على جمل له، فخر الجمل ميتًا، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به ويتفكر فيه، ويقول: ما لك لا تقوم؟

ما لك لا تنبعث؟

هذه أعضاؤك كاملة!!

وجوارحك سالمة!!

ما شأنك؟!

---

(١) المؤمنون : ٩٩، ١٠٠ .

ما الذي كان يحملك؟!

ما الذي صرعك؟!

ما الذي عن الحركة منعك؟!

ثم تركه وانصرف متعجبًا من أمره، متفكرًا في شأنه!!

وقال ابن السماك: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمى بشبكته في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي ويقول:

عزيز فلم تترك لعزك!!

غنى فلم تترك لغناك!!

فقير فلم تترك لفقرك!!

جواد فلم تترك لجودك!!

شديد فلم تترك لشدتك!!

عالم فلم تترك لعلمك!! يردد هذا الكلام ويبكي.

اذكروا هاذم اللذات:

أخي الكريم:

حث النبي ﷺ على ذكر الموت والإكثار منه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**»(١).

قال الإمام القرطبي: «قال علماؤنا: قوله عليه السلام: «أكثروا ذكر هاذم اللذات» كلام مختصر وجيز، وقد جمع التذكرة وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه من تمنيها في المستقبل، وزهده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة، تحتاج إلى تطويل الوعاظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «**أكثروا ذكر**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (١٨٢٣)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

هاذم اللذات» مع قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾(١) ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه. ولقد أحسن من قال:

اذكــر المـوت هـاذم اللـذات وتجهز لمصرع سوف ياتـــي

وقال غيره:

اذكــر المــوت تجــد راحـــة في ادكار الموت تقصير الأمل

أولئك الأكياس:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله! من أكيس الناس وأحزم الناس؟ قال: «**أكثرهم ذكرًا للموت، وأكثرهم استعدادًا للموت، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**»(٢).

فوائد ذكر الموت:

أخي الحبيب: وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد منها:

أنه يحث على الاستعداد للموت قبل نزوله.

أن ذكر الموت يقصر الأمل في طول البقاء، وطول الأمل من أعظم أسباب الغفلة.

أنه يزهد في الدنيا ويرضى بالقليل منها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بمجلس وهم يضحكون فقال: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**» أحسبه قال: «فإنه ما ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه، ولا في سعة إلا ضيقها عليه»(٣).

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/٤١٧) (١٣٥٧٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢١٤): «رواه ابن ماجه باختصار، ورواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن»، وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٩٩٢)، والطبراني في المعجم الأوسط (٨٥٦٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢٠٥): «رواه البزار والطبراني باختصار عنه، وإسنادهما حسن»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢١١).

أنه يرغب في الآخرة ويدعو إلى الطاعة.

أنه يهون على العبد مصائب الدنيا.

أنه يمنع من الأشر والبطر والتوسع في لذات الدنيا.

أنه يحث على التوبة واستدراك ما فات.

أنه يرقق القلوب ويدمع الأعين، ويجلب باعث الدين، ويطرد باعث الهوى.

أنه يدعو إلى التواضع وترك الكبر والظلم.

أنه يدعو إلى سل السخائم ومسامحة الإخوان وقبول أعذارهم.

أنفاس معدودة:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطا مربعًا، وخط خطا في الوسط خارجًا منه، وخط خطوطًا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»(١).

وقال القرطبي: «وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك، مستعدًا لذلك».

وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل الرحيل. فلما توفى فقد صوته أمير المدينة، فسأل عنه فقال: إنه قد مات فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه مستيقظًا متشمرًا ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: «ويحك يا يزيد! من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يترضى ربك عنك بعد الموت؟ ثم يقول: أيها الناس! ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ مَنِ الموت

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧).

طالبه.. والقبر بيته.. والتراب فراشه.. والدود أنيسه.. وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر.. كيف يكون حاله؟» ثم يبكي رحمه الله.

بينا الفتى مرح الخطا فرح بما ... يسعى له إذ قيل قد مرض الفتى
إذ قيل بات بليلة ما نامها ... إذ قيل أصبح مثخناً ما يرتجى
إذ قيل أصبح شاخصاً وموجهاً ... ومعللاً إذ قيل أصبح قد مضى

وقال التميمي: «شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى».

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يجمع العلماء فيتذكرون الموت والقيامة والآخرة، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة!!

وقال الدقاق: «من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

وقال الحسن: «إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا عيشا لا موت فيه».

أذكر الموت ولا أرهبه ... إن قلبي لغليظ كالحجر
أطلب الدنيا كأني خالد ... وورائي الموت يقفو بالأثر
وكفى بالموت فاعلم واعظًا ... لمن الموت عليه قدر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجي المرء منهن المفر

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله. كفى بالموت مقرحًا للقلوب، ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهاذمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات.

فيا جامع المال! والمجتهد في البنيان! ليس لك والله من مالك إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من المال؟ هل أنقذك من الأهوال؟ كلا.. بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدمت

بأوزارك على من لا يعذرك.

ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(١) هو الكفن، فهو وعظ متصل بما تقدم من قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾(٢) أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة، لا في الطين والماء، والتجبر والبغى، فكأنهم قالوا: لا تنس أن تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن.

ونحو هذا قال الشاعر:

هي القناعة لا تبغ بها بدلاً ... فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن؟!

فيا أخي الحبيب:

أين استعدادك للموت وسكرته؟ أين استعدادك للقبر وضمته؟ أين استعدادك للمنكر والنكير؟ أين استعدادك للقاء العلي القدير؟

وقال سعيد بن جبير: «الغرور بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية، ويتمنى على الله المغفرة».

تزود من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر
وكم من صبي يرتجى طول عمره ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

الأسباب الباعثة على ذكر الموت:

١- زيارة القبور، قال النبي ﷺ: «**زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة**»(٣).

٢- زيارة مغاسل الأموات ورؤية الموتى حين يغسلون.

٣- مشاهدة المحتضرين وهم يعانون سكرات الموت وتلقينهم الشهادة.

(١، ٢) القصص: ٧٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٦٩) وصححه الألباني.

٤ـ تشييع الجنائز والصلاة عليها وحضور دفنها.

٥ـ تلاوة القرآن، ولا سيما الآيات التي تذكـر بالموت وسكراته كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[1].

٦ـ الشيب والمرض، فإنهما من رسل ملك الموت إلى العباد.

٧ـ الظواهر الكونية التي يحدثـها الله تعالى تذكيرًا لعبـاده بالموت والقدوم عليه سبحانه كالزلازل والبراكين، والفيضانات والانهيارات الأرضية والعواصف المدمرة.

٨ـ مطالعـة أخبار الماضين من الأمم والجـماعـات التي أفناهم الموت وأبادهم البلى.

سكرات الموت وشدته:

أخي المسلم: إن للموت ألمًا لا يعلمه إلا الذي يعـالجه ويذوقه، فالميت ينقطع صوته، وتضعف قوته عن الصياح لشدة الألم والكرب على القلب، فإن الموت قد هد كل جزء من أجزاء البدن، وأضعف كل جوارحـه، فلم يترك له قوة للاستغاثة أما العـقل فقد غـشيتـه وسوسة، وأمـا اللسان فقـد أبكمه، وأما الأطراف فـقد أضعـفها، ويود لو قـدر على الاستراحـة بالأنين والصياح، ولـكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت له قوة سمع له عند نزع الروح وجـذبها خوار وغرغرة من حلقه وصدره، وقـد تغيـر لونه، وأزبد، ولكل عضـو من أعضائه سكرة بـعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى تبلغ روحـه إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، وتحيط به الحـسرة والندامة إن كان من الخاسـرين، أو الفرح والسرور إن كان من المتقين.

قالت أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها: كان بين يدي النبي ﷺ ركوة أو علبة فيهـا ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بهـا وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[2] وفي لفظ أنه ﷺ كان يقول عند موته: «**اللهم أعني على سكرات الموت**»[3]. والسكرات هي الشدائد والكربات.

---

(١) ق: ١٩. (٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٧٨)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (١٦٢٣)، وضعفه الألباني.

وتشـديد الله تعـالى على أنبيـائه عند الموت رفـعـة في أحـوالهم، وكمـال لدرجاتهم، ولا يفهم من هذا أن الله تعالى شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة والمخلطين، فإن تشديده على هؤلاء عقوبة لهم ومؤاخذة على إجرامهم، فلا نسبة بينه وبين هذا.

فيا أيها المغرور:

فما لك ليس يعمل فيك وعظ — ولا زجر كـأنك من جـماد
ستندم إن رحلت بغير زاد — وتشـقـى إذ يناديك المنادي
فلا تأمن لذي الدنيا صلاحا — فإن صلاحها عين الفساد
ولا تفـرح بمال تقـتنيـه — فإنك فيه معكوس المراد
وتب مما جنيت وأنت حي — وكن متنبها قبل الرقاد
أترضى أن تكون رفيق قوم — لهم زاد وأنت بغير زاد؟!

يا كثير السيئات غداً ترى عملك، ويا هاتك الحرمات إلى متى تديم زللك؟ أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك؟ أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك؟ واعجبا لك من راحل تركت الزاد في غير رحلك !! أين فطنتك ويقظتك وتدبير عقلك؟! أما بارزت بالقبيح!! فأين الحزن؟ أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن؟ ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن، وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن.

قال يزيد بن تميم: «من لم يردعه الموت والقرآن، ثم تناطحت عنده الجبال لم يرتدع!».

رسل ملك الموت:

ورد في بعض الأخبار أن نبيا من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قال لملك الموت: أما لك رسول تقدمه بين يديك، ليكون الناس على حذر منك؟ قال: نعم، ليس والله رسول واحد وإنما رسل كثيرة: من الإعلال، والأمراض، والشيب، والهموم، وتغير السمع والبصر.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة**»[1]، وأكبر الأعذار إلى بني آدم

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩) .

بعثة الرسل إليهم، ليتم حجته عليهم كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾(١) وقال سبحانه: ﴿**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾(٢) قيل: هو القرآن. وقيل: الرسل. وقال ابن عباس: هو الشيب.

كيف ماتوا؟

أخي الحبيب: اعلم أن حسن الخاتمة لا تكون إلا لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، أما سوء الخاتمة فإنها تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب عليه ذلك حتى ينزل به الموت قبل التوبة، أو يكون مستقيمًا ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سننه، ويقبل على معصية ربه، فيكون ذلك سببًا لسوء خاتمته، والعياذ بالله.

صور من سوء الخاتمة:

قيل لرجل عند الموت: قل لا إله إلا الله، وكان سمسارًا، فأخذ يقول: ثلاثة ونصف. أربعة ونصف.. غلبت عليه السمسرة.

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا وكذا، والبستان الفلاني اعملوا فيه كذا، حتى مات.

وقيل لأحدهم وهو في سياق الموت: قل لا إله إلا الله، فجعل يغني، لأنه كان مفتونًا بالغناء، والعياذ بالله.

وقيل لشارب خمر عند الموت: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: اشرب واسقني، نسأل الله العافية.

صور من حسن الخاتمة:

دخل صفوان بن سليم على محمد بن المنكدر وهو في الموت فقال له: يا أبا عبد الله! كأني أراك قد شق عليك الموت، فما زال يهون عليه ويتجلى عن وجه محمد، حتى لكأن وجهه المصابيح، ثم قال له: لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك، ثم مات.

وقال محمد بن ثابت البناني: ذهبت ألقن أبي وهو في الموت فقلت: يا

---

(١) الإسراء: ١٥. (٢) فاطر: ٣٧.

أبت! قل: لا إله إلا الله. فقال: يا بني، خل عني، فإني في وردي السادس أو السابع!!

ولما احتضر عبد الرحمن بن الأسود بكى. فقيل له: مم البكاء؟ فقال: أسفًا على الصلاة والصوم، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات.

وسمع عامر بن عبد الله المؤذن وهو في مرض الموت فقال: خذوا بيدي إلى المسجد، فدخل مع الإمام في صلاة المغرب، فركع ركعة ثم مات رحمه الله.

رحلة الموت:

رب مذكور لقوم ... غاب عنهم فنسوه
وإذا أفنى سنيه الـ ... ـمرء أفنته سنوه
وكأن بالمرء قد ... يبكي عليه أقربوه
وكأن القوم قد ماتوا ... فقالوا أدركوه
سائلوه كلموه ... حركوه لقنوه
فإذا استيأس منه الـ ... ـقوم قالوا أحرقوه
حرفوه وجهوه ... مددوه غمضوه
عجلوه لرحيل ... عجلوا لا تحبسوه
ارفعوه غسلوه ... كفنوه حنطوه
فإذا ما لف في الـ ... أكفان قالوا فاحملوه
أخرجوه فوق أعوا ... د المنايا شيعوه
فإذا صلوا عليه ... قيل هاتوا واقبروه
فإذا ما استودعو ... ه الأرض رهنًا تركوه
خلفوه تحت رمس ... أوقروه أثقلوه
أبعدوه أسحقوه ... أو حدود أفردوه
ودعوه فارقوه ... أسلموه خلفوه
وانثنوا عنه وخلوه ... كأن لم يعرفوه
وكأن القوم فيما ... كان فيه لم يلوه

٨ـ عذاب القبر

لعل الغافل أن ينتبه والنائم أن يستيقظ قبل أن تأتيهم الساعة بغتة وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون. فالجنازة وهي في طريقها إلى القبر تتكلم!!، كما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين** ـ أو قال: إلا الإنسان ـ **ولو سمع الإنسان لصعق**»(١).

فارقت موضع مرقدي يومًا ففارقني السكون... القبر أول ليلة، بالله قل لي ما يكون ليلتان اثنتان يجعلهما كل مسلم في مخيلته:

ليلة وهو في بيته مع أطفاله وأهله، منعماً سعيداً، في عيش رغيد في صحة وعافية، يضاحك أطفاله ويضاحكونه.

والليلة التي تليها مباشرة ليلة أتاه الموت فوضع في القبر، أي ليلتين؟

ليلة ثانية وضع في القبر لأول مرة.

فبالله كيف تكون الليلة الأولى في القبر؟

يوم يوضع الإنسان فريدًا وحيدًا مملقًا إلا من العمل، لا زوج ولا أطفال ولا أنيس: ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾(٢).

أول ليلة في القبر بكى منها العلماء، وشكى منها الحكماء، ورثى إليها الشعراء، وصنفت فيها المصنفات.

أتي بأحد الصالحين وهو في سكرات الموت لدغته حية وكان في سفر ، نسي أن يودع أمه وأباه وأطفاله وإخوانه، فقال قصيدة يلفظها مع أنفاسه هي أم المراثي العربية في الشعر العربي. يقول وهو يزحف إلى القبر:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٦). (٢) الأنعام: ٦٢.

فلـله دري يوم أتـرك طائعًـــــا بنيَّ بـأعلى الرقـــمـتـين وداريا
يقـولون: لا تبـعـد وهم يـدفنونني وأين مكان الـبـعــد إلا مكانيــا

وأين مكان البعد إلا هذا المكان؟

وأين الوحشة إلا هذا المنقلب؟

وأين المكان المظلم إلا هذا المكان؟

فهل تصور متصورٌ هذا.

كـلا، الآن تتراجـع، الآن تتوب،الآن تنتـهي عن المعـاصي، يا مـدبراً عن المساجد ما عرف الصلاة.

يا معرضا عن القرآن، يا متهتكا في حدود الله.

يا ناشئا في معاصي الله.

يا مقتحمًا لأسوار حرمها الله.

الآن تتوب، أين أنت قبل ذلك؟

قال مؤرخو الإسلام:

مات الحسن بن الحسن من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

كان عنده زوجة وأطفـال وكان في الشباب، والموت لا يستـأذن شابًا ولا غنيًا ولا فقـيراً ولا أمـيرًا ولا مـلكًا ولا رسولاً ولا سلطانا، مـات فجـأة، نقلوه إلى المقبـرة، فوجـدت عليه امرأته وحـزنت حزنًا لا يعلمـه إلا الله، أخذت أطفـالها وضربت خيمة حول القبر.

«وهذا ليس من عمل الإسلام ولولا أن مؤرخو الإسلام ذكروه ما ذكرته».

أتى أبو العتاهية يقول لهارون الرشيد يهنئه بالقصور يقول له:

عش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصور.

عش ما بدا لك سالمًا عش ألف سنة، عش مليون سنة سالما معافى.

يجري عليك بما أردت من الغدو مع البكور.

ما تريد من طعام، ما تريد من شراب هو عندك، ولكن اسمع ما يقول:

فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور.

فبكى السلطان حتى أغمي عليه: فهناك تعلم موقنًا ما كنت إلا في غرور هناك في أول ليلة في القبر.

وأنا أطالب نفسي وإياكم معاشر المسلمين أن نهيئ لنا نورًا في القبر أول ليلة.

ووالله لا ينور لنا القبر إلا العمل الصالح بعد الإيمان.

إنما هي مسألة لمن نسي الله وأوامر الله وانتهك حدود الله.

نقول له: هل تذكرت يا أخي أول ليلة في القبر؟

قال أحد العلماء لعمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين:

رأيناك قبل أن تتولى الملك وأنت في مكة في نعمةٍ وفي صحة وفي عافية، فمالك تغيرت؟

فبكى رضي الله عنه حتى كادت أضلاعه تختلف ، ثم قال للعالم وهو ابن زياد:

كيف بك يا بن زياد لو رأيتني في القبر بعد ثلاثة أيام يوم أجرد عن الثياب، وأوسد التراب، وأفارق الأحباب وأترك الأصحاب. لو رأيتني بعد ثلاث والله لرأيت منظرًا يسوؤك . فنسأل الله حسن العمل.

والله لو عاش الفتى في عمره ... ألفًا من الأعوام مالك أمره

متنعمًا فيها بكل لذيذة ... متلذذًا فيها بسكنى قصره

لا يعتريه الهمُّ طول حياته ... كلا ولا تردُ الهموم بصدره

ما كان ذلك كله في أن يفي ... فيها بأول ليلة في قبره

فيا عباد الله، أسأل الله لي ولكم الثبات، ماذا أعددنا لضيافة تلك الليلة؟

يقول رسولنا ﷺ: «**القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار**»[1].

كان عثمان بن عفان الخليفة رضي الله عنه إذا شيع جنازة بكى حتى يغمى

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) ، وقال: «غريب» ، وضعفه الألباني .

عليه فيحملونه إلى بيته كالجنازة. قالوا: ما لك؟ قال: سمعت الرسول ﷺ يقول: «**القبر أول منازل الآخرة فإذا نجا منه ، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**»(١).

أولاً: الأدلة على عذاب القبر ونعيمه:

قال الإمام القرطبي والإمام الحافظ ابن حجر: «لم ينكر عذاب القبر إلا الملاحدة، والزنادقة، والخوارج، وبعض المعتزلة، ومن تمذهب بمذهب الفلاسفة، وخالفهم جميع أهل السنة». وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله: «عذاب القبر حق ومن أنكره فهو ضال مضل».

أيها الحبيب: أقدمُ إليك سيلاً من الأدلة الصحيحة على عذاب القبر وردت في كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، ولن أطيل الوقفة مع القرآن! لماذا؟!.. لأن القرآن حمال أوجه كما قال علي بن أبي طالب لابن عباس وهو في طريقه لمناظرة الخوارج.

قال علي: «يا ابن عباس جادلهم بالسنة ولا تجادلهم بالقرآن؛ فإن القرآن حمَّال ذو أوجه».

يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية ـ على شارحها ومصنفها الرحمة من الله جل وعلا:

«اعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، وكل إنسان مات وعليه نصيب من العذاب فله نصيبه من العذاب، قبر أو لم يقبر، سواء أكلته السباع أو احترق فصار رمادًا في الهواء أو نسف أو غرق في البحر».

وتأملوا في هذا الدليل الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فحرقوه ثم ذروه، نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم . فأمر الله البر فجمع ما فيه ، وأمر الله البحر فجمع ما فيه. ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وقال: «حسن غريب» ، وابن ماجه (٤٢٦٧) وحسنه الألباني.

خشيتك، وأنت أعلم، فغفر الله له»(١).

الشاهد من الحديث أن الله أحـياه بعدما حُرق وذري رماده في البـحر والبر، فقال له الملك: كن فكان على الفور .

قال تعـالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(٤).

إن قدرة الله لا تحـدها حدود ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السـماء، ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى:

«إن الله تعالى قـد جعل الدور ثلاثة، وهي: دار الدنيـا، ودار البرزخ، ودار القرار . . . وجعل الله لكل دار أحكامًا تخـتص بها، فجعل الله الأحكام في دار الدنيـا تسري علـى الأبدان، والأرواح تبع لها، وجـعل الأحكام في دار البـرزخ تسري على الأرواح، والأبدان تبع لها، وجعل الأحكام في دار القرار تسري على الأرواح والأبدان معـا»، ثم قال ابن القـيم : «واعلم أن سعـة القبـر، وضيـقه، ونوره، وناره ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا» .

ثم ضرب للناس مثلا عقليًا دقيقًا رائعًا فقال:

« انظر إلى الرجلين النائمين في فـراش واحد أحدهمـا يرى في نومه أنه في

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦).
(٢) آل عمران : ٥٩.   (٣) البقرة: ٢٥٩ .
(٤) البقرة : ٢٦٠ .

نعيم، بل وقد يستيقظ وأثر النعيم على وجـهه ويقص عليك ما كان فيه من النعيم، قـد يقول لك: الحـمد لله لقـد رأيتني الليلة وأنا مع رسـول الله ﷺ ورأيت النبي ﷺ وكلمت النبي ﷺ ورد على النبي ﷺ وقال لي النبي ﷺ... الخ»، من رأى النبي في المنام فقد رآه حقًا. وأخـوه إلى جواره في فراش واحد قد يكون في عذاب ويسـتيـقظ وعليه أثر العذاب ويـقص عليك ويقول كابـوس كاد أن يخنق أنفاسي!!».

هل تدبرت ـ أخي في الله ـ في هذا الكلام ؟! الرجـلان في فـراش واحد: هذا روحه كانت في الـنعيم، وهذا روحه كانت في العـذاب، مع أن أحدهما لا يعلم عن الآخر شيئًا.

هذا في أمر الدنيا، فما بالك بأمر البرزخ الذي لا يعلمه إلا الله؟!

وأنا أقول : متى كان العقل حاكمًا على الشرع والدين؟!

لله در علي يوم قال: «لو كان أمر الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخف أولى من المسح على أعلاه»(١).

يقول إمام الدنيـا في الحديث ـ الإمام البخاري ـ وقـد ترجم في كتاب الجنائز بابًا بعنوان: « باب ما جاء في عذاب القبـر» وساق البخاري في هذا الباب الآيات الكريمة عن الله جل وعلا وروى فيه الأحاديث الصـحيحة عن رسول الله ﷺ، وسأكتـفي بآية واحدة استدل بهـا جميع أهل السنة بلا خلاف عـلى ثبوت عذاب القبر :

قال الله تعالى : ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٢).

قـال جمـيع علمـاء أهل السنة: ذكـر الله في هذه الآية عـذاب دار البـرزخ وعذاب دار القرار ذكرًا صريحًا، وحاق بآل فـرعون سوء العذاب، النار يعرضون عليهـا غدوًا وعشيًـا: أي صباحًا ومـساءً هذا في دار البرزخ، ويوم تقوم السـاعة

(١) أخرجه أبو داود (١٦٢، ١٦٣، ١٦٤)، وصححه الألباني.
(٢) غافر : ٤٥، ٤٦ .

أدخلوا آل فرعون أشد العذاب: أي يوم القيامة.

فذكـر الله عذابين في الآية: عذابًا فـي الدنيا وعذابًا في الآخـرة، عذاب دار البرزخ وعذاب دار القرار .

وقبل أن أزف إليك الأدلة الصحيـحة التي تلقم المنكرين الأحجار أود أن أنوه إلى أن الله قد أنزل على النبي ﷺ وحيين وأوجب الله على عبـاده الإيمان بهما ألا وهما القرآن والسنة الصحيحة .

انطلق هؤلاء المنكرون وقالوا: كـفانا القرآن، وظنوا أنهم بهـذه الدعوى التي يغني بطلانها عن إبطالهـا، ويغني فسادها عن إفسادها أنهم قد خـدعونا ووالله ما خدعوا إلا أنفسهم.

من كذب بالسنة الصحيحة فقد كفر بالقرآن . . . ومن رد السنة فقد رد القرآن.

تدبر معي آيات الله عز وجل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

وقـال تعـالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٣).

وقال تعـالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾(٤).

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾(٥).

---

(١) الحشر : ٧.
(٢) النساء : ٨٠ .
(٣) النساء : ٦٥ .
(٤) الأحزاب : ٣٦ .
(٥) الحجرات : ١ ، ٢ .

فالسنة حكمها مع القرآن على ثلاثة أوجه .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين : السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول: أن تأتي السنة مؤكدة لما جاء بــه القرآن، وهذا من باب تضافر الأدلة.

الوجه الثاني: أن تأتي السنة مبينة وموضحة لما أجمله القرآن.

قال تعــالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ لكن لم يذكــر عدد الصلوات، ولا أركــان الصلاة، ولا كيفية الصلاة ولا مواقيت الصلاة، فجاء الحبيب المصطفى ﷺ لكي يبين لنا عددها وأركانها وكيفيتها ومواقيتها وهكذا .

الوجه الثالث : أن تأتي السنة موجـبة أو محرمة لما سكت عـنه القرآن، قال المصطفى ﷺ: «**ألا يوشك رجل شبـعان متكئ على أريكته يقـول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فـيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيـه من حرام فحرموه**» قال المصطفى ﷺ: «**ألا إن ما حرم الله كما حرم رسول الله** »(١).

وإليكم الأحاديث الصحيحة التي تثبت أن عذاب القبر حقيقة لا ريب:

في الحديث الذي رواه أحـمد والحـاكم وغيره وحـسنه الشيخ الألبـاني: كان عثـمان إذا وقف على القــبر بكى، وإذا ذكــر الجنة والنار لا يبكي. فقــيل له: يا عثمان تذكــر الجنة والنار فلا تبكي فإذا وقفت على القبر تبكي، قال عـثمان: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه صاحبه فما بعده أشد منه**»(٢).

وانظر إلى هذا الحـديث الصـحيح: مـر المصطفى ﷺ على قـبرين فـقال ﷺ: «**أما إنهـما يعذبان ومـا يعذبان في كبـير**»، ثم قال: «**أما أحـدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ـ أو لا يتنزه من بوله**»(٣).

وقِفْ مع هذا الحديث الصـحيح الذي رواه البخاري ومـسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يدعو الله ويقول : « **اللهم إني أعوذ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

بك من عذاب القبر»[١].

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ جاءت به (أي البغلة) فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة، أو خمسة، فقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟**» قال رجل: أنا، قال: «**فمتى ماتوا؟**» قال: في الشرك، فقال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**» ثم أقبل علينا بوجهه ﷺ فقال: «**تعوذوا بالله من عذاب القبر**» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر[٢].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ امرأة من يهود المدينة فذكرت عذاب القبر فقالت المرأة لعائشة: أعاذك الله من عذاب القبر. فلما خرجت اليهودية سألت عائشة النبي ﷺ عن عذاب القبر فقال: «**نعم عذاب القبر**» وفي رواية: «عذاب القبر حق» فقالت عائشة: فما رأيت النبي ﷺ يصلي بعدها إلا ويستعيذ من عذاب القبر[٣].

واسمع إلى هذا الحديث العمدة في المسألة، وهو أصل من أصول هذا الباب رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه والبيهقي في سننه والنسائي في سننه وأبو داود في سننه ورواه الحاكم في المستدرك وصححه على شرط الشيخين، وأقره الإمام الذهبي، وصحح الحديث الإمام ابن القيم في كتاب تهذيب السنن وإعلام الموقعين وأطال النفس للرد على من أعَلَّ هذا الحديث، وصحح هذا الحديث الشيخ الألباني وغيره من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فلما انتهينا إلى القبر جلس النبي ﷺ على شفير القبر (حافة القبر) وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير (لا يتكلمون) وفي يد النبي ﷺ عود ينكت به الأرض، ثم رفع النبي ﷺ رأسه فنظر وقال لأصحابه: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر، استعيذوا بالله من عذاب القبر، استعيذوا بالله من عذاب القبر**»، قالها النبي مرتين أو ثلاثًا،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢).

ثم التفت إليهم النبي ﷺ وقال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر.**

ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه به في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه.

فيأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي ...

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول،

فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟! فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له» ثم قرأ: ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[1] «فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه .. هاه ... لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه .. هاه.. لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة!!»[2].

أسباب عذاب القبر:

والحديث عنه له وجهان: مجمل ومفصل، أما المجمل فإن معصية الله عز وجل أصل لكل بلاء وعلى رأس هذه المعاصي الشرك، فإن أعظم زاد تلقى الله به هو التوحيد، وإن أبشع وأعظم ذنب تلقى الله به هو الشرك، قال الله: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[3] .

أما التفصيل فقد ذكر النبي ﷺ كما ذكرت أن النميمة من أسباب عذاب القبر، وهناك الآن أناس متخصصون في النميمة.

فالنميمة سبب من أسباب عذاب القبر، وأيضا عدم الاستتار من البول، وعدم التنزه منه، وهذا ما ذكره النبي ﷺ في حديثه.

---

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢١٢)، وأحمد (٤/ ٢٨٧) واللفظ له، وصححه الألباني.

(٣) لقمان: ١٣.

أيضا من أسباب عذاب القبر الكذب والربا وهجر القرآن كما في حديث سمرة بن جندب الطويل الذي رواه البخاري الذي لا يتسع المقال لـذكره الآن. لقد ذكر فيه النبي ﷺ من أسباب عذاب القبر الكذب والرياء وهجر القرآن والزنى، والغلول (كل شيء يؤخذ من الغنيمة قبل أن تقسم).

ويدخل تحت الغلول السحت والحرام:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيـبر ففـتح الله علينا، فلم نغنم ذهبـا، ولا ورقا، غنمنا المتـاع والطعام والثـياب، ثم انطلقنا إلى الوادي ـ يعني وادي القـرى ـ ومع رسول الله ﷺ عبـد له، وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن يزيد من بني الضُّـبيب، فلما نزلنا الوادي قام هذا العبد يَحُلُّ رحل رسول الله ﷺ، فرُمِيَ بسهم، فكان فيه حتفه فقلنا: هنيئا له الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا والذي نفس محمد بيده، إن الشَّمْلة (إزار يتشح به) لتلتـهب عليه نارا، أخذها من الغنائم يوم خيبـر، لم يصبها المقاسم**» قال: فـفزع الناس، فـجاء رجل بشراك أو شـراكين (الشراك: سـير من سيور النعل) فقال: أصبتـه يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «**شراك من نار، أو شراكان من نار**»(١).

أيها الأحباب: والسؤال الآن: فما السبيل للنجاة من عذاب القبر؟!

السبيل للنجاة من عذاب القبر:

أقول لك بإيجاز شديد: أعظم سبيل للنجـاة من عذاب القبر أن تستقيم على طاعة الله ـ جل وعلا ـ وأن تتبع هدي النبي ﷺ.

قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾(٢).

ومن أنفع الأسباب كذلك للنجاة من عذاب القبر ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه القـيم (الروح)، قال: ومن أنفعها أن يتـفكر الإنسان قبل نومه ساعـة ليذكر

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥).

(٢) فصلت: ٣٠ ـ ٣٢.

نفسه بعمله، فإن كان مقصرا زاد في عمله، وإن كان عاصيا تاب إلى الله، وليجدد توبته قبل نومه بينه وبين الله، فإن مات من ليلته على هذه التوبة فهو من أهل الجنة، نجاه الله من عذاب القبر ومن عذاب النار.

ومن أعظم الأسباب التي تنجي من عذاب القبر:

أن تداوم على العمل الصالح كالتوحيد، والصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، وحضور مجالس العلم والعلماء التي ضيعها أناس كثيرون وانشغلوا عنها بلهو قتل الوقت.

أيضا من أعظم الأسباب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وكل عمل يرضي الرب فهو عمل صالح ينجي صاحبه من عذاب القبر.

ومن أعظم أسباب النجاة: الشهادة في سبيل الله، ورد في الحديث الذي رواه الحاكم وحسن إسناده الشيخ الألباني أن النبي ﷺ قال: «**للشهيد عند الله ست خصال، الأولى: يغفر له مع أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، الثانية: ينجيه الله عز وجل من عذاب القبر، الثالثة: يؤمنه الله يوم الفزع الأكبر، الرابعة: يلبسه الله تاج الوقار، الياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها، الخامسة: يزوجه الله بثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، السادسة: يشفعه الله في سبعين من أهله**»(١).

ولن أترك حديثي هذا إلا بعد أن أزف إليكم حديثا يملأ القلب أملا ورضا، والحديث رواه الحاكم في المستدرك وصححه وأقره الذهبي وصحح إسناده الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «**سورة الملك، تبارك الذي بيده الملك، هي المانعة، وهي المنجية تنجيه من عذاب القبر**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٣)، والنسائي (١٩٣٧)، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠)، وصححه الألباني.

الخاتمة

إنه لشرف، أي شرف، أن يسلك بعض المؤمنين سبيل المرسلين، وأن يجعلوا الدعوة إلى الله غايتهم التي من أجلها يحيون، وفي سبيلها يجدون ويتعبون، وقد يلحقهم إيذاء الجاحدين، ونكران المعاندين.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسلك نفسي في سلك الدعاة، لعلمي أن الدعوة مهمة عظيمة لا يقوم بها على وجهها إلا من وفقه الله، كما أخبر بذلك نبي الله شعيب في قوله: ﴿**وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾(١).

وكان هذا الكتاب زادا للحاضر والمسافر على السواء، يرى فيه ما يحتاج إليه أيا كانت مشاربه، وأنى سارت به ركائبه، ينتقل فيه بين حدائق غناء، وفصول متنوعة؛ ففصل عن الدعوة والدعاة، وفصل في الحديث عن مدرسة العبادة، والصلاة والزكاة والصيام، وفصل عن الأخلاق الإسلامية وضرورتها، وفصل عن القضايا التي تهم الواقع الدعوى والداعية فيه، وفصل عن الرقائق وشيء عن الدار الآخرة.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يدخر لنا أجره عنده لنفوز به ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) هود: ٨٨.

(٢) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

ثبت المراجع

ـ **الأم**، الإمام الشافعي، تحقيق: د/ رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء.

ـ **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، ابن رشد الأندلسي، دار بدر المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

ـ **تهذيب مدارج السالكين لابن القيم**، شروق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

ـ **حتى لا نغبن**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، شروق، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

ـ **خطب القرضاوى**، د/ يوسف القرضاوي، الجزء الرابع، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م.

ـ **الداء والدواء**، الإمام ابن القيم، مكتبة الإيمان ـ المنصورة، د.ت.

ـ **رسائل شباب الدعوة**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، شروق ، للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

ـ **رسائل فتيان الدعوة**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، شروق للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

ـ **زاد المعاد فى هدي خير العباد**، الإمام ابن القيم، دار بدر، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

ـ **سبل السلام شرح بلوغ المرام**، الإمام الصنعاني، شروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

ـ **السلام العالمى والإسلام**، الأستاذ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ـ **طريق الأمناء لتحقيق الوفاء**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، مؤسسة الكلمة ـ الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

ـ **طريق الدعوة الإسلامية**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، شروق اللنشر

والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

ـ **الفوارق تتجلى فى واقعنا الدعوي**، طارق الحسين، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ـ **فتح البارى شرح صحيح البخارى**، الحافظ ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية.

ـ **المجموع**، للإمام النووى.

ـ **مختصر منهاج القاصدين**، ابن قدامة المقدسى، أندلسية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

ـ **المرأة الداعية**، د/ محمد موسى الشريف، دار الأندلس الجديدة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

ـ **معاناة قلم وكلمات أمل**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، مؤسسة الكلمة ـ الكويت.

ـ **المغني**، ابن قدامة المقدسي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ـ **نقوش على جدار الدعوة**، د/ جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، شروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

ـ **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، الإمام محمد بن على الشوكانى، دار الوفاء، الطبعة الرابعة ٢٠٠٨م.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

أخلاقنا

الفصل الرابع

قضايا ودروس في المواجهة

الفصل الخامس

الرقاق

هذا الكتاب

كما يظهر من اسـمه فهو زاد يتبلغ به الحاضر والمسافـر، يغنيه عن الكثير من المؤلفات، لما يحويه من موضوعات متنوعـة، تثري عقله، وتشبع عاطفته، يطوي به المراحل، ولا يتسرب الملل إلى نفسه.

وقد حرصـنا في هذا الكتاب أن يكون وافيًا باحـتياجات القـارئ، أيا كانت مشاربه، وأني سارت به ركائبه.

تقرأ فيه فـصلا عن الدعوة والدعاة ومتطلبات الدعوة الإسلامـية، وواجبات الداعية، والدعوة الفردية ، والدعوة النسائية ومعوقاتها.

وفصـلا آخر عن مـدرسة العبـادة وتتنقل فيـه بين الصلاة والزكـاة والصوم، والأعياد، والإنفاق والصدقة.

وفصـلا ثالثًا عن الأخلاق وضرورتهـا، تقرأ فيه عن حـسن الخلق والأخوة، والأمـر بالمعروف والنصـيـحة، وغض البـصـر، ومحـاسـبة النفس والمجـاهدة، والثبات. . . إلخ.

وفصلا رابعًا عن قضايا ودروس في المواجهة، وتقرأ فيه عن تطبيق الشريعة، وخلاف الـفرعـيات وتفـرق الأمة، وتوحـيد الأهلة، وأمـتنا الموءودة على أرض فلسطين، والأسرة المسلمة في وجه التحديات، وأحكام السفر المباح. . . إلخ.

ويأتي الفصل الخامس للحديث عن محبة الله تعالى والخوف منه، والدعاء، والزهد، والبكاء من خشية الله، وعذاب القبر. . . إلخ.

والله ولي التوفيق

هـذا الكتـاب

الكتاب - كما يظهر من اسمـه - زاد يتبلغ به المسـافر فى أسفاره ، يغنيه عن الكثير من المؤلفات ؛ بما يحويه مـن موضوعـات متنوعـة تثـرى عقله وتشبع عاطفته ، يطوى به المراحل ولا يتسرب الملـل إلى نفسـه وقد حرصنا فى هذا الكتاب أن يكون وافيا باحتياجات القارئ أيا كانت مشاربه ، وأنى سارت به ركائبه تقرأ فيه حديثا عـن : الدعوة والدعاة فى منهج القرآن ، وبعض الشبهات التى يثيرها أعداء الدعـوة فى وجـه الدعاة ليصرفوا وجوه الناس عنهم وعن دعوتهم ويثبطوا همم الدعاة كما يقدم زادا طيبا للدعاة إلى الله يبين لهم كيفية التعـامل مـع الناس وأصنافهم وفن التعامل معهم ، كمـا يوضح أساليـب الدعـوة ووسائلها والمحاضن التربوية التى تبقى جذوة الإيمان متقدة فى قلـب الداعية . وتجد فيه حديثا عن قيم العزيمة من قيم هذا الدين مثـل : الأخوة ؛ حقيقتها ومكانتها ، وسبل تحقيقها . غض البصر ، المجاهـدة ، حسن الخلق ، الثبات ، قيام الليل ، الخوف من الله تعالى ، الثقـة بالله سبحانه ، صلاح الأمة ، وخيرتها ، أخلاق جيل النصر .... وغيرها الكثير ممـا يشغل بال المسلم فى كل زمان ومكان .

والله ولى التوفيق

مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت : ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦ ص. ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com